دانييل ستيل

حُبٌّ كبير

« تيتانيك »

(رواية)



دانييل ستيل

حُبٌّ كبير
«تيتانيك»

(روايـــة)

ترجمة:
ميشيل خوري

دار الفاضل
للتأليف والترجمة والنشر
دمشق ١٩٩٨

العنوان الأصلي للكتاب

باللغة الفرنسية: **UN SI GRAND AMOUR**

باللغة الانكليزية: **NO GREATER LOVE**

دار الـــفاضل آلت على نفسها إصدار الكتاب الجيد والجاد والمميّز في المضمون والشكل، وفق خطتها العلمية المحددة والثقافيـــة المنفتحة على جميـــع تيارات الأفكار والاتجاهات دونما تعصب. وهي تتوخّى المــــوضوعيـــة وتـنوّع المعارف في إصداراتها المختلفة التي تشمل مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية والآداب والفنون والتي يقوم بها المؤلف الأصيـــل والمترجم المتخصص القدير. وترجو دار الفاضل أن تكون مكان لقاء وتعاون وتركيز.

دارُ الفَاضِلْ
مؤسّسة ثقافيّة للتأليف والترجمة والنشر
دمشق ــ شارع الحمراء ــ دخلة الحلواني ــ بنـاء الطيبي ــ طابق ثالث
هاتف : ٢٢٢٣٦٥٧ ــ فاكس : ٢٢٢٠٠٩٤ ــ تلكس : ٤١١٢٠١
ص.ب : ٣٨٦٠ ــ دمشق ــ برقياً : فـاضلدار ــ دمشـق

إلى بيـــاتريس

التي تبهجني رقّتـــــها وتذهلنـــي.

فليقدّر لك، يا ابنتـــــي العزيــزة،

أن تقودي سفينة حيـــاتك إلـــى المرفـــأ الأميـــن

وأنت محاطـــــة بالأصدقـــاء

فوق بحر هـــــادئ ومشـــمس.

وإنْ فاجـــأتك العاصفـــة

تذكّري، عندئذ، كـــــم نحبـــك

وإلى جـــون

الذي أحبُّه كثـــــيراً

ولن أتوقف عن منحه مثـــل هـــذا الحـــب الكبـــير

من كل قلبي، وإلـــــى الأبـــد.

د.س

-I-

١٠ نيسان ١٩١٢

ترجحات النواس المهيب المزخرف الذي يعلو حافة المدفأة، بتكاته الرتيبة، وحفيف مناشف السفرة بكتانها الملبد، وحدها تكسر الصمت هنا وهناك، رغم وجود أحد عشر شخصا في قاعة الطعام الفسيحة. فقد كان البرد فيها شديدا، حتى أن إدفينا تكاد لا تتمكن إلا بصعوبة من تحريك أصابعها، ورنقت بنظرها على خاتم خطوبتها المتلألئ في النور الصباحي قبل أن تلتفت إلى والديها الجالسين على الطرف الآخر من المائدة. وابتسمت الفتاة فوالدها يبدو بمظهر جاد، وعيناه غارقتان في محتوى صحنه، لكن طيف ابتسامة غير منظورة، ملأى بالسخرية تلوح على ملتقى شفتيه، لا شك أنه ممسك تحت المائدة، بيد والدة إدفينا. والفتاة مستعدة للمراهنة، فهذان الأليفان لا تفوتهما فرصة إلا وينتهزانها للتهامس بكلمات حلوة، أو لتبادل القبل. مما دعا أصدقاءهما إلى القول: «ليس من المدهش أن يكون لهما ستة أولاد».

حافظت كات وينفيلد وهي في الحادية والأربعين من عمرها على مظهر فتاة يافعة: فهي لا تقل رشاقة ونعومة عن ابنتها البكر إدفينا ذات الشعر الأسود اللماع والعينين الزرقاوين الغامقتين، حتى ليحسب المشاهد هاتين المرأتين أختين، وهما في شدة ارتباطهما تعبران عن الجو السائد في عائلة وينفيلد حيث يتعاقب العناق مع تصريحات الحب، والضحكات مع الفكاهات.

كادت إدفينا تتفجر ضاحكة لرؤية أخيها جورج ولهاثه المنتظم يشكل سحبا صغيرة من بخار في الجو الجليدي، فقد حلا لزوج خالتها أن يحافظ على درجة حرارة شبه قطبية في قصره الريفي، بينما أبناء وينفيلد الذين نشؤوا تحت سماء كاليفورنية، ذات المناخ المعتدل لم يألفوا عدم الراحة، وقد قاموا بهذه الرحلة الطويلة من سان فرنسيسكو،

قبل شهر، ليعلنوا للخالة ليز وزوجها ربر RUPERT خطبة إدفينا على شاب إنكليزي. وهكذا أعاد التاريخ نفسه. فمنذ ربع قرن وافقت إليزابيت أخت كات على خطبة ربر، اللورد هيكام البريطاني الأصيل، وغدت سيدة هافرمور مانور فيكونتة، ورافقت زوجها النبيل إلى المملكة المتحدة. كانت في الحادية والعشرين من عمرها آنذاك، وكان زوجها النبيل يزيدها بثلاثين عاما، وقد أغرمت به عندما كان في رحلة ترفيهية مع أصدقائه على الشاطئ الغربي للولايات المتحدة. وبعد عشرين عاما لم يستطع أبناء وبنات أختها إدراك سبب إعجاب خالتهم بهذا الرجل المتعجرف الفظ، الذي يقطر ضيافته بالقطارة، فمنذ وصولهم لم يبد على شفتيه المزمومتين طيف ابتسامة، ويبدو بداهة أن وجود هذا العدد من الأولاد المشاغبين قد أغاظه.

ـ كلا إنه لا يكرهكم، عجلت ليز تشرح لأختها موقف اللورد، لكنه غير معتاد على وجود الأولاد هذا كل شيء.

طرح الموضوع لأول مرة، في اليوم الذي وضع فيه جورج خلسة بعض شراغيف الضفدع في كأس جعة رب البيت الذي لم يستلطف هذه الدعابة.

كان السير ربر قد صرف النظر منذ مدة طويلة عن بهجة الأبوة. فقد رغب أن يكون له ابن يترك له ميراثه، عندما كان في سن الشباب. لكن القدر أراد شيئا آخر فالليدي هيكام، زوجته الأولى، بعد إجهاضات عديدة وضعت وليدا ميتا كلفها حياتها. كان ذلك قبل سبعة عشر عاما من زواجه الثاني وللأسف، فإن ليز الزوجة الثانية، بدت كالزوجة الأولى، غير قادرة على إيصال الأجنة إلى موعد الولادة الطبيعي، فرضخ كاتما هذه الضغينة في نفسه. من المؤكد أنه لا يريد أبدا مثل ذرية كات وبرترام، هؤلاء الأولاد غير المحتملين، الذين يشكل نقص اللباقة لديهم شتيمة لقواعد التربية الأكثر بدائية.

كان ما يفتأ يردد على مسمع زوجته: «يا للإزعاج، أي فوضى! وأي تهاون.

آه! إن الأمريكين معروفون بتصرفاتهم السيئة، فليس فيهم ذرة من تؤدة، ولا ظل من توقير، وبالطبع غياب تام لكل نظام. غير أن تأهب إدفينا للزواج بشارل فيتزجرالد عضو الطبقة النبيلة العليا رفع قدر آل وينفيلد في نظر اللورد العجوز، وعندما أنبأته ليز بالخبر عبر عن فرح خفي، وهو يتمتم:

«حسن، لم تخب كل الآمال!»

كان اللورد في السبعين من العمر، ولم يستطع أن يخفي بادرة سخط عندما علم أن العائلة بكاملها ستحل في ضيافته.

أعلنت له ليز بكل بساطة ذات صباح على مائدة الإفطار «دعوتهم إلى زيارتنا».

هتف اللورد مرتعبا: وهل سيأتون جميعا؟

وجاءه الجواب إيجابا. فالواقع أن آل وينفيلد خططوا للمجيء إلى لندن للتعرف على آل فيتزجرالد، وللاحتفال بخطبة إدفينا وشارل.

وهذا أمر طبيعي بالتأكيد، ولكن ما بينه وبين حصار هافرمور مانور، جعل السير ربر يجد مبادرة زوجته مخالفة للصواب. كان عيد الميلاد قد اقترب وحدد موعد وصول المدعوين في شهر آذار، بحيث ترك لرب البيت الوقت ليأتلف مع الفكرة. على الأقل، هذا ما أملته ليز، فهي مشتاقة لأختها، وتذوب شوقا لرؤية أطفال أعزاء يضجون نشاطا وحركة حولها، فحيويتهم تكسر رتابة عيشها، وتحمل شيئا من المرح لهذه الأماكن العابسة، التي بدأت تكرهها بعد أربعة وعشرين عاما من حياة مشتركة مع ربر. نعم إنها بشوق عارم لأختها وذكرى طفولتهما السعيدة تحت شمس كاليفورنية الساطعة تملؤها بحنين فريد.

لم يكن اللورد ربر رجلا سهلا، ولم تعرف ليز إلى جانبه السعادة التي تتوق إليها كل زوجة شابة. فالأرستقراطي الإنكليزي قد بهرها

بهيبته، ولقبه، ومجاملته، وصور لها إنكلترا وكأنها البلد الوحيد المتمدن الجدير بهذا الاسم، وتبعته الأمريكية الشابة مقتنعه أن «كل الطرقات تصل إلى لندن!»

لكن رأي ربة القصر الجديدة تغير سريعا. فالقصر القديم ــ وهو بناء واسع خرب ــ لم يلبث أن ظهر لها كضريح ضخم. وكان ربر يمتلك «مقرا في المدينة» في قلب حي راق من أحياء العاصمة، لكنه لم يسكنه أبدا، وباعه بعد أربع سنوات إلى أحد أصدقائه. لو رزقا أولادا لتغير الحال بالتأكيد. كانت ليز ترغب بحرارة أن تغدو أما، وتؤسس عائلة وتستمع إلى أصوات ناعمة تزقزق بفرح عقب التتابع المغم للقاعات القاتمة، لكن للأسف رفض القدر لها هذه الحظوة. وعلى مر السنين أدركت ليز أن الأمنية الأعز لنفسها لن تتحقق، فرهنت حياتها لرؤية أولاد كات، في أثناء زياراتها النادرة لسان فرنسيسكو، وأخيرا، حرمت حتى من هذه المتعة الصغيرة. فحالة ربر الصحية لم تعد تسمح له بالسفر، وصرح أنه يحس بكثير من التعب في مواكبة زوجته في أثناء رحلاتها. وسمره النقرس والرثية على كرسيه، فهو في حاجة مستمرة للعناية، ووجدت ليز نفسها حبيسة بين جدران القصر الكئيبة. وغدت سان فرنسيسكو بالنسبة لها أرضا موعودة، وحلما بعيدا، وسرابا، أو أمنية اشد اضطراما، فمتى تستطيع العودة إليها؟ ها هي ذي سنوات تمر ولم تزرها، وهذا ما يزيد في نظرها من أهمية زيارة كات وأولادها. قال السيد ربر وقد كان يخشى أن يفكروا بإقامة دائمة:

ــ «بعد كل حساب، يمكنهم أن يبقوا لبعض الوقت». وكانت شاكرة له على هذا التصريح.

بدت الحقيقة أمام ليز أكثر روعة من الحلم، فاللقاء المحدد مع أختها سبب لها فرحا شديدا، والتنزه معها في الحديقة سيملأ نفسها سعادة لم تكن منتظرة. في السابق كانت الأختان متشابهتين كتوأمين، أما الآن فلا. إذ أن كات حافظت على شبابها وجمالها، وهي تبدو

متيمة ببرترام. ومرة أخرى أيضا أسفت ليز لأنـــها تزوجـــت ربـــر، وتساءلت: كيف تكون حياتها لو أنها لم تترك بلادها، وبـــدلا مـــن أن تغدو الليدي هيكام، تزوجت هناك من امريكي.

كم كانتا تبدوان سعيدتين هي وكات! فتاتان شابتان خليتـــا البـــال يعزهما أهلهما ويخصانهما بكل حنان. لن تنسى أبـــدا حفلـــة رقـــص المبتدئات في سن الثامنة عشرة، ولا ما أعقبها مـــن دوامـــة الحيـــاة الاجتماعية: استقبالات ودعوات عشاء، ومسارح ... ثم، وسريعا جدا، دخل ربر حياتها ليقودها إلى الطرف الآخر من العالم. يـــا للغرابـــة، رغم أن ليز عاشت أكثر من نصف حياتها في انكلترة فإنها لم تعتـــد عليها كليا إنها لا تشعر أبدا أنها في راحة منزلية. فهناك قانون صارم يسود هافرمور مانور، وضع وطبق بحذافيره من قبل ربر. نظام ثابت لم تتمكن ليز أن تعدل فيه شيئا. فانصاعت لـــه بشـــعور المدعـــوة لا بشعور ربة المنزل، شعور نســـيبة فقـــيرة دون ســـلطة ولا تـــأثير، تستضاف على مضض، لم تستطع أن تنجب وريثـــا لســـيد المكـــان، فوجودها بالذات فيه يبدو دون فائدة.

كيف يمكن لأختها أن تفهمها، فكات تحوي على وجهها المشـــرق اثنتين وعشرين سنة من السعادة، فهي إلى جانب زوج فاتن محاطـــة بستة أولاد رائعين، ثلاثة صبيان وثلاث بنات، كل واحد منهم أجمـــل من الآخر، في تمام الصحة والذكاء..

وفي رأي ليز. يشكل برت وكات الثنائي المثالي. عاشقان خـــالدان يباركهما الإله، فهما يستحقان قطعا الحظوات التـــي تغمرهمـــا بـــها السماء. ومنذ سنوات لم تستطع ليز إلا أن تغار من هذه الســـعادة التـــي تنعم بها أختها دون شائبة، ولم تحظ بها هي أبدا. لكن غيرتـــها واعيـــة تماما، ليس فيها شيء من الحقارة .... بل بالعكس فكات وبرت ينتزعان إعجابها بلطفهما وطيبة قلبهما. لكن استمتاعهما بالحياة يذكر ليز، بقسوة، بأحلامها الخائبة، وينتابها حنين مر إلى الماضي، فتستعيد مراحل فشلها.

الأولاد الذين لم تستطع إنجابهم، التواطوء العذب مع رجل لم تستطع التعرف عليه، وجميع هذه اللحظات الرائعة التي ينعم بها برت وكات بعذوبة. وهذه الثرثرات، والتمتمات، والوشوشات بينما بالمقابل يخيم الصمت على عيش ليز وربر، والحقيقة أن ليس لديهما ما يقولانه.

لم يبد السيد ربر أبدا أي اهتمام بزوجته، فأراضيه وحدها تستهويه، وهو يصرف جل وقته في تفقد فراخ البط، والديكة البرية، أوالتدرج، أما في الأوقات الماضية، عندما كان اكثر شبابا، فكان يقضي أياما كاملة في الاهتمام بكلابه وخيوله... وفيما بعد دفعته أولى هجمات النقرس إلى أن يشعر بفائدة رفيقة المسكن، وتجلت الوظائف الجديدة لليز في أن تناوله كأس نبيذه، وتقرع بدلا عنه الجرس للخدم، وتساعده في التهيؤ للنوم، بالرغم من أن الجناح الخاص بالزوج كان بعيدا عن جناحها، إذ أنهما سرعان ما انفصلا في مخدع النوم منذ أن علم الزوج أن زوجته لن تستطيع إنجاب ولد له. كلا ليس لديهما شيء يقولانه إلا الملامة، ولا شيء يتقاسمانه إلا الأسف.

كان انبثاق آل وينفيلد في القصر الريفي القديم المنعزل والبارد، بمثابة نسمة ربيعية داعبت محيا ليز، فكأن الستائر الثقيلة المغبرة قد أزيحت عن النوافذ لتسمح لأشعة الشمس الكاليفورنية المذهبة بالمرور.

سمع صوت فواق صغير تبعته همهمة مكبوتة على الطرف الآخر من المائدة في مواجهة الأختين الجالستين من جهة وأخرى من السير ربر الذي تظاهر بعدم السماع وتبادلت المرأتان الابتسام. فليز قد تصابت عشر سنوات منذ وصول مدعويها. ويكفي أن تراهم لتشعر بمعنويات من فولاذ. وقلقت كات بشأنها، فليز تمارس حياة انعزال في هذا القصر الخرب في عمق الريف الإنكليزي الكئيب، قرب زوج صموت يبدو واضحا عدم محبته لها، هذا إن كان قد سبق أن أحبها .. ربما كانت فرحة اللقاء قد أعادت اللون إلى وجنتيها الذابلتين، لكن انتهى كل شيء الآن. فإقامتهم في هافرمورمانور قد مرت بسرعة لا تصدق: فخلال أقل من ساعة سيرحلون، ولا يعلم إلا الله متى يمكنهم

العودة. وقد شجعت كات بكل تأكيد ليز علـــى المجـــيء إلـــى ســـان فرنسيسكو لتساهم في التحضيرات لزفاف إدفينا لكن أختها رفضـــت، فهي لا تتمكن من ترك ربر وحده هذه المدة الطويلة، إنما اســـتطاعت كات أن تنتزع منها وعدا بحضور حفل الزفاف في شهر آب.

عاد الفواق للظهور مرة أخرى على الطرف الآخر من المائدة وكان ذلك بمثابة انفراج تقريبا بالنسبة لكات. ونظرت إلى ألكسيا ابنتـــها ذات الست سنوات. كان جورج أخوها قد مال يهمس في أذنها، لاشـــك أنـــه يروي لها إحدى فكاهاته السرمدية. إذ أن الفتاة أظهرت علائم ضحـــك مكبوت لم يلبث أن تفجر وتمتمت بابتسامة متسامحة:

«صه!» ثم التفتت بنظرها نحو السير ربر.

لئن كانت مائدة الإفطار في بيت وينفيلد تذكر غالبا بميدان قتـــال، فإن اهتمام الأولاد هنا منصب على أن يتصرفوا بلباقة. ولم تحـــدث، والشكر لله، كثير من المشكلات، إذ أنهم ارتضوا أن يذعنوا إلى قواعد اللورد العجوز، كما أن هذا خفف من قيوده مع الأيام، فقد صحب على سبيل المثال لعدة مرات فيليب إلى الصيد، بالرغم من صعوبـــة هـــذه الجولات على اليافع ـــ الذي صرح فيما بعد لوالده أنها كانت تسبب له الضجر ـــ فإن اللورد لم يكن يفقه فيها شيئا. وكان فيليب وهو في سن السادسة عشر يبدو كنبيل حقيقي صغير، فهو مثال التربيـــة القويمـــة، والتهذيب، يبادر الآخرين بتقديم العون والمودة مما يدهش بالنسبة لفتى في مثل عمره. وهو بين أخوته وأخواته الأكـــثر تحمـــلا للمســـؤولية باستثناء إدفينا بالطبع... لكن إدفينا في العشرين من عمرها، وخـــلال خمسة أشهر سيكون لها زوج وبيت، ودون شك ستغدو أم طفل فـــي العام التالي. فكرت كات مندهشة من إحتمال أن تغدو جدة في العـــام القادم: «نذهل عن رؤية الأطفال يكبرون».

سيعودون إلى الولايات المتحدة لبـــدء الاســـتعداد لحفـــل الزفـــاف وسيرافقهم شارل، الشاب الوسيم ابن الخامسة والعشرين، والمتيم بإدفينـــا

بعد أن تعارفا في سان فرنسيسكو، وبدأ غرامهما منذ الصيف الماضي.

سيحتفل بالزواج في شهر آب، لكن يبدو لكات أن الوقت يزحمها. فهناك أشياء كثيرة يجب القيام بها، وتنظيمها والإعداد لها. وفكرت وهي تستعرض عشرات أمتار أورغاندي الحرير العاجي المشترى من لندن والتي ستحمله ابنتها مع أمتعتها، كم سيكون ثوب العروس رائعا، حيث سيقوم خياط كات ـ وهو الأفضل على الشاطئ الغربي ـ بتطريزه بلآلئ صغيرة أما الطرحة فقد عهدت السيدة فيتزجرالد والدة العريس بإعدادها إلى إحدى المصممات الباريسيات، وستحملها معها إلى سان فرنسيسكو عندما ستحضر هي وزوجها في بداية شهر تموز... وتنهدت كات، نعم أمامها أعمال كثيرة، يكفي ما يسببه إعداد قائمة المدعوين من إشغال فكر! فهي تعمل بها مع إدفينا منذ اكثر من شهر، فبرترام وينفيلد، وهو مالك الصحيفة الأكثر شعبية في المنطقة يحظى بحلقة واسعة من العلاقات، وقد سجلت الأم والابنة خمسمئة اسم حتى الآن ولم تنتهيا. واستغرق شارل في الضحك عندما أنبأته إدفينا بأن، القائمة ما تزال في ازدياد يوما بعد يوم وقال: «لو أن الزفاف في لندن لكان الأمر أسوأ، فقد شهد حفل زواج أختي منذ سنتين سبعمئة مدعو، وكنت في تلك الفترة ما أزال. مع الشكر لله، في دلهي.

ما فتئ شارل يسافر خلال السنوات الأربع الأخيرة، فبعد إقامة سنتين مع الجيش البريطاني الموجود في الهند، انتقل الشاب في زيارة إلى أصدقاء له في كينيا. كانت قصص رحلاته تفتن إدفينا، وقد رجت خطيبها أن يأخذها في رحلة شهر العسل إلى أفريقية. لكنه لم يرد ذلك، ففي رأيه أن هذه المناسبة تحتاج إلى جو اكثر إشراقا، وفي النهاية تم الاتفاق بينهما على سياحة أكثر كلاسيكية: سيقضيان الخريف متنقلين بين فرنسة وإيطالية، ليلتحقا بعدها بلندن حوالي عيد الميلاد. كانت إدفينا تأمل في سرها أن تعود من رحلة شهر العسل حاملا فهي تحب بشغف شارل، وترغب بحرارة أن تنجب منه أولادا،

أولادا كثيرين كما الأمر مع أبويها. أوه! سيكونان سعيدين معا، لاشك في ذلك، بمثل سعادة ذويها. إذ أن الفتاة الشابة ترى في حياة كات وبرت الحياة المثالية التي تستحق أن تعاش. من المؤكد أن صفاء سماء سعادتهما لم تحافظ دائما على زرقتها. وتخللتها أحيانا بعض غيوم عاتية، وعندها كانت الثريات في البيت الكاليفورني الواسع ترتعش، فلكات شخصيتها، وبرترام ليس سهل القياد. ولكن في احتدام الإعصار يلحظ تغاضيهما، وفي صميم المشاحنة يلتمع قبس حنان ليهدئ فجأة فورة الغضب في عين كات، ويهتز صوت برت بنغمة دافئة فيعلمان أن حبهما انتصر على نزاعهما. هذا تماما ما تتمناه إدفينا عندما ستغدو زوجة لشارل... فبفضل ثروة شخصية كبيرة نجا الشاب حتى الآن من ضرورات العمل، وفي يوم سيحل محل والده في مجلس اللوردات. لكن إدفينا التي أعطتها درسا خيبة أمل خالتها ليز قرب السير ربر النزق، تفضل الضمير الخلقي لخطيبها على بريق اسمه، أو على الأرزاق المادية التي سيرثها فيما بعد.

كان شارل فيتزجرالد كخطيبته، نصيرا للعائلات الكبيرة العدد، وكان يردد ضاحكا: «نصف دزينة» من الأولاد. كان آل وينفيلد قد رزقا سبعة وفقدا صبيا في أول مراحل الطفولة، هو من ولد بعد إدفينا وقبل فيليب، وأثار موته المبكر حساسية هذا الأخير، بينما لم يتأثر منها جورج. فابن وينفيلد الثاني يبدو بعكس أخيه البكر قد وضع اللامبالاة شعارا لحياته، وبدا، وهو في سن الثانية عشرة، أنه يعتقد، بكل جد، بأن مهمته في هذه الدنيا أن يلهو، فكان يزعج دون شفقة أخواته، ولا يتردد في إغضاب أخيه بدعابات من جميع الأنواع: سحب غطاء السرير إلى جهة واحدة، ووضع علاجم ضفدع في أسفل حذائه، ذر فلفل حار في قهوته الصباحية ـ هذه هي بعض القصص التي يحلو له أن يبدأ بها نهاره كما يقول. وكان فيليب يتحمل هذه التهريجات بكل أناة وصبر. ولسبب لا يعرفه أرسلت العناية الإلهية

جورج على الأرض ليرهقه بمضايقاته. ويكفي أن يلاحظ فيليب إحدى الفتيات ويبدأ بالتقرب إليها حتى يهرع أخوه الأصغر إلى مساعدته، ويقضي الأخوان في هذا الشأن الليل والنهار. وبينما كانت الجرأة تنقص فيليب، كان جورج يتميز بالتهور. وعلى المركب الذي أقلهما من أمريكة، غالبا ما صادف برت وكات بدهشة أشخاصا يلقون عليهما ببشاشة التحية وهم يقولون: «إذا أنتما والدا جورج!»

لكن سعف الخجل تعود دون نزاع إلى ألكسيا، وهي الولد الرابع بين أبناء وينفيلد، مخلوقة جميلة صغيرة بخصيلات شعر شقراء فاتحة تكاد تصل إلى البياض، وعينين واسعتين زرقاوين فاتحتين تتجلى فيهما الدهشة، خلافا لجميع أخوتها وأخواتها ذوي الشعر الأسود والأعين الزرقاء القاتمة كعيون والديهم.

وإذا كان الجن قد وضعوا الخبث والجرأة في مهد جورج، فإنهم منحوا ألكسيا شيئا يتميز بالندرة والرقة، فأينما ذهبت يفتتن الناس بجمالها الأثيري. وللحظة تكون هنا بجمالها كملاك، لتختفي بعد ذلك، ثم لتظهر مجددا صامتة هادئة، كان برت وكات يناديانها «بطفلتهما» بالرغم من أنها ليست أصغر أولادهما، ذلك أنهما يحسان شيئا خاصا يربطهما بها. كانت ألكسيا قليلة الكلام، لا تتوجه عمليا به إلا إلى أهلها، ولا تنفتح إلا داخل شرنقة العائلة. وهي تقضي في المنزل ساعات كاملة تجمع أزهارا من الحديقة تجدلها أكاليل «لشعر أمها» فأمها وأبوها هما كل شيء بالنسبة لها، إلى جانب أنها تبدي مودة كبيرة لإدفينا ... تأتي بعد ذلك فرانس، ابنة الأربع سنوات والكل ينادونها بفاني، وهي ابنة رائعة تضج وجنتاها بالحياة والابتسام وقد ورثت عن أبيها طبيعته الرضية، وآخيرا تيدي أخر العنقود، ملاك في الثانية من العمر، ترن ضحكاته في كل مكان وخاصة عندما تحاول أونا، الفتاة العاملة لديهم، عبثا أن تمسك به، وأونا فتاة من أصل إيرلندي هاجرت إلى الولايات المتحدة وهي في الرابعة عشرة من

عمرها، وهي الآن في الثامنة عشرة، تلوم سيدتها لأنها «تزيد من دلالها لتيدي» وتقبل كات ملاحظتها ضاحكة... فحبها كبير، وعلى السواء لجميع أولادها.

كانت تدهش أحيانا لرؤية أولادها، وقد ولدوا ونشؤوا في كنف ذات العائلة، وهم بمثل هذا الاختلاف، بعضهم عن الآخر، فلكل منهم شخصيته المتميزة، وخاصة الأكبر عمرا، وقد لاحظت كات هذا أكثر من مرة: فيليب العاقل، وجورج اللامبالي، وإدفينا الشجاعة... إدفينا التي كانت دائما مثالا في اللطف والتضحية. إدفينا التي تفكر دائما بالآخرين قبل أن تفكر بنفسها... وواقع أنها صادفت شارل سبب لكات انفراجا حقيقيا، فإدفينا تستحقه، وقد كانت الفتاة خلال السنوات الماضية يد أمها اليمنى، والآن ها هي ذي أخيرا تتهيأ لتكون لها عائلتها الخاصة.

كان قلب كات ينقبض عندما تفكر بأن ابنتها العزيزة ستذهب لتعيش على الجانب الآخر من الأطلسي، كانت قد عرفت هذه الحسرة في السابق، عندما أبحرت أختها ليز إلى لندن، قبل سنوات عديدة. لكن إدفينا ستكون بالتأكيد أكثر سعادة من ليز.. فشارل ليس فيه شيء شبيه بالسير ربر السكوت، وهو شاب مليء بالجاذبية، وذو قلب من ذهب. ولا تشك كات أبدا بأنه سيكون زوجا رائعا.

كان آل وينفيلد على موعد مع شارل قبل الظهر على رصيف «هوايت ستار لاين» الشركة البحرية التي نظمت لهم هذه الرحلة، وقد رضي الشاب أن يرافقهم، لأن برت طلب منه ذلك كهدية خطوبة لإدفينا، وكذلك لإن ابتعاده عنها لمدة أربعة أشهر حتى يوم زواجها هو فوق طاقته. وسيستقلون مركب الاحلام، أكبر باخرة بنيت حتى هذا التاريخ، وهي تستعد للقيام بأول رحلة لها. وهي فرصة تثير النشوة وتحفز لاقتناصها.

كانت التكات الرتيبة للنواس المهيب المزخرف تملأ قاعة الطعام الواسعة الباردة. والإفطار قارب نهايته. وبدأت ألكسيا بالقهقهة بتأثير

الكلمات التي يلقيها على مسامعها بصوت منخفض هذا الفكه جـــورج، وبرترام يتماسك حتى لا يتفجر بدوره ضاحكا. وعندئذ نهض السير ربر منهيا جلسة المائدة، وتنهدت كات. فهاهم أحـــرار... ونـــهض برتـــرام بدوره، ودار حول المنضدة الأثرية ويده ممدودة إلى مضيفه، وحيا هـــذا عديله بحرارة صادقة. والواقع شق عليه أن يفترق عنه مدعووه إذ قـــدر ظرف برترام، ووجد كات خفيفة الروح، أما الأولاد فإنهم أثاروا بعـض تحفظه، ولكن ما من إنسان يمكن أن يدعي الكمال على هذه الأرض.

قال برترام: كانت هذه الأيام التي قضيناهـــا بصحبتكـم عـــامرة بالمتعة، سير ربر، نأمل أن نحظى بزيارتكم لنا في سان فرنسيسكو.

كان يعني ما يقول تقريبا.

ورد اللورد العجوز: «للأسف، يا عزيزي، لا أستطيع»...

وطمأن هذا الجواب ليز فهي تفضل الذهاب وحيدة إلى حفل زفـاف ابنة أختها. وربة القصر لم تعد تطيق الانتظار بل إنها اختارت ثـــوب المناسبة برفقة كات وإدفينا من أحد المتاجر الفخمة في لندن.

وأكد برت مجددا للورد: إن غيرت رأيك حتى ذلك الحين، فعلـــى الرحب والسعة.

وتبادل الرجلان مجددا المصافحة، وبدا طيف ابتسامة على شـــفتي ربر. كان مسرورا لمجيئهم، وبعد كل حساب، إنه ليس مســـتاء الآن من رؤيتهم يرحلون.

قال اللورد ربر وقد أبرقت لثانية من الزمن شرارة حاســـدة فـــي عمق حدقتيه الباهتتين: «اكتبوا لنا لإعلامنا كيف تمت رحلتكم علـــى هذه الباخرة الرائعة عابرة المحيط. »

لم تشعر ليز، لمرة، بأية غيرة تنتابها، فـدوار البحـــر الـــذي تعـــاني منه كان يسمرها دائما فـــي قمرتـــها وهـــي لا تســـتطيع الآن التفكـــير برحلتها في شهر تموز إلا وتنتابها قشعريرة رهبـــة، وســـألت:

ــ هل ستنشر وصفا عن رحلتكم في صحيفتك يا برت؟

وابتسم برترام، فهو لا يوقع، إن صح القول، أبدا أي مقال في صحيفته، لكن المناسبة في هذه المرة تستحق الخروج عن المألوف. وتمتم:

ــ ربما، ربما، سأرسل لكم نسخة عن العدد.

وبينما كان الرجلان يتقدمان نحو باب الخروج وهما يتحدثان. كانت كات وليز وأونا يوجهن صغار وينفيلد نحو قاعة الحمام للاعتناء بزينتهم وهندامهم قبل الرحيل.

كان الوقت ما يزال مبكرا، فشمس الصباح الشاحبة لم تعل كثيرا فوق الهضبة وليس لديهم إلا ثلاث ساعات للوصول إلى سوثمبتون. وكان السير ربر قد كلف حوذيه واثنين من العاملين في إسطبله لإيصال المسافرين إلى وجهتهم في ثلاث عربات مختلفة. وقام الخدم بجمع بقية الأمتعة في حقائب، بينما كانت صناديق السفر الرئيسة قد أرسلت بالقطار منذ ليلة البارحة وسيجدونها في قمراتهم على الباخرة.

تمت بقية الإجراءات بسرعة، خلال دقائق أخذ الأولاد أماكنهم في العربات، وجلست إدفينا وفيليب وجورج في العربة الأولى، وأونا وفاني وتيدي الصغير في الثانية. أما كات وبرت وألكسيا فمنحوا حق امتطاء «السيلفر غوست» الخاصة برب المنزل. واقترحت ليز أن ترافقهم لكن كات أبت ذلك فالرحلة طويلة، وسيكون من المتعب لها أن تعود بمفردها إلى القصر.

تعانقت الأختان لمدة طويلة وخالج ليز شعور غريب شد على حلقها، فغصت وهي تقول وعيناها مبللتان بالدموع: انتبهي إلى نفسك، سأشتاق لك، سأشتاق لكم جميعا...

وضعت كات قبعتها الأنيقة الصغيرة على رأسها ــ وهي هدية برت لها من لندن ــ وأجابت ضاحكة:

سيمر الوقت سريعا يا ليز، سترين، وسيحل شهر آب بأسرع مما تتوقعين.

إلى اللقاء قريبا يا عزيزتي، في المنزل!..

ثم قبلت أختها على وجنتها، وتراجعت. يا الله كم تبدو ليز حزينة، ومنكسرة. وللمرة الأخيرة رددت كات في خاطرها صلاة خفية «يا الهي إجعل زواج ابنتي أكثر سعادة من زواج أختي».

وحض السير ربر بلهجة فظة الحوذيين على الانطلاق قائلا لبرت وهو ينحني على نافذة عربته:

ـ سينطلق المركب عند الظهر أليس كذلك؟

ـ نعم وما يزال لدينا متسع من الوقت.

كانت الساعة السابعة والنصف من يوم ١٠ نيسان ١٩١٢.

قال اللورد لاهثا بينما كانت العربة الأولى تنطلق وقد انبعث صوت صرير عجلاتها:

ـ إذا، رحلة طيبة، إنها باخرة مدهشة، روعة حقيقية.

وانطلقت العربة الثانية ثم الثالثة. ولوحت كات لأختها مودعة من خلف الزجاج وهتفت ليز بصوت قوي علـه يتغلب على صوت المحرك «أحبكم كلكم!».

وتلاشت كلماتها.. ومسحت دموعها وأخذ قلق غريب يسيطر على نفسها. وحاولت أن تبتسم وهي تتبع السير ربر إلى الداخل، لكنه كان قد أغلق على نفسه باب مكتبه كما اعتاد أن يفعل في الفترات الأخيرة.

وتوجهت ليز عندئذ إلى قاعة الطعام، وعلى عتبة بابها راحت تتأمل الكراسي الفارغة حول الطاولة البيضوية الثقيلة. واخترق فؤادها إحساس مرعب ممض بالعزلة.

-II-

توقفت (السلفر غوست) التي تتصدر قافلة عربات اللـــورد هيكـــام أمام سلم صعود مسافري الدرجة الأولى، ومن العربـــــة الثانيــــة راح جورج يقفز من فوق مقعده مفسحا المجال لحماســـــه، وهـــو يـــهتف وسبابته تشير إلى الباخرة الضخمة ذات المداخن الأربع: إدفينا! فيليب! انظرا هذا المشهد!

صاح به أخوه آمرا: مالك؟! إهدأ.

كان فيليب بعكس جورج المفرط في حيويته، قد نقب بعنايـــة فـــي الصحف والمجلات، وعرف كل شيء عن الموضـــوع، فالصحافـــة العالمية حيت ببوادر الإعجاب إنزال أكبر بـــاخرة فـــي العـــالم إلـــى الماء... ما من مركب يمكنه أن يزدهي بمثل هذه الأبهـــة حتـــى ولا **الأولمبيك** الشقيقة التوأم التي خرجت مـــن ذات الورشـــات البحريـــة وأطلقت بمظاهر الإنتصار قبل ذلك بعدة أشهر.

ألم يلقبها الصحفيون: «الباخرة ــ الأعجوبة» أو «نهاية النهاية فـي الترف» أو «خاصة أصحاب الملايين»؟ ولكن ما من صفـــة، مـــهما غالت في التفضيل يمكن أن تلخص بحق بهاء **التيتانيك**.فالمشاركة في رحلة تدشينها تمثل نعمة، وحظا خارقا، وحظوة نـــادرة قـــد قدرهـــا فيليب، بينما كان جورج يرمق الباخرة، وعلائم الدهشة تبـــدو علـــى محياه، فهو لم يشاهد في حياته شيئا بمثل هذه العظمة.

كان برترام وينفيلد قد حجز جناحا على الجسر «ب»، هـــو حليـــة صغيرة حقيقية، مجهز بنوافذ بدلا من الكوى، وبأثاث أنيق من طـــراز إنكليزي، وفرنسي وهولندي، وشركة «النجم الأبيـــض» لـــم تبـــال بالنفقات، والحجرات المحجوزة لآل وينفليد تشبه تلك التي تتجمع فـــي شقة واسعة مريحة.

شارك جورج فيليب غرفته، واشتركت إدفينا مع ألكسيا، ورقدت أونا مع الصغيرين، واحتفظ برت وكات بأوسع الغرف وهي تلاصق حجرة صهرهما المقبل المترفة: شارل فيتزجرالد.

قال جورج في نفسه، وهو لا يهدأ في مكانه: «كم ستكون ممتعة هذه الرحلة البحرية!»

واندفع من باب الممر الداخلي منطلقا نحو قاعات هذا القصر العائم، لكن يد فيليب أمسكت بذراعه لتجعله يعود على أعقابه.

ــ مهلا أيها الشاب، إلى أين أنت منطلق هكذا؟

ألقى جورج نظرة غيظ على فيليب وهو يقول: «كأنني أسمع صوت ربر زوج الخالة!»

ــ لا يهم، لكن سيسرني بقاؤك في مكانك إلى أن يأذن لنا والدنا بالصعود..

وبنظرة خاطفة من فوق كتف أخيه لمح جورج أخته ألكسيا تجهش بالبكاء. خلال تلك الفترة، كانت أونا تهتم بأمتعة الصغار، بينما قامت إدفينا بمساعدة كات على النزول من العربة، وسمح برت لمستخدمي السير ربر بالمغادرة. هذا هو بالضبط الوضع الفوضوي الذي يميل إليه جورج بصورة خاصة، وقد كان يتهيأ للهرب، إنما للأسف كان فيليب له بالمرصاد، حازما كالعادة.

ــ يجب عليك أن تهتم بتيدي.

تنهد جورج منزعجا وقال: «يا إلهي جنبني هذه الكأس!.

ما من شيء ادعى إلى نفوره من إلزامه فجأة بتحمل مسؤولية رعاية أخيه الطفل، وتوجه بنظره من جديد نحو ظل **التيتانيك** الشامخة.

كان الفتى المتحمس يتحرق شوقا ليكتشف كل زاوية فيها، لكن مرة أخرى كان أخوه المنكد بالمرصاد لإيقاف مشروعه الجامح.

ــ هيا عبر لمرة واحدة عن استعدادك للقيام بخدمة معينة.

واقترب جورج على مضض من أخويه الصغيرين، بينما ذهب فيليب ليساعد برت في تجميع الأمتعة، ولاحظ من طرف عينيه إدفينا تميل على ألكسيا قائلة: هيا يا صغيرتي لا تكوني حمقاء...

وجثت إلى جانبها على الرصيف، بثوبها الصوفي الأزرق الفاتح الذي لم يسبق لها ارتداؤه إلا عند تعرفها على ذوي شارل، وتابعت كلامها تطمئن أختها وهي تشير بحركة واسعة مهدئة نحو عابرة المحيط:

«انظري، إنها كفندق كبير، كبير جدا ولا شيء غير ذلك، أترين؟ بعد بضعة أيام سنكون في نيويورك، ومنها سنأخذ القطار إلى سان فرنسيسكو.

هرعت الفتاة الصغيرة، المرتعبة من حجم الباخرة الضخمة، للتعلق بأذيال ثوب أمها بعد أن تخلصت من عناق أختها لها.

سألت الأم: ما لها؟

على رصيف الركوب المزين بالأعلام، كانت مجموعة من الموسيقيين قد شرعت تعزف أولى إيقاعات موسيقى جاز مرخمة، وضاعت تفسيرات إدفينا في الضجيج.

لحسن الحظ، لم يغال منظمو رحلة «النجم الأبيض» في العزف الصاخب، مما مكن السيدتين من التفاهم.

قالت إدفينا بصوت منخفض: إن ألكسيا خائفة.

هزت كات رأسها. هذه الصغيرة لم تتغير، ليس فيها، بالتأكيد شيء من حب المغامرة، فأقل تغيير في مجرى حياتها يعتبر بالنسبة إليها بمثابة انقلاب، وكل ما هو خارج عما تعودت عليه يشكل مصدر ذعر لها، وخلال رحلة الذهاب على متن **موريتانيا**، المركب الأكثر تواضعا ذرفت الفتاة الصغيرة كل ما حوت عيناها من الدموع.

ـ إنني خائفة يا أمي، إنني خائفة من أن أسقط في الماء!

انحنت كات، وعبر قفاز الدانتيل، داعبت يدها برقة رأس ابنتها الأشقر، وهمست في أذنيها ببعض كلمات تضمنت على ما يبدو، وعدا

عذبا، افترت على أثره شفتا الفتاة الحردتان، للحظة فقط، بابتسامة باهتة، فألكسيا ،ستحتفل خلال عبور المحيط ببلوغها السادسة من العمر.

ـ سنقيم حفلة صغيرة بهذه المناسبة، أموافقة أنت يا ملاكي؟

أجابت الصغيرة: «موافقة» لكن ما كادت تلفظ هذه الكلمة حتى طفرت دموع جديدة من مقلتيها، وانساحت تبلل خديها.

قالت منتحبة: «لا أريد أن أسافر على هذا المركب!»

لكن ما كادت تقول هذه العبارة حتى كانت يدان قويتان ترفعانها عن الأرض لتجد نفسها جاثمة فوق كتفي والدها المربعتين، وهو يخاطبها قائلا: «كيف لا تريدين السفر عليه يا كنزي الغالي! من المؤكد أنك لا تودين البقاء في انكلترة دوننا، أليس هذا صحيحا؟.

هيا تعلقي بعنق والدك الطيب، أتعلمين ماذا رأيت هناك على الجسر؟ فتاة صغيرة جميلة بمثل عمرك، ستغدو بالتأكيد أفضل صديقة لك.

توقفت ألكسيا أخيرا عن البكاء، وتأبطت كات ذراع برت وصعد الزوجان السلم يتبعهما باقي أفراد العائلة. وما أن وصلوا إلى ظهر الباخرة حتى أنزل برت ألكسيا عن كتفيه، وأوقفها على الأرض، وسار الجميع باتجاه السلم الكبير ذي الدرابزين الحديدي المطرق الذي يقود نحو سطح السفينة العلوي، وعند مرورهم أمام الملعب الرياضي انتهزوا الفرصة ليشاهدوا الجمل الميكانيكي الشهير الذي تحدثت عنه الصحف مطولا.

كان على السطح العلوي جمع غفير. وجمهور متراص بأزياء وألوان مختلفة يسير في مختلف الاتجاهات، وهو يبدي إعجابه بالمشرب الفخم والقاعة الفسيحة الحاوية على خمس بيانوهات، والحواجز ذات المأطورات الخشبية الملبسة والمزينة بالنقوش، والثريات بزخرفاتها الكثيفة، والستائر المتهدلة بطياتها العديدة. والسجاجيد الناعمة المهفهفة، مما أثار دهشة الإعجاب لدى الجميع بمن فيهم ألكسيا. وهكذا قاموا بدورة تفقدية قبل أن يتوجهوا إلى الجسر «ب» بحثا عن جناحهم وغرفهم.

تمتم برت في أذن زوجته: «إنها ألف ليلة وليلة».

وابتسمت كات وهي تقول في نفسها، والابتسامة تبرق على شفتيها: «يا إلهي، أي حظ سعيد في أن نكون معا على هذه الباخرة».

كانت تفكر بأن تعهد إلى أونا بمهمة العناية بالطفلين، لتتمكن من الاستمتاع كليا بهذه الرحلة العابرة، بينما كان برت يرقب عبر الزجاج قاعة التدخين الضخمة، لكن كات هزت تحت أنفه إصبعا ناقدا وهي تتمتم باستهجان: «لن تهرب مني في ضباب السيكار يا برت وينفيلد، وأنا أعتقد أنني سأكون شغلك الشاغل طوال الوقت.

ورد على ابتسامتها بالقول: «تريدين أن تلمحي إلى أن شارل وإدفينا لن يكونا العاشقين الوحيدين على متن هذه الباخرة؟

ردت وابتسامة ممتلئة بإغراءات لطيفة: «هذا ما أرجوه بكل تأكيد» وداعبت بأطراف أصابعها وجنته.

توجه الأب مخاطبا أولاده: انتبهوا إلي جميعا. سنتوقف في مقراتنا، لنرتب حوائجنا، وننطلق بعد ذلك لاستكشاف هذه الباخرة، ألا توافقون؟

توجه جورج إلى والده بنظرة تتحرق لهفة وقال: لم لا نستكشفها الآن يا أبي؟.

وشرح له برت مدى التعب الذي حل بالصغار، وحاجة الجميع إلى قسط من الراحة قبل الانطلاق في مغامرات جديدة.

بدت على جورج موافقته على رأي والده، لكن سرعان ما استسلم لإغراء الفضول الأقوى من إرادته، فانسل في اتجاه ما بين الملعب الرياضي والحديقة الشتوية، وذعرت كات وأرادت أن ترسل فيليب للبحث عنه لكن برت منعها قائلا: «اتركيه يا عزيزتي، لا يمكنه أن يذهب بعيدا. وهو راغب أخيرا في البقاء داخل هذه الباخرة، وأعدك بالذهاب بنفسي للإتيان به إن طالت غيبته».

وتنهدت كات بصمت وهي تقول: «المهم ألا تبدر منه بعض الحماقات».

فجورج لم يقصر أبدا في التعرض للوقوع في ورطات متعددة...

لكن قلق كات هدأ كأنما ضربته عصا سحرية عندما انفتح باب جناحهم عن صالة مؤثثة بمنتهى الفخامة، وبدرت من جميع الأنحاء صيحات الإعجاب وخاصة عندما ظهر شارل فيتزجرالد أمام بهجة الجميع بلقائه.

قال وقد مد رأسه المسرح بأناقة عبر الباب نصف المفتوح:

«أنتم هنا؟»

كان شعره القاتم مضمخا بشكل خفيف وفق ما تقتضيه موضة شباب العصر، وعيناه الزرقاوان البنفسجيتان تلتمعان، ووجنتاه متوردتان، وأسرعت إدفينا للقياه هاتفة: «شارل!»

والتفت نحوها باسما. كانا يبدوان بغبطة عائلية كما يحدث غالبا للعاشقين وزادهما تألقا شعرهما الفاحم وزرقة حدقتيهما العميقة. وضم الشاب خطيبته ورفعها من خصرها وهو يدورها في الهواء، وقهقهت ألكسيا وفاني.

وسألهما شارل متخذا مظهرا جادا ضاعف من مرح الصغيرتين:

«ما يضحككما إلى هذا الحد أيتها الشاباتان؟.

كان شارل يقيم علاقات متميزة مع كل فرد من أفراد عائلة وينفيلد، إذ سرعان ما توطدت صداقته مع فيليب وجورج، وحتى تيدي يبدو وهو في السنة الثانية من عمره مسرورا عند حضور شارل. أما كات وبرت فهما يعتبرانه كأحد أبنائهما. إنه فعلا ذو حظ طيب للقائه بإدفينا.

وابتسم وهو يميل نحو أختي خطيبته الصغيرتين قائلا:

«وبعد، هل رأيتما الكلاب؟ سأذهب معكما لمشاهدتها بعد القيلولة.

صفقت فاني بيديها، لكن التقطيب بدا على وجه ألكسيا الطفولي، وهي تسأل بصوت قلق: أين هي؟

ــ «في الأقفاص تحت الجسور السفلية حيث لا يمكنها أن تفلت»

أكد شارل مطمئنا.

كانت ألكسيا قادرة على أن تبقى معتزلة في قمرتها خلال الرحلة البحرية بكاملها، خشية أن تصادف كلبا ما تائها بين الممرات. لكنها نظرت هادئة إلى شارل، فهو بالنسبة لها كأب ثان، كما أن إدفينا بمثابة أم ثانية.

بعد أن تبعت فاني وألكسيا بانقياد مربيتهما الإيرلندية، صحب شارل إدفينا إلى قمرته، وهي حجرة لطيفة مبطنة بالخشب ومفروشة بأثاث إنكليزي. وما أن أغلق الباب حتى ضم الفتاة إليه وقبلها برفق على شفتيها، وأحست الشابة بأنفاسها تتوقف في حلقها وهي بين ذراعي زوج المستقبل، في أمثال هذه اللحظة المطلقة والوحيدة التي يشعر فيها الحبيب بانجذابه دون مقاومة إلى محبه متعة، وغالبا ما تساءلت إدفينا إن كان بإمكانهما كبح شهوتهما حتى شهر آب، لكن خيانة ثقة أهلها حتى في هذا الجو الرومانسي الرائع كانت غير واردة أبدا، وهي تعرف أن شارل يشاركها هذا التفكير.

سألها وقد علت شفتيه ابتسامة عذبة:

«ألا ترغبين بالقيام بدورة يا آنسة وينفيلد؟»

ـ بكل طيبة خاطر يا سيد فيتزجرالد.

ونظرت إليه يتخلص من معطفه الثقيل ويضعه على السرير، وفرحة لقياها المجدد تنعكس على قسماته. عندما تكون إدفينا بعيدة عنه، فإنه لا يفكر إلا بها. أما الآن وهي هنا فإنه يتساءل عن المعجزة التي دفعته لتحمل البعد عنها خلال أسبوع كامل. لكن الشكر لله، فهاهما يجتمعان من جديد ولن يفترقا بعد الآن ... لن يفترقا أبدا.

همست له وهما يتوجهان نحو السطح المخصص للتنزه: «كم اشتقت إليك!»

ـ وأنا أيضا يا حبي الكبير، ولكن بعد وقت قصير سيكون كل منا للآخر على الدوام.

أومأت برأسها إيجابا بسرور، وعيناها متوجهتان نحو المقهى الفرنسي المعد على السطح، ومجموعة من النوادل يقومون بالخدمة على موائده، وهم يلبون الطلبات بلهجتهم الباريسية العذبة. كان معظم مسافري الدرجة الأولى قد شغفوا سريعا بهذا البيستر و المظلل بعرائش اللبلاب فكأنه أكثر واقعية من أمثاله في الطبيعة، وهو أحد المستحدثات العديدة التي أعطت عن جدارة **للتيتانيك** لقب «أجمل مركب في العالم».

قال شارل وهو يضغط بذراعه على ذراع خطيبته المتألقة بالفرحة:

«يخيل إلي أننا سنكتشف العديد من هذه الزوايا الصغيرة الخفيفة الممتعة»

وجلسا على الشرفة التي تتيح للمسافرين أن يمتعوا النظر بمرأى البحر وهم في مأمن من هبات الريح.

تنهدت الفتاة وعلقت بالقول: «أما أنا فيخيل إلي أن ما من مكان خفي على هذا المركب إلا وسيكتشفه جورج. ها قد مضت أكثر من ساعة على غيابه، هذا المتمرد لا يحتمل، ولا أعلم سبب امتناع أمي عن ردعه.

ــ هي جاذبيته على الأرجح؟ لكن لا تقلقي يا عزيزتي، فأخوك يعرف تماما الحدود التي ينبغي عدم تجاوزها.

ــ لنأمل ذلك على كل حال، ففيليب لم تبدر منه أبدا هذه الجرأة.

ــ ولا أنا .. أريد القول، لم أكن كذلك وأنا في مثل عمره. وربما أنا معجب بجورج لهذا السبب، فأنا أتأسف على جميع الحماقات التي لم أرتكبها وأنا يافع.. أما أخوك المغامر الصغير فإنه على الأقل لن يأسف على شيء والتفتت إليه بابتسامة مشرقة، ثم استندا على الدرابزين وسط التجمهر الخليط، وأقلع جبار البحار عندئذ بشكل غير محسوس، وببطء عن رصيف الميناء، وإدفينا غارقة في التفكير بأخيها: «المهم ألا يكون هذا الأحمق قد فكر بالعودة ثانية إلى البر لاستكشاف المرفأ». وفجأة

قفزت وجلة على خوار صفارات التنبيه المثبتة فوق مداخن المركب الهائلة وانتابت الجماهير موجة من الاستثارة.

بدأت الباخرة الشامخة، وست قاطرات تحيط بها، نزولها بجلال إلى عرض البحر بين تهليل آلاف المتفرجين وهتافهم الحماسي، ستأخذ طريقها لعبور المانش لترسو مجددا في شربورغ، حيث ستقل ركابا آخرين، ثم تقلع متبعة مسار كونيتاون ومنه إلى أعالي البحار حتى أمريكة.

كانت الصفارات ما تزال تجأر بينما المركب الجبار يعبر بهدوء وسط صفين من السفن المتراصة على طول الرصيف. وفجأة وفي اللحظة التي يستعد فيها لتجاوزها، تقطعت الكوابل التي تثبت السفينة نيويورك الصغيرة، مصدرة سلسلة ضجيج جافة كأعيرة نارية، فقد سببت الدوامة الهائلة الصادرة عن حركة التيتانيك هزة واسعة في السفينة الصغيرة بدأت على أثرها مؤخرتها تنحرف بسرعة هائلة حتى كادت تصدم الباخرة العملاقة، لكن مناورة سريعة من إحدى القاطرات أتاحت للتيتانيك في اللحظة الأخيرة، والركاب على السطح يحبسون أنفاسهم، أن تمر دون عائق، كانت لحظة حرجة، أطلقت بعدها إدفينا تنهيدة ارتياح.

ما السبب؟ أهو إشارة من القدر؟ أهو انذار شؤم؟ ولكن كلا **فالتيتانيك** عصية على الغرق، هذا هو تفكير الجميع. إنها حصن منيع لا يقهر. قلعة بطول مئتين وثمانية وستين مترا كما قال فيليب، «إنها تعادل أربعة صفوف متوازية من البيوت، وهي بجسورها التسعة المتدرجة بعلو عمارة من أحد عشر طابقا.. » واختتم تعليقه بمظهر العلامة المدقق: «ليس من السهل مناورتها».

تمتمت إدفينا وما تزال غير مصدقة ما رأته: «أف، لقد كنا في وضع حرج!»

هز شارل رأسه قائلا: «يستبعد كل خطر، ومع ذلك فأنا أقترح أن نحتفل بهذه الانطلاقة القلقة بتناول كأس من الشمبانيا.».

استقرا بعد برهة في المقهى الفرنسي، وبعد لحظة برز جورج أمام طاولتهما بشكل يشبه السحر وهو يلهث قائلا: «أخيرا، أين كنتما؟».

ألقت عليه إدفينا نظرة اختلط فيها العتب بالاستنكار، كان مشعث الشعر، وقبعته مرتدة إلى الخلف، وثيابه مدعوكة، عدا عن بقعة من الشحم تظهر على ركبة بنطاله، لكن الابتسامة المشرقة لم تفارق محياه، ردت إدفينا: «من حقنا أن نطرح عليك نحن هذا السؤال أين كنت مختفيا؟» بدرت من شفتيه حركة لا مبالاة متسامحة، كأنه يغفر لأخته سؤالها الأبله، وقال: «كنت اتنزه» ثم وجه إلى شارل نظرة متوقدة وهو يبتسم: «آه! ها أنت! إنني مسرور لرؤيتك، كيف صحتك؟

ـ على أحسن ما يرام، وأنت؟ كيف وجدت هذه الباخرة؟

ـ رائعة! أربعة مصاعد، وتسعة طوابق، وملعب اسكواش، ومسبح، بل وفي حظيرة في الأسفل سيارة ليموزين جديدة أتى بها مسافر ثري من انكلترة. هذا عدا عن الحمام التركي.. والمطابخ .. ومغارة علي بابا حقيقية. صعدت أخيرا إلى مركز نوتي الاشارة، ثم عدت إلى النزول إلى قاعة ركاب الدرجة الثانية حيث تعرفت على شابة خفيفة الظل تستحق الاهتمام فعلا..»

ابتسم شارل لتبجحات نسيبه اليافع، بينما بدت على قسمات إدفينا علائم القلق، فجورج لم يقتصر على عصيان أهله، بل بدا لا مباليا بمظهره المهمل عن شغف في حين أعجب شارل هذا التصرف من ابن عمه بحيث استحق تهنئته:

ـ مرحى يا عزيزي، إن لديك إحساسا دقيقا بالملاحظة، ولكن هلا اندفعت حتى الطابق الأخير، يبدو أن المنظر من ذلك العلو يستحق المغامرة.

اعترف بأنني أغريت به، لكنني غيرت رأيي عندما رأيت كل هذه الجموع لحظة الانطلاق، لكنني سأذهب لاحقا، أعدك بذلك .. ألا تريد أن نقوم بمباراة في السباحة بعد الغداء؟

ـ لا مانع لدي، إلا إن كان لدى أختك مشاريع أخرى.. ما رأيك يا عزيزتي؟.

تفجرت الفتاة الشابة بالقول غاضبة: «أرى أن على جورج أن يكون أكثر تهذيبا وأن يعطي القدوة الطيبة لفاني وتيدي بدلا من أن يجري في جميع الاتجاهات كفتى سيء التربية.

تنهد غفروش[1] العائلة وقال: «أوه! يا إدفينا ليس لديك أي حس مغامرة!»

ـ إن حس المغامرة لا يمنع الشخص من الظهور بشكل لائق، أتساءل ماذا ستقول أمي عندما تشاهدك في الحالة التي أنت فيها الآن.

لكن صوت والدها الوافد فجأة رن في الأسماع: «وبعد أيها الشاب يبدو أنك كنت كثير الانشغال.»

كانت نبرة جذلة تبدو في هذا الصوت، وكتم برترام ابتسامة وهو يلاحظ لطخة سخام مدهشة تزين جبين ولده.

هلل جورج وهو أكثر ابتهاجا لوقع مغامرته:

«أوه! نعم يا أبي فهذه الباخرة هي عجيبة العالم الثامنة».

ـ «إنني مسرور لسماع هذا القول منك»، لكن برت توقف فجأة عن الكلام عندما سمع صوت كات الوافدة في تلك اللحظة.

ـ برترام، كيف يمكن أن تسمح له بمثل هذا التهاون؟ لكن انظر إليه، هذا غير معقول، لكأنه صبي أفاق!.

قال الأب بهدوء: هل فهمت يا جورج؟ إن والدتك منزعجة، بحق، من مظهرك على ما اعتقد، واقترح أن تعود إلى قمرتك لتضع على بدنك شيئا أكثر لياقة مما أنت فيه، قبل أن تلتحق بنا.

وزادت كات بلهجة اكثر قسوة: ولا تنس أن تستحم قبل أن تبدل ثيابك.

---

(١) غفورش Gavroche: أحد شخصيات رواية البؤساء لفيكتور هوغو، وهو يمثل الفتى الساخر الجريء (المترجم).

ـ ولكن يا أمي...

لم ترد أن تسمع منه المزيد، وبعد ذلك بقليل، وعند أسفل السلم العريض المتوج بقبة زجاجية تسمح لنور الشمس باختراقها وقع نظر جورج على فيليب، كان أخوه يدرس مع أستاذ عجوز بكل تأن قائمة ركاب الدرجة الممتازة.

كانت النخبة متمثلة فيها، إذ لاحظ وجود أسماء كل كبار العائلات الأمريكية تقريبا: آل آستور بالتأكيد، ثم السيد والسيدة ايزيدور ستراوس مالكي «ماسي» في نيويورك، أكبر مخزن في العالم، عدا عن أسماء أخرى شهيرة تشارك في الرحلة، منها بعض أعضاء الشبيبة الذهبية الذين رغب فيليب في التعرف إليهم، وكان قد لاحظ وجود عدة شابات من نخبة المجتمع أمل في التقرب اليهن خلال الرحلة، وكان فيليب قد دقق نصف أسماء القائمة عندما ظهرت أمه وهي ترجوه أن يرقب جورج بحيث يبدو في هندام لائق، فوعدها بذلك وجد في إثر أخيه الذي لا ينال منه التعب، وقد وجده متهيئا لزيارة إحدى المصاطب الحاملة لبوصلة السفينة، وكذلك قاعة المراجل التي يصل علوها إلى خمسة أمتار.

نظر إليه فيليب متقززا وقال: «من المؤسف ألا يصيبك دوار البحر».

اجتمعت العائلة بعد ذلك بوقت قليل على سطح التنزه، وقد أعجب برت وكات وإدفينا وشارل بقائمة طعام المقهى الفرنسي، وانتهوا من وجبتهم عند وصول جورج وفيليب تتبعهما أونا محاطة بالاطفال الثلاثة، وأعلنت الايرلندية الشابة أن فاني وتيدي نعما بقيلولة جيدة، أما ألكسيا فتبدو الآن أقل ذعرا. وجلست الفتاة بهدوء قرب مربيتها، وهي تنظر بافتتان لجماهير المتنزهين وهم يروحون ويجيئون، وكانت قد تعرفت قبل ذلك بوقت قصير على الفتاة الصغيرة التي لمحها أبوها على السلم عندما كانوا ما يزالون على البر. وكانت هذه الفتاة المسماة لورين من مدينة مونتريال وهي أقرب إلى عمر فاني، ولها أخ صغير

اسمه ترفور، وتمتلك لعبة كلعبة ألكسيا تماما لكنها بالطبع أقل جمـالا. وهي من هذه اللعب الفرنسية الغالية الثمن التي ترتدي ملابس مماثلـة لملابس كبار الأشخاص، وقد سمت ألكسيا لعبتـها السـيدة تومـاس، وكانت الخالة ليز قد أرسلتها لها في عيد ميلادها الماضي، وغدت من حينها رفيقة الطفلة إلى كل مكان. وكان بإمكان السـيدة تومـاس أن تفخر بمجموعة ثيابها الأنيقـة فعـدا عـن ثـوب السـفر والقبعـة والمستلزمات الأخرى المناسبة التي أعدتها لها الخالة لـيز، اغتنـى جهازها بثوب قرمزي اللون ومعطف من المخمل الأسود أعدتهما يـدا إدفينا الماهرتان. وقضت ألكسيا وصديقتها الجديدة طوال بعد الظـهر وهما تتحدثان عن حياة لعبتيهما.

دخلت الباخرة وهي بكامل إضاءتها إلى مرفأ شربورغ في مسـاء اليوم نفسه، وكانت ألكسيا تتهيأ للنوم، بينما نام تيدي وفاني منذ مـدة، وكانت كات وإدفينا تتهيئان للخروج من أجل العشـاء، بينمـا غـاب جورج كعادته، وراح شارل وبرترام وفيليب يتبادلون الأحاديث، كانت الأمسية هادئة، ساكنة، لم تلبث الفتاة الصغيرة على إثرهـا أن غلبـها النعاس وراحت في إغفاءة هانئة.

تدفق المسافرون على قاعة الطعام، وهي صالة رائعة تبـث فـي أرجائها وعلى أغطية موائدها الدمشقية ثريات الكريستال جداول مـن نور فتتوهج تحت دفقاتها، الفضيات وصحاف البورسـلان، وشـكل الرجال ببزات السموكنغ، والنساء بأرواب السـهرة الطويلـة ـ ذات الموديلات المصممة من قبل أكبر دور الأزياء في الولايات المتحـدة وأوروبة ـ لوحة جدارية فخمة، ومنظرا براقا يبدو انه أفلـت مـن إحدى قصص الساحرات، ورددت إدفينا في خاطرها، وهـي تبتسـم لزوج المستقبل أنها لم تشاهد من قبل مثل هذا الجمال.

بعد العشاء تبختروا في قاعة الاستقبال الفسـيحة حيـث ترسـل الاوركسترا أعذب أنغامها، ثم أخذت المحادثات بعد فـترات طويلـة تتخامد، وصرحت كات وهي تغالب التثاؤب «أنها تكاد تموت إرهاقـا

بعد هذا اليوم الذي لا نهاية له، لذلك كانت في غاية السعادة وهي تلتحق بجناحها بصحبة ابنها البكر وزوجها بعد أن تركوا شارل وإدفينا يحلقان مع سحابة أحلامهما الصغيرة، وانسحب فيليب إلى قمرته بعد أن تمنى لوالديه قضاء ليلة هادئة، وهناك وجد أخاه جورج يغط في نوم عميق.

في اليوم التالي رست الباخرة الأسطورية في كوينتاون وهو المرفأ الأخير الذي تمر عليه قبل أن تمخر عبر أمواج المحيط الواسع، وكان صف من الركاب الجدد ينتظرون على رصيف الميناء. وفجأة بدرت من أونا صرخة دهشة وهي تستند إلى درابزين السطح العلوي.

هتفت: أوه! يا الهي! سيدتي وينفيلد، انظري هناك! هذه ابنة عمي.

ـ هل انت متأكدة؟

هزت الشابة الإيرلندية رأسها بقوة إيجابا وهي تقول: أوه! نعم، بكل تأكيد.

هزت كات حاجبيها متشككة، فقد بدر من مربية أولادها، في ظروف سابقة، جموح خيال مفرط.

ـ ولكن يا أونا، يصعب التمييز من هذه المسافة.

ـ أستطيع أن أتعرف عليها يا سيدتي في أي مكان حتى وفي نهاية نفق عاتم، إنها أكبر مني عمرا بسنتين، وكنا دائما كأختين. إنها هي هناك بشعرها الأحمر، وابنتها الصغيرة على ذراعها.. وهتفت أونا وفيض من الدموع يغرق عينيها: «أوه! سيدتي، أراهن على وضع يدي في النار إن لم تكن هي.

كانت تحلم دائما بالذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، يا الهي، كيف يمكنني أن أعثر عليها في برج بابل هذا؟

ـ سنطلب من المفوض أن يتحقق من قائمة ركاب الدرجة الثالثة. إذ يجب أن تكون ابنة عمك بينهم.. ما هو اسمها؟.

ـ أليس اودار، واسم ابنتها الصغيرة ماري. إنها في الخامسة من العمر الآن. حسبت كات في ذهنها: شابة في العشرين، ولها ابنة في الخامسة، أي

أنها رزقت بها وهي في الخامسة عشر، ويحتمل دون زواج.

سألت ألكسيا: «أمي هل يمكنني اللعب مع ماري؟».

كانت تبتسم، فبعد ليلة قضتها في سرير ناعم وطري. في قلب جناح مترف واسع تبددت مخاوفها، **فالتيتانيك** فقدت اليوم مظهرها المرعب كعملاق بحر، وبدأت ألكسيا تعتاد عليها، والمشرفون والمضيفات يبدون منتهى اللطف، بحيث يبدو كل شيء مهيئا لمتعة المسافرين، وكل من يحبونها شكلوا من حولها مجنا واقيا. ليس من السيء إذا أن نمخر طوال النهار فوق عباب الماء، وفي الليل، تستسلم أعيننا للنعاس مهدهدة بخرير المحركات. وبدأت ألكسيا تحب هذه السفرة، كما أن فاني وجدتها مسلية بالفعل، حتى أنها في هذا الصباح تسلقت سرير إدفينا، لكن لدهشتها وجدت ألكسيا قد سبقتها إليه، وما كادت تنقضي دقيقة أخرى حتى وفد تيدي بدوره. وعند هذا التجمع حضر جورج وجلس على حافة السرير، وبدأت حفلة دغدغات جعلت الجميع تنبهر أنفاسهم من الضحك. واندفعت أونا عندئذ إلى الحجرة منذهلة من صراخهم، لكن المشهد الذي اكتشفته جعلها تغرق بدورها في الضحك، كما ضحكت بعدئذ وتهللت أساريرها عندما تبين أن اسم ابنة عمها مدرج في قائمة ركاب الدرجة الثالثة، هذا بديهي كوجود الأنف وسط الوجه. فالاسم صريح: أليس اودار. وهرعت الإيرلندية الشابة تنبئ الآنسة إدفينا بينما كانت هذه تستعد للذهاب إلى المطعم مع ذويها وخطيبها شارل.

هتفت المربية وعيناها تبرقان: «إنها هناك، فعلا إنها هي، أنا متأكدة».

وابتسمت لها إدفينا، فأونا فتاة لطيفة تستحق كل تعاطف، وسألتها: هل استطعت لقاءها؟.

انطلقت أونا، وقد تورد خداها في شرح طويل.

ـ سمح لي المفوض بالذهاب إلى هناك، وارتضت إحدى نساء خدمة الغرف أن تبقى مع الصغار خلال وقت القيلولة، وللمدة اللازمة

لي للتوجه إلى مكان ركاب الدرجة الثالثة..

ثم أضافت وكأنها تعتذر عما بدر منها: إن السيدة وينفيلد على علم بالأمر.

أجابت إدفينا بلطفها المعهود: أحسنت صنعا يا أونا، يجب أن تكون ابنة عمك قد سرت كثيرا للقائك!

وأشرقت الابتسامة على محيا أونا وقالت:

ـ أوه! نعم، كم كانت مسرورة، وابنتها الصغيرة ماري كملاك، إن لها شعرا كشعر أمها، أحمر متوهجا كلهب النار.

كانت إدفينا تشبك في أذنيها قرطي ألماس هما هدية أمها لها. فسألت

ـ هل هي ذاهبة إلى نيويورك؟

هزت المربية رأسها بوقار وكأنها قد صدمت بظلم القدر واجابت:

ـ إن لأليس عائلة في تلك المدينة، خالة فقدت للأسف البصر، وقالت لي إنها ستجرب المجيء إلى كاليفورنية، ووعدت أن أقوم بفعل ما استطيعه لمساعدتها.

ـ ستنجحين، أنا متأكدة .. هل غسلت يديك جيدا بعد عودتك؟

كانت كات قد طرحت ذات السؤال. وأجابت أونا بهز رأسها إيجابا ومسحة من الحزن تبدو على وجهها. فالمهاجرون القابعون في أقبية البواخر يحضنون مختلف الأمراض المعدية، مع أنها فوجئت بما يسرها لدى زيارتها القصيرة، فبالرغم من أن هذه الأقفاص، التي يزدحم فيها ركاب الدرجة الثالثة كالأرانب، لا تتمتع بشيء من رفاهية الدرجة الأولى، إلا أن كل شيء فيها ينم عن النظافة، بدءا من الأرضية الملمعة جيدا وحتى الستائر من الكتان ذي المربعات.

وأشرقت على وجهها المستدير ابتسامة جديدة وهي تقول هاتفة:

«أي حظ يا أنسة إدفينا، في أن نكون على هذا المركب الجميل محاطين بعائلتنا، إنني لم أكن آمل أبدا بمثل هذا الحظ».

هرعت بعد هذه الكلمات نحو حجرة الأطفال، بينما توجهت إدفينا إلى الصالة الصغيرة للقاء شارل وذويها. وعندما دخل أربعتهم إلى المطعم الذي يقدم وجبات حسب الطلب، بدرت من الفتاة تنهدة ارتياح وهي تستذكر كلمات أونا. نعم إنهم محظوظون جميعا....

في هذا المساء كانت قد اختارت ثوبا من الساتين الأزرق المزين بأشرطة من المخرمات وأحست وهي تمد يدها التي يبرق فيها خاتم خطيبها الألماسي ويبث ألف شعاع وضاء باطمئنان رائع يحل في فؤادها. عرفت حينئذ أنها تعيش اللحظات الفريدة الأكثر عذوبة في كل وجودها. لحظات لا نحس بها إلا مرة واحدة في الحياة.

-III-

كانت الحياة على متن **التيتانيك** أشبه بحلم لا نهاية له، فهذا القصر الواسع العائم بين السماء والماء يقدم لركابه مجموعة متع أميرية: وجبات طعام شهية، وملعب اسكواش، ومسبح، وحمام تركي.

كان شارل وفيليب يقضيان أوقاتا بهيجة في ملعب السكواش، ثم ينصرفان إلى الملعب على الخيول الميكانيكية في ميدان الرياضة برفقة إدفينا.

أما جورج الأمين لميوله الاستكشافية فيصعد ويهبط دون كلل أو ملل في المصاعد، يغور في أحشاء المركب، ليبرز بعد قليل على السطح الأعلى الكبير، يعقد صلات تعارف مع مسافرين آخرين.

كانت العائلة تجتمع بكاملها حول مائدة الغداء. وبانتهاء الوجبة يحين وقت القيلولة للصغار، بينما يتوزع الكبار على مختلف الصالات. فكلت وبرت اعتادا على التجول فوق سطح النزهة، واليد في اليد، وهما يتحدثان في مختلف المواضيع التي لم يتسن لهما التطرق إليها من قبل، لكن الأيام تمر سريعا، سريعا جدا، وفق ما تشتهي كات.

كانوا يتعشون إما في قاعة طعام الدرجة الأولى، وإما على الأغلب، في المطعم، الأقل ثراء، لكنه الأكثر اناقة وتلبية لأذواق الزبائن المرهفة. وفي هذا المطعم قام ربان الباخرة بتعريفهم على آل آستور في اليوم الثاني من الرحلة، وكانت الشائعات تفيد بأن آستور هو أغنى رجل في العالم.

وما فتئت السيدة آستور تبدي إعجابها بمرأى عائلة وينفيلد الكبيرة العدد مما دفع كات إلى التخمين بانها تنتظر مولودا. كانت لطيفة، وأقل عمرا بكثير من زوجها، لكنها مغرمة به بشغف وفق ما استنتجت كات عندما فاجأتهما يتبادلان القبلات في الصالة الصغيرة خفية.

أعجبت كات بعائلة ستراوس، وهما زوجان في منتصف العمر متكافئان تماما، يتشابهان كاخ واخت لتمسكهما الشديد بملازمة كل منهما الآخر دائما؛ وقد جذبت مشاركتهما الرقيقة، وبصورة خاصة ميلهما الفائق للدعابة، الجميع نحوهما ودفعت إلى الرغبة في صحبتهما.

ضمت الدرجة الاولى ثلاثمئة وخمسة وعشرين راكبا، ومعظمهم من الأسماء المعروفة ، ومنهم هيلين شرشل ـ كاندي مؤلفة عدة كتب شديدة الرواج في مواضيع مختلفة، وقد لاحظت كات بابتسامة خبيثة مجموعة من المعجبين يلاحقون في كل مكان السيدة كاندي المغرية ليس فقط بموهبتها الأدبية. وشد برت على ذراع كات وهو يتابع نظرتها، وقال لها وهما يتابعان بهدوء نزهتهما.

ـ انظري يا عزيزتي المسكينة ! ، ما خسرت بزواجك مني.

هزت كات وينفيلد رأسها، وعلى بعد قليل، أطلقت هيلين كاندي المزدهية بإحاطة المعجبين بها ضحكة أثيرية، بدا لكات منها مدى نشوة المرأة لاحتلالها مركز الاهتمام الذكوري، ودفعتها هذه الفكرة للابتسام مرة اخرى وهي تهمس:

ـ باه ! أعتقد أن ليس بي شيء من صفات المراة المغوية.

هي غير آسفة بالتاكيد، وخاصة لأنها تزوجت برت، والتفت هذا إليها بمظهر اللائم لانها تشكك بذوقه الخاص في موضوع الانوثة.

ـ أوه، يا عزيزتي، ما سبب قولك هذا؟ أنت فاتنة، كما تعلمين.

تخضبت وجنتا كات بحمرة عذرية، ومالت على زوجها ولامست عنقه بقبلة عابرة وهي تقول:

ـ يا لك من احمق! هناك نساء يقضين حياتهن في إغواء الرجال، وهناك أخريات ينصرفن إلى العناية برجلهن... وانا انتمي إلى الفئة الثانية، بكل بساطة، فئة الأم الرؤوم.

ـ يا إلهي، أية ورطة! كان بإمكانك أن تجعلي رجال الأرض يجثون عند قدميك، بدلا من أن تبددي اجمل سني حياتك في مسح مخطة الاطفال، إذ يكفي بريق جمالك عندما تظهرين لإثارة غيرة كل

أمثال السيدة كاندي في العالم.

كان يمزح بالطبع، لكن عينيه تبرقان برقة تعبيرا عن حبه لها، وشعرت كات بضربات قلبها تتزايد وجيبا وقالت:

ـ إنني راضية بك وحدك يا برترام وينفيلد، ولا اريد أيا من الرجال غيرك.

ـ ولك كل إمتناني يا عزيزتي.

ونظر إليها بابتسامته المغرية التي تذيبها تدلها، وفكرت بحياتهما الماضية، وبالاولاد، وبالأفراح والاتراح التي تقاسماها طوال سنوات، وبحبهما الذي تحول إلى حنان دائم بل صداقة مستمرة.

تمتمت: آمل فقط أن تردد إدفينا وشارل مثل هذه الكلمات في يوم ما. ووافقها برت وهو يعلم مدى صدقها: ـ وانا أيضا.

واستمرا في السير على السطح وقد اشتبكت أيديهما؛ وبرد الجو، فاحست كات بقشعريرة، ضمها على أثرها برت لتقبيلها وهمس في أذنها برصانة:

ـ أحبك حبا يفوق الحد يا كات. أريد أن تعلمي هذا.

أحاطته بنظرة قلقة والتصقت به، وسألته مذعورة فجأة من الرصانة التي نطق بها بهذه الكلمات: ـ برت... هل أنت على ما يرام؟

ـ في أحسن حال. لكن هذا لا يمنع من أن أصوغ لك أفكاري والتقت شفاههما للحظة، ثم تابعا نزهتهما واليد في اليد.

كان ذلك بعد ظهر يوم أحد. يوم هادئ كبقية الأيام. في الصباح، حضرا معا صلاة ترأسها القبطان سميث، وتضرعا معه «من أجل جميع من تحيق بهم الاخطار في البحر».. أما الآن فالحرارة تهبط فجاة وبسرعة، مما دفع المتنزهين إلى الهروب عن السطوح ورأى برت أنهما بحاجة إلى كأس من الشاي الحار جدا. وفي طريق الحديقة الشتوي توقفا للحظة أمام الملعب الرياضي حيث كانت السيدة كاندي الجذابة تمارس إغراءها على الشاب هوغ وولنر.

كانت الصالة الكبيرة المؤثثة بمقاعد من أسل الهند والسوحر الأبيض، والمزينة بأغراس النخيل في أصص كبيرة تضج بالناس، والسيد آستور وقرينته يتناولان الشاي في أحد الأركان وتبادل كات وبرت معهما التحية بلطف وتهيأا ليأخذا مكانا على إحدى الموائد عندما أبصرا جورج وألكسيا غارقين في الحديث مع سيدتين متقدمتين في العمر.

ابتسم برت وقال: أرأيت؟ إن الله وحده يعلم ما في رأس هذا الفتى؟ وترك كات للحظة وتوجه فاحضر ولديه إلى مائدته بعد أن شكر بحرارة السيدتين الكهلتين اللطيفتين.

سأل بلهجة قاسية: ماذا تفعلان هنا، وأين هي أونا؟

استمتع جورج بالإدلاء إليه بالمعلومات التالية:

ــ «لقد ذهبت إلى عنبر الدرجة الثالثة لرؤية نسيبتها، وعهدت بالصغيرين لإحدى فتيات خدمة الغرف. ووعدت أونا بان أصحب الكسيا للقياكما وها نحن الآن...» وهز كتفيه بمرح..

قاطعته البنية ووجهها الطفولي يعكس فرحة لا شائبة فيها.

قمنا بزيارة الملعب الرياضي، والمسبح، وتسلينا بالانتقال من مصعد إلى آخر! ثم قال جورج إن بإمكاننا ان ندفع احدا ما ليقدم لنا بعض الحلويات فجئنا إلى هنا حيث أسرفت هاتان الجدتان اللطيفتان بتقديم الفطائر لنا. وتوقفت للحظة لتستعيد أنفاسها وهي معتزة بمغامرتها الكبرى. ثم أنهت كلامها بهمهمة ملؤها الرضا الساذج: «ذكرت لهما أنني سأحتفل غدا بعيد ميلادي!»

كانت هذه هي الحقيقة، ففي العشية أوصت كات رئيس الحلوانيين السيد جوغن على قالب كاتو رائع يليق بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد طفلة.

وتم الاتفاق على قالب «غابة سوداء» مزين بنمنمات من القشدة، وورود من السكر المصهور.

قال برت وهو يحاول المحافظة على رصانته: «حسن، إنني مسرور لاستمتاعكما، إنما في مرة قادمة، عليكما المجيء معنا، بدلا من ان تسعيا إلى من يقدم لكما الشاي من الغرباء.

ارتسمت على شفتي جورج الابتسامة التي يطلق عليها ذووه ابتسامة غفروش ــ لأن من الصعب تعنيفه بعدها ــ وتعلقت الكسيا بعنق امــها التي غفرت لها تصرفها وهدهدتها بين ذراعيها وهي تقبل وجنتها.

بدأت الصغيرة تدندن، فما من شيء يدخل السرور إلى نفسها مثـل قبلة من امها تفخر بعذوبتها. واستنشقت بشغف شعر كات التي ضمتها اليها بحنو شديد، فهناك رابطة قوية تجمع بينــهما، رابطــة خاصــة ومطلقة، فكات تعبد ألكسيا، لكن هذا لا يعني انها لا تحــب أولادهــا الآخرين، حاشا هذا، فلكل موقعه في قلبها الذي يفيض بــالحب، إنمــا تشغل ألكسيا مكانا فيه بعض التميز؛ إذ أنها بعكس الآخرين ترفــض لثانية أن تتخلى عن الحضن الوالدي، وكأنها لا تريد أن تكــبر. لكــن كات تعي جيدا أن يوما سيأتي بكل تأكيد تطير فيــه ألكســيا مســتقلة بجناحيها الخاصين؛ وامها تعرف هذا ومع ذلك فإنها تتصرف غالبــا وكأنها تحلم بالاحتفاظ بها تحت رعايتها الدائمة، خاصة بعد ان قررت إدفينا الاستقرار في انكلترة.

دخلت الفتاة الشابة عندئذ إلى الصالة برفقة شارل، وهـــي تتنــهد وتنفخ على أصابعها المتجمدة قائلة: يا الهي، ما هذا البرد؟ أكاد أتجمد! وأشرقت ضحكة مشعة على شفتيها «المكتنزتين» فإدفينا كانت تبتســم باستمرار منذ بعض الوقت، و كات لم تر أبدا شخصا مفعما بمثل هــذا الهناء، ما عداها في بداية علاقتها ببرت، وردت على ابتسامة ابنتــها، لكن هذه لم تلحظ حركة امها، فعيناها غـــير منتبــهتين إلا لشــارل. والخطيبان يحلقان وكأن ما من أحد غيرهما في الدنيا.

لم تخف هذه السعادة على عين السيدة ستراوس النافذة، وقد أســرت لكات بقولها: «يا إلهي، كم هي سارة رؤيتها ترفل بمثل هـــذا النعيــم» طلب برت شايا وخبزا محمصا مدهونا بالزبدة للجميع، وما كادت إدفينــا تجلس حتى التفتت إلى والدها قائلة: «اتساءل من أين يفد هذا البرد؟

ألقى عليها والدها نظرة مطمئنة وقال:

ـــ هذا عائد دون شك، لتيارات هوائية واردة من غروئنلند.

ويمكن في حال الانتباه جيدا هذا المساء، ملاحظـــة بعــض كتــل جليدية تطفو على سطح الماء ذعرت إدفينا وصاحت: «يا الهي! هــل هي خطرة؟.

انتظر برت ان تصب الشاي قبل ان يستأنف الكلام بصوت مقنع:

«يا عزيزتي، يمكنك ان تنامي مطمئنة، **فالتيتانيك** عصية علـــى التلف بفضل اقسام كتيمة فيها تسمح لها بالطفو إلى ما لا نهاية، ويلزم أكثر من كتلة جليدية صغيرة بائسة للتأثير على باخرة من هذا النوع.. عدا عن أن قبطاننا سيقوم بالتأكيد باتخاذ كل الإجراءات المناسبة فـــي حال ملاحظة ما يثير أية شبهة.

كانت الباخرة تشق طريقها بسرعة فوق بحر لا اضطراب فيـــه... وارتشفت إدفينا، وهي مطمئنة، جرعة شاي معطر حـــار، وتنـــاولت قطعة خبز محمص، واحاطتها جلبة الأصوات والضحكات المختلطـــة بانغام الموسيقى المرحة بغلالة واقية. كـــلا، كـــلا.. إن ســـلامتها لا يتطرق إليها الشك في قلعة بحجم **التيتانيك**.

في ذات الوقت، كان القبطان سميث في مركز القيادة في الطـــابق الأعلى يستلم برقية باللاسلكي، هي الثالثة منذ هذا الصبـــــاح، وهـــي تحمل تنبيها جديدا يحذره من وجود حقل من الجليد أمامه؛ وحتى ذلـك الحين لم يجد من الضروري أن يخفف من السرعة. لم يحن الوقـــت. واكتفى بان ثبت بالدبابيس على لوحة التعليمـــات التنبيـــهات الثلاثـــة الواردة من بواخر أخرى في البحر: **كارونيا، والبلطيق، وامريكا**.

يعتبر القبطان سميث من أمهر ربابنـــة شـــركة «خطـــوط النجـــم الأبيض White star line» والثقة بقدراته، وكذلك بقدرات الباخرة التـــي يقودها، المعلن عنها غير قابلة للغرق، لا حدود لـــها. هـــذه الرحلـــة التدشينية الرائعة **للتتيانيك** تتوافق مع آخر عبور للاطلسي يقوم به هذا القبطان قبل إحالته على التقاعد، وكان بإمكانه أن يشاهد مـــن مكانـــه رجل الدفة في غرفة القيادة يمسك بيد ثابتـــة دولاب الســـكان الـــذي

سيوصلهم إلى نيويورك مباشرة. كل شيء يبدو منتظماً، والقبطان يعرف أيضا ان المسارات العابرة للأطلسي تتعرض في شهر نيسان بكثرة لمرور أطواف جليدية. كان بروسن إيسماي رئيس الشركة الموجود على متن الباخرة قد اطلع في وقت مبكر من النهار، على إحدى هذه البرقيات، لكنه اكتفى بان دسها في جيبه... فكل شيء يسير بانتظام. هكذا فكر القبطان المرة بعد المرة. وهبط الظلام، وصدح بوق السفينة يدعو المسافرين للعشاء، وجؤجوء **التيتانيك** الفولاذي يتابع شق مياه المحيط العاتمة.

في ذلك المساء، قامت كات بنفسها بالاشراف على نوم الأطفال ــ فقد ذهبت أونا لزيارة ابنة عمها؛ وتزايدت شدة البرد فطلبت كات من المشرف أغطية إضافية دثرت بها بعناية تيدي وفاني و ألكسيا .

كانت ليلة جليدية تسود في الخارج عندما انطلق آل وينفيلد مع شارل إلى المطعم. وكانت المناقشات تدور حول فيليب، فقد وقع اختيار الفتى اليافع على شابة من ركاب الدرجة الثانية، وكان في كل يوم يكمن في ذات المكان بأمل رؤيتها عبر الحاجز، لكنها لم تظهر هذا اليوم، وقد تكون موجة البرد حالت دون خروجها، وانتظر عاشقها التعس لساعات عاد بعدها، وقلبه منكسر، وقدماه مجمدتان، وأغلق على نفسه باب قمرته ورفض الخروج إلى العشاء. علقت إدفينا بلطف وهم يجلسون إلى مائدتهم المعتادة، موجهة الكلام لأمها:

«يا لفيليب المسكين!».

توقف برت للحظة عند مدخل المطعم مع و.ت. ستيد، وهو صحفي وكاتب مشهور، ومؤلف سلسلة من المقالات في الصحيفة العائلية؛ ثم تبادل بعدها بعض الملاحظات مع رجل آخر في ثياب السهرة، قبل ان يلحق بأفراد عائلته سألته كات وهي تلمح إلى المحدث الثاني الذي لم تعرفه: «من يكون هذا السيد يا عزيزي.».

ــ انه بنجامين غوغنهيم، وقد صادفته في نيويورك منذ عدة سنوات.

أشارت كات خفية بطرف عينها إلى الشقراء الريانة التي ترافق غوغنهيم وسألت: حقا؟ وهل هو مسافر مع السيدة غوغنهيم؟

أجاب برت بتحفظ: لا أعتقد.

أغلق الموضوع عندها. ومال برت نحو شارل يسأله عن عدد الأميال التي اجتازوها في ذلك اليوم، كان ذلك لعبة صغيرة مسلية قائمة بين الرجلين. أجاب شارل محققا الربح في الرهان: خمسمئة واربعة وستون ميلا.

وابتسم له برت، إنهما حققا زيادة في تعارفهما منذ بداية هذه الرحلة، وزاد تقديره لخطيب ابنته، وقد صرح بذلك لكات، وهي توافقه على رأيه فشارل سيعرف كيف يحقق لإدفينا السعادة.

كانت الاوركسترا تعزف في الصالة الكبرى المزخرفة حيث يسترخي المسافرون بعد العشاء.

اقترح برت على كات الذهاب في نزهة فتبعته باتجاه السطح الخالي، لكنها تراجعت سريعا وهي ترتعش رغم معطف الفرو الذي ترتديه وتأوهت: «كلا، يا الهي، إن البرد شديد».

كانت الليلة صافية، دون قمر، وآلاف الانجم تومض في عتمة السماء المخملية، والبحر شبه ميت؛ وعاد برت تقوده كات إلى الداخل. كانا يجهلان أن لاسلكي الباخرة قد تلقى لتوه برقيتين جديدتين، إنذارين ينبهانه لوجود كتل جليدية عائمة تتحرك أمام **التيتانيك**.

عادوا نحو الساعة العاشرة والنصف ليلا والتحق برت وكات بحجرتهما وبدأا بخلع ثيابهما وهما يتحدثان، بينما بقي شارل و إدفينا يرتشفان آخر كأس شمبانية في صالة جناحهما الصغيرة المريحة.

أطفأت كات مع زوجها النور في الساعة الحادية عشرة، وفي ذات الوقت تقريبا وصل إنذار جديد يعلن وجود الكتل الجليدية في الجوار، ورن هذا الإنذار في مسامع مشغل اللاسلكي هذا الإنذار، وهو صادر عن سفينة **الكاليفورنيان** التي تمخر البحر قريبا من **التيتانيك** .

رد فيليبس المبرق الشاب مغتاظا: «لا تقاطعوني! فلدي عمل كثير!.

كان منذ ساعات على احر من الجمر، يبث دون انقطاع محاولا ان ينهي أكداس البرقيات الشخصية المرسلة من قبل المسافرين، وما يزال على مكتبه عشرات وعشرات منها.

فكر غاضبا «بعد كل حساب، من المعروف وجود الكتل الجليدية العائمة في الأطلسي وهز كتفيه حانقا، وعاد إلى عمله، ففي رأيه ان إخطار القبطان يشكل إضاعة للوقت لا جدوى منها. فالقبطان سميث مطلع على الوضع تماما، وهو لا يعتقد حتى الآن بوجوب اتخاذ أية احتياطات، ولن تغير برقية زائدة او ناقصة من الوضع القائم المعروف.

استمر فيليبس في إرسال برقياته الخاصة إلى كاب راس، بينما يهدهد ترنح الباخرة كات وبرت، واولادهما في الغرفة المجاورة يحلمون في غبش العتمة التي تلفهم، و إدفينا وشارل، كأنهما وحيدان في هذا العالم، يجلسان متشابكين على أريكة وهما يتحدثان بهمس عن مشاريعهما، والليل قد انتصف وفجأة، وهما في صميم مسارتهما العذبة، أحسا بصدمة خفيفة! .. أوه، لا شيء مهم، نوع من هزة صغيرة... كأنهما اصطدما بعائق، كأنهما... ولكن كلا. لا يمكن تعليق كبير أهمية، لأن ما من شيء اعقب ذلك. وتهيأا لمتابعة حديثهما، عندما انتصبت إدفينا واقفة، مرتابة من هذا الصمت، صمت غريب مطلق؛ فالخرير الأصم، واهتزاز المحركات، وكل حركة مألوفة قد صمتت. وبدت الباخرة جامدة. وتبادل الشابان نظرة، ولاول مرة لمحت إدفينا علائم القلق في عيني شارل.

قالت قبل ان تنطلق إلى النافذة المطلة على ميمنة السفينة: «ما هذا؟».

ــ «ما من شيء خطر، بالتأكيد، تذكري ما قاله والدك يا عزيزتي، هذه الباخرة عصية على الغرق. لعل هناك تغييرا في المقدمة، أو هو تدقيق في أمر ما». وأضاف وهو يرتدي معطفه الثقيل:

سأذهب لارى، ألا توافقينني؟.

ـ انتظر، سأذهب معك.

ـ كلا يا إدفينا، فالبرد شديد خارجا.

ـ ليس بمثل قاعة طعام زوج الخالة ربر. إنني قد اعتدت عليه. بدت ابتسامة خفيفة على شفتي الشاب تجاه إلحاحها. بعد كل حساب ماذا يخشيان؟ وساعدها على ارتداء معطف الفراء الواسع الذي تركته كات على احد المقاعد، وغادرا الجناح.

كان فضوليون آخرون قد غزوا الممر، ومعظمهم يرتدون معاطف من الفرو فوق مباذلهم. وغيرهم يتجولون في المنامة فقط، وهم حفاة. وصعد شارل و إدفينا درجات السلم الكبير. وبدا السطح العلوي للنظرة الأولى مطمئنا لا يثير أي قلق. يبدو بديهيا أن المركب قد توقف، لكن المداخن الكبيرة تعمل، وهي تطلق غيوما كثيفة من الدخان في الهواء البارد، وبدا جان جاكوب آستور على السطح وهو يستجوب أحد البحارة.

اعترف هذا بالقول: «لقد لامسنا إحدى الكتل الجليدية، لكن ما من شيء، يثير القلق، عودوا إلى نومكم.

استدار آستور عائدا، ولاحظ شارل وهو يطل من فوق الدرابزين، بعض ركاب الدرجة الثالثة وهم يلهون بكتل من الجليد سقطت على السطح السفلي قال لإدفينا: تعالي، ما من شيء يستحق الاهتمام.وغاصا في دهليز السلم، وكان برت ينتظرهما في صالة جناحهم، وقد بدا عليه القلق.

سأل: ماذا حدث؟

كان يتكلم بصوت منخفض خشية ان يوقظ كات.

رد شارل بسرعة وهو يتخلص من معطفه: «ما من شيء يثير القلق، لقد اصطدمنا بكتلة من الجليد، ويبدو أن الجميع يسخرون بلا مبالاة من هذا الأمر، فالنوتية قد سيطروا على الموقف، وأعتقد أننا سنستأنف السير سريعا.

هز برترام رأسه مطمئنا، وخجل لانه استسلم للذعر ولكن ككل رب عائلة حرص على أن يتأكد أن ما من خطر يهدد أبناءه.

قال: حسن، تصبحان على خير، لا تتأخري في السهر يا إدفينا. وعاد إلى غرفته واغلق خلفه الباب. ودقت الساعة تعلن منتصف الليل. بينما كانت تدور في اعماق السفينة معركة مميتة. كانت كتلة جليدية قد ضربت فعلا هيكل **التيتانيك** ؛ وفي لحظة الاصطدام حدث انفجار كبير كضربة مدفع في أحد المراجل. وفوجئ النوتيون بسيل هائج وبارد فهربوا إلى مكان أكثر أمنا. وبينما كان المسافرون يجهدون في العودة إلى النوم، استمرت المياه في التسرب بعنف إلى الغاطس، والطوابق الخمسة السفلى من الباخرة قد غمرت كليا بالمياه.

على السطح العلوي كان القبطان سميث مذعورا يقدر مدى الأضرار، وإلى جانبه بروس إيسماي رئيس شركة خطوط «النجم الأبيض» وتوماس آندروز المهندس البحري. وبدا الوضع في أعين الرجال الثلاثة وقد سلط عليه نور جديد... نور مأساوي، فالبحر الذي يملأ بفيض مياهه الأنبار في السفينة لن يتأخر في غمر الطوابق العليا، الواحد بعد الآخر. ولم يلزم كثير من الوقت للمهندس اندروز ليستنتج أن ما كان يعتقد مستحيلا قد غدا واقعا. فالتيتانيك ، العصية الأنوف، غير القابلة للعطب، التي لا تقهر؛ التيتانيك في طريقها إلى الغرق.

قال القبطان: يمكن الصمود لبعض الوقت، ولكن ما مدة هذا الوقت، لا أحد يستطيع القول.

بعد منتصف الليل بخمس دقائق، كان برترام وينفيلد يتهيأ لينزلق في سريره إلى جانب زوجته عندما أحس أن أرضية الغرفة تترنح. كانت اهتزازة خفيفة بحيث اعتقد انه توهم بحدوثها.

انقضت دقيقة، وعلى بعد قليل في الأسفل بدأ الماء يغرق بصخب ملعب الاسكواش، وعلى السطح العلوي اعطى القبطان الأوامر لرجاله بحل وإنزال قوارب النجاة، والقلق القاتل يستبد به؛ إذ لم يجر أي

تدريب على الإنقاذ وهو يعرف ذلك؛ فهذه الباخرة قد صممت لتصارع التقلبات الجوية دون أن تغرق أبدا. وها إن جيشا من المشرفين ينقض على الممرات، وهو ينقر على أبواب القمرات لإجلاء المسافرين. بعد ذلك بثانية، استيقظ برت من جديد مذعورا، وسمع الهرولة على طول الممر تتبعها أصوات مخنوقة. ويبدو أن شارل قد شق باب الصالة قليلا إذ سمعه يتحدث إلى أحدهم. وفي البداية، لم يستطع برت أن يميز الكلمات لكنه فيما بعد أدرك تماما ما يحدث.

ــ ارتدوا سترات الإنقاذ واصعدوا إلى السطح العلوي! في الحال!.

كان المشرف يهتف بهذه التعليمات باسما، لكن لهجة صوته تنم عن ضرورة الاستعجال. ونظرت إليه إدفينا؛ لم تعلن أية إشارة إنذار، ولم يقرع أي جرس. لا شيء. الصمت فقط، هذا الصمت الثقيل بشكل غريب؛ وبدأ قلب الفتاة يضرب بشدة، ككل مرة يحتاج إليها أحد إخوتها أو أخواتها؛ وهي لا تفكر إلا بهم الآن. كانت ما تزال في ثياب السهرة.

فسألت: «هل لدينا الوقت لتغيير ملابسنا».

ــ كلا يا آنسة. اخرجي كما أنت، وضعي سترة النجاة، فهي تمنحك الدفء. ليس هذا إلا تدبير وقائي بسيط، لكن يجب الإسراع الآن.

غادر المشرف بعد قوله هذا ليقرع باب القمرة التالية؛ وبحثت إدفينا بنظرها عن شارل، فشد على يدها صامتا، وخرج برت للحظة إلى الصالة، ثم عاد مسرعا لينادي كات.

تقدم شارل لمساعدة الفتاة، ودخل إلى غرفة الفتيان وخلال دقيقة خرج مع أخوي إدفينا اللذين كانا يربطان أشرطة سترة النجاة بعد أن لخص لهما شارل الوضع بأبسط ما يمكن بحيث لا يثير ذعرهما.

هتف جورج المستعد دائما لاستقبال الانفعالات الجديدة: رائع!

بينما شحب لون فيليب المسالم وقد انتابه قلق رهيب.

في الغرفة المجاورة سحبت إدفينا ألكسيا من السرير، وأخذت فاني بين ذراعيها، وهزت بلطف كتف اونا، النائمة بعمق في كيس نومها، بعد عودتها من زيارة ابنة عمها. وفتحت الشابة الإيرلندية عينيها مندهشة، وحاولت إدفينا اطلاعها على الوضع دون إخافة الصغار، وقالت لها أخيرا:

ـ اهتمي بتيدي.

سألت ألكسيا باكية: أين أمي؟

وأفلتت من ذراعي أختها الكبرى واندفعت نحو كات التي ارتسم ظلها عند إطار الباب يتبعها برت ثم شارل، وكانت عيناها تتنقلان من شارل إلى ابنتها، ثم إلى زوجها وهي تدعك أجفانها لتعي ما يجري:

ـ ما الأمر؟ يخيل إلي أن شيئا خطيرا قد فاتني.

أجابها برت بصراحة: نحن لا نعلم شيئا في الواقع، يبدو ان حادثا قد أصاب الباخرة بعد أصطدامها بجبل من الجليد منذ حوالي نصف ساعة، وقد أنبئ شارل الذي ذهب يتقصى الأخبار بانه حادث تافه، لكن يبدو أنه تطور إلى الأسوأ إذ يجب الآن الصعود إلى سطح الزوارق.

ردت كات بصوت حازم، وهي تلقي نظرة رقابة سريعة على الجناح، وتتوقف عيناها على الحذاء الفضي الأنيق ذي الكعب العالي الذي ما تزال ابنتها تنتعله: «جيد جدا، إدفينا غيري حذاءك، وأنت يا أونا، ارتدي ثيابا ثقيلة وحضري تيدي وفاني للخروج، وأنت يا عزيزي برت..

كان برترام قد دخل الحجرة وعاد سريعا مرتديا معطفا ثقيلا وهو يحمل على ذراعه ثوبا صوفيا ثقيلا لزوجته؛ واحس لأول مرة بموجة ذعر حقيقي تسري على طول عموده الفقري عندما شعر بوضوح بأرض الغرفة تميل بسرعة تحت قدميه. أمرت كات بصراحة هي أبعد ما تصدر عنها في غير هذا الموقف: «هيا يا اولاد، أسرعوا».كان فيليب و جورج و ألكسيا قد أرتدوا ثيابهم، وبدلت إدفينا

بحذائها ذي الكعب العالي جزمة، وارتـــدت معطفـاً فـوق فسـتانها الحريري الأزرق الأنيق. وبحركات سريعة ثبَّت شارل سترة الإنقـاذ على ظهر كل من تيدي وفاني، وحدها أونا، بدت بشـعرها المشـعث وقدميها العاريتين، ترتعش بكل اطرافها.

ــ «أونا، ارتدي ثيابك بسرعة» أمرت كات. وقامت هــي نفسـها بارتداء ثوب السفر الثقيل الذي أحضره لها زوجها، ومن فوقه معطف الفرو، وزلقت قدميها بحذاء عملي للسير السريع.

تمتمت الفتاة الايرلندية كالمخبولة: «يا إلهي... أليــس، يجـب أن أذهب إلى ابنة عمي أليس.

كادت الدموع تطفر من عينيها. وشدّتها كات من ذراعها

ــ لن تذهبي إلى اي مكان، يا أونا ريـان! والآن ارتـدي ثيـابك واتّبعينا. كانت تمسك بمتانة بيد ألكسيا، وتوقفت الفتاة الصغيرة عـن البكاء، فهي تشعر أن ما من شيء يصيبها ما دامت مع امها وأبيـها. وتهيأ الجميع، ما عدا أونا التي كانت تعصر يديـها بحركـة يائسـة، وهتفت فجأة في قمة اضطرابها.

ــ آه! يا سيّدتي، أنا لا أعرف السباحة.

ردت عليها كات بقسوة: «لا تكوني سخيفة، ما من احد يطلب منك أن تشاركي في مباراة للسباحة».

أشارت كات بطرف عينها لإدفينا للبدء بإجلاء الأطفـال، وتنـاولت بعدها ثوباًصوفياً ثقيلاً أدخلته قسراً في رأس مربية اولادها، ثم جثـت وشدّت الثوب على جسمها، وأمرتها بانتعال حذائها، وخلعت على كتفيها أحد معاطفها، ثمَّ ساعدتها على ربط سترة النجاة التي تناولتها من تحـت سريرها، وما انقضت دقيقتان حتى لحقت الفتاة بالآخرين في الممر.

كان جمهور بألبسة غريبة مختلفة يملأ الممر، فالمسافرون الذيـن فوجئوا بالانذار، ارتدوا أي شيء في متناول يدهم. لكن لم تعكّر أيـة حركة هلع هذا الصعود المنتظم نحو السطح، بل سُـمِعت ضحكـة او ضحكات في هذا الصف المتتابع، وأحدهم يقول: «هذا مايؤسف له».

قاربت الساعة الواحدة صباحاً وفي غرفة الراديو كان فيليبس المشغِّل الشاب يرسل اوّل إشارة استغاثة من مبرقته اللاسلكية؛ فالماء يصعد سريعاً، بسرعة أكبر بكثير مما توقَّعه القبطان، وملعب الاسكواش امتلأ حتى سقفه، وسيول المياه تتدفق في قاعات استراحة ركاب الدرجة الثالثة رغم ان صدم جبل الجليد للتيتانيك لم تمرّ عليه أكثر من ساعة.

حيَّا فرد رايت بطل الاسكواش فيليب بإشارة من رأسه عندما لاحظ وجوده وسط الصف المتجه إلى الزوارق.

تمتمت كات: «نسيت جواهري».

تذكَّرت ذلك في لحظتها، لكن فات الوقت وما من سبيل إلى العودة إلى الوراء، وألقت نظرة إلى الدبلة الذهبية التي تزين بنصرها، فهذه الحلية الثمينة بمدلولها تكفيها.

شعرت بأصابع برت تشدّ على يدها، وقال مبتسماً: «لا تبالي، سأشتري لك جواهر اخرى، إن فاتتنا هذه...

لم يرد أن يقول، مبعداً فكرة تشاؤم غامضة خالجت فجأة ذهنه: «إن ضاعت هذه».

وفجأة اخترقت فؤاده موجة من الرعب مماثلة لتلك التي أحسَّ بها عند شعوره بأرضية الغرفة تميل تحت قدميه، فالخشية من ان يحدث لزوجته وأولاده أي مكروه ملأت نفسه بخوف لا شعوري وبدائي.

ومرّوا من امام الملعب الرياضي، ومن الجهة الأخرى من الحاجز الزجاجي، كان آستور وزوجته يجلسان على حصانين ميكانيكيين وهما يتحادثان، ومن المؤكدّ ان المليونير فضَّل ان ينتظر تطور الاحداث في ملجأ من البرد، من أجل أن يحمي الكائن الصغير الكامن في أحشاء زوجته. كانا مرتدين سترة النجاة عدا عن سترة ثالثة وضعها الرجل على ركبتيه وهو يحدِّث زوجته بينما راح يقلِّب قلم حبر بين يديه.

في اللحظة التي نفذ فيها آل وينفيلد علي ميمنة السفينة الأماميـــــة، كانت أوركسترا المركب تعزف لحناً جذاباً، بينما حرّر البحارة ثمانيــة زوارق انقاذ كبيرة، وهناك ثمانية اخرى تتراصف على ميسرتها، عدا عن أربع فليكات من قماش مشمَّع مقوَّى. كان المنظر محزنـــاً رغـــم الجو المرح الذي يحاول الموسيقيون الشجعان خلقه. وتابع برت بنظره البحّارة الذين ينشطون في كل الإتجاهات، وهو يكاد يفقـــد صوابـــه، وأصابعه تشدُّ على معصم زوجته التي تحمل فاني، و ألكسيا ملتصقـــة بها، وفيليب يتبعهما وتيدي الصغير بين ذراعيه، وكانوا يحـــاولون أن يبقوا متجمّعين بعضهم إلى جانب البعض الآخر قدر استطاعتهم فـــي هذا الجو البارد بشكل رهيب، ومن حولـــهم يتمتـــم النـــاس بصـــوت منخفض؛ ولاحظت كات فيليب يتبادل بعض كلمات مع فتى تعـــرَّف عليه منذ اليوم الأول من الرحلة، وهو جاك تاير وهو مـــن مواطنـــي فيلادلفيا، وكان أهله مدعوِّين إلى حفل العشاء الذي أقامه آل ويدنـــر، وهم من فيلادلفيا أيضاً، على شرف القبطان سميث، بحيث أن جـــاك بقي وحده في جناحهم، وهو الآن يفتش عن ذويه، ووسط جمهرة النـــاس أبصرت كات آل أليسون، أصدقاءهم من مونتريـــال، وكـــانت لوريـــن الصغيرة تمسك بإحدى يديها يد امها، بينمـــا تضـــم بـــالاخرى لعبتـــها المحبوبة إلى صدرها، وكانت السيدة أليسون مستندة إلى ذراع زوجـــها وهي ترقب مربية أولادها التي تحمل ضمن غطاء صوفي مهدّب كبـير أخ لورين الصغير، الطفل الجميل الملفوف بعناية حتى أذنيه.

كان ليتولر معاون القبطان يرقب رجاله بعين يقظة، لكنها لا تخفي ارتباكاً متزايداً، فإجلاء هذا العدد الكبير من الناس ليس مهمة ســـهلة، خاصة وأن معظم المسافرين، الذين لم يقدِّروا مدى خطورة الوضـــع، كانوا يبدون بعض التحفُّظ في مغادرة الباخرة بانوارها الساطعة، وكان البحارة يفكون زوارق الانقاذ من مرابطها، ويضعون فيها المصـــابيح والأقوات، ولكن ما ان اصبح القارب الاول جاهزاً للإنزال في البحـــر

حتى تراجع المسافرون الواقفون في الصف الأول مذعورين رغم نداءات معاون القبطان.

أخذت الاوركسترا تعزف لحن رَغْتيم انهمرت دموع ألكسيا على إثره، لكن كات ربتت بحنان على يدها، وتمتمت لها بصوت عذب بأن هذا هو يوم ذكرى ميلادها، وسينالَ كل واحد قطعة كاتو فيما بعد احتفالاً بهذه المناسبة.

ـ ومتى عدنا إلى الباخرة، ستطفئين شموع الحفلة يا عزيزتي.

أسندت كات فاني على كشحها لتحيط بذراعها الحامي كتفي ألكسيا، ثم التفتت بنظرة إلى زوجها. كان بـرت يرقب ردود فعل بقية المسافرين، والتمتمات تدور من جميع الجهات، لكن يبدو ان ما من احد يمتلك أيّة معلومة واقعية. وخلال دقيقة بدت طويلة بشكل غير معقول، صرخ أحدهم معطياً الأمر ببدء مغادرة الباخرة، والنزول إلى زوارق الانقاذ. وأضاف «الأفضلية للنساء والاولاد أولا، والرجال فيما بعد». وبدأت الاوركسترا تعزف لحناً أكثر سرعة وقوة لتغطي على جلبة الاصوات، مما دفع كات إلى الابتسام رغم الرعب المتستر الذي يشدّ شيئاً فشيئاً على خناقها.

أكدّت أن الأمر لا يعني أن الحالة وصلت إلى درجة كبيرة من السوء، ما دامت تسمع هذه الموسيقى الجميلة.

وتبادلت نظرة طويلة مع برت، ولاحظت الخوف في عينيه، لكنهما لزما الصمت حرصاً على عدم إشاعة القلق بين أولادهما.

إلتصقت إدفينا بشارل فهي في تعجّلها نسيت قفازاتها، وجهد الشاب في أن يدفئ يديها المجمَّدتين بين يديه. وتردّد مجدّداً النداء الداعي إلى أن يأخذ الأولاد والنساء أمكنتهم في زوارق النجاة، لكن لم يتحرك أحد، وحاول معاون القبطان ليتولر بكل وسيلة تشجيع المسافرات على التقدّم، لكنهن ازددن التصاقاً بازواجهن، وكأنهن قد تحجَّرن، وما من واحدة منهن وعت

الخطر، بالرغم من أن الباخرة، وقد انغــــرزت مــن الامــام بــدأت تميل بشكل غير محسوس على جانبــــها.

بعد ذلك بدأ يتسارع كل شيء عندما قرر فريق مــــن الازواج أن يساعد في تنفيذ الأمر، فدفع كنيون، وبيرس، وويك زوجاتهم الباكيــلت نحو كتلة القوارب القاتمة. واحتجت الزوجات وهن يرجون أقرانـــهن باللحاق بهن.

ــ هيا، سيداتي، شيء من الجرأة، سنعود جميعاً عند وجبة الغـداء، فخلال بضع ساعات ستتحدثن عن مغامراتكن.

هذا التصريح الذي أطلقه بصوت عال وبلهجة مرحة احد الرجــال أثار بعض الضحك بين المسافرين، وتقدمت بعض النساء بخجل إلـــى الامام، وكنَّ جميعاً تقريباً مصحوبات بوصيفاتـــهن، وأمـــر معــاون القبطان الأزواج بالبقاء في موقع خلفي مؤكِّداً علـــى نـــزول النســـاء والأولاد فقط، دون أي استثناء للقاعدة، وردّد الأوامر بصوت أجـــش، وعندها أجهشت أونا بالبكاء.

ــ أوه! يا سيدتي، لا أستطيع .. ولا أريد الذهاب .. فأنا لا أعــرف السباحة .. ثم أليس .. وماري..

وارتدَّت الإيرلندية الشابة بسرعة وهي تنوح، إلى الخلـف؛ وأرادت كات أن تلحق بها لتشجيعها لكنها فجأة غابت بين الجمـــاهير، فـــهي مصمِّمة أن ترى ابنة عمها أليس وطفلتها، مصمِّمـــة بشــكل حـــازم، وخلال أقلّ من ثانية كانت تجري باتجاه أقرب منفــذ إلـــى الطوابــق السفلية، وهي تسعى للقاء ابنة عمها حتى في أعماق الباخرة.

ارتدَّت كات، وهي ترفع يديها مستسلمة، وسأل فيليب أمه: «هـــل يجب أن أذهب للبحث عنها؟.

التفتت الأم بنظرة قلقة إلى زوجها الذي هزَّ رأســـه نفيــاً، ففـــاني الصغيرة تزقزق لاهية وتيدي بين ذراعي إدفينا.

قال برترام بلهجة حازمة: كلا.

كان مُلزماً بضرورة البقاء معاً، وإذا كان الحمق قد دفع أونا إلى الهرب، فإنّها بالتأكيد ستُجلى في مكان آخر من الباخرة.

كان الرتل يتقدم بسرعة، وتردّدت كات، وثبتّت نظرها في زوجها وسألته:

ألا يمكن أن نؤخر دورنا؟ لا أريد الذهاب دونك، من فضلك يا برت فلننتظر قليلاً.

وفجأة، ترنّحت الأرض تحت أقدامهم، وتصوّر برت وجود خطر داهم، فأي تأخير يمكن أن يكون مميتاً. كان يجهل أن مأساة أخرى يدور البحث فيها على السطح العلوي، فتوماس آندروز المهندس مصمِّم **التيتانيك** قد أنبأ القبطان سميث أن ساعة واحدة فقط قد بقيت من عمر **التيتانيك**، وأن وسائل الإنقاذ المتوفرة على متنها لا تتسع إلا لنصف عدد الركاب، ومن غرفة اللاسلكي كان فيليبس يرسل البرقيات تباعاً إلى الباخرة **كاليفورنيان** التي كانت تمخر البحر على عدة أميال فقط، إنّما دون أن يتلقى أي جواب.

أجاب برت: كلا يا كات يجب أن تنزلي الآن إلى الزورق.

قال كلماته بهدوئه المعتاد، لكن القبس المذعور الذي يومض في عمق حدقتيه لم يغب أبداً عن كات. عرفت فجأة ما يحسّ به برت، وأحسّت بذعر قاتل رهيب، ذعر شامل لم تشعر به من قبل. ولاحظت أن ألكسيا غير ممسكة بأذيالها، ودارت بشكل غريزي نحو المكان الذي كانت تقف فيه الفتاة منذ دقيقة، كلاّ إنّها ليست هناك، فكات قد تركت يدها عندما جربت اللحاق بأونا، وهي لا تذكر أنها رأتها بعد ذلك. ومدت رأسها على أمل أن تراها إلى جانب إدفينا، لكن كلا ليست هناك أيضاً. فابنتها البكر تتداول في أمر ما مع شارل وجورج، وعلى بعد خطوتين، ويبدو ظاهراً أنها فقدت حماسة اللحظات الأولى.

مزّق انفجار شديد سكون الليل القطبي أعقبه كتلة نور بيضاء تفرع عنها تويج شرَر ملتهب في الأثير كأنه إطلاق سهم ناري. كانت

الساعة الواحدة صباحاً، ولما تنقضِ إلاّ ستون دقيقة على الاصطـــدام الذي لم يُرَ فيه أولاً: «إلا أمر عارضٍ تافه».

سألت كات وهي تبحث بنظرها خفية عن ألكسيا التي قد تكون فـــي مكان ما تقارن لعبتها مع لعبة الطفلة لورين أليسون: «ما هذا يا برت؟»

ـ إنها صواريخ استغاثة يا كات، هذا يعني أن الأمر خطير جــداً، يجب أن تُقلعي حالاً مع الأولاد.

وشدَّ على يدها، وتلألأت دمعة على طرف أهدابه.

قالت كات مذعـــورة: إننـــي لا أرى ألكســيا، يجــب أن تكــون مختبئة في مكان ما، يا الهي يا برت، أيـــن يمكــن أن تذهــب هــذه الصغـيرة؟

وغرقت عيناها بفيض من الدموع.

ـ سأذهب للبحث عنها، ابقي هنا مع الآخرين.

وشق طريقه وسط الجمع، وركض من مجموعـــة إلـــى أخــرى، وتحرَّى بتشنجٍ كل زاوية، دون أن يرى أثراً لألكسيا، وعاد مجدّداً إلى زوجته التي كانت ما تزال تحمل فاني الصغيرة بين ذراعيها.

صاح، مستبقاً أسئلتها، لم أجدها حتى الآن، لكن لا يمكن أن تكــون بعيدة، فليس من عادتها أن تفارقك. إذاً..

كان يجهد في أن يظهر واثقاً من نفسه، لكن شحوب وجهــه كـــان يكذب أقواله.

قالت كات بصوت مرتعش: «وجب أن تكون قد ضلَّت طريقــها!»، وأحسَّت فجأة بأنها تكاد تنهار فاستندت إلى زوجها.

تمتم برت: لكن كلا يا كات، كلا إنك على حق، يجــب أن تكــون مختبئة في مكان ما.

ولكن أين يمكن لطفلـــة ابنـــة ســت ســنوات أن تختبــئ بينمــا الفوضى تسود على سطوح **التيتـــانيك** والركـــاب يتجمعـــون كيفمـــا اتفق قـــرب زوارق النجـــاة؟ وهـــزت صـــورة ألكســيا المذعـــورة

خلال ثانية الفضاء أمام عيني برت التعبتين. وخيل إليه أنه يسمعها من جديد وهي تبكي مذعورةً من المراكب، خائفة من المياه. كان ذلك منذ أربعة أيام فقط، وقد واستها كات آنذاك وهي تعدها بأن ما من شيء يمكن أن يحصل لهم، ولكن ها قد تحققت مخاوف الصغيرة عدا عن اختفائها.

كرَّر معاون القبطان رجاءه: «النساء والأولاد فقط» بينما كانت الاوركسترا ما تزال تتابع عزفها.

ـ كات.

نادى برت زوجته ونظر إليها وهو يعلم أنها لن تترك الباخرة أبداً قبل أن تجد ألكسيا. وتفجرت صواريخ استغاثة أخرى فوق رؤوسهم، لكن كات لم ترفع عينيها وصرَّحت له: «لا يمكنني النزول».

ـ في هذه الحال، أرسلي إدفينا.

كان العرق البارد يتلألأ على جبينه. وهو يحسّ أنه يعيش كابوساً لن يستيقظ منه أبداً، وضمّ فاني الصغيرة بين ذراعيه، ولامست شفتاه خصلات الشعر الحريرية قرب صدغها وقال:

ـ ستأخذ إدفينا الصغار، وستستقلين القارب التالي مع ألكسيا.

ـ وأنت؟

كانت الصواريخ في الأعلى تضيء بلمعان غريب وجه كات الشاحب. والاوركسترا ترسل أنغام الخطوات الأولى لرقصة فالس.

وردّدت كات: وجورج؟ وفيليب؟ وشارل؟

صاح: «النساء والأولاد أولاً!» ألم تسمعي التعليمات. سنلحق بكم فيما بعد.

والواقع أن الرجال من حولهم كانوا يودِّعون زوجاتهم اللواتي كن ينزلن إلى زوارق الإنقاذ التي امتلأت الدفعة الأولى منها تقريباً الآن، وكانت عقارب ساعة جيب برت تشير إلى الواحدة وخمس دقائق. وأمر إدفينا أن تأخذ فاني بين ذراعيها.

واقتربت كات بدورها وعيناها محمومتان وخاطبت ابنتها البكر: «إن والدك يريد أن تغادري المركب مع فاني وتيدي، ومع جورج أيضاً.

تذكرت أن جورج لم يتجاوز الثانية عشر من العمر فهو يعدُّ من الأولاد.

تجمدت قسمات إدفينا الناعمة لكنها توصلت إلى أن تسأل أمها: «وأنتِ؟»

ـ سآخذ الزورق التالي مع ألكسيا. أنا لا أعلم الآن أين هي. لكن يجب أن تكون مختبئة في مكان ما، وأنت تعلمين كم ينتابها الخوف... هيا يا عزيزتي وسيكون جورج مساعداً قيِّماً لك.

بقي صوتها هادئاً بشكل عجيب، رغم الذعر الذي يشدُّ الخناق على حلقها، ومرة أخرى نادت زوجها:

ـ برت، هل عثرت عليها؟

هز رأسه نفياً، والتفتت كات نحو إدفينا، وقد حركتها قدرة جديدة. إنّ كل كيانها ينصب الآن في هدف سام: إنقاذ إدفينا وجورج والصغار، لتتمكن هي من مساعدة برت في تفتيشه عن ألكسيا. وسترى فيما بعد ما سيتم من أمر فيليب وشارل. أما الآن فيجب تحقيق الهدف الأول.

أشار ليتولر لقارع الطبل بالإعلان عن انطلاق الزوارق الأولى. ما تزال توجد بعض الأماكن على الزورق الثامن، لكن ما من أحد من الرجال الحاضرين جازف بتجاوز تعليمات معاون القبطان.

عاد برت خائباً دون أن يجد ألكسيا. بينما كان معاون القبطان يصيح:

هناك متسع لأربعة أشخاص أيضاً.

جذب أحد البحّارة إدفينا من ذراعها، واتسعت حدقتاها وضمت فاني وتيدي إليها، وألقت نظرة زائغة باتجاه والديها، ثم باتجاه شارل.. وهي تقول: ولكن..

إنما جُذِبَتْ باتجاه الزورق.

صرخت وقد بدا على وجهها تعبير الابنة الضائعة: «أمي، أبي، ألا يمكن انتظاركما؟»

وغاب صوتها، وبللت الدموع خديها، وعانقتها أمها ودفعت إليها تيدي الذي بدأ يبكي محاولاً التعلّق بأمه.

ــ كلا، كلا يا صغيري، أذهب مع إدفينا. إلى اللقاء يا عزيزتي، وإلى موعد قريب.

وابتسمت الأم عبر دموعها لإدفينا، وجرت التتمة سريعاً، فبعد لحظة كان أحد البحّارة يعين إدفينا على الصعود إلى الزورق بصحبة فاني وتيدي وهما يبكيان ثم جاء دور جورج رغم احتجاجاته، وترنّح كل هذا المحيط على وقع ضربات الطبل، وسعت إدفينا بقنوط لأن تثبّت في ذاكرتها صورة وجوه أمها وأبيها، وشارل الذي لم يتسنَ لها تقبيله لآخر مرة.

صاحت باتجاه خطيبها: «أحبك!».

ورمى إليها بقفازيه فالتقطتهما في الهواء قبل أن تجلس على المقعد الخشبي، وصاح

ــ كوني شجاعة يا حبيبتي، فعمّا قليل سأكون إلى جانبك.

توتّرت الحبال على البكرات الجديدة وهي تصرّ وصعد زورق النجاة في الهواء، قبل أن يعود إلى النزول بتثاقل على طول حافة المركب العملاق المسبّبة للدوار، وتسمّرت كات في مكانها وهي تسمع بكاء تيدي وهو يبتعد، وشدّت بكل قواها على يد زوجها، وعندما دفع البّحار بجورج لإجلاسه في الزورق إحتجّ ليتولر، لكن برت أسرع لإنبائه بأن الفتى لم يتجاوز الثانية عشرة ــ هكذا فقد خدعه بشهرين ــ ثم ودون أن ينتظر جواب معاون القبطان دفع هو بنفسه ابنه إلى القارب، رغم أن جورج كان يرجوه أن يسمح له بالبقاء معهم، ومع فيليب، لكن برت لم يصغِ إليه.

استند الزوجان على درابزين السطح وهما يتابعان الزورق في انزلاقه على حافة الباخرة ليصل إلى الماء وهتف برت:

ـ اصمدوا أيّها الأولاد سنكون أنا وأمكم معكم قريباً.

ودار بوجهه ليخفي دموعه، وألقت كات نظرة أخيرة من فوق الحافة على الزورق، وانطلقت من صدرها زفرة أشبه بتلك التي تصدر عن حيوان جريح عندما لامس غاطس الزورق المياه القاتمة والباردة. إنّها عملية دقيقة، فأي خطأ في التشغيل، مهما كان تافهاً قد يؤدي إلى انقلاب الزورق بمن فيه، وحدوث كارثة، وكان ليتولر يوجّه أوامره بدقّة جرّاح يقوم بعملية حسّاسة.

وصدرت عن أولئك الذين وصلوا إلى الأسفل الآن، ووجوههم إلى الأعلى صيحات متنوعة: «إلى اللقاء»، «نراكم عما قريب»، «نحبكم».

ولكن فجأة لاحظت كات ويداها متشنجتان على الدرابزين، إدفينا تتحرك وتومئ بيديها وتشير بإصبعها اليمنى لشيء في مقدمة الزورق ومالت كات ودققت النظر، ولاحظت ما تشير إليه ابنتها هذه الهالة من الشعر الأشقر الناصع الملتف حلقات لا يمكن أن تعود إلا إلى فتاة وحيدة في العالم، إنّها هي هذه الصغيرة الجالسة في مقدِّمة الزورق. إنّها ألكسيا، دون شك.

صاحت بملء رئتيها، جواباً على حركات إدفينا، وقد انتابها شعور كبير بالارتياح وهي تّحرك عضلات كتفيها المتألمتين. «رأيتها، رأيتها!».

لقد أُنقِذَت، فالشكر لله، إن أولادها الخمسة سالمونِ وفي الزورق ذاته! وتركت مركز مراقبتها بخطا خفيفة. لم يبقَ إلا أن يتخلّص فيليب، وبرت، وشارل بالطبع، من هذا المأزق. وأسرعت نحوهم، ولأول مرة منذ بداية هذا الكابوس أشرقت ابتسامة على قسماتها، وهتفت

ـ برت، برت، إنّها معهم، إن ألكسيا مع الآخرين.

وأحاطت عنقه بذراعيها وهي تتنفس الصعداء قائلة:
الشكر له، لا أعلم كيف وصلت إلى هناك ونحن بعيدون عنها...
ردّ برت، يجب أن يكون البحارة قد وضعوها في الزورق دون انتباه منهم، ومنعها خجلها الذي تعرفينه من الاعتراض. أنه دورك الآن يا كات، أريد أن تأخذي أوّل زورق نجاة يُنزل قريباً، هل هذا واضح؟

ـ إنني أفضل أن أذهب في الوقت ذاته معك ومع فيليب وشارل، فإدفينا تهتم جيّداً بالصغار.

كان قلبها يدمى لشعورها أن أولادها، فِلّذات كبدها، بعيدون عنها. غير أن رغبة فريدة تدفعها إلى البقاء قريباً من زوجها، وشعرت بارتعاشة مرتدّة وهي تعرف الآن أن ألكسيا في مأمن من الخطر مع الآخرين، وتوجهت بالشكر مجدّداً إلى العناية الإلهية.

ابتعدت قوارب الإنقاذ بسرعة، وفي القارب رقم ٨ أجلست إدفينا قدر ما تستطيع تيدي وفاني على المقعد العالي القاسي، يجب مهما كلف الأمر إثارة انتباه ألكسيا إلى وجودهم، لكن للأسف فإن الوصول إليها وهي في المقدمة متعذر مع وجود كل هذا العدد من الأشخاص الذين تستحيل معه كل حركة، كان جورج إلى جانبها وهو يجذف بقوة واعتزاز، ولمست الفتاة ذراع جارتها راجية منها نقل كلمة التنبيه بالتناوب، ثم انتظرت لتهمس كل امرأة لجارتها بهذه الرسالة التي وصلت أخيراً إلى الطفلة التي التفتت إلى الخلف، وتأمّلت إدفينا هذا الوجه الغارق بالدموع، واختنقت في حلقها صيحة شكّ، فهذه المخلوقة الجميلة الصغيرة، ذات العيون الواسعة الدامعة، التي تبكي لأنها فُصلت عن أمّها ليست ألكسيا.

تسمّرت إدفينا في مكانها، ترزح تحت ثقل خطئها. وأفلتت منها آهة منتحبة عندما فكّرت أن كات المطمئنة لوجود ألكسيا مع أخوتها لن تفكر بالتفتيش عنها، وبدأت فاني الصغيرة بدورها تجهش بالبكاء فاضطرت إدفينا إلى أن تضعها في حضنها.

كان السكون المطلق يغلّف الجناح الواسع حيث جلست ألكسيا بكل هدوء على سرير تحدّث بصوت منخفض السيدة توماس، دميتها. كانت قد نسيتها في اللحظة التي غادر فيها الجميع الجناح بسرعة. وما أن وصلت إلى الأعلى، وعندما تركت والدتها يدها، حتى أسرعت بدورها خلف أونا، لكنها لم تستطع بالطبع اللحاق بها، إنّما اهتدت إلى طريق العودة إلى حجرتها، فتوجّهت إليها لتأتي بلعبتها، فهي لا تريد مغادرة المركب دونها، وبتفكيرها الساذج، وجدت المكان هنا أكثر هدوءاً، فهو بعيد عن الجماهير وضجيجهم، وأية فائدة في النزول إلى أحد هذه الزوارق الكبيرة المغمّة، المكتظة بأناس مجهولين، والمجازفة بالسقوط في الماء الأسود الجليدي؟ الأفضل أن تنتظر هنا، في الدفء، عودة والديها، لأنّهما سيعودان، فأمها قد وعدتها بذلك. وكانت نغمات الموسيقى التي تعزفها أوركسترا الباخرة تصلها من بعيد، كأنما تعبر حاجزاً من قطن، وما من تجمهرات في الممر.

كان الجميع هناك، في الأعلى، خلال ذلك الوقت، حيث يتابع إخلاء النساء والأولاد بوتيرة أكثر فأكثر سرعة بينما صواريخ الاستغاثة تتوج المركب المشرف على الغرقِ بمطر برّاق من الأنجم، وفي مكتب اللاسلكي، كان فيليبس المشغل يضغط بهياج على مبرقته المورس محاولاً دعوة السفن المجاورة لتقديم مساعدتها، وقد نجح في الاتصال **بفرانكفورت، ومونت تمبل، وفيرجينيا**، لكن هذه السفن كانت بعيدة جداً بحيث لا يمكنها الوصول في الوقت المناسب، أما **كاليفورنيان**، السفينة الأكثر قرباً فقد بقيت خرساء، وقد كان مبرقها هو من أنبأ منذ الحادية عشر مساءً، عن وجود كتل جليدية على مسار **التيتانيك**. إنّما طلب منه فيليبس بفظاظة ألا يزعجه بعد الآن، فلديه أعمال كثيرة يجب انجازها، وهذا ما يأسف عليه بمرارة الآن، وقد استمر يرسل على الأثير، نداءات الاسيغاثة، الواحد بعد الآخر، لكن دون أن يلقى جواباً، فمبرق **الكاليفورنيان** قد أطفأ جهازه وأغلق بابه،

وذهب إلى النوم. وانقضت الدقائق بطيئة وحاسمة، وحُزَم الصواريخ تتفجر باستمرار في الأثير الجليدي، ولاحظ بعض بحارة **الكاليفورنيان** بريقها، لكنهم اعتقدوا أنها أسهم نارية متمّمة للاحتفال بالرحلة التدشينية **للتيتانيك**، وما من أحد ارتاب بالكارثة التي تدور على بضعة أميال منه... ومن كان يمكنه التفكير أن مالا يُعقَل قد حدث في ليلة بمثل هذا الصفاء.

علَّق فيليبس كل آماله الآن على **الكارباتيا** التي تبعد نحو مئة ميل عنهم إلى الجنوب الغربي، والتي أجابت بأنها ستتوجه بكل سرعتها إلى مكان الغرق.

أطلَّ القبطان سميث برأسه من باب غرفة اللاسلكي، ولاحظ لبرهة المبرق يرسل البرقيات التقليدية CQD ، وغاب القبطان ليعود بعد خمس دقائق قائلاً:

ـ «جرّب نداء SOS» ملمّحاً بذلك إلى النداء الأكثر حداثة الذي تمّ تبنيه، ونفذ فيليبس ما طلب منه بتشنّج، فبفضل هذه الإشارة الجديدة من المحتمل أن يُسمع نداؤه حتى في لاسلكي الهواة.

في جناح آل وينفيلد الصامت، كانت ألكسيا تسامر دميتها، أدركت الفتاة الصغيرة أن أهلها لن يكونوا مسرورين منها، ولن يقصّروا عند عودتهم، بالتأكيد، في توبيخها.. بالرغم أن ما من أحد يُوبَّخ يوم عيد ميلاده.

إنّها في السادسة من عمرها الآن، ولعبتها أكبر عمراً منها بكثير، فقد كانت ألكسيا تعلن بسرور أن السيدة توماس في الرابعة والعشرين من عمرها، فهي في شرخ الشباب.

أعلن ليتولر الأمر بإنزال زورق آخر إلى البحر، وكان بعض الرجال قد انزلقوا في بعض الزوارق من الجهة الأخرى من السطح دون أن يلاحظ ذلك معاون القبطان وإلا لحال دونه. وكانت المشاهد تدور على سطوح الدرجة الثانية. أما في الأسفل وفي عنابر الدرجة الثالثة فكانت تسود فوضى عارمة، فكثير من المسافرين شاردون على غير هدى، ونجح آخرون

في اجتياز الحواجز التي تفصلهم عن بقية الدرجات، لكن البحارة بدؤوا في إبعادهم والسلاح في أيديهم، وهم مستعدون لإطلاق النار على من يجسر بالمرور، وذلك لتجنب السرقات والنهب. وصرخت ايرلندية شابة ترافقها امرأة أخرى مع طفلة بأنها وافدة من الدرجة الأولى، لكن احتجاجاتها لم تلقَ أُذناً صاغية من أحد بالطبع. فالبحارة يعرفون أن كلّ هؤلاء الأشخاص مستعدون لفعل أي شيء من أجل الوصول إلى سطوح زوارق الإنقاذ.

لجأ كات وبرت إلى ملعب الرياضة، وتركوا على السطح فيليب وشارل وجاك تاير الذين تطوّعوا لمساعدة النساء والأطفال على النزول إلى قوارب النجاة.

كان أستور وزوجته ما يزالان هنا على الأحصنة الميكانيكية. ولا تظهر عليهما أية بادرة ذعر، ويبدو أنهما غير مستعجلين للذهاب، وخادماهما في الخارج يرقبان بعين يقظة عمليات الإخلاء.

تنهدّت كات قائلة: آمل أن يكون الأولاد مرتاحين.

هزّ برت رأسه وبدا قلقاً، كان قد استعاد بعض الطمأنينة عندما علم أن ألكسيا مع الناجين الآخرين، ولكن ما مصير فيليب وكات؟ يحتمل أن يسمح ليتولر لفيليب بالنزول إلى أحد الزوارق، لكن الأمل ضعيف بالنسبة لشارل، ولبرت نفسه، وهما يعلمان ذلك.

رد برت وهو راغب في طمأنة زوجته: لقد نجوا، إنّه اختبار لن ينسوه طوال حياتهم... ثم استدرك: وأنا أيضاً لن أنساه.

وتوقف لحظة قبل أن يستأنف بصوت منخفض: «سيغرق المركب، هلاّ ادركت ذلك؟»

تولّدت هذه القناعة لدى برت منذ نصف ساعة، بالرغم أن ما من أحد من طاقم الباخرة يريد الاعتراف بذلك، وبالرغم من أن الموسيقيين مستمرون في عزف أعذب الألحان وكأنهم في عيد. وفجأة تناول يد كات ورفعها إلى شفتيه قائلاً:

ــ ستأخذين القارب المقبل يا حبيبتي، أنا أرجو ذلك منك. وسأقنع أحد البّحارة للسماح لفيليب بأن يصحبك، فهو لم يتجاوز السادسة عشر، ويمكن أن يعامل كالأولاد». وفكرّ في اللحظة ذاتها وقد استبد به القلق أن ليست المشكلة في إقناع كات، وإنما في إقناع ليتولر.

ردت كات بقولها: ما دام الصغار الآن في مأمن فأنا لا أرى عائقاً يحول دون انتظاري دور الرجال، فإدفينا قادرة تماماً على الاهتمام بهم، وأنا، على كل حال لن أتمكن من تقديم العون لها.

ونجحت في الابتسام. إنّ البعد عن الأولاد ألم رهيب، لكن إدفينا في نظرها بمثابة أم ثانية لهم. ولا يهمُّها كثيراً إذا غرق المركب أو بقي صامداً ــ إذ أنها في قرارة نفسها تشك بإمكان غرقه ــ المهم أن يكون ابنها البكر وزوجها، وخطيب ابنتها في مأمن. وما من سبب للذعر، فمع بعض الأناة سيتمكن جميع الركاب من النزول إلى القوارب التي تهبط إلى البحر بانتظام مثالي، ولا بدّ من أن تنقضي ساعات قبل أن يلقى جبّار **كالتيتانيك** مصيره السيّء.

على السطح العلوي، كان القبطان سميث يعرف الحقيقة، فالساعة الآن هي الواحدة والربع، وقد بدأ الماء يتدفق إلى غرفة المحركات، سيغرقون خلال فترة قصيرة جداً، وبذل فيليبس عامل اللاسلكي كل الجهود اللازمة في إرسال إشارات الإستغاثة، ولم يعد هناك أي أمل، فالكاليفورنيان وهي الوحيدة التي تستطيع إغاثتهم لا تجيب على نداءاتهم التي لم تنقطع، وقد سألت الأولمبيك إن كان بإمكان التيتانيك التوجّه لملاقاتها أو الصمود حتى الوصول إليها، أما بقية السفن فهي بعيدة جداً. وما من أحد يمكن أن يتصوّر أن أضخم باخرة في العالم تحتَّم عليها أن تغور في المياه السوداء في مكان ما من المحيط الأطلسي.

عندما غادر برت وكات الملعب الرياضي، كان الوضع العام قد تغيَّر، فالقلق القاتل حلّ محل البهجة المصطنعة. وأحد الرجال يتوسّل إلى رفيقته لتغادر وآخر حمل زوجته بالقوة نحو أحد الزوارق. وليتولر

الصارم، على الميمنة الأمامية أعطى الأوامر بإبعاد جميع الرجال الذين يحاولون الاندساس بين ركاب الزوارق، وتحوّل بعضهم إلى الميسرة عندئذ يناشدون البحارة الأقلّ صرامة للسماح لهم بالركوب.

قال أحدهم: إنني مجذف جيّد.

وسُمع بكاء: وتأوهات، وصرخات قنوط تشق سكون الليل، بالرغم من جلاء جميع الأطفال تقريباً عن الباخرة، كما توقعت كات وهي تفكر مجدداً بأطفالها المتوجهين الآن نحو خلاصهم. بقي فيليب، بالطبع، ولكن فيليب سيتخلص قريباً من هذا الجحيم، مع خلاصهم بالذات. وأبصرت فجأة الصغيرة لورين أليسون متعلقة بذراع أمها، وهذا ما ذكرّها بألكسيا، ألكسيا الموجودة الآن على الزورق رقم ٨ مع أخوتها وأخواتها. أما السيدة أليسون فقد أرادت أن تحتفظ بلورين أطول مدة ممكنة، بينما أجلي تريفور الصغير ومربيته مع النساء والأطفال الأوائل المغادرين. كانت مشاهد الوداع الأخيرة التي لاحظتها كات تمزّق نياط القلب، فالنساء الأوائل أُجلين مع أولادهن وهن يعتقدن أن أزواجهن سيلحقون بهن قريباً، وفجأة تجلّت الحقيقة القاسية:

فمعظم القوارب قد أُنزلت إلى البحر، وما يزال نحو ألفي شخص أسرى المركب الكبير الذي يغرق بهدوء في المحيط. فمصممو عابر المحيط الجبار لم يجهزوه بوسائل الإنقاذ الكافية، إذ ما من أحد خطر بباله للحظة أن عملاق البحار المنيع يمكن أن يغرق.

كان القبطان سميث يلازم السطح العلوي للباخرة وإلى جانبه المهندس البحري توماس اندروز، وهما يساعدان البحارة على تحميل الزوارق وتنظيم إقلاعها، عندما حضر بروس ايسماى رئيس «شركة خطوط النجم الأبيض White Star Line» صاحبة الباخرة، وعنقه غائر في ياقة معطفه الثخين، وأخذ مكانه بين النساء ولم يجسر أحد أن ينبس بكلمة، وانتقل رئيس الشركة بكل أمان إلى البحر الهادئ، تاركاً ألفي نفس على **التيتانيك**، التي بدأت مقدمتها تغور، للكارثة دون أي

وازع من ضمير.

ثبَّت برت نظره النفاذ إلى كات وقال: «هل أنتِ مستعدة يا حبيبتي؟»

كان البّحارة يحضرون تحت سيطرة ليتولر الزورق الأخير على السطح العلوي، وأشارت كات برأسها نفياً بكل أناة، لقد أطاعته دائماً وتبنت رأيه، أما الآن فلا.

أجابت بصوت يثير الغرابة بهدوئه: «لن أذهب، إنما أريد ذهاب فيليب، أما أنا فسأبقى إلى جانبك وسننتظر معاً ورود النجدات.»

كانت تبدو في منتهى التصميم والإقتناع، فقد اتخذت قرارها، وما من أمر في العالم يستطيع أن يغيّر رأيها. إنها تحبُّ برت، لم تقضِ معه اثني وعشرين عاماً لتتخلى عنه الآن وفي هذه الأزمة، إن جميع أبنائها ما عدا فيليب في مأمن، لكن مكان كات إلى جانب زوجها.

سألها: وإذا لم تأت النجدة؟

منذ أن شعر بأنِ أولاده في مأمن، أحسَّ بحمل ثقيل أزيح عن صدره، بقي سيف دموكليس المنذر بالسقوط على كات وفيليب، وبرت مستعد أن يفديهما بكل غال ليقيهما من هذا الخطر. نعم إنه مستعد ليفديهما بحياته.

أمسك كات من كتفيها وجعلها تدور في مواجهته، لأوّل مرّة منذ ساعات راودته فكرة الموت، شعر أنه مستعد للتضحية شريطة أن ينجو جميع الباقين، جميع أولئك الذين يحبهم، بمن فيهم كات التي لا يجب أن تموت، ويجب أن تحيا، لأن الأولاد بحاجة إلى أمّهم.

ــ كلا يا كات لن تبقي، لا أريد ذلك.

تمتمت: «أحبك» وكأن هذه الكلمة البسيطة تختصر كل شيء.

ــ وأنا أيضاً أحبك.

ضمها إليه لفترة طويلة، ولكن ما الذي يمنعه من أن يسلمها إلى سواعد المنقذين القوية الذين سيدفعون بها قسراً إلى هذا الزورق رغم مقاومتها.

لاحظ أن بعض الأزواج فعلوا ذلك. ما الذي يمنعه من إلزامها على اجتياز هذه الامتار القليلة التي تفصلها عن خلاصها؟... وأغلق عينيه كلا، كلا. لا يمكنه أن يعرضها لهذا العنف، هذا مسيء لكات. عاشا فترة طويلة معا، وحبه لها يلزمه باحترام إرادتها. وملأته رغبة كات في أن تموت معه اعتزازا فريدا وجديدا. لقد ضمهما دائما هذا الحب الحنون الملتهب، وهما لا يشكلان إلا كائنا واحدا.

رددت: «إن بقيت سأبقى» ورنت هذه الكلمات في أذني برت بوضوح فريد. وأضافت: «وإن مت سأموت».

حاول أن يثنيها عن عزمها، مدفوعا بمجهود أخير يتبنى منطق العقل.

ــ لا يمكنك فعل هذا يا كات فكري بالأولاد.

كانت قد فكرت، ووازنت الحسنات والسيئات، خلصت إلى النتيجة التي فرضتها على نفسها. إنها تكن حبا كبيرا لأولادها، وتعبدهم بكل ما تملك من قوة. لكنها تحب أيضا برت، برت الذي يمتلك قلبها، وإذا حكم القدر بغيابها نهائيا، فإدفينا تعتني بهم مكانها. ولكن لماذا التفكير بالأمر الأسوأ؟ لماذا لا نستمر على الأمل بأن كل شيء سيسوى خلال بضع ساعات، وأنهم سيجتمعون مجددا على مائدتهم المعتادة في قاعة طعام **التيتانيك** الرائعة. لماذا نجعل هذا الجو من الميلودراما يسيطر علينا؟ قالت ذلك لبرت، الذي هز رأسه.

ــ انك مخطئة، فالوضع أكثر مأساوية مما أريد التصريح لنا به.

انه متيقن من هذا القول ففي الساعة الواحدة وأربعين دقيقة أطلق آخر صاروخ استغاثة، وعلى جسر الزوارق كانت الأخيرة الباقية منها تتحرك بثقل حمولتها البشرية والبكرات تهبط بها.

خلال هذا الوقت، ودون علمها، كانت ألكسيا تلهو بهدوء مع لعبتها في الجناح المهجور على بعد طابقين في الأسفل.

ــ كان يجب أن تذهبي، هذا واجبك، أنت مسؤولة تجاه الأولاد.

كان هذا رجاء حارا، آخر محاولة لدفعها إلى التعقل، لكنها لم ترد الاستماع.

قالت وقد وضعت يديه بين يديها: برت وينفيليد، لن أتركك أبداً، أبداً هل تفهم ذلك؟

على بعد قليل منهما كانت السيدة ستراوس قد سلكت ذات السبيل، مع فارق أنها أكبر عمراً من كات، وأن ليس لديها أولاد. أما السيّدة أليسون فقد فضلت البقاء مع زوجها وطفلتها حتى النهاية، إذ ما من أحد يخالجه شك بالمأساة.

قال برت وقد تجدّد انشغاله بمصير ابنه: «وفيليب؟»

ـ حاول كما ذكرت أن تقنع البحارة بالسماح له بالنزول. كان البحارة على الجسر يهيئون آخر قارب، بعد ذلك لم يبقَ إلا زورق معلق خارج شرفة في الطابق الذي يلي طابقهما من الأسفل، و بقرب سطح النزهة كان البحارة يحاولون فتح نوافذ الحافة المزججة.

اقترب برت من ليتولر، وتبادل الرجلان بعض الكلمات بصوت هامس، نظر بعدها معاون القبطان باتجاه فيليب الجالس على كرسي طويل مع جاك تاير، ثم هزّ رأسه نفياً.

بعد لحظة عاد برت ينقل إلى كات جواب ليتولر: «لا سبيل إلى ذلك ما بقي على ظهر الباخرة نساء وأطفال.

عمل فريق البحارة على الإتيان ببعض الاولاد من ركاب الدرجة الثانية. فجميع أولاد الدرجة الأولى قد أُجلوا باستثناء لورين أليسون الواقفة إلى جانب أمّها وهي تمسك بيدها لعبتها المحبوبة الشبيهة بلعبة ألكسيا، وقد أثار مرآها ابتسامة شاحبة على شفتي كات ثم حولت نظرها سريعاً في اتجاه آخر.

بعد ذلك بقليل ضم مجلس استشاري الزوجين وينفيلد، وفيليب وشارل، كان برت يريد اقناع ليتولر بالسماح للشابين بل وحتى لهم أربعتهم بركوب الزورق الأخير. لكن شارل هزَّ كتفيه مع ابتسامة جذابة، فهو لم ينسَ وسط هذا الخطر الداهم سلوك الوسائل القويمة.

صرّح بقوله: أرى أنّ من واجبنا أن نصبر قليلاً، أما أنت يا سيدة وينفيلد فعليك أن تصعدي إلى هذا الزورق ـ وأشرق وجهه بابتسامة عندما لاحظ مدى شبه الأم بابنتها ـ لا تقلقي من أجلنا، فالنجدات لن تتأخرّ، وتجنّبي الزحام الأخير إذ يُخشى أن تنزعجي منه، واطلبي من هذا الفظّ وأشار بنظرة منه إلى ليتولر أن يسمح لابنك بمرافقتك نعم، ولكن كيف؟ فمعاون القبطان هذا عنيد ولا سبيل إلى اقناعه، وما من حجة في العالم يمكن أن تؤثر به، فمنذ لحظة جرّب أحد الفتيان بعمر فيليب أن يندس بين النساء، وقد ارتدى ثياب فتاة، فما كان من ليتولر إلا أن شهر مسدسه وأجبره على العودة.

قال برت في نفسه قانطاً: «من العبث المحاولة من هذه الجهة»، وكان يجهل أن البحارة على الميسرة الأمامية أقلّ تشدّداً، فالأبعاد الكبيرة للباخرة تحول دون انتشار المعلومات بشكل واسع.

بينما عاد برت وكات إلى النقاش من جديد، وتحوّل فيليب ليجلس إلى جانب صديقه جاك تاير، استلقى شارل على كرسي طويل، وأشعل سيكارة وتحوّل بأفكاره إلى إدفينا، كان ينفث الدخان، وقد استولى عليه شعور مريع بالوحدة، وما من طيف حظ بالخروج من هذه الكارثة وهو يعرف ذلك.

كان السطح الأسفل فارغاً والقمرات أيضاً، فطاقم السفينة قد تحراها الواحدة بعد الأخرى، وقد غزا الماء المالح الطوابق السفلى وهو يهدّد بين لحظة وأخرى أن يداهم أجنحة الدرجة الأولى.

بدأت ألكسيا، رغم تسليتها في اللعب مع «السيدة توماس في جناحهما الفاخر، تحسّ بطول الوقت. وكانت الأوركسترا في الأعلى ما تزال تتابع عزفها المرتجل. والسكون يسود في الممرّ، وبين وقت وآخر تلحظ الطفلة وقع خطوات أحد المتسللين من الدرجة الثانية سعياً إلى الوصول حتى سطح الزوارق.

ولكن متى يعود الجميع؟ لقد اكتفت ألكسيا من اللعب بمفردها، وهي مشتاقة إلى أمّها وقد ارتكبت حماقة تأسف عليها، إذا يجب ألا تهرب، ووالدها سيغضب بالتأكيد، ولن تتأخر إدفينا عن توبيخها ككل مرة تلجأ فيها إلى الفرار.

سمعت عندئذ وقع خطا أكثر قرباً، وأكثر ثقلاً، ورفعت عينيها مندهشة، ومستعدة للقفز إلى معانقة أبيها أو شارل، أو حتى فيليب، لكن انفراج الباب أظهر لها وجهاً غريباً، تزينه لحية صهباء، وتسمّر الرجل المجهول في مكانه، وبدا عليه الاستياء لرؤية طفلة مع لعبتها. كان أحد المشرفين وهو يقوم بجولة نهائية قبل أن تغمر مياه المحيط الغاضبة أجنحة الدرجة الأولى.

ــ هيه، يا من هناك!

وتقدّم خطوة إلى الأمام، لكن ألكسيا انتقلت إلى الغرفة المجاورة وحاولت إغلاق الباب وراءها لكنه كان أسرع منها ووضع قدمه ضمن الفتحة.

سألها: ماذا تفعلين هنا؟

كيف أمكنها أن تهرب؟ كيف لم يسأل عنها أحد؟ إن الوقت يدركه وهو يريد الوصول إلى السطح الطلق بسرعة.

ــ هيا تعالي.

لم تكن ترتدي معطفاً ولا قبعة، فقد تركتهما في الغرفة المجاورة عندما عادت للبحث عن السيدة توماس.

ــ كلا لا أريد! أريد أن أبقى هنا! أريد أمي! قالت نائحة وعيناها غارقتان بالدموع. غير أن اليدين القويتين رفعتاها كريشة بعد إحاطتها بسرعة مع لعبتها ببطانية ثخينة.

ــ سنذهب للقاء أمك، تعالي، فما من دقيقة يمكن اضاعتها.

جرى مسرعاً في الممرّ الخالي، وراح يصعد السلّم كل أربع درجات معاً وحمله الخفيف بين ذراعيه، وتوجه نحو السلم الذي يقود

إلى السطح العلوي لكن أحد البحارة أشار إليه بالوقوف.
ـ لم يعد من ترحيل على سطح القوارب، والقارب الأخير قيد الإنزال
ـ إنه الرقم ٤، هناك، هيا أدركه بسرعة!
انطلق المشرف جرياً في الاتجاه المشار إليه في اللحظة ذاتها التي كان فيها ليتولر ورجاله يقومون بعملية إنزال الزورق إلى البحر.
ـ انتظروا! ما تزال معي طفلة.
كانت البكرات تصرّ والسلاسل تنزلق عليها والزورق يلامس هيكل السفينة الضخم، عندما وصل المشرف إلى وسط الشرفة، وبثلاث قفزات كان قرب النافذة المفتوحة وبين ذراعيه ألكسيا تتململ في بطانيتها وهي تبكي وتنادي أمها. ومال الرجل فوق الميسرة وعيناه مسمّرتان على الزورق الذي يتأرجح غير بعيد عن اليمّ، كان بين من يقلهن السيدة تاير والدة جاك، وكذلك السيدة أستور الشابة، وقد حاول السيد آستور استدرار شفقة معاون القبطان بذكر الوضع الخاص لزوجته «التي تنتظر مولوداً» لكن ليتولر بقي جامداً واضطرت مادلين استور للإقلاع مع خادمتها ودون زوجها.
تأمل المشرف لثانية الزورق الطويل الهابط، كان بعيداً بحيث لا يمكن إعادة رفعه، إنما ليس إلى الحد الذي يمنعه من المجازفة بإلقاء الطفلة إليه، ووضع قبلة على جبين ألكسيا وكأنها ابنته، وتضرّع إلى السماء لتحميها، فمنذ أن حلت الفوضى جرت حوادث كسور في الأيدي والأرجل، ونبه من في الزورق ورمى إليهم بالطفلة.
أطلقت ألكسيا صرخة ثاقبة لكن البحّار المشرف على المجاذيف رفع ذراعيه والتقطها وهي في الهواء فخفف بذلك من الصدمة، ثم وضعها بكل هدوء بين سيدة مجهولة وولد صغير، وتابع ليتولر إنزال الزورق، متراً بعد متر إلى البحر الملون بعتمة كالحبر، وما أن لامس الغاطس سطح الماء حتى بدأ البحارة والنسوة يجذفون بأقصى سرعة وكأنهم يخشون حدوث أمر رهيب. وبقيت ألكسيا ساكنة ونظرها معلق

على الباخرة الضخمة التي بعدت أضواؤها. كانت الساعة الثانية إلا خمس دقائق، وما فتئ البرد يشتد وكان هذا آخر زورق يغادر التيتانيك.

لم يبقَ على متن الباخرة إلا أربعة أطواف قابلة للتفكيك وراح ليتولر وفريقه يعالجونها، فلم يتمكنوا من بسط الثلاثة الأولى، لكنهم نجحوا في تحرير الطوف الرابع، وشكلّ أعضاء فريق الإنقاذ حلقة دائرية حوله مصممين إبعاد كل رجل يحاول الاقتراب.

صرخ القبطان المعاون للمرة المئة: النساء والأولاد أولاً.

تقدمت بعض النساء ومعهن رضيعان، وبعض الفتيات اليافعات، وكانت الساعة الثانية صباحاً وفي الدقيقة الأخيرة تمكَّن برت من إقناع ليتولر بالسماح لفيليب في ركوب الطوف الذي بدأ يتأرجح بشكل خطير فوق لجّة المحيط السوداء. وانتظر برت وكات، وقد تقطّعت أنفاسهما، أن يصل إلى سطح الماء، ثم نظر كل منهما إلى الآخر دون أية كلمة. انتهى الأمر واختتمت عملية الإنقاذ.. وما من وسيلة للهرب، وما من أمل إذ لا يمكن الذهاب إلى أي مكان.

لم يستوعب برت ما حدث في اللحظة الأخيرة، وهو غير مصدِّق أن كات ما تزال هنا. جرّب أن يدفعها نحو الطوف عندما صعد فيليب إليه، لكنها تعلقت به وهو الآن يضمها إلى قلبه بينما تمرّ اللحظات الأخيرة الباقية لهما على قيد الحياة بطيئة لكنها محتّمة.

كان السيد ستراوس وزوجته يضع كل منهما يده في يد الآخر، أما بنجامين غوغنهيم فقد تنحى جانباً، وهو في ثياب السهرة، وراح يدخن سيكاراً وإلى جانبه خادمه.

والتقت شفتا كات بشفتي برت.. وعبرت في ذاكرتهما صور الماضي السعيد، يوم لقائهما، ويوم زواجهما، ثم مولد كل من أولادهما.

تمتمت بصوت عذب: «هذا اليوم هو يوم ميلاد ألكسيا».

كانت ألكسيا قد ولدت منذ ست سنوات في سان فرنسيسكو خلال يوم جميل مشمس، وتذكرت ذلك اليوم وعيناها مثبتتان على عيني

برت، من كان بإمكانه أن يتصور غير المعقول؟، وارتعشت كات عندما فكرت أنها لن ترى أولادها بعد الآن. ووجب أن تكون الفكرة ذاتها قد خطرت لبرت إذ أن الدموع جالت ملتمعة حول حدقتيه الزرقاوين القاتمتين.

ـ كم أحببت أن تكوني معهم يا كات، فهم بحاجة ماسة إليك..

تجلى الحزن العميق في نبرات صوت برت. لو أنهم أخذوا سفينة أخرى، لو أن هذا الجبل الجليدي لم يصدم **التيتانيك**... أوه، ما أكثر «لو» إنها تتالى في خاطره بلانهاية.

ـ لا أستطيع أن أحيا دونك يا برت.

واستطالت على رؤوس أصابع قدميها لتغرق مع زوجها في قبلة طويلة، وما فتئ الموسيقيون يعزفون بكل شجاعة، لكن زمجرات صماء كانت تصل إلى مسامعهم من عمق الباخرة. فالمياه تخرُّ مندفعة نحو السطوح التي أخذت تميل شيئاً فشيئاً، وأخذ بعض البحارة والمسافرين يقفزون من فوق الحافة بعد أن انقطع رجاؤهم، وتخطى شارل الدرابزين وقفز بدوره ليغيب نهائياً عن نظر آل وينفيلد، وضم برت كات بقوة إليه، فهدير المياه التي تضرب هيكل السفينة لا يبعد عنهما إلا ستة أو سبعة أمتار إلى الأسفل، لكنه يعلم أن كات لا تعرف السباحة، فهما ملزمان بالانتظار، لكنهما سيقفزان هما أيضاً إنما بعد أبعد فترة ممكنة، ومن يعلم فربما أمكنهما الوصول إلى أقرب الزوارق.

قفز جاك تاير بدوره، تماماً بعد شارل وقطع اصطدامه بالماء الجليدي أنفاسه ولكن تمكن بما يشبه الأعجوبة أن يصل إلى الطوف الذي استقله فيليب وتعلق به ورُفع فوقه وكان هذا الطوف مبللاً بالملء وركابه واقفون عليه.

على بعد نحو خمسة عشر متراً من هذا المكان، كان والدا فيليب ينتظران النهاية، واليد باليد، ومياه البحر تتغلغل في هيكل الجبَّار الجريح. وغمرت موجه مفاجئة سطح الإنزال، وأحسّت كات البرد

يتغلغل حتى عظامها فالتصقت ببرت الذي ضمّها إليه وهـو يقـول: «أحبك». وابتسمت، لكنها بعد لحظة لم تعد موجـودة، فقـد سـحبتها الأمواج المرتدة من ذراعي رفيق عمرها في الوقت ذاته الذي حطمت فيه سارية المصطبة ووقعت قطعة ثقيلة مـن الخشـب علـى بـرت فصرعته. وهناك في الأسفل أحسّ شارل فيتزجرالد بالبرد الصقيعـي يشلّ حركته ويجذبه إلى الأعماق.

غمر الماء المندفع غرفة اللاسلكي ومسح الطابق الاعلى، وحـول الباخرة كان الناجون من النساء والأطفال وبعـض الرجـال الذيـن ساعدهم الحظ في أن يفلتوا من رقابة ليتولـر الصارمـة، يشـهدون مرتعبين وعاجزين وهم في زوارقهم نهاية **التيتانيك**، وبقيـت آخـر الألحان الحزينة ـ «نحن أقرب إليك يـا الـهي» ـ التـي عزفتـها الاوركسترا في النهاية معلقة في الهواء الصقيعي. وفجـأة غطسـت مقدمة السفينة إلى الأمام بسرعة بحيث أن مؤخرة البـاخرة ارتفعـت هائلة مروعة نحو السماء، وأومضت جميع الأضواء قبل أن تغـرق دفعة واحدة في الظلمة، وبقي للحظة رهيبة كأنها الدينونـة، السـطح الخلفي بارزاً كأنه جبل ملعون، وفجأة غمرت المياه جميـع أجـواف **التيتانيك**، واختلط تقصُّف الخشب المحطَّم وانهيار الصفائح الحديديـة الملتوية مع صيحات الذعر، وتأوّهات الاحتضار، ونداءات اسـتغاثة مئات الضحايا. وفجأة حدث انقصاف جهنمي غطى علـى العويـل، فهيكل الباخرة الجّبار انشق بين المدخنتين الثالثـة والرابعـة، ومـن الزورق ذي الرقم ٤، أرسلت ألكسيا المرتعشة في بطانيتها الصوفيـة صرخة جزع مبرّحة.

في الزورق رقم ٨ كانت إدفينا تنظر مسمّرة، المـراوح الثلاثـة الجبارة في مؤخرة السفينة ترتسم في السماء المقمرة، وحدثت عند ذلك ضجّة شديدة، بمثل شدة الصاعقة، وكـأن البـاخرة انشـطرت إلـى شطرين. وبحثت يدا إدفينا بشكل غريزي عن يدي أخيـها جـورج، وانتحب الأخ والأخت، وتساءلت إدفينا بقنوط إن كان سيتسـنى لـها

رؤية والديها، وشارل وألكسيا بعد الآن والتصقت بجورج وهما يتأملان المأساة غير المعقولة التي ألمت بالباخرة الملقبة بـ «غير القابلة للغرق».

عندما انفصل القسم الامامي من السفينة غاص في الحال، ودار القسم الخلفي لبضع لحظات وهو منتصب شاقولياً ثم اختفى بدوره. وتصاعدت جلبة ذهول من زوارق الإنقاذ. وانبسط المحيط في مكان وجود **التيتانيك** مستوياً على مدّ النظر، فكأن هذه الباخرة لم توجد فوق سطحه أبداً. كان ذلك في الساعة الثانية وعشرين دقيقة من صباح يوم ١٥ نيسان، بعد ساعتين وأربعين دقيقة من صدم جبل الجليد للسفينة. أحاطت إدفينا فاني وتيدي بذراعيها وهي تجهد في تدفئتهما. وبقيت جالسة واهنة القوى إلى جانب جورج، لم يبقَ الآن إلا التضرّع لخلاص أولئك الذين تحبّهم.

- IV-

تلقت الباخرة **كارباتيا** آخر نداء استغاثة من **التيتانيك** في الساعة الواحدة وخمسين دقيقة صباحاً. واوضحت البرقية عندئذ أن المياه تملأ كلياً قاعة المحركات. وأخيراً الصمت. لم يرد أي خبر، وأعطى القبطان الأمر بالتوجّه بأقصى سرعة إلى مكان الكارثة، عرف أن المركب الكبير يعاني بعض الصعوبة لكنه لم يكن يتوقع أبداًالكارثة المفجعة التي شهدها.

في الساعة الرابعة صباحاً، وشريط ناري شاحب في الأفق يعلن بزوغ الفجر، وصلت **الكارباتيا** إلى الموقع المحدّد، ومن المنصة العلوية كان القبطان روسترون يجيل النظر من حوله والشكوك تنتابه. لاشيء، لا وجود **للتيتانيك**، فكأنَّ الباخرة الجّبارة تبخّرت في الأجواء.

انقضت عشر دقائق قبل أن يميّز إشارات خضراء على البعد. «هاهي!» فكَّر مرتاح البال، لكن لاحظ بعد قليل أن هذه الأنوار صادرة عن زورق إنقاذ، وأنها ليست بعيدة كما خيل إليه بل قريبة جداً منه. وبينما كانت الباخرة تحاذي ببطء الزورق ـ وهو رقم٢ ـ أدرك روسترون مرتعباً أن **التيتانيك** قد غرقت.

في الساعة الرابعة وخمس دقائق وضعت أول ناجية قدمها على متن كارباتيا، وهي الآنسة إليزابيت آلن، ورغم الساعة الصباحية المبكرة، فإن جمهوراً غفيراً من الفضوليين اقتحموا السطوح والممرّات. فخلال الليل شعر معظم المسافرين أن السفينة غيَّرت اتجاهها،وبعد ذلك لاحظوا البلبلة المسعورة التي طرأت على طاقم السفينة، وخمّنوا أن شيئاً خطيراً قد طرأ. وألّح الأكثر جرأة على المشرفين بالسؤال، وشيئاً فشيئاً، ومع مرور الوقت انتشر الخبر في الصالات، وفي الممرّات، وعلى السطوح، وفي كل مكان: **التيتانيك**،

الباخرة الجبّارة المنيعة تعرّضت لحادث... لجبل من الجليد... وهي تعاني من المتاعب.

وبينما كان الفجر يموّج بانعكاسات شاحبة السماء القاتمة، لم يتمكن من كمنوا على السطح العلوي بأمل رؤية أكبر مركب في العالم إلا أن يتأمّلوا بحسرة مشهد بضع عشرات من قوارب الإنقاذ مبعثرة في البحر، قوارب ملأى بأشخاص، لوّح بعضهم بيده تحية لمنقذيهم... بينما بقي الآخرون متجمدين مكفهري الوجوه، كالمخبولين، فهم لن ينسوا ابداً اللحظات الأخيرة للتيتانيك وسيذكرون إلى الأبد هذا الهيكل العملاق الذي انتصب نحو النجوم والطريقة الرهيبة التي غار فيها حاملاً إلى الأغوار العميقة أزواجاً، وأخوة، وأهلاً وأصدقاء، وأناساً أعزاء.

أعطت إدفينا الطفل لجورج ـ فيدا الفتى المتجمدتان عجزتا أخيراً عن الاستمرار في التجذيف ـ وبعد أن تأكدّت أن فاني مغطاة جيداً، بدأت تجذّف مكانه إلى جانب الكونتيسَّه دي روت التي لم تغادر مكانها منذ بداية هذه النكبة غير المعقولة. ولم تنقطع إدفينا عن طمأنة تيدي وفاني، إذ لم يتوقف الصغيران المسكينان عن السؤال عن أمهما، ومناداة ألكسيا.

ـ « سنلتقي بهم، سنلتقي بهم، سترون» كانت إدفينا تؤكد لأخويها. نعم لابد من أن تكون كات قد عثرت على ألكسيا، ومن المفروض في هذا الوقت بالذات أن يكون أهلها، وشارل، وفيليب وأختها الصغيرة في أحد هذه الزوارق. هذا مؤكد، هذا هو المفروض.

كانت الصرخات تتعالى من زوارق الإنقاذ، كلما اقتربت من **الكارباتيا**، والناجون يسألون عن أهلهم وأصدقائهم.

كان الزورق ـ رقم ٨ ـ يشق عباب الأمواج وكانت الساعة السابعة صباحاً عندما حاذى السفينة وعلى متنه أربع وعشرون امرأة وأربعة بّحارة، وهتف جونز المشرف على حركة المجاذيف والزورق:«لدينا أطفال صغار!»

ألقي إليه بكيس بريد مثبت بشكل متين بحبل، وضعت فيه إدفينا برفق فاني التي خافت وانطلقت في البكاء.

ـ لا تخشي شيئاً يا حبيبتي، سنصعد جميعاً إلى هذا المركب الكبير حيث ينتظرنا بابا وماما.

كانت تأمل ذلك بكل ما ملكت من قوّة، وتابعت بنظرها الرأس الصغير الداكن البارز خارج الكيس بينما كان يُرفع إلى الأعلى. وكانت الدموع تحرق عينيها، وزلق جورج يده في يدها وشدّ عليها دون اية كلمة، يجب ألا تنظر إليه وإلا ستنفجر بالبكاء، وليست الآن مناسبته، كلا لن تبكي الآن، ليس قبل أن تعلم ما حلّ بالآخرين، إنها هنا لتعنى بتيدي وفاني وجورج وليس لتضعف وتحبط عزيمتها.

كانت تنتعل جزمتها وترتدي معطفاً ثقيلاً فوق ثوب السهرة وتضع في يديها قفازي شارل. وكانت تُحسّ ببرد شديد يعصر رأسها كأن الآف الأبر تخز فروته. وأحست بأصابعها مخدرة وببرودة الرخام في كفيها ووجدت صعوبة في التقاط الكيس مجدّداً لتضع فيه تيدي إلا بعد مساعدة من هارت البحار.

لم يبدر من الطفل أي احتجاج، وقد مال لون وجهه في الساعات الأخيرة إلى الزرقة، وبذلت إدفينا كل عنايتها لتدفئته، وراحت تدلك له بصبر وأناة يديه ورجليه وخديه، لكن الجسد الصغير بقي على ارتعاشه حتى خشيت أن يموت من البرد خلال الليل.

وجاء دورها للصعود فعجزت أن تتعلّق بسلّة الحبال ونقلتها إلى جورج الذي تهيأ بكل انقياد للمناورة كفتى مطيع وهو الكثير الحركة والصخب عادة، وقد ملأت هذه الاستكانة منه عيني إدفينا بدموع جديدة. ونزلت السلة مجدّداً وأخذ البحار هارت بذراعها بلطف وساعدها على التعلّق فيها، ورُفِعَت وعيناها مغمضتان، وما أن وصلت إلى السطح وفتحت أجفانها حتى لاحظت في هذا الصباح الأدكن بحراً من صقيع ينسحب على مدّ البصر وقد تناثرت فيه كتل

الجليد المنجرفة مع حركة الأمواجِ، وهنا وهناك زوارق مملوءة بالناس ينتظرون دورهم في المساعدة. ولم تستطع إدفينا من مكانها أن تمّـــيز ملامحهم، وعَمَرَ الأمل قلبها في أن تلتقي مجـــدداً بـــالاعزّاء الذيـــن تركتهم منذ بضع ساعات على سطح الإنزال في **التيتانيك**.

ــ اسمك من فضلك ؟

ارتعشت إدفينا، وكان أحدهم قد خلع على كتفيها بطانّيـــــة دون أن تشعر وصوت يعلن عن وجود قهوة، وشاي، وكونياك فـــي الداخـــل، وتاه نظرها لمرأى نقالات مرصوفة على الأرض، ولاحظت عَرَضـــاً جورج وهو يمسك بين يديه فنجان شوكولا ساخن ــ وتنّقل بصرهـــا بين وجوه عديدة مجهولة، وهي تبحث بتهيّج عن وجوه أهلـــها... دون أن تجد أحداً منهم. لاشارل ولا فيليب ولا ألكسيا... وأحست أنّها بلغت فجأة من الضعف حداً لا تتمكن فيه من الإجابة على السؤال المطـروح عليها والذي كرَّرته المضيفة.

ردت بوهن: إدفينا و ينفليد.

ــ أسماء أولادك يا سيّدة وينفيلد؟

ــ اولادي !... أوه كلا إنَّهم أخواي وأختـــي: جـــورج، فرانـــس، تيودور وينفيلد.

ــ هل هناك أحد آخر من أفراد عائلتك على متن الباخرة؟

بدا أن الفتاة تبذل جهداً كبيراً كـــــي لا تنـــهار. أحسّـــت بأنظـــار المتسكّعين تثقل عليها فضمَّت بحركة آلية أطراف معطفها على الثوب الحريري الخفيف المزيّن بالمخرّمات

ــ نعم... إنني أسافر مع أهلي السيد والسيدة وينفيلـــد مـــن ســـان فرنسيسكو وأخي فيليب، وأختي ألكســـيا، وخطيبـــي الســـيد شـــارل فيتزجرالد.

قادتها المضيفة حتى الصالة الكبيرة التـــي حُوِّلـــت إلـــى مشـــفى، وسألتها أخيراً: هل تعرفين شيئاً عن أحوال بقية أهلك؟

غالبت إدفينا دموعها وهي تتمتم: كلا، ليس لدي أيَّة فكرة، كانت أمي تبحث عن أختي الصغيرة عندما أجلينا، واعتقدت أنني رأيت أختي الضائعة على الزورق، إنّما لم تكن هي بل فتاة تشبهها، وعندئذ... وتوقفت عاجزة عن متابعة كلامها. وربتت المضيفة على كتفها بحنو. وألقت إدفينا نظرة محمومة على القاعة الكبيرة، كانت النسوة المتجمعات على مقاعد طويلة يبكين بهدوء أزواجهن، وعلى بعد قليل أطفال بوجوه صفراء كالشموع وأعين مرتعبة، وتوسّلت إلى المضيفة قبل أن تأخذ مكانها

ـ أرجوك ساعديني على إيجاد أهلي.

وأحست بيدي فاني الصغيرتين تتعلّقان بأذيالها وهي تسألها:

ماما... أين ماما؟.

رفعت إدفينا أختها الصغيرة بين ذراعيها. وغادرتهما المضيفة قائلة بودّ: «سأطلعك على ما سيجدّ معي»

على مدى ساعات، كان ناجون آخرون يعبرون عتبة الصالة وأبصارهم زائغة، فزوارق النجاة بدأت تصل الواحد بعد الآخر وتفرغ حمولتها.

وقلبت موجة الطوف «د» آخر القافلة، ووجب أن يتشبَّث ركابه على حوّافه حتى هبوط الليل، وتمكّن جاك تاير أن يصمد، وعندما التقطوا أخيراً كان قد بلغ به الإعياء درجة لم يعرف فيها مَن بقي من رفاقه على قيد الحياة، وكان يجهل أيضاً أن والدته موجودة على الزورق الأقرب إليه.

عهدت إدفينا بالصغيرين إلى جورج، وخرجت إلى السطح. وهناك كان بعض الناجين من الكارثة يلاحظون عمليات الإنقاذ. ومادلين استور ترقب القادمين بعين واجفة، وكلّما وصلت مجموعة ضعف أملها برؤية زوجها. واستندت إدفينا على الدرابزين وقلبها يخفق، وأنظارها مترقبة، وصلاة حارّة على شفتيها، لكن ما من وجه عزيز، ما من خيال عائلي ظهر ليخفف القلق المُمِضّ الذي يستبدُّ بها.

ووصلت السلة الرافعة وأبرق شعاع من أمـــل فـــي حدقتـــي الفتـــاة الواسعتين، ثم هبطت امرأة لكنها ليست كات، امرأة غريبة، وخمـــدت الشعلة التي توقدت لحظة. وحضر أطفال وفتيات لكن ألكسيا لم تكـــن بينهم. ولم تجد بين الرجال الذين يتسلقون سلم الحبال برت أو فيليـــب أو شارل. وخيم صمت مطلق على الحضور، فلا ضجة ولا كلمة، ولا صوت، ولا بكاء ولد، عدا بين وقت وآخر صراخ رضيع جائع. كـــان المنقذون قد أتوا بعدة أطفال رضع إلى الصالـــــة بانتظـــار أن تـــأتي أمهاتهم للتفتيش عنهم، إنما يحتمل أن يكون هؤلاء الأطفـــال عـــائدين لمسافرين في الدرجة الثالثة ألقى بهم ذووهم فـــــي الـــزوارق دون أن يستطيعوا اللحاق بهم.

هبت رياح باردة ألزمت إدفينا على العودة إلـــى الصالـــة. يوجـــد الآن مجموعة صغيرة مـــن الرجـــال والنســـاء، أمكـــن لبعضـــهم أن يتسلقوا زوارق في جهة غابت عن رقابـــة ليتولـــر الصارمـــة. كمـــا أن آخرين ممن ألقوا بأنفسهم في الماء تمكنـــوا مـــن اللحـــاق ببعـــض الزوارق وصعدوا إليها، لكن بين هؤلاء الآخرين كثـــيرين ممـــن لـــم يسعفهم الحظ وقضى معظمهم نتيجـــة الارهـــاق والـــبرد فـــي الميـــاه الجليدية، أما الباقون فقد حملتهم التيتانيك معـــها إلـــى الأعمـــاق.

رأت إدفينا فجأة جاك تاير يدخل إلى القاعة وفي ذات الوقت مزقت صيحة فرح الأثير وألقت السيدة تاير بنفسها على ولدها.

سألته إدفينا بعد لحظة: «أين أبي؟»

بدرت من الفتى إشارة عجز عن أعطاء جواب قاطع. وعندما رأى إدفينا تقترب منه هز رأسه بأسف.

سألته: أرجو المعذرة، ولكن أنبئني هل وجد أحد من أفراد عائلتنا معك؟

ــ للأسف كلا يا أنسة وينفيلد، فقد كان أخوك فيليب معنـــا علـــى الطوف لكننا انقلبنا، وأنا لا أعرف ماذا حـــل بـــه. كمـــا أن الســـيد فيتزجرالد قفز من فوق الحاجز في ذات الوقت الذي قفزت به، لكننـــي لم أره بعد ذلك.

أما والداك فقد كانا ما يزالان على الباخرة لحظة مغادرتي لها.

كان يعتقد أن الجميع قد ماتوا لكنه قال: «أنا آسف، فهذا ما يتوفر لديّ من معلومات»

ـ شكراً

هذا غير ممكن، لا يمكن أن يكون حقيقياً، فمنذ لحظة سمعت من يقول: «إنهم جميعاً هنا، في الغرفة المجاورة»، ثم نطق بعبارات كان لها وقع أجراس الحزن، فتراجعت بهدوء، والدموع تُخدِّد وجنتيها، إنها لا تستطيع الآن أن تحبس دموعها.

ـ كلا، كلا هذا لا يمكن أن يحدث لكات وبرت، ولا لألكسيا، ولا لفيليب، ولا لشارل....

جاءت ممرضة تسأل عنها، فالطبيب المناوب يريد رؤيتها ليتداول معها بشأن تيدي. وتبعت الممرضة وكأنها تسير في نومها. كان الطفل ممددا على بطانية موضوعة فوق طاولة، وهو خامد، وعيناه جامدتان.

وتحدث معها رجل يرتدي بلوزة بيضاء على انفراد، وصرح لها: إن الساعات القادمة ستكون حرجة على أخيها الصغير.

صاحت وهي تصر على أسنانها: أوه! كلا، سيتعافى، إنه بصحة جيدة. انظر!

إنها لا تسمح بأن يحل مكروه بتيدي، ليس اليوم، وليس بعد كل ما تحملوه. هذا لا يعقل، ولا يمكنها أن تتحمله.حتى الآن كانت الحياة عذبة بالنسبة لها، وضربات القدر المفجعة قد تجنبتها ولم تعرف في داخل عائلتها إلا السعادة والإنسجام، هم متحابون جميعا وقد كانوا سعداء، فرحين. أيمكن أن ينهار كل شيء في لحظة وإلى الأبد؟!

والآن يجروء هذا الطبيب أن يزعم أن تيدي قد أصيب بالبرد، وأن من الممكن أن يموت. وأخذت إدفينا الطفل بين ذراعيها وهي تجهد أن تنقل إليه شيئا من حرارتها المتوقدة.

ـ هل سينفد؟

كان جورج هو السائل، ونظر إليها بعينيه الكبيرتين الزرقاوين وقد بدا فيهما الخوف. وفكرت فجأة والدموع تنسكب من عينيها. إن المصيبة علمته الحكمة وردد: قولي يا إدفينا، هل سيشفى؟

ـ أوه! يا إلهي، نعم، بكل تأكيد...

انزلق جورج إلى جانبها، أقرب ما يمكن، وجذبت فاني الصغيرة وهي ما تزال متدثرة ببطانتيها، معطف أختها الكبيرة وسألت:

ـ وماما؟ متى ستعود ماما؟ إنها تريد أن تعرف.

ـ قريبا يا كنزي الغالي... قريبا.

دخل ناجون آخرون إلى الصالة، وكانت إدفينا تجلس على مقعد وهي تهدهد تيدي الصغير، وإلى جانبها جورج وفاني، وهي تبكي بهدوء أعزاءها الغائبين.

-V-

تسلق فيليب بصعوبة سلم الإنقاذ، وأصابعه المتجمدة تعاني الألـــــم من التعلق بالحبال، لكنه يفضـــل المـــوت علـــى أن يســـتخدم الســـلة المخصصة للنساء. لقد التقط بعد فترة طويلة من انقـــــلاب الطـــوف، فتعلق على خشبة بالطاقة التي يمنحها اليأس وســـــط اليـــم الشاســـع، وعندما سحبته أيد منقذة من الماء لتمدده في أســـفل زورق، انـــهارت قواه دفعة واحدة كنابض شد بإفراط ففقد توتره! بقي خامدا شبه لاواع. والآن، وهو يصعد على قضبان الخشب في السلم، فإن فرحـــــة بقائـــه حيا، الفرحة التي لا تصدق القريبة من الحماسة، تغلبت على وهنـــــه، ووطئ السطح الذي يعج بالناس، وفجأة انبثقت الدموع، دموع الانفعال من بين أجفانه، إنه لا يعلم تماما ماذا حدث حقيقة، كل ما يتذكر هـــو انه قد صمد ، وأنه قد انتصر على الموت، وحده، ودون أن يســـــاعده أحد، ماذا حل بأهله، بأخوته وأخواته، لا يعرف، كان يرتعـــــش مـــن البرد، ورجلاه تصطكان، فتوجه إلى داخل السفينة، وولج إلى الصالـــة الكبرى حيث تجمع الناجون من كارثة **التيتانيك**. وبدت له صفوف من الوجوه الغريبة، بينما هو يبحث بأنظار قلقة عن وجوه ذويه.

كانت الساعة الثامنة والنصف صباحا، وقد وصل آخر قارب إنقاذ إلى حافة الكارباتيا. هلك أكثر من ألف وسبعمئة شخص غرقا، ونجا ســـبعمئة وأحد عشر شخصا، لكنهم بدوا في عيني فيليب آلافا. جمـــــاهير مـــن البشر في قمصان النوم أو في ثيـــاب الســـهرة يلتفـــون بالبطانيـــات، وينتشرون على المقاعد، لا يتحركون ولا يفتحـــون أفواهـــهم إلا ليســـأل بعضهم بعضهم الآخر إن كانوا قد رؤوا هذا الشخص أو ذاك بين النـــلجين من الغرق. شق فيليب طريقا له بين هذه الجموع، لا يعلم من أيـــن يبـــدأ تحرياته، فهو لا يرى إلا وجوها كـــــامدة، وأعينـــا زائغـــة، وأشـــخاصا

مجهولين، و بعد نحو ساعة عثر على جاك تاير، فسأله سريعا:

ــ هل رأيت أحدا من أفراد عائلتي؟

هز جاك رأسه، فهو أيضا بدوره يفتش عن أبيه. لكنه قال

ــ إن أختك كانت هنا منذ لحظة. إنني مسرور للقائك مجددا.

وأشرقت ملامح الصديقين بابتسامة، وتعانقا وأعينهما تتلألأ بالدموع، فهما ما يزالان تحت تأثير الصدمة الرهيبة التي مرت بهما. واستدرك فيليب عندما انفصلا، وتردد في السؤال وهو يخشى الجواب

ــ هل ... هل كانت وحدها؟

ــ لا أعلم... لكنني أظن أنها كانت تحمل طفلا...

إنه تيدي! ولكن ماذا حل بالآخرين؟ وراح فيليب يتحرى، صعد مجددا إلى السطح، وعاد أدراجه. ودخل مجددا إلى الصالة. عندما رآها كانت توليه ظهرها، لكنه عرفها من شعرها القاتم، وكتفيها النحيلتين. كان إلى جانبها فتى... إنه جورج! وقفز فيليب من وسط الجموع وخلال ثانية كان يضمها بين ذراعيه. وتعلقت في عنقه، مع شهقة انتحاب وهي تردد

ــ أوه، ياإلهي، فيليب... فيليب...

كان هذا كل ما استطاعت أن تقوله. ولفترة لم يجرؤ أحدهما على الكلام.

أخيرا تجرأ فيليب وطرح السؤال الذي يلهب شفتيه:

ــ والآخرون؟

قبل جورج، وفاني. وهزت إدفينا بحزن رأسها. ومال فيليب فوق مهد غير متوقع عرف فيه تيدي تحت مجموعة من الأغطية

سأل: ما به؟.

اكتفت إدفينا بهز كتفيها. فالطفل يبدو في حالة سيئة. جسمه مزرق، وشفتاه تكاد تميلان إلى السواد. وتناول فيليب يد إدفينا وضمها برفق بين يديه، وفكر ها هم الآن خمسة قد نجوا. لكنهم تابعوا تفتيشهم، إنما حتى نهاية النهار لم يعثروا على أي من الآخرين.

قضى تيدي وفاني الليل في المستوصف المقام، فالطفلة تعاني من تورم في يديها إثر البرد، ونام جورج المنهك من التعب على سرير ميدان في الصالة، وبقي فيليب و إدفينا إلى ساعة متأخرة من الليل وهما مستندان على درابزين السطح ينظران بصمت إلى هذا المحيط القاتم، كانا يشعران بالإنهاك لكن النعاس يهرب من أعينهما.

أطلقت إدفينا زفرة، بدا لها أنها لن تتمكن من النوم بعد اليوم أية أحلام يمكن رؤيتها في الليل بعد معاناة هذا الكابوس؟ أية أفكار بغيضة تسلطت عليها. لو لم تعجل بطردها؟ ولكن كيف يمكن إزاحة الذكريات المريرة لتلك المأساة غير المعقولة؟ ما تزال حتى هذه اللحظة تكاد لا تصدق ما حدث. ومنذ فترة وجيزة، عندما قدمت وجبة عشاء للناجين، لم تنقطع عن البحث بنظرها في قاعة الطعام، ثم عندما بدأ جمهور المتعشين بالتفرق بقيت واقفة في مكانها تترصد وهي تتوقع في كل لحظة أن ترى أمها وأباها جالسين إلى إحدى الموائد...

كلا ليس بإمكانها أن تتصور حتى الآن أن أهلها وألكسيا وشارل قد اختفوا وأن ما من حفل زواج في شهر آب. كلا يستحيل عليها الإقتناع بذلك أو إدراكه. إن القماش المهفهف الذي اختارته لثوب زفافها يتموج الآن في مكان ما بين الطحالب في إحدى اغوار المحيط التي لا تسبر... وتساءلت فجأة إن كانت أمها قد أمسكت بيد ألكسيا بينما كان البحر يبتلع المركب المدمر، وإن كانت لحظاتهما الأخيرة مؤلمة أو سريعة، وإن كانوا قد صارعوا الأمواج أو...

وانتابت إدفينا رعشة. بقي لديها فيليب وجورج وتيدي وفاني... فعملية الإنقاذ قد انتهت منذ وقت طويل. وحتى اللحظة الأخيرة انتظرت بأمل طائش أن ترى الباقين يظهرون أمامها.

وقد قامت **الكارباتيا** بدورة نهائية في المكان علها تعثر على بعض الأحياء قبل أن تتوجه إلى نيويورك. لكن لا أثر لأية حياة في هذه المياه الصقيعية.

رن صوتها ناعما حزينا في غبش المساء: فيليب؟

ـ نعم؟ التفت إليها متسائلا، ورأت عينيه القلقتين المتألميتن.

بدا أكبر عمرا بكثير من سنيه الستة عشرة، فكأن الساعات الماضية كانت سنوات بالنسبة إليه.

سألته: «ماذا سنفعل الآن؟»

لم تجسر أن تضيف «دونهم» لكنها تعرف أنه يفكر بالشيء ذاته. وبدرت منه حركة مبهمة وقال:

ـ لا أعلم أفترض أن علينا أن نسافر إلى منزلنا.

ليس أمامها أي خيار. سيبقون في نيويورك الوقت اللازم لفحص تيدي من قبل طبيب أطفال شريطة أن يبقى أخوهم الصغير على قيد الحياة حتى ذلك الحين.

ووفقا لرأي الطبيب المناوب على متن **الكارباتيا** فإن هذه الليلة ستكون حاسمة.

كانت إدفينا ترفض أن تتصور الأسوأ. ففقدان تيدي أيضا سيكون ضربة قاضية عليها، هكذا تتوقع، فتيدي صغير العائلة، آخر مولود لكات، ويجب مهما كلف الأمر إنقاذه.

فيما بعد، وهي في قاعة المستوصف، وقد احتضنته بذراعيها وهي ترقب تنفسه العسير، فكرت الشابة والدموع المرة تغرق وجنتيها الشاحبتين، بالأولاد الذين لن تضعهم في هذه الدنيا، أبناء شارل لن يروا النور أبدا. لقد ضاعت جميع أحلامها بضياعه، وارتعش كتفاها بشهقات منتحبة خرساء.

كان فيليب مضطجعا على فراش إلى جانب سرير جورج الميداني، لكن عينه لم تعرف الرقاد، فآلاف االأفكار تدور في رأسه، وألف سؤال في ذهنه لا يعرف جوابا له. هل قفز والداه من الباخرة إلى البحر؟ كم من الوقت دام احتضارهما؟ هل جربا السباحة حتى زوارق الإنقاذ؟ أم أنهما استسلما لقدرهما؟ سمع من يقول: إن السابحين كانوا

بالمئات، وأن ما من زورق رضي رفع أحد إليه خشية زيادة العدد وخطر الانقلاب، وهكذا عاموا إلى أن أنهك البرد القطبي قواهم، وقضى معظمهم غرقا بعد أن أضناهم البرد وصراع الموج، ونداء الاستغاثة. وتخيل والديه بين هؤلاء المصارعين ليبقوا على سطح الماء، فانتابته قشعريرة ورمى الغطاء عنه، وقفز باحثا عن إدفينا، ودخل دون أن يتفوه بكلمة إلى الغرفة، وارتمى على كرسي إلى جانب أخته، ولزم الصمت. كان قد لاحظ أن الناجين من **التيتانيك** قليلو الكلام، بل لا يتكلمون، إنهم يميلون إلى التجمع بالطبع إنما في صمت، وبعض المنزوين يتنزهون باستمرار على السطح، أو يتأملون البحر بنظرة ثابتة.

قال: أتساءل...

وتوقف، من الصعب إيجاد التعابير المناسبة، ثم استأنف هامسا كي لا يزعج نزلاء المستوصف الآخرين

ــ لا يمكنني التوقف عن التفكير بـــ ... بالنهاية...

واختنق صوته، ومال برأسه، وبحثت أصابع إدفينا عن وجنة فيليب لتربت عليها وهي تهمس: لا تفكر بما حدث، هل يمكن للتفكير استدراك ما فقدناه؟

هي لم تنقطع عن التفكير، وأنتابتها ذات الكوابيس. وتساءلت ألف مرة لماذا فضلت أمها البقاء في الباخرة؟ وشارل؟ و ألكسيا؟ هل عثروا عليها؟ كان قد بدا على فيليب الذهول عندما أدرك أن ألكسيا ليست مع إدفينا. وأبواه على الأرجح لم يعرفا ذلك أبدا.

صدرت عنه تنهدة حارة، ونظر إلى تيدي الصغير وهو ينام ملء جفونه، ولامس خصلات شعره الناعمة، وخده الشاحب. كان الصغير يتعرض بين وقت وآخر لنوبة مرعبة من السعال تهز جسده الضعيف.

تعرض فيليب بدوره للبرد، وهو يسعل أيضا بين وقت وآخر، وقد لفتت إدفينا نظره إلى ذلك لكنه أجابها بأنه تعرض لزكام قبل يومين.

وتذكرت عندئذ أن كات فاجأته وهو يتبادل التخاطب بعينين تبرقان تدلها مع إحدى يافعات الدرجة الثانية... قد تكون هي أيضا ماتت، كالكثيرات غيرها.

مال فيليب على أخيه الصغير وهو يسأل: كيف حاله الآن؟

ردت وهي تلامس بشفتيها جبين الطفل: مستقرة، ربما أحسن قليلا.المهم ألا يكون مصابا بالتهاب رئوي.

ـ اذهبي واستريحي، وسأبقى إلى جانبه.

لكن إدفينا رفضت مع تنهدة قائلة: على كل حال لن يغمض لي جفن

صمت جديد. في هذا الصباح، رفض القبطان روسترون الإقلاع من المكان قبل أن يتأكد من أنه لم يترك في البحر أحد الأحياء، ودارت الكارباتيا مدة طويلة في مكان الكارثة، ولكن على مد النظر لم يكن يميز إلا الحطام ـ كراسي طويلة، سترات إنقاذ، قطع خشبية، ألواح، سجادة مشابهة لتلك التي كانت تفرش غرفة إدفينا، أخيرا جثة أحد البحارة.

والآن انتهى كل شيء، مهما بدا ذلك غير معقول. البارحة مساء كان آل ويدز يقيمون احتفالا على شرف القبطان سميث، واليوم، وما تكاد تنقضي أربع وعشرون ساعة، لم يعد لأحد وجود، لا للمضيفين، ولا للضيوف ولا للقبطان، فالتيتانيك ترقد في قبرها العميق اللجة ومعها ألف وسبعمئة من ركابها.

تراءى لإدفينا وجه شارل الوسيم، فذرفت مجددا الدموع على غرامها المفقود، في المساء كان ما يزال يضحك معها، وخيل لإدفينا أنها ترى ابتسامته، وتسمع صوته وهو يهمس لها بأن زرقة ثوبها شبيهة بزرقة عينيها، وأن تسريحة شعرها تسحر ـ وجمعت شعرها بشكل لفيفة حول رقبتها، بينما بدا ثوبها الأنيق من الحرير الأزرق الفاتح مدعوكا مبللا، اقترح عليها أحدهم ثوبا صوفيا رماديا لكن لم يتسن لها الوقت للتغيير و... أية أهمية لكل هذا؟ وشارل لم يعد موجودا؟ بقي فيليب و إدفينا برهة طويلة وهما جالسان جنبا إلى جنب

يتذكران الماضي ويحاولان تصور المستقبل. وفي ساعة متأخرة من الليل، اقترحت عليه العودة إلى قرب جورج، وبقيت وحدها تتابع السهر على فاني و تيدي.

استيقظ الطفل وطلب أن يشرب، وعب كأسا من الماء بشراهة، وصرخت فاني واستيقظت مذعورة، ووجب على إدفينا أن تضعها عند ذاك في حضنها، وراحت تصلي بصمت كما فعلت خلال النهار، عندما أقام قبطان **الكارباتيا** قداسا جنائزيا لراحة نفوس الغائبين، لكن معظم الناجين، الرازحين تحت وقع مصيبتهم امتنعوا عن حضوره.

انتهت إدفينا أخيرا إلى النوم، بينما الفجر يلون كوة المكان بلمعان خافت.

لكن صوت تيديَ أيقظها، وثبت عليها نظرة من عينيه الواسعتين الزرقاوين بزرقة عيني أمها، وسألها بكآبة وهو يكاد يجهش بالبكاء:

ــ أين ماما؟

ــ ماما ليست هنا يا حبيبي.

كان تيدي أصغر من أن يعي الحقيقة، لكن إدفينا كرهت أن تكذب عليه صاحت فاني عندئذ: «أنا أيضا أريد ماما.

أسكتتها إدفينا بقبلة قائلة: هيا يا فاني، كوني لطيفة.

وتركت تيدي حردا لعناية إحدى الممرضات المناوبات، ورافقت أختها الصغيرة إلى الحمام، وعندما رأت انعكاس صورتها في المرآة ارتعبت: وجه شاحب، وقسمات مشدودة مخدرة، وزرقة عريضة حول العينين، ونظرة زائغة تصدر عن الحدقتين، فكأنها امرأة عجوز. أصلحت بسرعة شيئا من هندامها، واعتنت بفاني، ثم ذهبت إلى قاعة الطعام حيث ينتظرها أخواها، وكانا هما أيضا بمظهر تعب كما بدا لها عند مشاهدتهما، لكن ركابا آخرين من التيتانيك يجلسون حول مائدة مجاورة لم يكونوا أفضل حالا. كانت أزياؤهم الغريبة تثير الدهشة، وتبدو عليهم جميعا أمارت الذهول، بينما ما فتئت فكرة تجول في ذهن إدفينا: «نحن أحياء» لكنها لم تجرؤ أن تعلق بالقول:«هل هذا يستحق العناء؟»

سأل جورج: كيف أصبح تيدي؟

وبدت ابتسامة شاحبة على شفتي أخته طمأنته وقالت: «أفضل على ما أعتقد وقد وعدته بالعودة خلال عشر دقائق ــ وكانت قد صحبت فاني معها.

قال جورج: «يمكنني أن أذهب إليه إن أردت» ثم تغيرت قسماته، وكأن شبحا غريبا بدا له.

ذعرت إدفينا ومالت نحوه تسأله بالحاح: ماذا دهاك يا جورج؟ ماذا حدث لك؟

كان عاجزا عن أن يتفوه بكلمة، لكنه أشار بإصبعه باتجاه شيء ما ملقي على الأرض إلى جانب فراش. وانحنى بعد ذلك والتقط لعبة من البورسلين.... إنها السيدة توماس!

صاحت إدفينا وقد انتصبت بكامل قامتها: إنها دمية ألكسيا، يجب أن تكون هنا إذا!

وراحوا يسألون بهياج بقية الركاب.

ما من أحد لاحظ وجود فتاة صغيرة بعمر ست سنوات تنطبق عليها الأوصاف التي ذكرت عن ألكسيا. وتأملت إدفينا الدمية مطولا. أليس للصغيرة أليسون دمية مماثلة لها؟

أشار فيليب بقوة، لا مجال أبدا للخطأ، إنها السيدة توماس دمية أخته، إنه يعرفها أينما وضعت، حتى بين آلاف من مثيلاتها.

ــ انظري يا إدفينا، إنها ترتدي الثوب الذي سبق أن أعددته لها.

وقطبت حاجبيها. وتشنج حلقها. من القسوة أن تعيش دمية الكسيا بعدها، سألت فاني بالنبرة المحيرة التي كان يتخذها برت في حياته: «أين ألكسيا؟»

إنها تشبهه بشكل مذهل، وهزت إدفينا كتفيها وقالت بتأثر:

ــ لاأعلم يا عزيزتي.

ــ أهي مختبئة إذا؟

كانت فاني تعرف جيدا عادات ألكسيا، ولكن إدفينا لم تضحك هذه المرة لردة فعل فاني.

ــ لا أعلم يا فاني، وأنا آمل العكس.

ــ وبابا، وماما، أهما مختبئان أيضا؟

لم تعرف الفتاة الشابة بماذا تجيب. وانقضى كامل النهار في أبحاث غير مجدية، فقد بقيت ألكسيا مفقودة. ما من أحد تذكرها. ما من أحد لاحظ وجودها.

ووجب على إدفينا أن تعود إلى المستوصف. وعندما رأى تيدي الدمية مد ذراعيه نحو أخته البكر وهو يتلفظ بمقاطع الكلمات

ــ السيدة تو... ماس، لكسيا...

هو أيضا يتذكر. من الصعب عدم التعرف على الدمية المفضلة لألكسيا وعادت إدفينا حائرة نحو الممرضة

ــ اعذريني... كيف يمكنني معرفة ــ ثم توقفت تبحث بعناء عن الكلمات المناسبة ــ إننا نسأل إن كانت أختنا الصغيرة على الباخرة. إنها طفلة في السادسة من العمر، وقد بقيت مع أبوينا، ومع ذلك...

مرة اخرى فاتتها الكلمات. وبدرت من الممرضة ابتسامة متسامحة، وناولت إدفينا مجموعة أوراق ــ هي ذي قائمة باسماء الأشخاص الذين أنقذوا من قبلنا، بمن فيهم الأولاد، من المحتمل أن تكون البارحة قد ضاعت خلال البلبلة الحاصلة، ما الذي يجعلك تفكرين أنها هنا؟ هل كانت على أحد قوارب الانقاذ؟

ــ كلا... وبنظرة سريعة تصفحت قائمة الأسماء، لكن اسم ألكسيا غير مدرج فيها ــ وأضافت إدفينا بصوت ضعيف: بسبب هذه الدمية، فهي تأخذها معها أينما ذهبت.

ــ هل أنت واثقة أنها ذات الدمية؟

ــ كل الثقة،فأنا قد صنعت لها هذا الثوب الذي ترتديه.

ــ ربما استطاعت طفلة أخرى أن تلتقطها

ـــ ربما... هذا مالم يخطر ببال إدفينا ــ ولكن ربما كانت بين الأطفال الذين لم تحدد هوياتهم؟

شكت الممرضة بذلك، يوجد بعض الأطفال في عمر لا يعرفون فيه النطق بأسمائهم، لكن طفلة بعمر ست سنوات قادرة تماما على التصريح باسمها، في رأي الممرضة.

تصورت إدفينا للحظة أختها منهكة القوى، منطوية على نفسها، صامتة لا تنطق، تجهل أن أخوتها وأخواتها على ذات المركب. وذكرت ذلك للممرضة التي هزت رأسها نفيا، كلا بصراحة إنها ليست من رأيها.

قامت إدفينا بعد الظهر بإجراء دورة على سطح الباخرة، محاولة أن تطرد من ذهنها الصورة الكريهة للتيتانيك، وهي تنتصب بشكل شبه شاقولي قبل أن تنشق نصفين وتغيب عن سطح البحر. كان هناك ناجون آخرون يتجولون ليروحوا قليلا عن أنفسهم. ورأت إدفينا من بعيد الآنسة سربيكا، مربية أطفال السيدة كارتر، وهي تنزه أبناء سيدتها. وكان وليامز و لوسيل يتبعانها طائعين، يبدو عليهما مظهر خبل جميع الأطفال الناجين من **التيتانيك** أما الطفل الثالث، وهي فتاة صغيرة، فتبدو صراحة تحت تأثير الرعب، إذ أنها متعلقة تماما بذراع المربية، ويبدو أنها تسلمها قيادها كليا حتى لتبدو أنها لا تستطيع تقديم رجل على الأخرى... وفجأة أدارت وجهها نحو إدفينا التي اختنقت الصيحة في صدرها، انها هي!..

أسرعت نحو الطفلة، وضمتها بين ذراعيها، ورفعتها مرتعشة، وقلبها يكاد يقفز من صدرها. لقد وجدتها! وجدت ألكسيا!

كانت الآنسة سربيكا متأثرة وهي تحبس دموعها، وانطلقت في سرد مشوش للأحداث. فألكسيا قد ألقيت من فوق جسر النزهة إلى زورق الإنقاذ ــ رقم ٤ ــ . وكانت وحدها، ولم تتأخر السيدة كارتر على أن تشملها بحمايتها، وهي تأمل أن يأتي أحد من أفراد عائلتها ليطالب بها في نيويورك.

ومسحت الآنسة سربيكا عينيها وهي تقول:

ـ هذه الصغيرة لم تفتح فمها منذ يومين، لم تنطق بكلمة، ونحن لا نعلم حتى اسمها. وقد حاولت السيدة كارتر عبثا دفعها إلى الكلام لكن دون نتيجة.

وختمت المربية كلامها بالقول: «ستكون السيدة مسرورة جدا عندما تعلم أن الصغيرة المسكينة قد عثرت على أمها...

هذه الكلمة الأخيرة دفعت ألكسيا للخروج من خمولها، إذ أنها دارت برأسها في جميع الاتجاهات، وعيناها جافلتان، تبحث غريزيا عن كات. وضمتها إدفينا بكل حنان إلى صدرها قائلة:

ـ كلا يا حبيبتي، إنها ليست معنا.

أسفت سريعا على عبارتها ولكن كيف يمكنها التصرف خلاف ذلك؟

نظرت إليها ألكسيا مذهولة، ثم رفعت رأسها وحاولت الهرب وكأنها لا تريد أبدا سماع الحقيقة المرة.

ـ شكرا يا آنسة سربيكا.

وعدت إدفينا بالذهاب شخصيا لشكر السيدة كارتر، ثم قادت ألكسيا نحو الصالة الكبيرة، والفتاة ما تزال جامدة، وهي ترفع عينيها الواسعتين الفاتحتين نحو أختها البكر، إنها حتى الآن لم تلفظ أية كلمة، يبدو في عمق نظرتها قلق ممض حتى إن قلب إدفينا كاد ينفطر حسرة.

تمتمت: آه يا حبيبتي، كم أحبك، وكم كنا قلقين من أجلك... ها هم الستة الآن... إن لمس يد ألكسيا الباردة كان كهبة من السماء لإدفينا، غير أنها لم تستطع الإمتناع عن التفكير بالغائبين، بكات وبرت وشارل. لقد ذهبوا، اختفوا إلى الأبد. إن إدفينا تضحي بعشر سنوات من عمرها لتراهم يظهرون فجأة على سطح هذه الباخرة لكنهم ليسوا هنا، فالكسيا وحدها قد عادت بعد ضياع، شبح صغير من الماضي، الماضي الذي غدا بعيدا جدا رغم قربه.

عندما ناولت ألكسيا دميتها المحبوبة، أمسكت بها الطفلة وقربتها بكل حنان إلى وجهها، ولكن حتى الآن لم تفتر شفتاها عن كلمة، وانهمرت دموع فيليب؛ لكنها نظرت إليه دون أن تتكلم، إنما أبدت أمام جورج انفعالا أكبر.

قال لها بهدوء: مرحبا يا ألكسيا، لقد فتشنا عنك في كل مكان.

لم تجب، لكنها لم تفارقه بعينيها، وهي تتبعه في كل مكان، وأرادت أن تنام معه هذا المساء، وأفسح لها جورج مكانا على فراشه الضيق.

وراحت الفتاة في إغفاءة عميقة تمسك بإحدى يديها يد أخيها، وبالأخرى دميتها. وتأملها الفتى نائمة وأحس أنه يرى وجه أمه من جديد، أخيرا عندما غفا بدوره حلم بأبويه. وكان ما يزال مستغرقا في حلمه هذا، عندما استيقظ وسط الليل على نحيب وبكاء

تمتم وهو يضم اخته إلى صدره: ألكسيا، عودي إلى رقادك، هيا... وتضاعف نحيبها.

سألها قلقا: هل تشعرين بألم؟ هل انت مريضة؟ أتريدين أن أذهب لآتيك بإدفينا؟

كانت أختهما الكبرى قد فضلت قضاء الليل في المستوصف إلى جانب تيدي وفاني.

هزت رأسها بهدوء وجلست في السرير وضمت دميتها إلى صدرها وقالت منتحبة:

أريد... أنا... أريد... ماما.

لم تكن هذه إلا تمتمة ضعيفة. والتمع فيض من الدمع في عيني جورج خلال الظلمة وقال:

ــ وأنا أيضا، يا ألكسيا... وأنا أيضا.

وعادا إلى النوم، واليد في اليد، والخدود مبللة بالدموع، وابتسامة كات العذبة تضيء أحلامهما حتى الصباح.

تابعت **الكارباتيا** طريقها باتجاه نيويورك، قادت إلى مرفأ الأمان الناجين من **التيتانيك**، كانوا سبعمئة وأحد عشر، وحصد الموت الألف وسبعمئة الآخرين.

لن يعود برت وكات وشارل، لن يعودوا أبدا. هكذا انتهت حياتهم فجأة في مكان ما من الأطلسي. لقد غابوا إلى الأبد...

-VI-

وصلت **الكارباتيا** إلى نيويورك مساء الخميس، وكان رذاذ ناعم من المطر يلقي على المدينة غلالة رطبة عندما دخلت الباخرة المرفأ. وتأملت إدفينا مع فيليب ناطحات سحاب مانهاتان الغارقة في الضباب. إنهم يعودون الآن إلى وطنهم. وجدد مرأى تمثال الحرية حزنهم. لقد فقدوا كل شيء، دفعة واحدة. إن كلا منهم للآخر بالتأكيد. وجورج والصغار وكذلك إدفينا ما فتئوا يكررون ذلك، لكن الحياة لن تعود كما كانت، لا يمكن أن تكون هي نفسها وقد فقدوا أهلهم. ودون شارل، شارل الذي كانت ستتزوجه إدفينا بعد أربعة أشهر، شارل الذي ما تزال ضحكته ترن في أذنيها، شارل ولطفه، وحرارته، وحضوره العذب، الرجل الذي أغرمت به، ولن تراه أبدا.... حلم إدفينا الأجمل، وأمنيتها الحميمة، وجميع مشاريع مستقبلها اختفت مع اختفائه.

سالت الدموع على خديها، بينما كانت الكارباتيا تتبع القاطرات بصمت، دون صفارات، ولا حراس، ولا أبواق ابتهاج.

في الليل الفائت أعلن القبطان روسترون عن قراره بمنع الصحافة على باخرته، ولم يسمح لأي مراسل صحفي أن يصعد على متنها، فمن حق الأحياء الباقين بعد كارثة **التيتانيك** أن يبكوا موتاهم في خشوع ووقار، دون إزعاجهم بوابل من الأسئلة الفضولية.

لكن إدفينا لم تكن تفكر بالصحفيين والباخرة تتهيأ للرسو، وذهنها يستحضر دون كلل صور الغرق المعندة.

شعرت بيد فيليب فوق يدها وهو يناديها:

— ويني؟

بعد انقضاء فترة طفولتها لم يعد أحد يناديها بهذا الاسم المصغر التدليلي المحبب وتذكر أخيها له الآن دفع ابتسامة شاحبة إلى محيا الفتاة الشابة.

سألها: ماذا سنفعل الآن؟ .

لم يتسن لها الوقت للتفكير بذلك، فتيدي ما يزال بحالة صحية سيئة، وألكسيا مشوشة بشكل ظاهر، وهما يستأثران بكل اهتمامها، وجورج ليس إلا ظلا من ذاته السابقة، وفاني تنفجر بالبكاء كلما بدا لها أن إدفينا تحاول الابتعاد عنها، لقد وضعها القدر على رأس هذه العائلة الممزقة وهذه المسؤولية الجديدة تثقل على كتفيها كحمل فادح.

ــ لا أعلم يا فيليب... سنعود إلى سان فرانسيسكو عندما تتحسن صحة تيدي، ونحن في الوقت الحاضر مضطرون للبقاء في نيويورك فترة من الوقت.

ما من أحد منهم كان يبدو قادرا على أن يستقل القطار، وهم بحاجة إلى الراحة جميعا... لكن قضايا أخرى برزت أمامها سريعا: من سيهتم بالبيت؟ والصحيفة؟ بدت الإجابة على هذين السؤالين الآن فوق طاقتها. فالماضي وحده يشغل كل أفكارها في هذه البرهة، أشلاء صور سعادة كاملة تعود فجأة إلى ذاكرتها. تسترجع الزمن، وترى نفسها منذ بضعة أيام فقط، وهي على حلبة الرقص مع شارل يدوران متحاضنين على وقع موسيقى الفالس، آخر رقصة فالس لهما. كم رقصا خلال الرحلة البحرية حتى أن خفها الفضي الخفيف قد بلي؛ منذ الآن فصاعدا لن ترقص أبدا!

ويني؟

مرة أخرى عادت لتغرق في ذكرياتها، إن فيليب يرى ذلك في ثبات نظرتها، هذا يحدث له غالبا، هذا يحدث للجميع.

ــ نعم؟ أرجو المعذرة.

كانت تتأمل مرفأ نيويورك تحت المطر، والمصطفون على الدرابزين، من الناجين من كارثة **التيتانيك** ومعظمهم من الأرامل

يسفحون الدموع، منذ أربعة أيام مضت كانوا يحلمون جميعا بعودة مظفرة على متن أروع باخرة في العالم. أربعة أيام، دهر تغيرت فيه أحوال كثيرة.

كان أقارب وأصدقاء ينتظرون معظم هؤلاء، لكن ما من أحد ينتظر آل وينفيلد. فهم لا يعرفون أحدا هنا. كان برت قد حجز أمكنة لهم في فندق ريتزكارلتون حيث كانوا ينوون قضاء بضعة أيام قبل العودة إلى كاليفورنيا وفجأة برزت مشكلات غير منتظرة يجب حلها. ليس معهم مال ولا ملبوسات، بل أن ألكسيا فقدت حذاءها، وإدفينا لا تملك من كل متاع الدنيا إلا ثوب السهرة الأزرق الحريري وهو الآن مدعوك ومبقع، وثوبا رماديا من الصوف أعطي لها على ظهر **الكارباتيا**، وتساءلت لأول مرة في حياتها كيف ستسدد نفقات الفندق، وأخيرا عزمت على إرسال برقية لمكتب والدها في سان فرانسيسكو.

كانوا قد اتصلوا باللاسلكي بشركة «النجم الأبيض White Star» لإبلاغ السيد ربر والليدي هيكام أن أبناء وبنات الأخت وصلوا نيويورك سالمين، وتصورت إدفينا تماما كيف سيكون موقف الخالة ليز عندما ستصلها هذه البرقية ومدى بكائها وحسرتها على فقد أختها الوحيدة.

كانت القاطرات تجر الباخرة نحو رصيف الميناء على المياه القاتمة، وشق صوت صافرة حادة فجأة هواء المرفأ الرطب، وبدأت جميع القوارب والزوارق والسفن الموجودة، يوجه كل على طريقته، التحية لوصول **الكارباتيا**، وتحطم مجن الصمت الذي كان يحيط بالناجين خلال الأيام الأربعة الماضية. وكانت مأساة **التيتانيك** تتصدر الصفحة الأولى من جميع الصحف، وهذا ما لم يشك به فيليب أو إدفينا، فقد لاحظت فجأة أسطولا من اليخوت والمعديات والزوارق البخارية تترك سيولا من الزبد وهي تشق عباب الماء حول **الكارباتيا** وهي مملوءة بالمصورين والصحفيين الوافدين لملاقاة الباخرة.

حرص القبطان روسترون على تنفيذ قراره ومنع رجاله الصحفيين من الصعود إلى الباخرة، وتجمع المصورون في توازن عارض على متون الزوارق يوجهون ومضات آلات تصويرهم إلى **الكارباتيا** وهم ينتظرون نزول ركابها إلى رصيف الميناء. ونجح أحد هؤلاء المصورين في الوصول إلى داخل السفينة لكنه حوصر وحجز ضمن قمرات ضباط بحريتها.

لامس هيكل السفينة برفق الرصيف في الساعة ٣٥د,٢١س وسكنت محركاتها، وخلال لحظة ساد صمت ثقيل على سطوحها، وعلى طول الدرابزين كان الناجون يحبسون أنفاسهم، فرحلتهم المرعبة في نقطة انتهائها، وزوارق إنقاذ **التيتانيك** قد سحبت من مقدمة الكارباتيا، وأنزلت برفق على الجسر العائم، باستثناء أن حمولتها هذه المرة اقتصرت على بحار واحد، والتمعت البروق في السحب، وزأر الرعد فجأة في السماء، وتساقطت قطرات ثخينة من المطر عقب الرذاذ، فبدت مياه المرفأ وكأنها في غليان، وبدت السماء وكأنها تذرف الدموع على الزوارق الفارغة التي ستعرض سريعا لفضول الجمهور المترقب.

انضم جورج وألكسيا إلى إدفينا وفيليب، وبدرت من ألكسيا صيحة هلع وهي ترى الزوارق تتأرجح على الحبال، فالتصقت بأختها البكر، بينما كانت شرارة برق واسعة ترسم خطوطها النارية المنكسرة في السماء، وأعقبتها زمجرة الرعد وتعلقت الفتاة الصغيرة المرتعبة بأذيال إدفينا وهي تتمتم:

ـ هل... سنذهب أيضا... مرة أخرى... داخلها.

أجابت إدفينا: «كلا، يا حبيبتي، كلا». وتسمرت عيناها على هذه المواعين الشبيهة بقشور الجوز التي يعود إلها الفضل في بقائهم على قيد الحياة، والتي لم يكن عددها كافيا لإنقاذ الآخرين.

وضمت براحتيها يدي أختها الصغيرتين المرتعشتين وهي تقـــول: «لا تبكي يا ألكسيا، أرجوك، لا تبكي!». كان هذا كل ما اســـتطاعت أن تقوله بعد أن أقسمت منذ عدة أيام على ألا تقوم بأية وعود كاذبة للأطفال.

كانت المناطق المجاورة للميناء تغص بالناس. وعلى لمعان البروق المصفرة تقدمت الجموع البشرية نحو السفينة بالمئات والألوف (وقـــد ذكرت الصحف أن عدد من وصل الميناء ثلاثون ألفا، بينمـــا انتشـــر عشرة آلاف على طول النهر).

حولت إدفينا عينيها عن الجماهير، ماذا يهمها مـــن كـــل هـــؤلاء الناس؟ لقد فقدت من تحب: أمها، وأباها وشارل هؤلاء الذيـــن كـــانت تعتمد عليهم وحدهم، وليس لها علاقة بأحد من هؤلاء المجهولين، مـــا من أحد ينتظرها مع أخوتها، ما من أحد هنا ليخفف هذا الحمل الـــذي وقع على كاهل إدفينا، وهذا المسكين فيليب الذي سيتحمل مســـؤوليات الرجل الشارد. إنها تسمعه يطلب من جـــورج أن يرتـــدي معطفـــه. واستعرضت إدفينا بنظرة أخوتها وأخواتها. وتوقفت بأسى أمام ثيابـــهم المدعوكة المتسخة، ووجوههم المنهكة، إنهم في هيئة تماثل الوضـــع الذي غدوا فيه: يتامى. ونفذت هذه الكلمة كطعنة في ذهنها لأول مرة.

نزل ركاب الكارباتيا أولا، وعندما ابتعد آخر واحد منهم، خيم صمت غريب على الجمهور، وتبادل الناجون كلمة وداع، ومصافحة، وبعـــض عبارات الشكر والمجاملة مع القبطان قبل أن يتقدموا نحو سلم النزول.

وقفت امرأتان ــ الأوليان المتقدمتان ــ لكنهما تســـمرتا علـــى منصـــة النزول، وبدا عليهما التردد، ولم تجرؤا على خطوة إلـــى الأمـــام، وأرادت إحداهما، ووجهها غارق في الدموع، أن ترجع وقد ذعرت من هذا الزحـــام الذي تضيئه البروق، أخيرا بدأتا بالنزول برفق بعد أن تعانقتا، واضطرتا في وسط السلم أن تتوقفا من جديد، لأن جلبة عالية من الأصوات صدرت عـــن هذه الكتل البشرية المتجمعة، إنها أصوات الإشفاق، والمشاركة الوجدانيـــة، والتفجع. ووضعت ألكسيا راحتي يديها على أذنيها مرتعبة، وصدرت عـــن فاني صيحة باكية قبل أن يرفعها فيليب ويضمها إلى صدره.

هتفت إدفينا: «هيا يا أولاد، هذا لا شيء، لا تخافوا». لكن صوتها ضاع في جلبة الضجيج، فمع نزول كل ناج تلتمع وماضات آلات التصوير على الأرض، بينما تتفجر البروق في السماء بين الغيوم.

وقادت إدفينا عائلتها الصغيرة نحو منصة النزول، فماذا يمكن أن يحصل لهم أسوأ من النكبة التي أصابتهم. كانت تحمل ألكسيا، ويليها فيليب ومعه الصغيران، وفي خاتمة الموكب جورج. وكان رذاذ المطر يبللهم حتى العظم لكنهم استمروا في التقدم؛ والجمهور في الأسفل متحمس على الدوام، ولم تكن قائمة الأحياء قد عممت حتى ذلك الحين، وأهل مسافري **التيتانيك** وأصدقاؤهم يستفهمون عن مصير الغرقى. والأسماء تخترق الضجيج.

ـ شاندلر!... هاريسون!... غات!... هل رأيتم غات؟

على رصيف الميناء، راح آل تاير يقبلون أصدقاءهم من فيلادلفيا. وصفارات الإسعاف، ومحركات العربات، والزمامير تشكل تنافر أصوات يصم الآذان. والتفجرات الضوئية للوماضات تتتابع بعناد.

صرخت ألكسيا وجلة: ماما ! ماما !

أمسك صحفي بذراع إدفينا وسألها:

ـ قولي، أيتها السيدة، أهؤلاء أولادك؟ هل كنتم جميعا على التيتانيك؟

كان مفاجئا لها وفظا في طريقته، وغضبت إدفينا وهي تخلص ذراعها من قبضته قائلة: كلا... نعم... من فضلك...

وتجمهر صحفيون آخرون، وحوصرت بجمهور فضولي، وراحت إدفينا تجاهد بشراسة لتتمكن من شق طريق لها. كان المصورون، قبل ذلك بقليل قد أرهقوا دون شفقة بوميض آلاتهم مادلين استور، قبل أن يتمكن والد المرأة الشابة وحموها من وضعها في ليموزين والسير بها.

أغمضت إدفينا عينيها تحت تأثير أنوار ومضات عدسات التصوير، وناشدت الصحفيين أن يسمحوا لهم بالمرور، وأخيرا تمكنت

مع أخوتها من الوصول إلى إحدى عربات فندق ريــــتزـ كـــارلتون فحشروا أنفسهم فيها، وانطلقت بهم سريعا ســـالكة الجــادة الســابعة، واقتيدوا عند وصولهم إلى الفندق الفخم عبر ممــــرات جانبيــة إلـــى المصعد مباشرة ليتجنبوا رهط الصحفيين المستنفرين علـــى المدخــل وفي الرواق.

استندت إدفينا إلى إطار الباب، وكأنهم لم يغادروا هذا الفندق. كانوا قد نزلوا في ذات الجناح منذ شهر ونصف قبل أن يقلعوا علـــى متــن الباخرة **موريتانيا** باتجاه إنكلترا ليحتفلوا بخطبة إدفينا وشارل

ـ ويني، ما لك؟ هل تشكين من شيء؟

كانت تبدو شاحبة كالأموات، ومع ذلك نجحت أن ترد بعناء:

ـ إنني ... إنني مرتاحة.

منذ بضعة أسابيع، وفي ذات المكان ذي الأثاث الفاخر من خشــب أشجار الكرز الفاتح اللون، وطاقات الأزهار النضرة تمـــلأ أصــص الجناح كانوا جميعا يحلمون ببهجة الرحلة، وبالمستقبل الباســم الـــذي ينتظر إدفينا.

وها هي ذي اليوم تحل في ذات المكان، والقلـــب محطـــم، وهـــي ترتدي ثوب الخطبة الحريري الأزرق الذي يتناثر مزقا.

سألها فيليب: هل تريدين أن أذهب لأطلب تغيير هذه الغرف؟

كان يتأملها بعين قلقة، وأحس بها تكاد تنهار، مـــاذا ســيحل بـــهم جميعا إن أصيبت إدفينا بانهيار عصبي؟ إلى من يلجـــؤون؟ وذعــر، فأراد أن يهرع إلى مساعدتها، لكنها بدت ثابتة في وقفتها، وهي تـــهز رأسها ببطء، وعيناها جافتان، وتأملت أخوتـــها وأخواتـــها، كائنـــات يستحقون كل الحب... وكل الحماية.

قالت: هيا، أعتقد أننا نحتاج جميعا إلى وجبة شهية؛ سيقوم جـــورج باختيار قائمة أطعمتها، بينما يساعد فيليب فاني وألكسيا على ارتــــداء قميصي نومهما.

قالت في نفسها: ولكن ليس لديهن قمصان نوم. إنّما عندما تجوّلت في الغرف اكتشفت أن في كل منها مجموعة ثياب وضعت تحت تصرفهم من قبل إدارة الفندق. تشكيلة متنوعة تلائم ذوق الأولاد: كنزات وتنانير، وبناطلين وكلسات من صوف وأحذية، وقد بسط على سريرين قميصا نوم خاصان بالفتيات، ودميتان، كما وضع دبدوب من مخمل ناعم لتيدي. وعند دخولها إلى الغرفة الأكثر سعة، كان على السرير المزدوج، ثياب نوم خاصة بوالديها، وأحست بأنفاسها تكاد تتوقّف في حلقها وهي تشاهد على منضدة منخفضة سطل جليد وفي منتصفه زجاجة شمبانيا وإلى جانبها كؤوس من كريستال تتوافق معها، وهي تنتظر ضيوفاً لن يأتوا أبداً. وأحرق فيض من الدمع عينيها، وتحشرج صدرها بغصة صغيرة مُرَّة. لكنها لم تمتلك الجرأة على زيارة الغرفة المجاورة، الغرفة المحجوزة لشارل التي أبقت بابها مغلقاً والتفتت نحو الأطفال.

اهتمت بكل شيء بهدوء لا تمتلكه فعلاً، وحرصت على أن يتناول الصغار وجبة طعامهم أولاً. وأن يستحمّوا، ويرتدوا ثياب النوم الجديدة الموضوعة فوق أسرّتهم، وبدأت فاني تحرد معترضة بعدم إمكانها النوم إلا في سرير إدفينا، ورفضت ألكسيا الذهاب إلى سريرها دون صديقتها السيدة توماس، مزدرية الدمية الجميلة المقدمة من قبل الفندق، ولُبِّيَ طلبها.

لكن عندما أرادت إدفينا أن تطفئ النور في غرفتها انعكست على قسمات الفتاة مظاهر ألم تثير حنوّ من يشاهدها. وكان تيدي الصغير ينام بعمق في سرير جديد مريح، وهي بادرة كريمة من إدارة الفندق.

تهالكت إدفينا على مقعد عريض وثير عندما عادت إلى الصالة منهكة، ونظرت إلى فيليب وجورج يلتهمان فروجاً محمّراً كاملاً. أما هي فاكتفت بكأس من النبيذ لم تحتسِ إلا جزءاً منه، وأعلنت للشابين:

ـ غداً صباحاً يجب التفكير بإرسال برقية إلى الخالة ليز وزوجها السير رُبر، وإلى أهل شارل أيضاً... لا شك أنهم أُنبئوا بالكارثة من قبل شركة الملاحة.

وتمثلت إدفينا بشكل تام مدى حزن السيد والسيدة فيتزجرِالد، ووضعت يدها على جبينها وكأنها تريد أن تطرد الرؤيا المعندة لخطيبها وسط المحيط. وراحت تعدد المهام المتعددة الواجب أجراؤها في اليوم التالي: شراء ثياب للأطفال، الذهاب بتيدي إلى طبيب أطفال مختص، العناية بأصابع فاني المحمرّتين من البرد، وعرضها على طبيب اختصاصي إن تطلّب الأمر... كل ما كان يسير تلقائياً في الماضي، بدا لها الآن بثقل الجبال. وفجأة غدت حياتها تتأرجح فوق هوّة، إنما الآن أضيف إلى ألمها الخاص عذاب جديد. وإذا كانت صحّة تيدي وفاني تظهران علائم تحسن ملموس، فإن الوهن الذي تبدو ألكسيا غارقة فيه غدا مصدر قلق مستمر لإدفينا. فخسارة أهلها القاسية ـ وخاصة والدتها ـ قد شوّشت إلى حدّ كبير نفسية الفتاة الحسّاسة منذ البدء، وقد حولت هذه ـ إلى أختها البكر ـ التعلق العميق الذي كانت تحسّ به بالنسبة لأمها كات، فأي غياب مهما قصر لإدفينا يضعها في حالة من القلق شبه هستيرية. من المؤكد أنها ردة فعل طبيعية، فقد تلقوا جميعاً صدمة لن يبرؤوا منها سريعاً، فإدفينا، نفسها تجد صعوبة في كبح حركات يديها المرتعشتين، والحال أن حساسية ألكسيا المفرطة تجعلها أكثر تأثُراً من الباقين.

وانتصبت إدفينا، ليس هذا هو الوقت الذي تسمح فيه للشكّ أن ينخر في نفسها. وهي تردد دائماً، إنما دون إيمان تام إن الزمن يشفي جميع الجروح. ويجب حل جميع المشكلات تدريجياً، إحداها بعد الأخرى، وفق ظهورها، وعليها وهي بكر العائلة أن تمسك الأمور بيدها.

تركت جناحها الخاص، ونزلت إلى الطابق الأرضي وذكرت لموظف الاستقبال رغبتها باستئجار سيارة مع سائقها من أجل نهار الغد. وخرج

مدير الفندق من مكتبه ليعبر لها عن تعاطفه، ولتعزيتها، فآل وينفيلد من زبائن الفندق القدماء بحيث يمكن لمديره أن يعتبرهم من الأصدقاء.

تمتم: «إنني آسف جداً» وبدا عليه الحزن بصدق.

استقبلت إدفينا تعزيته بوقار دون أن تنسى شكره على الهدايا التي قدمها للأطفال. ووقع نظرها وهي تأخذ طريقها إلى المصاعد على وجهين أو ثلاثة وجوه مألوفة من الناجين الذين تتناولهم الآن دورة استمرار الحياة.

كانت الساعة تقترب من الواحدة والنصف صباحاً عندما عادت إلى الجناح فوجدت شقيقيها في الصالة يلعبان الورق، ويتناولان بعض الحلويات ويرتشفان كأساً من المياه الغازية. وعند إطار المدخل، توقفت للحظة مرتبكة. الحياة تعلو ولها الأفضلية، ففكّرت بحزن قبل أن تتحقق أن في هذا يكمن ـ في الواقع ـ خلاص الجميع: تكرار بعض الإجراءات اليومية: الأكل، والنوم، والاستيقاظ، وفي اليوم التالي نهار جديد. إن أخويها وهما في طريقهما للتخلص من رحلة اليفاع، سيتجاوزان هذه المحنة، فالحياة كلها أمامهما، وفيما بعد سيؤسّس كل منهما بيته الخاص وعائلته... أما هي فلا. ليس دون شارل، وما من رجل آخر يتمكن من أن يقتلع شارل من قلبها. إنها واثقة من ذلك. ستكرس حياتها من أجل أخوتها الصغار، هذا كل شيء.

قالت بصوت جهدت أن يكون فيه لهجة من خفّة قدر استطاعتها وهي تغالب دموعها: «ألا تفكران بالنوم هذا المساء أيها السيدان؟».

رفعا عيونهما نحوها، وفجأة، بدرت من جورج ابتسامة عندما لاحظ هندامها المهمل، كانت الابتسامة الأولى التي ارتسمت على شفتيه منذ أن غادروا **التيتانيك**.

قال: يا إلهي، يا إدفينا، انظري إلى هيئتك... إنك بمنتهى البشاعة. وبدرت منه ضحكة، وابتسم فيليب رغماً عنه، والواقع، وفي هذا الجناح الأنيق الفخم بدا ثوب إدفينا غير لائق، ومثيراً للشفقة في آن واحد.

ابتسمت بدورها قائلة: شكرا يا عزيزي. سأحاول غدا أن ألبس بشكل أكثر لياقة حتى لا أسبب لك الخجل.

قال بلهجة متعالية قبل أن ينصرف مجددا للعب: «لنأمل ذلك».

ـ لا تتأخرا كثيرا، أنتما الاثنان ! قالت بما يشبه التوبيخ. وتوجهت نحو قاعة الحمام الفخمة، وهي تنوي أن تأخذ حماما دافئا تزيد فيه رغوة الصابون، وبوقوفها عارية أمام المرآة الكبيرة، وفستانها في طرف يدها، تأملت قماشه المدعوك، وخطر لها للحظة أن تلقيه في كيس القمامة، بحيث لا تعود تراه أبدا. غير أن قسما من ذاتها كان يرغب بكل حرارة أن يحتفظ به. فهو ثوب السهرة الذي لبسته ورقصت فيه لآخر مرة مع شارل. وهو الثوب الذي كانت ترتديه لآخر مرة رأت فيها والديها. إنه ذخيرة حياة محطمة، رمز منعطف مشؤوم لن يكون ما بعده مماثلا في شيء لما قبله.

طوت إدفينا بعناية ثوب الحرير الأزرق الفاتح ورتبته في أحد الدواليب. إنها لا تعرف الآن ماذا ستفعل به فيما بعد، لكن فجأة أدركت أنها لن تنفصل عنه أبدا. إنه كل ما تبقى لها من الماضي. طرف ساتين مدعوك وممزق. ثوب سهرة بسيط يبدو وكأنه يعود لواحدة أخرى. إلى الفتاة الشابة اللامبالية التي كانت، والتي لم تعد موجودة، لكنها ستتذكرها بشكل مبهم جدا، كما يتذكر حلم ضائع.

-VII-

في صباح اليوم التالي رافقت إدفينا، وهي ترتدي الثوب الرمادي الصوفي الذي أعطي لها على متن **الكارباتيا** الأطفال إلى طبيب أشار به مدير الفندق. وبنتيجة فحص دقيق، لم يخف الطبيب دهشته، فناجو التيتانيك الصغار لم يحتفظوا عمليا بأي عقابيل من مغامرتهم المروعة. قد لا تجد أصابع فاني أبدا في المستقبل مرونتها السابقة، لكن ليس من الوارد أن تخسر أي واحد منها. كما صرح أن بقاء تيدي على قيد الحياة بعد برد ذلك اليوم القاسي الذي قضاه في زورق الإنقاذ في عرض البحر يعتبر معجزة. لكن يبدو أن الطفل يستعيد قواه بشكل متميز. أخيرا أمطر إدفينا بالأسئلة بخصوص غرق الباخرة، مؤكدا أنها تعتبر بالنسبة لها اختبارا مريعا بالتأكيد. وكانت تجيبه بكل اقتضاب، غير راغبة في أن تثير أمام الأولاد ذكرى الأحداث المروعة التي عانوا منها.

لكنها رجت النطاسي أن يفحص ألكسيا، وباستثناء بعض زرقة وكدمات خفيفة تلقتها عندما ألقيت في الزورق، لا يظهر على الفتاة أي عارض مقلق، لكن لئن بقي جسمها سليما، فإن نفسها تبدو مصابة، فقد تعرضت لصدمة سيكولوجية خطيرة. هكذا استنتج الطبيب. وهزت إدفينا رأسها، فألكسيا ليست بمثل طبيعتها الأولى وقد لاحظت هذا مباشرة منذ أن رأتها مجددا على سطح **الكارباتيا**. فالخمول الكئيب يلازمها، وقد فقدت شهيتها، ولا تجرؤ على الكلام إلا لمناداة أختها الكبرى، وما عدا ذلك فهي لا مبالية، وكأنها برفضها قبول موت أمها، اختارت بملء إرادتها أن تنفصل عن الواقع.

تمتم الرجل ذو الثوب الأبيض وهو ينتحي بإدفينا جانبا، بينما كانت إحدى الممرضات تساعد الأطفال على ارتداء ملابسهم: «من الممكن أن

تبقى على هذه الحالة مدة من الزمن». لم تثق إدفينا بكلمة من رأي الطبيب، وفكرت أن ألكسيا ترتكس وفق حساسيتها الخاصة. وفي يوم ما، ستصل سريعا جدا هي أيضا، لإيجاد التوازن.

فهي بين الجميع الأكثر تعلقا بأمها، وأي شيء أكثر واقعية من أن تكون الأكثر تأثرا بفقدانها؟. إن إدفينا لا تسمح أن تتحطم حياتهم نهائيا، وحياة الأطفال على الخصوص. وقد أقسمت على ذلك.

أضاف الطبيب: «يمكنكم أن تأخذوا القطار إلى سان فرانسيسكو خلال أسبوع. دعي للأولاد الوقت اللازم لاستعادة قواهم.

الوقت دائما، هي أيضا بحاجة إليه.

وعادوا إلى الفندق. كان جورج وفيليب يقلبان صحف ذلك اليوم. وقد خصصت **نيويورك تايمز** نحو خمس عشرة صفحة لكابوس التيتانيك. مقابلات مع الناجين، تتناوب مع تعليقات الإخباريين. أراد جورج أن يقرأ لها جميع هذه التعليقات، لكنها ثبطت همته، كانت قد رفضت ثلاث مقابلات صحفية، ورمت في سلة المهملات نصف دزينة من رسائل كتاب الريبورتاج. ونقلت صحيفة والدها بأقل التفاصيل حادث غرق أكبر مركب بني حتى الآن... ستكون، إن ارتضت أية مقابلة، ملزمة بالإجابة على أسئلة الصحفيين، وهي تحتفظ بحقها في تجنب أي اتصال بها من قبل الصحافة ذات الإثارة النيويوركية التي تكرهها.

كانت رسالة أخرى تنتظرها في الفندق، فقد تشكلت لجنة من أعضاء في مجلس الشيوخ وستجتمع اعتبارا من اليوم التالي في فندق **والدورف استوريا**، وهي مدعوة في اليوم الذي يوافقها للإدلاء أمامها بشهادتها.

تضيف الرسالة: إن اللجنة التي تقوم بتحقيق معمق حول ظروف الحادث تهتم بصورة خاصة بآراء كل شخص نجا من الغرق، بهدف تجنب مثل هذه الكوارث مستقبلا.

طلبت إلى الجناح وجبة غداء وفيرة، وأعلنت في أثناء تناول الحلوى أنها تفكر بالذهاب للقيام ببعض المشتريات.

هتف جورج وقد استعاد شيئا من حماسته السابقة: «يا للمناسبة ! ألا نذهب معك أيضا ؟.

اكتشفت فيه فجأة حس سرعة البديهة والمبادرة التي اشتهر بها والدهم وارتسمت على شفتيها ابتسامة كئيبة وقالت:

ـ أفضل أن تبقى أنت وفيليب مع الأطفال.

ذكرت أنها ستعمد إلى تعيين مربية جديدة عند وصولهم إلى سان فرانسيسكو، وبذلت جهدا شاقا جدا لتطرد من نفسها ذكرى أونا المسكينة. كان يكفي بروز تفصيل تافه كهذا أو كلمة بسيطة عابرة، لإحياء أشباح الماضي.

مرت إدفينا على المصرف بعد الظهر حيث استلمت مبلغا كبيرا من المال أرسله إليها مكتب والدها. ومن هناك انتقلت إلى متجر آلتمن عند زاوية التقاء الجادة الخامسة بالشارع رقم ٣٤، ومنه إلى متجر أوبنهايم كولنز، وعندما عادت إلى الفندق حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر وجدت أنها أنفقت دون حساب.

في جناحهم، كان جورج وفيليب يلعبان الورق مجددا.

سألت وهي تضع على المدخل كومة من أكياس كبيرة من الورق تحوي الثياب المناسبة لكل من أخويها الشابين: «أين الآخرون؟»

كانت قد تخلت عن الفستان الصوفي الرمادي، وارتدت «تايورا» أسود أنيقا اشترته قبل ذلك بقليل، مع خمس بزات أخرى سوداء أيضا. في هذه الأزياء الجديدة، ذات الألوان القاتمة، ستبدو بالتأكيد وكأنها أم الأطفال كما جال في خاطرها.

أشار فيليب بيده، دون أن يرفع نظره إلى الغرفة في أقصى الجناح، ودفعت إدفينا بابها بحركة رشيقة، فبدا لها مشهد دفعها إلى إطلاق صرخة دهشة فرحة. كان تيدي وفاني وألكسيا يلعبون بإشراف

حان من إحدى عاملات الخدمة في الفندق وقد انتثرت على الأرض مجموعة كبيرة من الألعاب: حصان مؤرجح، قطار كهربائي، نصف دزينة من الدمى، كتب مصورة، دفاتر للتلوين، عدا عن عشرات الرزم الأخرى التي ما تزال ملفوفة بأوراقها الملونة المصقولة.

تنهدت هاتفة وهي تعود إلى مكان وجود أخويها اللذين كانا يتابعان جولة لعب الورق: «يا إلهي، من أين كل هذا البازار؟»

هز جورج كتفيه، وألقى على المائدة الخضراء ورقة لعب أثارت غيظ أخيه. وأجاب فيليب:

ـ ما عليك إلا أن تقرئي البطاقات المرافقة. صحيفة «**نيويورك تايمز**» أرسلت بعض أشياء، شركة «خطوط النجم الأبيض» أشياء أخرى، عدا ما أرسل من منظمات أخرى... إنها هدايا على ما أعتقد.

عادت إدفينا منذهلة إلى غرفة الأطفال التي بدت وكأنها قاعة اللعب في روضة، وأخوتها منصرفون كلية بفرح إلى اللعب، تيدي يتأرجح على الحصان الخشبي، بينما بدت أختاه كأنهما تتناولان الشاي مع بعض الدمى، وقد ظهر الفرح جليا على وجه فاني، حتى ألكسيا تخلت عن مظهرها الكئيب، فالفتاة بدت مبتسمة عندما رفعت عينيها باتجاه إدفينا. كانت تعد مع أمها الاحتفال بعيد ميلادها في اليوم الذي غرقت فيه **التيتانيك**، وها هي ذي ألكسيا الآن تعوض ما فقدته، فبهاء هذا الاحتفال يعادل مناسبة عشرة أعياد ميلاد.

تراجعت إدفينا إلى الصالة وهي تقول: يا إلهي، أين سنضع كل هذه الأشياء؟.

عقب جورج بهدوء: أفترض أن علينا أن نأخذها إلى المنزل.

تبعها فيليب بنظره، بينما كانت تكد لترتيب مشترياتها وسألها:

ـ هل وجدت كل ما ترغبين به؟

ثم استأنف وقد بدا عليه عدم الرضى لمرأى التايور الأسود الذي ترتديه:«هل أنت عازمة حقا على ارتداء هذه الأطمار التي تليق بالجدات؟».

ـ إن الأسود ليس موضة الآن، ولكن...

ولكن هي في حداد، ومن المحتمل أن تبقى فيه طيلة العمر. فهي لن ترتدي أبدا زي الشابات، فإدفينا لم تعد تشعر بأنها شابة. فشبابها قد سلب منها، شبابها يرقد الآن في لجة عميقة من المحيط الواسع البارد، مع حطام **التيتانيك**.

قطب فيليب حاجبيه، وبدا أنه أدرك أخيرا سبب اختيارها للون الأسود وغاض الدم من وجهه، إن ذلك لم يخطر على باله في البدء، وتساءل إن كان يجب عليه هو وجورج، أن يضعا ربطة عنق سوداء، أو شريطة سوداء على كم قمصانهما دلالة على الحداد كما فعلا عند وفاة جديهما، إنها شارة احترام كما شرحت لهما أمهما في حينه. غير أن والدهما علق بالقول إنه لا يؤمن بكل هذا الهذر، وفي النهاية كان زوج الخالة ربر وحده من رأي الوالد... زوج الخالة ربر، وقفز الفتى، لقد نسي هذا.

ـ إدفينا تلقينا هذا الصباح برقية من الخالة ليز وزوج الخالة ربر.

ـ يا إلهي، كيف نسيت؟ كنت أنوي أن أرسل لهما برقية هذا الصباح، أين برقيتهما؟

أشار فيليب إلى المكتب حيث تتكدس مختلف أنواع الرسائل، وجلست إدفينا إليه بتثاقل. ببعض أسطر ذكر زوج الخالة أن خالتهما ليز ستصل إلى نيويورك مع أول رحلة مقبلة للباخرة **أولمبيك** لتقلهم جميعا إلى إنكلترة. انتصبت إدفينا وقد اكفهر وجهها، فالخالة المسكينة ليز ستتعرض عبثا لدوار البحر، إذ يستحيل على إدفينا وربما على أخوتها، أن يقوما مجددا بعبور الأطلسي، أبدا لن تصعد إلى المركب دون أن تبرز في مخيلتها الرؤية الأبدية للتيتانيك وقد ارتفعت مؤخرتها إلى السماء المرصعة بالنجوم، في ذات المساء ردت على برقية خالتها تطلب منها العدول عن مشروعها وانتهت إلى القول: «خلال عدة أيام سنعود إلى كاليفورنية».

في صباح اليوم التالي، تلقت برقية جديدة.

«لا مجال للمناقشة، ستعودون إلى بريطانية العظمى مع خالتكم إليزابيت. ما من حل آخر. نقطة. إلى لقاء قريب.

التوقيع: ربر هيكام»

سأل جورج مذعورا: أحقا سنعود لندفن أنفسنا في تلك البلاد؟

وعندها بدأت فاني تحرد بدورها: كلا إنها لن تذهب إلى هافرمور مانور، فلقد تضجرت جدا هناك، عدا ما أصابهم من البرد.

صاحت إدفينا: كفي عن الشكوى أيتها الحمقاء الصغيرة، إننا لن نذهب من هنا إلا إلى سان فرانسيسكو، هل هذا واضح؟

خمسة رؤوس هزت رأسها بالموافقة، وخمسة أزواج من الأعين تثبتت على وجهها وقد بدا بمنتهى الوقار، وخمسة أفواه أطلقت كلمة «نعم» كجوقة موسيقية، ولم يبق إلا إقناع اللورد هيكام... وأرسلت إدفينا بسرعة برقية أخرى. وجاءها رد الفعل بسرعة، واعترضت، وأصر السير ربر على موقفه. وكانت نتيجة هذا التبادل البرقي المسعور أن توقفت المعركة لعدم وجود مقاتلين. فالخالة ليز اضطرت إلى ملازمة الفراش عقب إصابتها بأنفلونزا حادة مما اضطرها إلى تأجيل سفرها، كذلك منعت نوبة جديدة من النقرس أي انتقال لزوجها العنيد. وخلال ذلك الوقت وضعت إدفينا النقاط على الحروف: «لا مبرر للحضور إلى نيويورك، سنعود إلى منزلنا. نقطة. على الرحب والسعة بزيارتكم لنا هناك. مع كل مودتنا».

ــ «هل أنت واثقة أنهم لن يأتوا إلى سان فرانسيسكو ليأخذونا؟» سأل جورج بإلحاح وقد جحظت عيناه.

ــ إنها خالتنا وزوجها يا جورج، وليسا خطافين، وعرضهما منطلق من عاطفة طيبة، إنهما قلقان من أجلنا، لكننا سنبرهن لهما أن بإمكاننا تدبير شؤوننا بمفردنا.

كانت تفكر بهذا طويلا، وفي كل ليلة عندما تتقلب دون انقطاع في سريرها. فوالدها قد وضع فريقا من المحررين قادرا تماما على متابعة إصدار الصحيفة. وكان برت يقول أحيانا، إن قراء صحيفته، إن حدث له حادث، لن يشعروا بغيابه. وتأمل إدفينا الآن ألا يكون أبوها قد أخطأ. وبعد أن قارنت الحسنات والسيئات قررت عدم بيع الصحيفة، فهي مورد دخلهم الرئيس، ويجب تنشئة خمسة أولاد. وفي نهاية صراع داخلي لا متناه، خرجت منتصرة. بل استمدت قوة جديدة، ولن يغير أحد رأيها، لا ربر ولا ليز. إنها واثقة الآن. ستحرص على الاحتفاظ بالصحيفة والمنزل، وكل ممتلكات أهلها إلى أن يصل إخوتها وأخواتها إلى المرحلة التي تؤهل كلا منهم للتصرف بميراثه. كان السير ربر من جهته، في عمق ريفه الإنكليزي يرسم مشاريع أخرى وتضمنت خطته قسمين: إقناع إدفينا بإغلاق منزلهم الكاليفورني، والتخلص من الصحيفة. ثم ضم أبناء وينفيلد إليه والاهتمام شخصيا بتربيتهم...

لكنه لم يحسب حسابا لعناد أبنة أخت زوجته التي اتخذت قرارا جازما بأن تعود بعائلتها إلى حيث كانوا، إلى سان فرانسيسكو.

مر الأسبوع التالي بسرعة مذهلة، بين الزيارات الطبية والخروج للترويح عن النفس. ولم تشعر إدفينا بمرور الوقت، فحالة الصغار الصحية تتحسن يوما بعد يوم. وكانوا يذهبون للتنزه في «**سنترال بارك**»، وللغداء في «**البلازا**» ولتأمل واجهات المتاجر في الجادة الخامسة. وذهبت إدفينا مع جورج يستكشفان المتاجر لشراء سترة. كانت قد اشترت واحدة له. لكنه وجدها بشعة جدا. كان الأولاد كل صباح يبدون أكثر هدوءا ، وأكثر استراحة، وكانت تشرق على وجوههم الصغيرة ابتسامة عذبة، وتتضاءل تدريجيا تلك النظرة القلقة التي تلهب أحداقهم. أما في الليل فالأمر يختلف، فالليل يحمل نصيبه

من تذكراتهم المبهمة، ومخاوفهم، ويحل السكون عندئذ في غرفهم التي تخيم عليها أشباح الماضي... وللمرة المئة تنتصب التيتانيك بهدوء قبل أن تنشق إلى نصفين، وتنغلق التدفقات المتوجة بالزبد فجأة على الهيكل العملاق المحطم. وغالبا ما تستيقظ ألكسيا ليلا وتصرخ مذعورة، ويجب الذهاب عند ذاك لطمأنتها، وهو ما تسعى إليه إدفينا بأفضل الوسائل، فإدفينا دائما هنا.

في الأمسية الأخيرة، تناولوا العشاء في جناحهم، وانتهت السهرة بهدوء بجولة في لعب الورق، قام بعدها جورج بإضحاكهم بتقليد توبيخات زوج الخالة ربر. لامته إدفينا قائلة: «إنك تبالغ فالرجل المسكين ذو نوايا طيبة بالنسبة لنا».

لكنها لأول مرة منذ أيام وأيام ضحكت، هي بدورها. وحدها ألكسيا لم تشارك في هذا المرح العام. وفيما بعد، وخلال منتصف الليل تمتمت بصوت منتحب في الغرفة المظلمة التي تشارك فيها إدفينا وفاني وتيدي:

ـ لا أريد أن أعود إلى المنزل.

أحاطتها أختها البكر بذراع حانية، وسألتها هامسة خشية أن توقظ الولدين الآخرين وهي تشعر بخدها المبلل بالدموع على كتفها: لماذا، يا حبيبتي، ما الذي يخيفك؟ لا يمكن أن يحصل لنا شيء هناك.

ما الذي يحدث لشخص ينجو من الجحيم؟ أحيانا، تأسف إدفينا لأنها لم تهلك هي أيضا في كارثة الغرق. كانت تبدو لها الحياة في بعض اللحظات دون أبويها وشارل، خالية من كل معنى. لم يتسن لها الوقت لتبكي خطيبها أو لتستذكر الأوقات الرائعة التي قضياها معا. وفي المرات النادرة التي حدث لها ذلك خيل إليها أنها تكاد تختنق من الألم، الألم الذي لا يمكن تخفيفه، كما تبين لها. إن واجبها تجاه أخوتها الأطفال الذين عهد القدر إليها بهم هو الذي يدفعها إلى التشبث بالحياة. والتفتت إلى ألكسيا :

ـ ستشاهدين صديقاتك، ورفاق صفك... و...

لكن الفتاة قاطعتها، وهي تهز رأسها بقوة: ولكن لن أرى أمي. لن تكون أمي في البيت عندما نعود إليه.

ـ كلا يا ألكسيا، لن تكون في البيت، لكنها ستكون في قلوبنا وفي ذكرياتنا. سنفكر بهم دائما يا عزيزتي، بماما وبابا، وشارل. هناك ستشعرين أنك أكثر قربا من ماما، سترين.

كان المسكن الواسع قد زين من قبل كات، فكل غرفة فيه، وكل قطعة أثاث، وكل شيء، يذكر بغيابها.

ـ ألا ترغبين برؤية جنبات الورد التي زرعتها ماما في العام الماضي؟

ـ أوه، كلا، كلا. قالت ألكسيا منتحبة وأصابعها منعقدة حول رقبة أختها البكر.

ـ لا تبكي يا كنزي الغالي، ولا تخافي، أنا هنا... وسأبقى دائما هنا... معك... معكم.

وبينما كانت تهدهد برفق الطفلة الصغيرة، أدركت أنها لن تتركهم أبدا، لا يحق لها تركهم، خيل إليها أنها تسمع صوت كات الصافي يعلن كم هو واسع حب الأم لأولادها. وبينما كان النعاس يثقل أجفانها، تذكرت بوضوح كلماتها. «الحب الكبير»... الأكبر دون شك.

-VIII-

تركوا نيويورك يوم الجمعة في ٢٦ نيسان، بعد أحد عشر يوما من غرق التيتانيك. كانت السماء مكفهرة، والعاصفة تزمجر. وأقلتهم إحدى السيارات إلى المحطة، عندما بللت أولى قطرات المطر الإسفلت. بعد قليل، وبعد أخذ أماكنهم في المقصورة الخاصة بهم، تفقدت إدفينا أمتعتهم التي وضعها سائق التكسي على الشبكة. كان مكتب شحن فندق ريتزكارلتون قد أرسل رزم الهدايا بواسطة قطار آخر إلى سان فرنسيسكو. وسرحت نظرها، بهيئة قلقة على الحقائب الجديدة المصفوفة فوق المكان المخصص لها. إنها كل ما بقي لهم.

لم يكن أخواها الصغيران في سن تسمح لهما بتقدير الوضع. وألكسيا لا تريد ـ أولا تستطيع ـ الإدراك. وحدهما فيليب وجورج يملكان نظرة واضحة للحال. وفيليب يشعر أنه مستعد لمقاسمة أخته الكبرى ثقل مسؤوليات العائلة، وجورج يرثي لها من صميم قلبه، فمنذ أن وضع القدر إدفينا على رأس العائلة، وهي لا تعرف أين تضع رأسها، فقد لاحظ جورج أنها تحمل دائما أحد الأطفال بين ذراعيها.. ففاني قد غدت دائمة التذمر، وتيدي يحتاج دون انقطاع لشيء ما، ووضع ألكسيا هو الأسوأ. إنها تقضي معظم وقتها متعلقة بأذيال أختها البكر كأنها سترة إنقاذ، وإذا شاء سوء الحظ ظهور شخص غريب، تختبىء الطفلة سريعا، وتكتشفها إدفينا فيما بعد تحت السرير أو خلف الستائر. «وجب ان يكون لها ثماني أذرع وأربع أرجل» فكر جورج بحزن؛ وكان قد عاهد نفسه أن يخفف من غلوائه، كي لا يسبب لإدفينا هموما إضافية. فهو أيضا قد سحب فجأة من الطفولة.... وهو أيضا لديه ما يكدره.

كانت قد استأجرت في القطار مقصورتين بهدف رفاهية أكبر، وكأن الرفاهية تجعلهم ينسون كارثة الغرق، والليل في الزوارق، أو أسرة الميدان على ظهر الكارباتيا. وعندما بدأ القطار انطلاقه، صدرت عنها تنهدة انفراج، وعمر صدرها الإرتياح. فهم عائدون إلى منزلهم. وراقبت لهاث القاطرة المنتظم باحساس من الأمان. وداعب أجفانها نعاس عذب، فغاصت في مقعدها تاركة لحركة المقطورة هدهدتها. لكنها ما كادت تطبق عينيها حتى ارتسمت صورة شارل تحت أجفانها المغلقة. حتى ذلك الحين لم يتسن لها الوقت للتفكير به، إلا في مناسبات نادرة، في وقت متأخر من الليل، عندما ينام الجميع. حفظت صورة شارل، كما رأته لآخر مرة على متن التيتانيك قبل الكارثة بلحظات. والآن تتراءى لها ابتسامته، وتكاد تشعر بحرارة راحة يده على ذراعها؛ ودفء شفتيه على شفتيها. لو بقي لكان زوجا رائعا... ولجعلها سعيدة.

شعرت أن عجلات القطار التي تدور دون تعب على محاورها، تتمتم باسمه بطريقة منتظمة: «شا..رل....شا..رل...شا...رل....» ثم «أحب...ك...أحب...ك...أحب...ك»

ترقرقت الدموع في عينيها. كم من مرة أسفت لأنها لم تبق إلى جانبه على جسر زوارق الإنقاذ! كم من مرة فضلت لو أنها غرقت معه في أعماق المحيط المجمدة ويدها في يده!. لكن التفكير بالأولاد أعادها إلى التعقل.

أنبأتها قراءة الصحف، وهم يعبرون الولايات، بمعلومات إضافية عن تطورات الكارثة. فأخبار التيتانيك في كل مكان، وفي كل الصحف، وكل المجلات. كانت لجنة التحقيق التي شكلها مجلس الشيوخ قد تابعت أعمالها في نيويورك؛ وقد لبت إدفينا دعوتها، وأجابت على أسئلة المحققين.

كانت النتائج التي استخلصتها هذه اللجنة منشورة الآن في كل الصحف الكبرى؛ فالجبل الجليدي قد ضرب الميمنة الأمامية للتيتانيك، قبل أن يكشط جانبها مسببا أضرارا جسيمة في صفائح هيكلها. كان شرخا بطول ثلاثمئة قدم هو السبب في دمار عملاق البحار.

فكرت إدفينا وهي تقرأ هذه التحقيقات: «ياإلهي! ما أهمية هذا؟ وماذا يمكن أن ينتج؟». لأي سبب بدا الجمهور متعطشا للتفاصيل؟ لأن الحقيقة على الأرجح، مهما كانت مروعة تفضل على الشك. فالخوف أقل عند عدم الإنسياق مع افتراضات المخيلة الغريبة. وبين ضربة القدر، والخطأ البشري، يبدو الأمر الثاني أكثر تقبلا للإحتمال. وللأسف، ووفقا لرأي المحققين، فإن الحقيقة تتجاوز الخيال. وعناوين الصحف، تراكم مرافعات اتهام صريحة ضد بناة التيتانيك. وإلى واقع أن الباخرة العملاقة لم تكن تتضمن من وسائل الإنقاذ إلا ما يكفي لنصف الركاب، أضيفت معلومات أخرى ليست أقل خزيا. فمعظم قوارب الإنقاذ الأولى قد أقلعت من الباخرة ونصفها فارغ. وفيما بعد؛ عندما ألقى بعض المسافرين بأنفسهم من أعلى السطوح، لم يرد الناجون التقاطهم خشية ان تنقلب زوارقهم.

أخذت المأساة تنبسط يوما بعد يوم؛ على طريقة الرواية المسلسلة.

وتركت إدفينا لفيليب وجورج الحظوة المكدرة في اكتشافات جديدة. فما من شيء يعيد إلى الحياة أولئك الذين فقدتهم. وبينما كان القطار يتابع طريقه، أعلنت إحدى الصحف أن ثلاثمئة وثماني وعشرين جثة قد انتشلت من البحر. ولم تكن بينها لاجثة أمها ولا جثة أبيها ولا جثة شارل. هذا ما عرفته حتى قبل مغادرتها نيويورك.

تلقت برقية من آل فيتنرجرالد في يوم رحيلها، وقد أكد لها والدا شارل عميق محبتهما، وذرفت دموعا جديدة على هذه البرقية. ثم وبشكل غريب، وردت إلى خاطرها الطرحة التي كانت تهيئها لها

السيدة فيتزجرالد لترتديها في حفل الزفاف في شهر آب! أوه! إنها لاتريد مزيدا من هذه الأفكار!

وخلال تلك الليلة التي كان القطار فيها يجري بكل سرعته بقيت مستيقظة، وعيناها مسمرتان على زجاج النافذة القاتم. والقفازان اللذان ألقى بهما شارل من فوق حافة الباخرة مستقران في حقيبتها؛ فهي غير قادرة على رؤيتهما، ولكن معرفة أنهما هنا، قريبان منها، تقويها.

كان الكرى مايزال يجفو عينيها عندما برزت في الأفق جبال «الروشوز» وهي محاطة بهالة من بريق الفجر الوردي. ستنتهي رحلتهم يوم غد، ولأول مرة منذ خمسة عشر يوما شعرت أنها أحسن حالا

ـ متى سنصل؟

كانت هذه السائلة هي فاني التي راحت ترقب الجبال بنظرة رضى. إن الطفلة لايمكنها أبدا الإنتظار وما أن تصل إلى المنزل ـ وفقا لتصريحها ـ حتى تصنع قالبا ضخما، قالبا هائلا من الكاتو، كاتو بالشوكولا كما تفعل أمها وهزت إدفينا رأسها. وفي العشية اقترح جورج ألا يذهب إلى المدرسة، ويبقى لمساعدة أخته في البيت. ولقيت إدفينا منتهى الصعوبة لإقناعه بالتخلي عن فكرته. أما فيليب فكان قلقا على مستقبله، إذ لم يتبق له إلا عام قبل ان يلتحق بجامعة هارفارد، وهي التي تخرج منها أبوه قبله. ألحت فاني مستخدمة اسم التصغير الذي طالما أحبته أختها الكبرى:ويني؟

ـ نعم؛ فرانس؟

صاحت الفتاة بصوت مشوب باللوم: « أوه لاتناديني هكذا!.

قولي ، هل ستنامين في غرفة ماما، غدا مساء؟

ـ كلا... لا أعتقد... سأنام في غرفتي الخاصة.

كان غير وارد أن تحتل الغرفة الفسيحة العائدة إلى والديها.

ـ لكن بما أنك أمنا الآن...

وبدا الحرد على فاني، وفاجأت إدفينا العبرات تترقرق في عيني فيليب الذي أسرع بتحويل رأسه نحو النافذة.

قالت ادفينا بهدوء، وإنما بحزن: كلا يافاني، لست أمكم، إنما أنا دائما أختكم الكبرى إدفينا.

ــ لكن من ستكون أمنا إذا؟

ماذا يمكن القول؟ وأي جواب يمكن ابتكاره؟ صمت الجميع في المقصورة حتى جورج.

نجحت إدفينا أخيرا في أن تتمتم: لايمكن تغيير الأم أبدا.

هذا كل ما أمكنها قوله؛ وعندها قطبت فاني حاجبيها، وارتعشت شفتها السفلى، وبدت وكأنها توشك على البكاء وقالت بصوت متهدج:

ــ ولكنك قلت إنك ستهتمين بنا لأن أمنا لم تعد موجودة.

ضمتها ادفينا إلى صدرها قائلة: وأنا عند كلمتي يا حبيبتي.

وانزلق نظرها نحو ألكسيا المتكومة في زاوية وعيناها مغمضتان؛ ثم تابعت بلهجة أكثر يقينا:

سأحاول أن أفعل كل ما كانت تفعله ماما... لكنني لن أستطيع أن أحل محلها. ستبقى دائما أمنا، أمنا جميعا؛ هل فهمت؟.

هزت الصغيرة رأسها مقتنعة وقالت: أوه! نعم

ثم أرادت أن توضح نقطة نهائية فسألتها: هل ستنامين في سريري؟

ــ «إنه ضيق جدا، كلا». أجابت إدفينا مع ابتسامة عذبة.

كان هذا السرير تحفة حقيقية أوصى عليه برت عند ولادة طفله الأول. استأنفت إدفينا: لكن يمكنك من وقت إلى آخر ان تأتي للنوم في غرفتي.... ثم أضافت دون أن تتلقى جوابا، وأنت أيضا ياألكسيا.

قال جورج وهو يضحك: وأنا أليس لي دور؟

ونقر بإصبعه على أنف فاني، وقدم سكرة إلى ألكسيا.

فكرت إدفينا وقد غمرها الإنفعال:«كم تغير!». كانت قد لاحظت ذلك خلال الأسبوعين الأخيرين. فالفتى الصاخب اللامبالي قد تحول إلى نموذج مثالي في حسن التصرف.

بينما كان القطار السريع يحاذي جبال الروشوز، والسماء تتحول مع النهار إلى الزرقة القاتمة، كانت فرحتهم بقرب الوصول إلى مدينتهم مسقط رأسهم، يشوبها شيء من الحزن. ما من أحد تكلم لفترة طويلة.

وتساءلت إدفينا كيف سيرون المنزل دون أهلهم. وكانت تعلم أن الآخرين يطرحون على أنفسهم السؤال ذاته.

في الليل التالي وهو الأخير في الرحلة، تمكنت إدفينا من أن تسترخي في شبه إغفاءة لساعتين أو ثلاث ساعات. وفي الساعة السادسة صباحا كانت قد هبت واقفة، وبعدها بقليل، وبعد ان ارتدت ثوبها الأنيق الأسود، راحت تطرق باب أخويها اليافعين، ثم عمدت إلى إيقاظ الصغار. وفي الساعة السابعة صباحا كانوا يجلسون إلى مائدة في القاطرة ـ المطعم. وطلب فيليب وجورج فطورا وفيرا، وأحضرت إدفينا منقوع الحبوب لتيدي وفاني. أما ألكسيا فقد غرزت شوكتها في البيض المخفوق لكنها لم تستطع ان تبتلع منه لقمة.

عند العودة إلى المقصورة قامت إدفينا بتمشيط الأولاد. وبذلت في ذلك عناية فائقة وزينت شعر فاني وألكسيا بأشرطة جديدة؛ كانت تجهل من ستصادف في محطة القطار. إنما دون شك، سيأتي العاملون في صحيفة أبيها، ولذلك فهي تحرص على أن تعطي العائلة انطباعا جيدا.

أن شفقة الأشخاص هي آخر شيء تحتاج إليه. وهي محافظة على إبائها رغم آلامها.

كانوا على أتم الإستعداد عندما دخل القطار إلى المحطة. وأحست إدفينا باهتزاز العجلات وهي تلتصق بالسكة الحديدية، ثم بتوقف قافلة المقطورات.

لقد وصلوا. نظرت إدفينا إلى إخوتها وأخواتها، والغصة في حلقها. لم يتبادلوا كلمة، لكنهم جميعا يشعرون بالتأثر ذاته، والإحساس المرهق ذاته، وبالتمزق ذاته.

لقد عادوا أخيرا، مختلفين تماما عما كانوا عليه عند سفرهم منذ شهرين، وحيدين، ومع ذلك كانوا شديدي الإرتباط بعضهم ببعضهم الآخر.

-IX-

نزلوا من القطار في نهار ربيعي مشمس، والأشجار مثقلة بالأزهار والربى مفروشة بها. وتوقفت إدفينا للحظة على مرقاة العربة، وسرحت بأنظارها حولها. كانت تتوقع أن ترى الأمكنة باقية على ذات الوضع الذي تركتها فيه منذ شهرين. ولكن كلا! فالمشهد ليس هو ذاته. شيء ما قد تغير بشكل لا يعوض. فعلى غرار حياتها الخاصة، يبدو كل شيء متغيرا؛ متحولا. تركت تلك المدينة والقلب يرقص بخفة، في لامبالاة سنواتها العشرين البريئة، مع أهلها، ومع شارل. والرأس تعمره الأحلام، وتهدهده الأوهام، وهي تنعم بيقين مستقبل، لا تعكره سحب مكدرة؛ فبينما كانوا يتجولون عبر الولايات المتحدة، رسم الخطيبان لوحة رائعة لسعادتهما مستقبلا: البلدان التي سيزورانها، والكتب التي سيقرآنها، والمسرحيات التي سيشهدانها، والأولاد الذين سينجبانهم... فالحياة كلها أمامهما. وهاهي ذي الآن تعود يحطمها الحزن، وحيدة في العالم، وهي ترتدي هذا الثوب الأسود الذي يزيدها نحافة، ويزيدها عمرا؛ وقبعة سوداء اشترتها من نيويورك تتمم هذا المظهر المتقشف. ووضعت رجلا على الأرض، وعبر شبك غلالة قبعتها، رأتهم، في نهاية المحطة وهم ينتظرونها، كما توقعت، وآلات التصوير في أيديهم. كتبة ريبورتاج مرسلون من قبل صحيفة والدها، وكذلك من صحف أخرى. وما كادت تسير خطوة إلى الأمام، حتى فرقعت وماضات آلات التصوير. ورفعت تيدي بين ذراعيها وتابعت خطواتها محاولة تجاهل الفضوليين الذين تجمهروا على طول الممر الذي تسلكه، وتبعها فيليب وهو يحمل فاني وألكسيا إلى جانبه، ونادى جورج أحد الحمالين، ورددت إدفينا آليا في خاطرها دون تخفيف مشيتها: «ها نحن قد وصلنا أخيرا». ورغم جميع هذه

النظرات الفضولية التي تحس أنها تثقل عليها، غمرها شعور من السكينة، فهنا يتملكها الإحساس بالأمان. لقد تمكنت من إيصال إخوتها وأخواتها إلى المنزل. واستمرت في التقدم، ورأسها مرفوع، وتوزع الجمهور على صفين لإفساح المجال لمرورها ضمن صمت وقور

ـ عمت صباحا يا إدفينا. إنني أشارككم في الواقع أحزانكم.

كان المحيي يبدو حزينا بالفعل، وعندما التقت عيناه بعيني الوافدة، قرأ فيهما مدى وقع المصيبة وتملكته الرغبة في البكاء. إنه بن جونز صديق برت وينفيلد الحميم. وكان الإعلان عن الحادث الرهيب قد أغرقه في ذهول صامت. وحاول عبثا الإتصال بالشركة البحرية. وتلقى فيما بعد برقية من إدفينا تذكر له فيها بأنها مع أخوتها وأخواتها قد نجوا، وانهم على متن **الكارباتيا** وفي طريقهم إلى نيويورك، لكن أهلها وخطيبها شارل من ضحايا الكارثة: برت صديقه الحميم، وكات زوجته الرائعة، وشارل الشاب اللطيف يقضون غرقا؛ هذا فوق الإحتمال، وراح بن جونز ينتحب مطولا دون احتراس.

عندما رأى الأطفال صديق والدهم الأثير أبرقت قسماتهم بابتسامة، وبدا الفرح في عيني جورج، واطلق فيليب تنهدة إرتياح. إنه الصديق الأول الذي يلقونه بعد الكارثة. وادرك بن أن ما من أحد منهم يرغب في الكلام، فاكتفى بابعاد الصحفيين إلى مسافة تمنعهم من المضايقة بأسئلتهم. وبينما كانوا يجتازون بهو محطة القطار، استعاد جورج شيئا من مرحه السابق فصرح بأنه تعلم لعبة ورق جديدة. لكن رغم جهوده الحثيثة بدا الفتى شاحبا، متعبا، كأخوته وأخواته. ياللإرهاق الذي يبدون فيه!

رد بن على عبارة جورج؛ إنني متلهف لمعرفة لعبتك، أمازلت تغش في الرامي(١) ؟

---

(١) لعبة ورق شبيهة بالكونكان، لكنها تلعب بورق واحد مؤلف من ٥٢ ورقة يضاف إليه جوكر واحد (المترجم)

رد جورج بهمهمة تعبر عـــن مواهبـــه كلاعـــب ورق. واتجـــه الفريق نحو باب الخـــروج مـــن المحطـــة. كـــانت ملامـــح ألكســـيا تعكس جمودا نادرا يثير القلق، وفـــاني وتيـــدي يكـــادان لايتمكنـــان من السير، أما إدفينا فليست إلا شبحا عما كـــانت عليـــه مـــن قبـــل. أدرك بن كل هذا بنظرة ثاقبـــة؛ واجتـــاز الجميـــع بـــاب الخـــروج بصمت، ووصلوا إلى الرصيـــف الغـــارق فـــي الشـــمس، ووقفـــوا للحظة ينتظرون وصول الحمـــال مـــع عربـــة أمتعتـــهم، وعندهـــا قالت فـــانـي:

ـ ماتت ماما

لم يجازف بن بالنظر إلى إدفينا لاشك أن وجهها تحت غلالة القبعة سيكون بشحوب الأموات.

رد بن بهدوء؛ أعرف ذلك، وقد أسفت كثيرا لهذا الخبر.

وتوقف للحظة عن الكلام، يبحث باضطراب عن تتمـــة لعبارتـــه، بينما حبس الآخرون أنفاسهم.

ـ ..... لكنني مسرور لرؤيتك يا فاني في صحة جيدة. إننا جميعا حزينون جدا.

أبدت الطفلة رضاها بهزة من رأسها، قبل أن تنطلق مجـــددا فـــي سرد مغامراتها، فقالت وهي تعرض يدها لمحدثها:

ـ السيد صقيع عض لي أصابعي. وتيدي أصيب بـــالبرد، وكـــان يسعل كثيرا، لكنه الآن في وضع أحسن.

وصل الحمال مع الأمتعة، واستقل الجميع سيارة الليموزين التـــي استعارها، بن من الصحيفة.

تمتمت إدفينا وهم يسيرون باتجاه مركز المدينة:

ـ لطف منك أن تأتي لملاقاتنا.

صمت بن تجاه هذه المجاملة اللطيفة وهو يعلم مدى الألم الصـــامت الذي يفطر القلوب عند فقدان أشخاص أعزاء. فالهزة الأرضية التـــي

اكتسحت سان فرنسيسكو منذ ست سنوات أودت بحياة زوجته وابنه. وصعقته المصيبة، ولم يتزوج مجددا، ولو بقي ابنه حيا لكان الآن بعمر جورج، ولعل هذا هو سبب المعاملة المتميزة والمحبة القلبية اللتين يبديهما له.

خيم الصمت الكئيب على السيارة وهي تعبر المسافات، إنهم جميعا يفكرون بالشيء نفسه. بالمنزل الكبير الخالي الذي سيصلون إليه مجددا. وعندما دخلت السيارة أخيرا في الممر العائلي الخاص، حبست إدفينا زفرة، إن الممر أقسى مما توقعت، فالأزهار التي زرعتها أمها قبل سفرهم، جعلت بألوانها الزاهية العزلة الثقيلة المجاورة لها أكثر كآبة وإثارة للأسى. وتوقفت الليموزين، ومرت دقيقة كأنها الدهر، قالت بعدها إدفينا بمنتهى الحنان:

ـ هيا، تعالوا

كانوا جميعا أمام درج المدخل، وأيديهم ترتعش، وأرجلهم كأنها ضربت بالسياط، والباب هنا، قريب جدا، لكن اكتفى كل واحد بتأمله، وهو لا يقوى على الحركة. ودخلت إدفينا أولا، وتبعها الآخرون دون ان يتفوهوا بكلمة. وتسمرت الفتاة الشابة في مكانها مرتعشة إذ خيل إليها أنها سمعت فجأة، وهي في وسط الرواق، صوت والدها يرد من الطابق الأول. لكن لا شيء مسموع بالتأكيد، لاشيء يسود إلا الصمت، صمت ثقيل، لا يحتمل، وتوترت أعصابها بشكل مؤلم.

شدها تيدي من كمها، وهو ينادي: ماما.

كانت المرة الأخيرة التي رأى فيها كات على جسر التيتانيك. لكن تيدي في طفولته ـ فهو لم يتعد السنتين ـ لايعي الموت؛ وجثت إلى قربه قائلة: ماما ليست هنا، يا حبيبي.

ـ كلا؟ رحلت؟

ـ نعم.....

انتصبت إدفينا مع تنهدة ثقيلة، وخلعت قبعتها ورمت بـــــها علـــى منضدة مزخرفة.

فبدت برأسها العاري أكثر شبابا؛ وأضافت بصوت مرهق

ـ إنها عودة صعبة، أليس كذلك؟

ـ نعم، إنها صعبة ردد جورج وفيليب؛ بينما توجهت ألكســـيا دون أن تقول شيئا نحو السلم الصاعد إلى الطابق الأول، وبـــدأت تصعـــد درجاته بهيئة مبهوتة، ولم يفت إدفينا معرفة المكان الذي تتوجه إليـــه الطفلة.... وسألها فيليب بنظرة، وهو مستعد للتدخـــل، لكنـــها هـــزت رأسها وقالت:

ستعي فيما بعد، اتركها.

مرت فترة صمت أخرى، وفجأة استعادت الحياة مجراها؛ فقد حمل سائق الليموزين الحقائب في ذات الوقت الذي بدت فيه السيدة بـــارنز مدبرة المنزل الدائمة من المطبخ وهي تمسح يديها بمئزرها الأبيـــض المنشى حديثا، وأجهشت المرأة الكهلة، التي تكـــن ودا حقيقيـــا لربـــة المنزل، بالبكاء قبل أن تضم بين ذراعيها، أولاد كـــات الواحـــد بعـــد الآخر.

قالت إدفينا في نفسها وهي متأثرة تغالب دموعها هي أيضا «لـــن يكون هذا سهلا » ففي الأيام القادمة سيستقبلون جميع المقربيـــن إلـــى ذويهم وكل لقاء سيحرك من جديد السكين في الجرح. فلبرت وكـــات حلقة أصدقاء ومعارف واسعة جدا، وسيزورهم بالتأكيد جمهور مـــن المعزين، وستطرح أسئلة عديدة من المفـــروض أن تجيـــب عنـــها، ووصف المشاهد المؤلمة التي حدثت فوق المحيط المتجمد تمثل مهمـــة تفوق طاقتها.

استأذن بن بعد ذلك بنحو نصف ساعة، وسألها وهما علـــى عتبـــة الباب حيث رافقته: «متى تريدين أن نتداول بشان الصحيفة؟

تمتمت، وعيناها قلقتان: «في الواقع متى؟.

ـ عندما تشعرين بقدرتك على ذلك.

تخيل ما ستشعر به مجددا، وعبر عما يجول في خاطره بصـــوت مطمئن، ولم يرد مفاجأتها. وعضت على شفتيها، وألقت من فوق كتفه نظرة سريعة وجلة من أن تصل كلمـــات هــذه المحادثــة إلـــى آذان الأولاد. لكن لم يكن أحد قريبا منهما... فجورج وفيليــب قــد التحقــا بغرفتيهما، والسيدة بارنز صحبت فاني إلى المطبخ لتتـــذوق كعكتـــها المحلاة، وتبعهما تيدي الصغير وألح بن: «يجب علينا ان نتخذ عـــددا من القرارات.

ـ في أي موضوع؟.

يجب ان تعرف. هذا لابد منه. فهي لم تتوقف عن المعانـــــاة فـــي الأيام الأخيرة.

كانت إدفينا تجهل كل شيء عن الوضع المالي لأبيها. ففي حيـــاة برت، كان كل شيء سهلا! فالصحيفة تبدو وكأنها منجـــم ذهــب.... ولكن إن كانت الأمور بعكس المظاهر، مهددة بالخطر؟ تأملت وجـــه بن، وقد استبد بها القلق. إنه الوحيد الذي يستطيع امدادها بالمعلومـــات باعتباره المستشار الحقوقي للعائلة.

رد بن: في موضوع الصحيفة بالتأكيد، والمنزل، واستثمارات برت الخ... و...لماذا يجب أن أخفي عنك؟ وفقا لرأي زوج خـــالتك، فـــإن الحكمة تقضي تصفية جميع أملاككم. وفي تقديره أنكم ستكونون أفضل حالا في انكلترة. استريحي الآن يا إدفينا، وسنحاول ان نعـــالج هــذه القضايا فيما بعد.

بدا على وجه الفتاة الشابة تحول مثـــير وللحظـــة تـــرددت بيـــن الإستسلام للإرهاق او لفورة الغضب، أخيرا تغلبت، فورة الغضب.

صرخت وعيناها تقدحان بالشرر: ما علاقة زوج خالتي بكل هـــذه الأمور، إنه ليس وصياعلي.

ـ نعم، ولكن وفقا لأمنيات أمك فإنك تحت وصاية خالتك، حتـــى بلوغك الحادية والعشرين من العمر

ـ الشكر لله، سأبلغها خلال ثلاثة أسابيع

ورآها تبتسم لأول مرة منذ ان لاحظها علـــى رصيـف محطـة القطار، وابتسم بن بدوره. بدت له إدفينا فجأة امرأة ذكية تعرف تمامـا ما تريد. وكان هذا المظهر من شخصيتها قد فاته من قبل.

ـ هل تعتقد أنني مضطرة لبيع الصحيفة يا بن؟.

ـ ما من داع للعجلة، فبرت عرف أن يحيـط نفسـه بمعـاونين نشيطين ومخلصين، وهذا ما يؤمن لـك دخـلا محترمـا لسـنوات عديدة. ولكن يلزم لكل مؤسسـة المديـر الكـفء، واليـد الحازمـة التي لا تتهاون في أمـر، وأنـا آمـل أن أرى فيليـب يومـا علـى كرسي والده، وإن كان غير راغب فـي هـذا فيمكنـك عنـد ذلـك الإعلان عن رغبتك بالبيع، وبانتظار ذلـك الموعـد لـم لاتكونيـن انت ياإدفينا المدير الكـفء.

وتبادلا ابتسامة توافق، ثم هزت رأسها، كلا، إن مكانها هنـا إلـى جانب أخوتها وأخواتها، وليس في مكتب.

سنتحدث عن هذا في الأسبوع القادم. لكن يجب أن تعـرف فـي الحال يابن أنني لن أذهب إلى أي مكان؛ ولن أبيع شـيئا، وسـأحتفظ، بكل شيء من أجل الأولاد.

ـ إنك تتحملين مسؤولية ثقيلة يا إدفينا .

ـ ربما لكن هذا هو واجبي. وكل شيء سيبقى تماما كما... كمـا هو من قبل. وسأستخدم في هذا كل قواي.

كانت مصممة، ما من شك حول هذه النقطة. وأحنى بن رأسه. فتربيـة خمسة أولاد تمثل مهمة صعبة بالنسبة لفتاة شابة في العشرين من العمر.

والواقع أن إدفينا تمتلك بعد نظر والدهـا، وعاطفـة أمـها الحـارة وجرأتها، وهي على الأرجـح محقـة. ذهـب بـن، وأغلقـت إدفينـا الباب، واستندت إلى كفافه، وجالت بنظرهـا الحـاد حـول مـا يحيـط بها. لكأن هذا البيت مهجور، فلا أزهار فـي مزهرياتـه، ولا روائـح

طيبة تتضوع في أرجائه، ولا حركات مستحبة تدور فيه. ستعالج هذا، إنما كل شيء في وقته المناسب. الأولاد أولا. ومن مكانها لاحظت زقزقة الصغيرين، إنهما يلعبان إذا في المطبخ تحت إشراف السيدة بارنز اليقظة. والكبار الآن...كانت نبرة أصواتهما تدل على نقاش لجب بين فيليب وجورج حول مضرب كرة....ضائع؟ أو مكسور؟ لايمكنها القول. وغرفة ألكسيا فارغة. وبالطبع، وكما توقعت فإن الطفلة قد لجأت في الأعلى إلى الإختباء في غرفة والديها.

صعدت إدفينا إلى الطابق الأعلى، وتجاوزت غرفتها، وسارت عبر الممر.

إنه لأمر مؤلم أن تدخل إلى الجناح الخاص ببرت وكات. كانت النوافذ تطل على الخليج الشرقي، والشمس تخترق بأشعتها الزجاج، والحرارة خانقة مما يشير إلى أن هذه الغرفة لم تهو منذ زمن طويل.

نادت بحنو: ألكسيا؟ ـ هي تعلم أنها هنا ـ أين أنت يا عزيزتي؟ ألا تريدين المجيء معي إلى الطابق الأرضي؟ ألا تعلمين أننا اشتقنا إليك؟.

وألكسيا مشتاقة إلى كات، هي أيضا تعرف هذا

مرت على غرفة زينة أمها، وهي غرفة جميلة مبطنة بالساتين الوردي الفاتح، وتأملتها للحظة وهي تغالب دموعها، ترتيب كامل لصف قبعات مرصوفة فوق رف من الخشب الأبيض. وأحذية أنيقة لن تنتعلها كات أبدا، ومجموعة مراهم تجميل في أوعيتها البورسلانية موضوعة فوق منضدة زينة من الأكاجو.

ـ ألكسيا أين أنت؟

لا جواب. وفي هذه الغرفة المشمسة التي ما يزال يفوح فيها أريج العطر لا يوجد إلا الصمت.

دفعت إدفينا باب حافظة الثياب وهو بشكل مرآة ونادت: ألكسيا...واختنق صوتها وهي تراها. كانت الطفلة تمسك بدميتها الأثيرة من البورسلين بين ذراعيها وقد تبلل خداها بالدموع. وجثت

إدفينا إلى جانبها واختلطت دموعها بدموع أختها، وتمتمت بحنو

ـ ألكسيا، يا حبيبتي، أحبك كثيرا، ربما ليس بذات طريقتها، إنما أنا هنا، قربك دائما، فثقي بي.

أيقظ الأريج الناعم الصادر عن ثياب كات بشكل حتمي الذكرى غير المحتملة للسعادة المفقودة للأبد. ولاحظت إدفينا بزات برت معلقة في الحافظة المجاورة ولأول مرة تسرب الشك إلى ذهنها. ألا يمكن أن تكون على خطأ؟ ألم يكن من الواجب عدم العودة إلى هذا البيت؟

صرخت ألكسيا وهي تتعلق بأذيال أختها، أريد ماما!

ـ أعلم ياكنزي الغالي، أعلم.... لكنها ذهبت....ماما في السماء، وأنا هنا، ياألكسيا، لن أتركك وحيدة أبدا.

ـ هذا غير صحيح! هي أيضا وعدتني بألاتتركني أبدا ولكن ها هي قد فعلت.

ضمتها! إدفينا بشكل أكثر حنوا وقالت: لم تفعل هذا قصدا ياحبيبتي؛ لم تستطع أبدا منعه، لم تكن تريده، اعلمي هذا.

وفكرت في ذات الوقت:«بلى، لقد أرادته» هذه الفكرة الرهيبة، الملحة تلاحقها دوما منذ البداية. لماذا رفضت كات أن تنزل إلى قوارب النجاة مع إدفينا والأولاد؟ أو فيما بعد، عندما عرفت أن ألكسيا في أمان؛ لماذا لم تأخذ القارب التالي. إن زوارق نجاة أخرى تركت التيتانيك....لكن كات لم تكن في أي منها. اختارت أن تبقى مع زوجها، عرفت إدفينا ذلك من فيليب. وفجأة لامت أمها، كيف أمكنها أن تتركهم جميعا؟ فاني.....وألكسيا....وتيدي.... ونظرت إلى أختها والغصة في حلقها. وقالت

ـ لا أعلم ماذا حدث. هذا ما حصل، وهوذا وضعنا الآن....نحن نشتاق لأمنا، وسنشتاق إليها دائما. لكن يجب أن نتابع حياتنا.

هذه هي أمنيتها، إنني واثقة.

انتصبت ألكسيا على رجليها، ولكن وقفت في وسط الغرفة مترددة وقالت:

ـ لا أريد الذهاب إلى الأسفل.

بدا في نظرتها قبس من ذعر حقيقي، وبينما كانت إدفينا تجهد لتقودها خارج حجرة الزينة، توقفت بعناد وكأنها تخشى ألا ترى مجددا أثواب كات، أو تستنشق عطرها المفضل.

ـ ألكسيا، كوني عاقلة، لايمكن أن نبقى إلى الأبد هنا. يجب النزول الآن. أخذتها برفق بين ذراعيها، ورفعتها، كطفل صغير لتحملها إلى غرفتها، وشيئا فشيئا، هدأت ألكسيا، وجفت دموعها، وتوقفت عن التأوه. والتحقت إدفينا بالبهو مطمئنة. أخيرا، إنها على حق في إعادة الأولاد إلى هنا. إن البيت الكبير يبدو فارغا جدا، وكئيبا جدا، تماما كما خشيت، ولكنهم سيتعودون.... نعم سيتعودون

انتهت إلى قبول فكرة موت أبيها. وذكرى كات وبرت ستبقى في ذاكرتها، حية كهذه الأزهار النضرة في الحديقة.

في تلك الليلة، وهي الأولى التي يقضونها في المنزل؛ تركت إدفينا على المنضدة القريبة من سرير ألكسيا قارورة من عطر أمها، ومن حينها بدأت تفوح هذه الرائحة غالبا من السيدة توماس، دمية ألكسيا، فهذه الرشة من العطر، الحاضرة دائما، تذكرها باستمرار بكات. المرأة التي أحبها الجميع وتعلقوا بها، والتي فضلت أن تموت مع الرجل الذي أحبته.

-X-

ألقت إدفينا على بن جونز نظرة حانقة وقالت:

ـ لا يهمني! لن أبيع الصحيفة، قرار نهائي، هذا كل شيء.

ـ إن زوج خالتك يرى غير هذا الرأي يا إدفينا. لقد بين لي ذلك صراحة في الرسالة التي تلقيتها منه البارحة. جربي على الأقل أن تناقشي حججه قبل أن تتعاظمي غاضبة. لقد درس اللورد هيكام القضية بتأن، واستنتج ضرورة وجود أحد أفراد عائلة وينفيلد على رأس الصحيفة وإلا فإن هذه ستسير بشكل آلي إلى الضياع. عدا عن أنه يصر على القول إنكم ستعانون متاعب عسيرة إن لم تذهبوا للاستقرار في انكلترة.

ـ قول هراء! سيتولى فيليب إدارة الصحيفة خلال خمس سنوات من الآن.

بدرت عن بن تنهدة، إذ يبدو إنها تعرف ما تريد..، ولكن إن أخطأت؟. وإذا كان نسيبها على حق؟ وأبدى لها ملاحظته بصوت لطيف وهادئ في آن:

ـ خلال خمس سنوات، يكون فيليب في الحادية والعشرين عاما، ولن يمتلك تلك الاسنان الحادة التي تمكنه من التصدي لأسماك قرش الصحافة.

فكر انها هي أيضا في مطلع الشباب بحيث قد يصعب فرض احترامها على خمسة أولاد في أعمار مختلفة، لكنه امتنع عن التصريح لها بذلك. فهي، في إسراف من التضحية بالذات، فرضت على نفسها حملا ثقيلا يصعب القيام بمسؤولياته، وربما يقدم السير ربر، في الواقع، الحل الأكثر ضمانا.

قالت بعناد: اعتمد أبي على أشخاص أكفاء مخلصين؛ قلت لي هذا بنفسك، وفي يوم سيكون فيليب في وضع يمكنه من...

قاطعها بن بقوله: ولكن إن لم يرد؟ إن لم يرق له هذا العمل؟

ـ سيكون عندها لكل حادث حديث، أما في الوقت الحاضر فلدي مشاغل أخرى كثيرة، وما من شيء يدل على أن الصحيفة تتراجع.

بدت مشدودة القسمات، واحس بها متوترة، وبمزاج سيئ، أقرب إلى الشراسة. فمنذ عودتها لم تحظ بدقيقة استراحة، وهناك أمور عديدة يجب متابعتها، ومشكلات عديدة يجب حلها. الإلتزامات المصرفية لبرت، وبعض قيم وأسهم في البورصة لكات، وحساباتهما الجارية؛ وقطعة أرض لهما في كاليفورنية الجنوبية...وخلال ليالي أرق طويلة، توصلت إلى قرار ببيع الأرض، لكنها ستحتفظ بالمنزل وبالصحيفة بالطبع، أيا كانت الآراء الأخرى.

كان الأولاد يشكلون موضوع قلق آخر، فقد كانت تنشب غالبا نزاعات حادة بين جورج وفيليب، فالعلامات التي حصل عليها الأول في المدرسة كانت مخيبة للآمال، وخشي الثاني أن يفشل في امتحاناته. كانت إدفينا تساعده على إعداد وظائفه كل مساء، ثم هناك صراخ، ودموع، ونوبات ألكسيا العصبية.. وكوابيسها.. فكانت إدفينا رغم ما تعانيه من متاعب النهار تخشى هبوط الليل، لكن الليل أعقب النهار، والنهار أعقب الليل في انتظام مريع، فلكأن هناك حلقة جهنمية تكرر دون كلل خطواتها دون إمكان توقفها، فهي دون نهاية. ومن الصباح إلى المساء تقوم إدفينا بمساندة هذا، بينما تؤاسي تلك، وتقود الآخرين. ولا مكان لهمومها الخاصة، ففي عالمها الجديد يجب عدم التفكير بعذاباتها، أو بالألم المبرح لفقدها شارل.

نبهها صوت بن فجأة من ذهولها وتأملاتها: إدفينا؟ لماذا لا تذهبون لقضاء فترة شهر أو شهرين لدى خالتكم؟

تأملته بنظرة ارتياب: وماذا نفعل هناك؟

ـ ترتاحين قليلا من المسؤوليات التي تثقل كاهلك، حيث يرجو اللورد والليدي هيكام تقديم كل مساعدة لكم.

لم يبد عليها الاقتناع، وصرحت أخيرا وعيناها تتلألآن بالدموع:

كلا إنهما لا يريدان مساعدتنا، بل يريدان استردادنا.. يريدان أن يؤسسا علينا العائلة التي لم يتمكنا من إنشائها. ألم تدرك هذا؟ كلا ليس لدينا أحد في هذه الدنيا.

ـ أجاب جازما: كلا، ما دمتم ستبقون معا.

لم يلفظ اسم آل هيكام بعد ذلك أبدا، وعادت إدفينا عدة مرات إلى المكتب القانوني لبن لتفحص معه جميع الملفات المعلقة، وفي المرات النادرة التي حاول فيها أن يعود إلى طرح مقترح اللورد على بساط البحث كانت تبدو أشد تمسكا برأيها؛ فلا سبيل لأن ترضخ لمتطلبات زوج خالتها، وقرارها لا رجعة عنه.

كانت تجيء وتجلس على الكرسي العريض الوثير مقابل مكتب بن، وتنحني على الأوراق التي يقدمها لها، ثم تأخذ قرارها، وعندما تفوتها بعض التفاصيل لا تتردد في طرح الأسئلة عليه، فثقتها ببن لا حدود لها، وتوقد ذهنها ودقة ملاحظتها أثارتا بدورهما سريعا إعجاب الرجل الحقوقي.

قالت له يوما: نحن متفقان على الاحتفاظ بالصحيفة، أليس كذلك؟

لم يستطع إلا أن يعلن موافقته:

ـ نعم، ما دامت تقدم لك دخلا مجزيا، وإذا برزت أية مشكلة، فيمكننا اتخاذ تدابير أخرى.

لم يبق إلا اقناع السير ربر، فأكبت عليه بثبات متميز وكتبت له في إحدى الرسائل المطولة: «إننا شاكرون جميلكم على الدوام، إنما نحن في الوقت الحاضر بحاجة إلى الراحة، ومازال الأولاد مزعزعين بالأحداث التي تعرفونها؛ ومن شأن تغيير كلي في عاداتهم أن يزيد من

بلبلتهم، وأنا مقتنعة انهم سيكونون أكبر حظا في الانشراح ضمن هذا البيت الذي شهد ولادتهم. ولكن لئن تستحيل علينا مغادرة كاليفورنية، يمكن بالمقابل لك وللخالة ليز أن تزورانا متى أردتما، وستحلان على الرحب والسعة».

انتهى اللورد الكهل إلى الرضوخ بل وشعر بالارتياح؛ فقد رجته زوجته أن يأخذ على عاتقه تربية أولاد أختها المسكينة، وتحمس للأمر لفترة. كتب بتهذيب لإدفينا في رد على رسالتها بأنه مستعد لاستقبالهم في حال رجوعها عن قرارها، وهو في قرارة نفسه يعلم أنها لن تتراجع عن رأيها. وتحول الموضوع إلى الخالة ليز التي تبادلت رسائل متعددة، كانت تردد في كل منها: «كم أحب الحضور لرؤيتكم» وللأسف فإن صحة زوجها قد تدهورت، ولم تجسر على الإبتعاد عن القصر.

صرحت إدفينا لبن: لن نذهب. طوي هذا الموضوع.

كانا كعادتهما في مكتب الحقوقي، وقد أضافت بصوت مختنق أشبه بالتمتمة:

لا اعتقد أن عبور الأطلسي مجددا سيغريني في يوم من الأيام. بل وأشك في قدرتي على الصعود إلى متن مركب.

لم تتلاش الذكريات المبهمة عن الغرق؛ فكان لكل ليلة نصيبها من الذعر. فما تكاد إدفينا المنهكة من متاعب النهار تغلق عينيها، حتى ينبثق طيف **التيتانيك** وما أن تحاول الاستسلام إلى النوم حتى يبرز في لاوعيها الهيكل الضخم منتصبا في رقعة سماء جليدية، جاهزا للغوص في اللجة السوداء. وكانت ذات الكوابيس تنتاب الآخرين؛ فهم بدورهم لا يريدون، لقاء أي شيء في العالم، وضع القدم في مركب، وخاصة إن كان ذلك للذهاب للعيش في قصر زوج الخالة ربر في تلك البقعة الريفية الكئيبة.

أجاب بن: «أدرك ذلك».

وانتفضت كأنها نسيت انقضاء الوقت، ونظر إليها بن دون أن يتمكن من إخفاء إعجابه بها. فأية فتاة في عمرها تنصرف إلى البكاء،

منسحبة في غرفتها، للموت الجائر الذي أودى بخطيبها. لكن ليست هي، فإدفينا قوية، أبية...؛ تحتفظ برأسها عاليا. وحده هذا القبس من الحزن الذي لا يعبر عنه، وقد لاحظه أكثر من مرة، يبرق في حدقتيها الزرقاوين الغامقتين، يكشف عن ألمها الممض وتتحنح بن ليجلو صوته قبل أن يتطرق إلى موضوع جديد. وقال:

ـ اعذريني لمضايقتك بهذه القصة المكدرة فقد تلقيت رسالة جديدة من شركة «خطوط النجم الأبيض». ويحب القائمون على إدارتها أن يعرفوا إن كنت تنوين إقامة الدعوى على الشركة لتسببها فقدان والديك، ولا أستطيع إلا أن أنصحك بفعل ذلك يا إدفينا؛ فإن التعويض الذي ستنالينه يدعم وضعك المالي. ومن جهة أخرى...

وتلاقت أنظارهما، وتوقف عن الكلام، وقد استرعى جمالها فجأة انتباهه؛ فضربة القدر القاسية التي تلقتها قد أنضجتها، وتحولت الفتاة الشابة الغضة العود إلى امرأة مكتملة الأنوثة. وفي اللحظة التالية حولت وجهها لتخفي تأثرها ثم اقتربت من النافذة ونظرت عبر الزجاج وقالت: «دع ذلك. لن أطلب شيئا».

في جزء من الثانية تتابعت في ذهنها مجموعة من الصور المشوشة. أهلها على سطح إنزال زوارق الإنقاذ... ثم ألكسيا عند حافظة ثياب أمها، وتيدي وفاني في سريريهما الصغيرين في مستوصف الباخرة **كارباتيا**... وطرحة العروس الرائعة التي لن تضعها أبدا، وقفازا شارل المحفوظان بورع في علبة من جلد في دولاب خزانتها... بكم ستقدر خسارة أبيها وأمها؟ والرجل الذي أحبته بكل ما ملكت من قدرات؟ أي تعويض يعطى عن حياة تحطمت؟

رددت بصوت تعب: كلا، أبدا، ما من مبلغ من المال يمكن أن يعوض ما فقدته.

هز بن رأسه، مرة أخرى، فهو يقدر موقفها.

ـ لست الوحيدة التي تتخذ هذا الموقف فآل آستور، وويدز، وستراوس كانت لديهم ردة الفعل نفسها، ولن يقوموا بالملاحقة القضائية.

تحولت من مكانها واتجهت نحوه وهي تتساءل إن كانت ستصل يوما إلى الطمأنينة.

ـ آه! يا بن، متى يتوقف كل هذا؟ متى ستكف ألكسيا عن التنقيب في خزانة ماما لتشم رائحة ثيابها؟ متى سيزول عن فيليب مظهر الشاب اليتيم؟ بعد كم من الزمن لن يعود تيدي للسؤال عن والديه؟ وجورج..

ترك بن مكتبه عندما رأى الدموع تتلألأ على أهدابها وأحاط كتفيها بذراعيه، فدفنت وجهها في أعلى صدره، وكأنها تلتجئ إلى قلب والدها.

ـ يا إلهي! متى يمكنني أن أنام دون أن أحلم بهم؟ دون أن يخالجني الشعور بأن شارل قريب مني؟

وانتحبت طويلا بين ذراعي صديق والدها الأثير، ثم استعادت السيطرة على أعصابها، وأزاحت رأسها ، ومسحت أنفها بمنديل أخرجته من حقيبتها.

وانطلقت زفرة حارة من صدر بن؛ بماذا يمكنه أن يجيب شابة ضربها القدر بقسوة شديدة؟ حتى هذا المنديل الذي تمسك بطرفه يعود لأمها فكيف يمكن القول لها بالعمل على النسيان.

ـ دعي الزمن يفعل فعله، يا إدفينا. لما يمض على هذه النكبة إلا شهران.

امتثلت بهدوء قائلة:

ـ نعم، بكل تأكيد، الزمن.. إنني آسفة.

لاح على شفتيها طيف ابتسامة، بينما أصلحت بيدها ذات القفاز وضع قبعتها الأنيقة التي سبق لكات أن أحضرتها لها من باريس. وتهيأت للانصراف فاستدعى بن سائقه لإيصالها، وبينما كانت تودعه بإشارة من يدها عبر زجاج نافذة السيارة عاد إلى التفكير بأنها فتاة فريدة. ثم صحح بصمت في اللحظة التالية: كلا ليست فتاة، بل امرأة... امرأة رائعة.

-XI-

انقضى شهر أيار، ثم حزيران. وصحبت إدفينا أفراد العائلة جميعا خلال شهر تموز إلى بحيرة تاهو، إلى ذات المكان الذي اعتاد آل وينفيلد الذهاب إليه، ملكية يضعها أصدقاء لبرت كل سنة تحت تصرفهم وهي تضم بضع أكواخ صغيرة أنيقة متوزعة بين الأشجار. وتتابعت الأيام بكسل في الطبيعة المجددة للحيوية، وخلال أسبوع لون العيش في الهواء الطلق خدود الأطفال بحمرة وردية، واستعاد فيليب وجورج متعة صيد السمك والتنزه عبر الغابة، بينما أخواتهما وتيدي يسترخون تحت مظلات واسعة على ضفة البحيرة الكبرى التي تلتمع كالمرآة تحت ضوء الشمس أو يسبحون ويتخبطون في الماء على الشاطئ.

شيئا فشيئا، اخذ شعور القلق، الذي ما فتئ يعذب إدفينا منذ ليل الغرق المشؤوم، يهدأ. وهي الآن تبقى مستلقية في الليل على فراشها، وعيناها مفتوحتان تستعرضان أحداث اليوم الهادئة. لكن أفكارها تنتهي دوما بالإنتقال نحو شارل، ومهما فعلت ينتهي الأمر على الدوام هكذا...

كم كان الصيف الماضي مختلفا! فبمبادرة لطيفة من برت وكات دعي شارل لقضاء الإجازة الصيفية معهم؛ وكانت إدفينا قد تعرفت عليه في سان فرنسيسكو.

وحضر الشاب الإنكليزي وهو يحمل هدايا لجميع أخوتها: دراجة وحيدة العجلة لجورج؛ وكتبا مجلدة بأناقة لفيليب، وألعابا ودمى للصغار...

كانت صداقة حميمة تربط بين شارل وإدفينا، وخلال تلك الإقامة الصيفية وبعد نزهة طويلة اعترفا بحبهما المتبادل، وفي المساء ذاته

انكشف هذا السر للجميع. وتعرضت إدفينا لمضايقات جورج العابثة، لكنها لم تأبه لها أو بمعنى أصح، لم تشعر بها فقد كانت كل أنظارها موجهة إلى شارل. سببت لها رؤية الشعب المحاط بالخضرة الذي سلكاه لأول مرة ألما كبيرا، لكنها رقأت دموعها سريعا ملزمة نفسها بالإرتداد إلى الحاضر. وفي الأيام التالية شغل ذهنها الحلول محل كات؛ فشاركت فاني وتيدي في ألعابهما واستمعت خلال ساعات إلى اعترافات فيليب الذي لا يفكر إلا بدراسته في هارفرد، وأعطت دروسا في السباحة لألكسيا وجورج: إنها كل ما بقي لهم في الدنيا: أبوهم، وأمهم، وصديقتهم، ومستشارهم الناصح.

زارهم بن في الأسبوع التالي، وهو يحمل مجموعة من الهدايا كعادته للأولاد.

قال وهو يراها تصعد من البحيرة مع ألكسيا، وتيدي الصغير على ذراعها:

ـ كم أنا مسرور لرؤيتك في حالة طيبة.

كان يفكر في ذات الوقت بصديقه الحميم برت وقلبه منقبض. واستقبلته إدفينا بابتسامة ودية، وأطلق تيدي صيحة حبور، وتعلقت ألكسيا بعنقه فرحة، وهي حافية وشعرها يتطاير في الفضاء.

أجابت إدفينا: شكرا، إن الأولاد بحاجة إلى قضاء عطلة.

ـ وأنت أيضا يا عزيزتي، إنك الآن بهيئة رائعة.

بدت مستريحة، وقد صبغت الشمس ذراعيها ووجنتيها بسمرة مذهبة، وعادت عيناها الزرقاوان إلى بريقهما السابق. ولم يتسن له أن ينهي مجاملاته، لأن الأولاد بدؤوا يتحلقون حوله، ويدعونه للعب معهم.

لم يستطع إلا أن يمتثل لهم، ووجب أن ينتظر ساعات قبل أن يستأنف حديثه مع إدفينا، وقد جلسا براحة على الشرفة الصغيرة لكوخها، في غبش المساء؛ فكرت: «أنه أمر رائع الجلوس هنا، بعيدة عن كل شيء»، لكنها لزمت الصمت خشية إيقاظ ذكرياتها؛ مع أنها

تعرف أن بإمكانها أن تصرح بكل شيء لبن؛ فمنذ بعض الوقت أدركت أخيرا لماذا عادت إلى تاهو...لماذا أرادت أن ترى مجددا المكان الذي نعمت فيه بسعادة فائقة مع أهلها. في البدء، ودون انتباه منها سلكت الطريق المتعرج الذي سارت به مرات عديدة من قبل مع كات وبرت.. وفيما بعد مع شارل.

مشت فيه طويلا وفجأة لاحظت غيابهم. صدمها ذلك فجأة، كأمر بديهي. أبدا لن يتنزه برت وكات في هذه الغابة.. أبدا لن يعود شارل من انكلترة.

لقد رحلوا جميعا، **ونهائيا** . ما من أحد منهم سيظهر هنا أو في أي مكان آخر. والأرض ستستمر في دورانها دونهم.

وبينما كانت الشمس في مغربها تحيط الجبال بهالة قرمزية دهشت لاسترسالها في الحديث عنهم مع بن، واستعرضا معا فصول الصيف السابقة: رحلات صيد السمك، السباحة، النزهات في قارب عبر البحيرة. تذكرت، وهي تضحك، إحدى المرات التي برز فيها برت فجأة من الغابة وهو متدثر بسجادة سرير من جلد الدب، وما اعترى كات من خوف... وقهقهت إدفينا. بدا لها أنها لم تضحك هكذا بمرح منذ أجيال. كل شيء يبدو سهلا قرب بن؛ وفجأة، كان يمكن التحدث عن الماضي دون اتخاذ المظهر الحزين الملائم للظرف، بل ويمكن الضحك. وهذا الضحك الصريح، التلقائي، يجعل كات وبرت وشارل أكثر قربا، واكثر أنسنة. وقالت إنها تحب أن تسمع الأولاد يضحكون هكذا.

ــ سيصلون إلى ذلك يا إدفينا ــ قمت بعمل جيد.

نظرت إليه ممتنة. فهي لم تكن دائما واثقة من تصرفها؛ وأجابت مع تنهيدة:

ــ أحاول، ليس الأمر دائما سهلا.

ما يزالون تحت تأثير الصدمة. إنها ترى ذلك في تفاصيل عديدة.

في شرود ألكسيا، وفي قلق الصغار الممض عندما تغيب إدفينا من حقل رؤيتهم، وفي انقياد جورج الغريب، وشكوك فيليب الدائمة حول موضوع دروسه.

ــ ليس من السهل دائما تربية الأولاد، بالرغم من أنها رسالة رائعة إنما ...وتوقف، وكأنه لا يجسر أن يكشف بصراحة عما يجول كلية في فكره ــ لا تغضبي من صراحتي يا إدفينا، فاهلك لم ينصرفوا مثل انصرافك إلى تربيتكم. كان بيرت وكات يستمتعان بالحياة، يسافران ويحيطان نفسيهما بالأصدقاء؛ وكانت أمك تشغف بأشياء كثيرة، وكان لأبيك الصحيفة..

قالت له منكدة: أتحاول، بالمناسبة، أن تدفعني للتفتيش عن عمل؟

هز بن رأسه باسما، وفكرت إدفينا فجأة بأنه رجل ظريف، لقد اعتبرته دائما كأحسن صديق لوالدها، كعم متبن.

ــ بالتأكيد لا. إنما يجب عليك بالأحرى لقاء أصدقاء في مثل عمرك، والخروج لتروحي قليلا عن نفسك...

خلال خطبتها مع شارل فيتزجرالد، كانا يخرجان تقريبا كل مساء؛ وقد رآها بن غالبا في زينة رائعة تتأبط ذراع البريطاني الشاب، ووجد أنهما يشكلان ثنائيا رائعا، وقال ذلك لبرت وكات، فإدفينا بمظهرها خلقت للسهرات الاجتماعية، لا لتمارس حياة عزلة، ولا لتقوم بمهمة الأرامل المنتحبات وخمسة يتامى يتعلقون بأذيالها. قد تكون حياتها أصيبت بصدع لكنها لم تنته، بل هي بعيدة عن الانتهاء.

ــ ماذا حل بكل هذه الحفلات الراقصة الفخمة الخاصة التي كنت تدعين إليها باستمرار؟ وحرص ألا يذكر اسم شارل ليجنبها ذكرى مؤلمة لافائدة من إثارتها.

أجابت وقد خفضت بصرها: لا رغبة لي بالذهاب إليها.

كيف يمكنها أن ترقص بين ذراعي مراقص غير شارل؟ هذا لا يعقل ولا يمكن التفكير به. وهي لا تبدي أي اهتمام بالظهور في

المجتمع، والاستقبالات والحفلات الراقصة؛ ولا ترغب في الذهاب إلى أي منها، وهي حريصة على أن تبقى في حداد على والديها لأطول مدة ممكنة؛ وقد أرادت أن تنعش ذاكرة بن المصر على رأيه.

ـ كلا، يا إدفينا لا تنعزلي عن المجتمع، ولا تنغلقي على نفسك. يجب ألا تفعلي ذلك.

ـ قد أحاول الخروج في يوم ما...

وبقيت عيناها الزرقاوان الغامقتان في هروب، فلم يقتنع بن بكلامها. إنها الآن في الحادية والعشرين من العمر تماما، وهي تتصرف كسيدة كهلة؛ مر عيد ميلادها، هذا العام دون أن يفطن به أحد، ماعدا الانتباه إلى أنها بلغت سن الرشد القانوني، وبإمكانها التوقيع على جميع الأوراق الإدارية.

نام بن في كوخ الفتيان، وذهب معهما إلى الصيد مع الفجر، في الخامسة صباحا، عندما كان الآخرون ما يزالون في أحلامهم. وقد عادوا بمثل اعتزاز أرتبن [1] وهم يلوحون بسلة تفوح منها رائحة السمك. وكانت إدفينا في المطبخ المشترك تقوم بإعداد طعام الفطور تساعدها شيلاغ المربية الإيرلندية الجديدة، وهي فتاة لطيفة، لكن الأطفال فضلوا عليها أونا. وقد سجلت شيلاغ نقطة لمصلحتها عندما اقترحت أن تنظف السمك، وعملت إدفينا على قليه مستاءة من الرائحة التي يصدرها لكن الأخوين لم يباليا بتذمرها، وقد عادا الآن وسلتهما تحوي بعض الصيد، لكنهما لم يخفيا فرحتهما للرائحة الصادرة عن قلي السمك، والتي سيتخذانها ذريعة في المرات القادمة عندما يعودان وسلتهما فارغة.

انتهت إقامة بن في تاهو خلال بضعة أيام بدت قصيرة جدا في نظر الجميع. وقامت إدفينا بإعداد وجبة غداء خفيفة في الحديقة قبل

---

[1] أرتبن ARTABAN: شخصية في رواية لاكالبرانيد LA CALPRENEDE (١٦١٠ــ ١٦٦٣) (كليوباترة) ضرب به المثل بالإعتزاز (ملاحظة المترجم).

سفره، وكان فيليب وجورج غائبين، فما من أحد رآهما منذ الصباح الباكر عندما أخذا عدة الصيد وانطلقا. كان بن يودع إدفينا عندما سمع صوت فيليب وهو يتفجر حنقا في فرجة الغابة المشمسة.

زمجر كالمجنون غضبا وهو يركض باتجاه أخته البكر: «هل تعرفين ماذا فعل بي هذا الخبيث...

وتوقف للحظة ليسترد أنفاسه قبل أن يتابع.

ـ تركني نائما على الشاطئ، وعندما استيقظت فوجئت برؤية قميصه وحذائه، وقبعته تعوم على سطح الماء! ناديته، فتشت عنه في كل مكان، نقبت قاع البحيرة بعصي من أشجار الغابة... و...

أدركت إدفينا مدى رعبه من الشحوب البادي على وجهه، عدا عن أن ثيابه كانت ملطخة بالوحل، وقد انقصف ظفران في أصابعه، وامتلأ ذراعاه بالخدوش، بينما كانت أسنانه تصطك.

قال لاهجا: «خشيت أن يكون قد غرق» ودار برأسه ليخفي دموعه، وكان كل جسمه يرتعش، واندفع نحو أخيه الوافد من الغابة وشد أذنه بقسوة ثم هزه من كتفيه دون شفقة قائلا:

لا تعد أبدا إلى مثل هذه الفعلة، هل فهمت؟ ولا تذهب إلى أي مكان دون أن تعلمني، ثم وجه إليه صفعة».

دافع جورج عن نفسه وهو يبكي أيضا: كنت سأقول لك لو لم تكن نائما، فأنت إما أن تشخر أو تضع أنفك في كتابك دون أن ترفع رأسك. إنك لا تعرف من أين تمسك قصبة الصيد.

استمر فيليب يهزه أكثر فأكثر قوة وهو لا يهتم بما يسببه له من ألم. ماذا قال أبي في العام الماضي؟ ألم يقل ما من إنسان يبتعد دون أن يذكر إلى أين هو ذاهب، أليس هذا واضحا؟

لو جرت هذه الحادثة قبل ذلك الوقت بعدة أشهر لبدا فيليب بكل تأكيد أكثر تسامحا تجاه هذه المغامرة الطائشة الصغيرة، لكن خسارة والديهما أضفت على الأحداث التافهة ظلا من المأساة.

لم يكن باستطاعة جورج التراجع وهو المعتد بنفسه، وحدق بأخيه وقال مزمجرا: لست ملزما بأن أقول لك شيئا؛ فأنت لست أبي.

ـ كلا، ولكن يجب عليك إطاعتي من الآن فصاعدا.

ناوله جورج الغاضب لكمة بقبضة يده لكن فيليب تمكن من تجنبها بالإشاحة سريعا برأسه، ووقف الأخوان للحظة كخصمين بوجه يتجلى فيه الحقد، وعينين تشعان غضبا وزمجر جورج.

ـ لن أطيع أحدا، فأنت لست أبي، ولن تكون أبدا، و.. أنا أكرهك!

حبست إدفينا دموعها، فشجار الأخوين مزق قلبها. وتوسط بن بين اليافعين اللذين كانا يتهيئان للمجابهة كملاكمين.

ـ كفى أيها الأولاد.

وأبعد جورج برفق، بينما بقي فيليب واقفا وذراعاه تتأرجحان، وقبضتاه منكمشتان، وفي اللحظة التالية وجه نظرة شرسة إلى إدفينا وهرع إلى كوخه وأغلق الباب خلفه بعنف؛ وما أن أصبح في الداخل حتى ارتمى على السرير وراح يجهش بالبكاء قانطا لأنه خشي أن يكون جورج أخوه قد غرق، وكذلك لأنه أحس بفقد أبيه وشوقه إليه.

مثل هذا المشهد في نظر بن تماما حالة الصدمة التي ما يزال الأولاد يعانون منها. وللمرة المئة قال في نفسه إن كتفي إدفينا الضعيفتين لن تتحملا طويلا مثل هذا الوزر الثقيل، ولام نفسه لعدم تشجيعه لها على الانتقال إلى بريطانيا وخضوعها لانسبائها آل هيكام. وأراد أن يعبر لها عن ردود فعله لكنه تراجع أمام نظرتها التي تتوقد فيها عزيمة عاتية.

بدت المرأة الشابة مخلصة لأفكارها، فهي ترغب بكل حمية أن تحافظ على وحدة العائلة ضمن إطار محدد هنا أو في سان فرنسيسكو، وليس في مكان آخر، ومن العبث محاولة إقناعها بغير ذلك.

في النهاية، هدأ الفتيان، بل وظهرت عليهما بوادر الرغبة في المصالحة. كان شجارا تافها لم تستمر عقابيله أكثر من يوم أو يومين.

أعلنت لبن: إنها في وضع طيب الآن. سيتعلم فيليب من هذه الحادثة ألا يتظاهر بحمل الشص والصنارة وهو لامبال بصيد السمك، وسيدرك جورج أن دعاباته قد تكون سمجة وغير مقبولة أحيانا وهكذا سيعيد النظر مرتين قبل المغامرة فيها.

ــ ولكن أنت يا إدفينا؟

كيف ستتوصل إلى فرض احترامها على يافعين سيصلان قريبا إلى مرحلة الشباب، وهي منشغلة في الوقت ذاته بالعناية بثلاثة أطفال آخرين دون مساعدة من أحد؟ يبدو أنها لا تقدر الأمور حق قدرها.

أنا؟ لا اعتقد أنني أسيء التصرف... وابتسمت إنني أحبهم.

ــ وأنا أحبهم أيضا، لكن هذا لا يمنعني من أن أكون قلقا بخصوصك. أصغي إلي يا صغيرتي.. إن استطعت تقديم أية مساعدة، فلا تترددي في طلبها مني.

وقبلها بلطف على وجنتها. ونظر إليها بن طويلا عبر بلور السيارة الخلفي التي تقله إلى محطة القطار. ووقفت إدفينا على شرفة كوخها الصغيرة في سطوع شمس الصيف بين خضرة المكان وهي تلوح له بيدها على أمل اللقاء.

-XII-

عاد الجميع إلى سان فرانسيسكو في شهر آب، وبدأت إدفينا في حضور اجتماعات مجلس إدارة الصحيفة، وكان بن يرافقها غالبا. ولم تخف المرأة الشابة ما شعرت به من ضيق وهي تجلس على الكرسي الذي شغله برت خلال سنوات طويلة. إنها ترأس الاجتماعات بهدف واحد: المحافظة على منصب الإدارة إلى أن يبلغ فيليب سن الرشد.

بعد عودتهم بأيام قليلة من تاهو وصل الطرد!

كانت في الحديقة تقي يديها قفازات البستنة الخاصة، وتحمل مقراضا وهي تقوم بتقليم جنبات الورد، عندما رأت ساعي البريد يصعد ممر البيت وهو يحمل طردا ذا حجم كبير؛ «مرسل من إنكلترا» كما ذكر للسيدة بارنز التي استلمته منه على درج المدخل... لا شك أنه إحدى إرساليات الخالة ليز... واستمرت إدفينا تقتلع الأعشاب الضارة. بعد نحو ساعة، دخلت إلى بهو المنزل وعلى مئزرها الأسود تتناثر وريقات من العشب، وبعد أن نزعت قفازات القماش الثخين المغضنة عند معصميها، رفعت عن رأسها قبعة القش العريضة التي تقي بشرتها الحساسة من الشمس الكاليفورنية، وعند ذاك رأت الطرد مجددا؛ لقد أحسنت السيدة بارنز بتركه في مكان منظور، وإلا لنسيته إدفينا، واقتربت وهي تمسح راحتي يديها الدبقتين بتنورتها المغبرة، وخفق قلبها لا شعوريا فاسم المرسل ليس هيكام وإنما فيتزجرالد، وتعرفت سريعا من الأحرف الناعمة المرتصفة بعناية على خط والدة شارل.

انحرفت إدفينا إلى المطبخ فغسلت يديها ثم عادت إلى البهو وحملت الطرد وصعدت به إلى الطابق الأعلى ودخلت غرفتها.

وضعته بيد مرتعشة على سريرها. ولحسن الحظ كانت وحدها في البيت مع السيدة بارنز. فأخواها الكبيران خرجا مع شلة من الأصدقاء وانطلق الثلاثة الصغار مع شيلاغ إلى حديقة «غولدن غات بارك **Golden gate park** » فما من أحد يقطع عليها خلوتها. وبكل انتباه، وببطء متعمد، فكت أوراق الصر، ولاحظت وفقا لختم البريد أن الطرد مرسل منذ حوالي شهر، ويشكل بحجمه الكبير تباينا مذهلا مع خفة وزنه، فكأن ليس في داخله شيء.

طارت آخر أوراق الصر إلى السلة وظهرت علبة كبيرة من الكرتون الأبيض اللماع، وهناك في أعلاها غلاف أزرق فاتح في زاويته العليا إلى اليسار شعار آل فيتزجرالد؛ وضعته على غطاء السرير دون أن تفتحه وحلت الشريط، ورفعت غطاء العلبة. كاد قلبها يتوقف عن الخفقان... إنها هي... طرحة العروس، ببياض ناصع غير معقول. هي الطرحة التي كانت السيدة ستحملها إلى خطيبة ابنها الوحيد لو تم العرس، أمتار وأمتار من التول الحريري اللؤلؤي، المطرز بتيجان دقيقة بخيوط من حرير؛ ورفعتها أصابعها المرتعشة من العلبة فدومت كسحابة رقيقة في الغرفة؛ وتقوس جسمها كأن ألما لا يوصف قد انتشر فيه. وعندما وضعتها على رأسها عكست لها المرآة وجها تلتمع عليه الدموع، وشعرا مشعثا تحت هذه الهالة الحريرية الشفافة، ومئزرا عاتما يذكر بقسوة ببياض ثوب العرس العاجي الذي غرق قماشه الحريري مع **التيتانيك**، ذلك الثوب الذي لن ترتديه أبدا.

جلست إدفينا على حافة السرير، دون أن تنزع الطرحة وفضت الرسالة.

خيل إليها أنها تسمع من بين الأسطر صوت السيدة فيتزجرالد الأرستقراطي وهي تنطق برقة بهذه الكلمات:

«إدفينا يا حبيبتي

نحن نفكر فيك على الدوام، أنا وزوجي. ها قد مضت أربعة أشهر على مغادرتكم إنكلترا وأكاد لا أصدق، كما أجد من الصعب أن أدرك كيف أمكن لهذه الكارثة أن تحدث.

أرسل إليك طرحة العروس مع كل تأسفاتي. تناقشنا طويلا أنا وزوجي وخلصنا إلى الرأي بأن من حقك وحدك أن تحتفظي بها، إنها رمز الحب الذي حمله لك ابننا شارل حتى آخر نسمة من حياته. إنك تمثلين أغلى شيء له في هذا العالم، وأنا على يقين بأنكما كنتما ستسعدان كثيرا معا. ضعي هذه العلبة في مكان ما، يا ابنتي العزيزة، ولا تنظري إليها غالبا، وإنما من وقت لآخر، لتتذكري أن ابني كان يعبدك.

آمل مخلصة أن أراك مجددا هنا في يوم ما. وبالانتظار قبلي نيابة عني أخوتك وأخواتك؛ أما أنت يا عزيزتي الغالية إدفينا فلك أرق عواطفي الآن، وإلى الأبد».

كانت الدموع الحارقة تغشي عينيها، فوجدت صعوبة في تمييز توقيع مرغريت فيتزجرالد.

كم من الوقت بقيت هكذا، خائرة القوى على سريرها؟ دقيقة؟ ساعة؟ أكثر من ذلك؟ وانتفضت على انفتاح الباب وانصفاقه، ولاحظت ضجة أصوات في المدخل، وخطوات متسارعة على دورة الدرج، فقفزت واقفة، ونزعت الطرحة وجعلتها تنساب سريعا في العلبة التي وضعت عليها غطاءها وأخفتها في عمق حافظة ثيابها، في اللحظة التي كانت فيها فاني تدخل كالإعصار إلى الغرفة متهللة وعيناها تبرقان إثارة، وتهرع إلى الارتماء في حضن أختها الكبرى وهي تزقزق بالقول:

ــ إن للمنتزه الآن ميدان ألعابه الجديد !

وانطلقت فاني دون أن تلاحظ أجفان إدفينا المتورمة، أو وجهها المتغير، في وصف براق لهذه الأعجوبة. يوجد خيول من خشب مدهونة بمختلف الألوان، مع أسرجة برونزية مزينة بالأنجم، وهي

تدور مع الموسيقى، بكل تأكيد، موسيقى تعزف باستمرار! والخيول تدور وتدور...وكذلك زلاجات متعددة الألوان لكن الركوب على الخيول أكثر تسلية. وتابعت الطفلة: «يوجد أيضا زوارق» وقطبت حاجبيها وهي تقول: إنما نحن لا نحب الزوارق، أليس كذلك يا تيدي؟

كان الطفل قد دخل بدوره إلى الغرفة تتبعه ألكسيا، وأشار «لا» برأسه وثبت عينيه الواسعتين على وجه إدفينا بنظرة متسائلة، وكأنه شعر أن شيئا ما قد حدث، لكنه لا يستطيع أن يقول ما هو.

وفيما بعد، وبعد أن ذهب الصغار إلى أسرتهم سألها فيليب:

ــ ماذا جرى؟ أي أمر حدث لك يا ويني؟

كانت طبيعته القلقة تدفعه أحيانا ليأخذ دور برت. وابتسمت له وهي مستعدة للإنكار:

ــ لا شيء، لماذا؟ ــ لكن غابت ابتسامتها ــ واستأنفت: تلقيت رسالة من الليدي فيتزجرالد.

ــ آه...! وكيف صحتها؟

توقفت للحظة على السلم، بينما كانا يصعدان معا إلى الطابق الأول:

ــ حسنة... على ما أعتقد.

نظر إليها نظرة المدرك لما تعانيه. فهو، ابن السابعة عشرة، قادر تماما على أن يتصور ما تعانيه من ألم، وانهارت أعصاب إدفينا فجأة واستندت إلى أخيها وتمتمت بصوت ضعيف يتجلى فيه الألم الممض فيكاد لا يسمع:

غدا، كان... كان موعد..

وعجزت عن إتمام عبارتها، وأحست بيد فيليب فوق كتفها، والتفتت إليه، ووجنتاها تلتهبان بسيل من الدموع:

ــ هذا لا شيء... اعذرني...

ــ آه ! يا ويني...

وأحاطها بذراع يفيض حنانا وهو يعينها برفق على أن تجتاز درجات السلم الأخيرة، وعلى العتبة ترنحت فأسندها إلى صدره وهي تهمس:

ـ يا إلهي، لماذا حدث هذا؟ لماذا لم يكن هناك العدد الكافي من قوارب الإنقاذ؟

لم ينبس فيليب بكلمة، ولم يجرؤ على الجواب، وهزت إدفينا رأسها، مع هذا التعبير من التمرد الذي يرمي بظله أحيانا على قسماتها.

لماذا لم تصل النجدات في الوقت المناسب؟

لماذا لم تجب **الكاليفورنيان** على نداءات الاستغاثة؟

لماذا؟ ولكن ما أهمية هذا الآن؟

وانخرطت في البكاء بين ذراعي أخيها، محاولة أن تحبس صوت نحيبها. وفيما بعد في مخدع نومها، استمرت إلى وقت طويل تسكب الدموع المرة وفكرت في قنوطها: بعد زمن طويل... سينتهي هذا أيضا، فالنهار يعقب الليل، لكن كان يتوقع لنهار غد تميزا بين الأيام إذ أنه النهار الذي حدد موعدا لزفافها.

-XIII-

عيد الميلاد دون برت وكات تجربة قاسية، وخاصة بالنسبة للكبار، وقد أعدت إدفينا ترتيبا فطنا بحيث يبقي الصغار في شغل دائم. وتجند بن لمساعدتها فزار مع الفتيان معرض السيارات، وصحب الجميع إلى تنوير شجرة عيد الميلاد في فندق فيرمون Fairmont Hotel ، وجاء أصدقاء آخرون لأهلها لنجدتها، لكن دعواتهم جعلت غياب كات وبرت أكثر قسوة.

بقيت ألكسيا موضوع قلق مستمر لإدفينا التي لم توفر أي جهد من أجلها، لكن الفتاة الصغيرة أخذت مع الزمن تغرق في كآبة غريبة، وقد عثرت عليها إدفينا أكثر من مرة، بعد أن فتشت عنها الأماكن، في غرفة أمها، أو في حجرة الملابس الملاصقة لها، تجلس على حشوة منجدة من الساتين الزهري، وفي كل مرة لا تتمكن من الإتيان بها إلا بعد لأي.

كانت إدفينا تعاني من انقباض غريب عندما تضطر إلى التوجه نحو شقة والديها، فالغرفة الفسيحة، المرحة في السابق، أخذت مع الزمن مظهر المصلى. ما من شيء تغير فيها، وحافظات الثياب ملأى بالملبوسات التي لم تجرؤ إدفينا على التخلص منها، والأثاث والأشياء العديدة التي تنفض عنها السيدة بارنز بعناية الغبار تدفع إلى التفكير بشهود مأساة صامتين، وفرشاة الشعر ذات القبضة الذهبية العائدة لكات، وأمشاطها الكبيرة والصغيرة من العاج مصفوفة على طاولة زينتها تماما في المكان الذي تركتها فيه.

قالت قيمة المنزل الكهلة: «لا يمكنني الدخول إلى هذه الغرفة دون أن استرسل في البكاء» وبعد فترة من الزمن ابتكرت ذرائع مقنعة كي لا تضع قدمها فيها، أما شيلاغ فقد رفضت بشكل قاطع الصعود «إلى أعلى» حتى في حال البحث عن ألكسيا.

بين وقت وآخر، وعلى غرار ألكسيا، كانت إدفينا تحس بحاجة قصوى إلى أن تلجأ إلى ما غدا في نظرها بمثابة مصلى. لم تقل هذا لأحد حتى ولا لفيليب. ولكن هناك، في الأعلى، وسط الأشياء العائلية، كانت تحس أن كات وبرت أكثر قربا منها. وها قد مرت ثمانية أشهر على وفاتهما. أهي ثمانية أيام أم ثمانية قرون؟...

بعد الأعياد وهي الأولى التي مرت عليهم وهم بمفردهم، أحست أنها منهكة، فقد وجب عليها أن تكافح أياما بكاملها من أجل أن تخلق جوا ممتعا وخاصة للصغار. وكما فعلت كات في السنين السابقة، زينت إدفينا شجرة عيد الميلاد وغلفت مجموعات عديدة من الهدايا بالأوراق المذهبة، وراجعت مع الصغار أغاني العيد، وصحبت عائلتها الصغيرة إلى قداس منتصف الليل. وأعدت في قاعة الطعام مائدة يتصدرها الديك الرومي التقليدي، وكان بن جونز المدعو الوحيد للغداء تلك السنة، وصب قرب الشجرة كومة من الهدايا، وقدم إلى إدفينا صرة مزينة بأشرطة حريرية أسرعت إلى فكها وهتفت بنشوة وهي ترى شالا رائعا من الحرير الهندي بلون أزرق مرهف: أوه ! يا لجماله !

سترتديه في شهر نيسان، عندما تكون قد أنهت سنة الحداد على والديها وعلى شارل. قال:

ـ كان بإمكاني الإتيان بشال أسود، لكنني استدركت الأمر، فأنا متعجل لأراك في أثواب ملونة.

ـ شكرا. إنه حقا رائع.

هتف جورج بخبث: والآن جاء دور هدايانا لبن !

وقدم له صرة، فك أوراق غلافها بسرعة ليجد فيها لوحة زيتية رسمها جورج بمنتهى التستر.

هتف بن وقد عرف الموديل الذي رسمت عنه اللوحة: «ولكن هذا كلبي !» مما جعل الفنان الناشئ في منتهى السرور.

قدم له فيليب حاملة أقلام مزخرفة بعناية. أما إدفينا فناولته علبة صغيرة وجد فيها زوجا من أزرار القمصان من السفير اختيرت بعناية فائقة من مجموعة برت، وقد استشارت إدفينا مسبقا أخويها للسماح لها بتقديم هذه الهدية من ميراث والدهم فوافقا دون تردد فبن هو صديق أبيهم الحميم ومستشاره الحقوقي ويسرهما أن يريا كمي قميصه مزينين بزرين ثمينين من مجموعة برت؛ مر النهار بهدوء،

وبعد وجبة العيد التي استمتع بها الجميع، انتقلوا إلى الصالة حيث قدمت لهم السيدة بارنز القهوة والحلويات، وانشرح بن فقد كان العيد بالنسبة إليه يوما صعب العبور إذ لا يستطيع فيه الامتناع عن تذكر الأعياد السابقة الأكثر سعادة قرب زوجته وابنه. والآن وهو يرتشف بهدوء القهوة الطيبة المذاق ويتناول بعض الحلوى اللذيذة من إعداد السيدة بارنز يشعر أنه محاط بجو عائلي مجددا ... يتحدثون ويروون الحكايات، بل ويضحكون. وفي النهاية غفا تيدي على ركبتيه، وحمله بن إلى السرير. واستغلت فاني الفرصة فرجته أن يحملها هي أيضا إلى غرفتها، ونفذ عن طيبة خاطر، بل ورافق أيضا ألكسيا الحردة. وفي اللحظة التي كان يستعد فيها لمغادرة الغرفة، خرجت الطفلة عن تحفظها المعتاد وشكرته بابتسامة عذبة.

عاد بن إلى الصالة وقبل أن يستأذن في الانصراف تناول كأسا من «البورتو» برفقة إدفينا والفتيين ثم غادر بيت آل وينفيلد الواسع يغمره شعور بالسعادة، مضت عليه مدة لم يتذوقه.

قضوا سهرة رأس السنة برصانة، وفي يوم العيد بالذات وصلت الخالة ليز إلى سان فرانسيسكو، كانت متشحة بثياب الحداد الكاملة، قبعة سوداء كبيرة ذات غلالة من الكريب وقفازين أسودين أيضا حتى أن إدفينا تساءلت إن كان زوج الخالة ربر قد توفي، لكنها ثابت إلى رشدها سريعا. فبعد أن ذرفت الخالة إليزابيت سيلا من الدموع على أختها المسكينة وزوج أختها السيئ الحظ انطلقت في سرد قاتم لآلام زوجها:

ـــ هذا المنكود قد عانى آلام الشهداء منذ الخريف، لكنه، والحمد لله، حافظ على طبعه ... وأسرعت لتضيف قبل أن تسترسل في دموع جديدة:

ـــ إنه يرسل إليكم تحياته بالتأكيد.

أبدت الخالة ليز بعد ذلك رغبتها في أن تقوم بدورة في المنزل، وكانت كل غرفة من غرفه، وكل قطعة أثاث، وكل صورة مؤطرة تتخذ توطئة لنحيب طويل.

ـــ لن أعتاد أبدا على فقدان أختي الوحيدة، ولا على فكرة أن أولادها غدوا يتامى. هذا مريع!

مخطت، ونشقت، وانتحبت، وشكت الحظ الظالم الذي وجه إليها مثل هذه الضربة الساحقة، وردت إدفينا بهدوء:

ـــ «إننا نحاول الاستمرار في العيش» لكن الخالة لم ترد سماع شيء، وأعلنت بعد قليل: «تبدو سحنة هؤلاء الصغار كورقة مدعوكة، من يقوم بإعداد طعامهم والطبخ لهم؟»

ـــ إنها ذات القيمة، يا خالتي ليز، فالسيدة بارنز تعمل عندنا منذ سنوات كما تعلمين. أنت تتذكرينها، أليس كذلك؟

عقبت الوافدة بغتة مغيرة موضوع حديثها: « جورج وفيليب في سن صعبة، والأخطار عديدة في أيامنا، آمل أن تأخذي هذا بالاعتبار يا إدفينا، والأخت الكبرى لا يمكن أن تحل محل السلطة الأبوية».

لم تحدد طبيعة هذه الأخطار، واحترست إدفينا من أن تسألها عنها إذ يبدو أن الخالة إليزابيت خلال الثمانية أشهر الفائتة، قد انهارت كليا، وهي فريسة اكتئاب عميق. فعندما دخلت إلى قاعة زينة المرحومة أختها بدت للحظة وكأنها توشك أن يغمى عليها، أما منظر غرفة النوم فجعلها تطلق صرخة حيوان جريح، وصرخت وفي عينيها نظرة اتهام وإدانة:

«يا إلهي يا إدفينا، كيف أمكنك أن تقومي بمثل هذا العمل؟ تتركين كل شيء على حاله، وكأن والديك سيظهران بين لحظة وأخرى ! يا الله ! إنني لن أتحمل هذا أبدا ... يجب بسرعة أن تجمعي كل

أغراضهم وتضعيها في صناديق من كرتون، وتغيري وضع الأثاث ... يا إلهي...

وبدأت تغص وتكاد تختنق. وقدمت لها إدفينا كأس ماء أسرع فيليب بالإتيان به خفية.

ـ هذا صحيح يا خالتي، ولكن لم يتسن لنا الوقت ... أو بالأحرى لم نمتلك الشجاعة على القيام بهذه الترتيبات، لكننا سنفعل ذلك متى وجدنا في أنفسنا القدرة على فعله ... واستأنفت بعد لحظة توقف وتردد: أصغي إلي، إنني أعلم أنك تعانين الألم ...

ـ أوه! نعم، إنه ألم ممض.

ـ ومع ذلك جربي أن تخفيه يا خالتي ليز، على الأقل من أجل الأولاد. حاولي ألا تبكي أمامهم، إذ أخشى من تشويشهم.

ـ أليس لك قلب؟ تطلبين التوقف عن البكاء وكأن هذا يتم وفق الطلب.

وتحولت الكلمات إلى نحيب صاخب، وانهارت ليز على أريكة في الصالة الخاصة بكات، وقد اصطبغ وجهها بحمرة أرجوانية، فعهدت بها إدفينا للحظة إلى فيليب وخرجت إلى العتبة ونادت شيلاغ وطلبت منها أن تذهب بالأولاد في نزهة إلى غولدن غات بارك، وكان صدى نحيب ليز يتردد عبر المنزل بكامله، وعندما عادت إدفينا إلى الصالة الصغيرة وجدت خالتها في الحالة ذاتها تقريبا، وقد تحول نحيبها إلى فواق ودموع بللت أجزاء من نسيج فستانها الأسود.

ـ لا يمكنك أن تتصوري كم تألمت يا إدفينا، ما من أحد يمكنه أن يتصور ذلك. هذه الأشهر الأخيرة كانت بالنسبة لي درب الجلجلة[١] ، أتسمعين؟ أشد المحن ! قد تجهلين الحب الذي أكنه لكات، إنها أختي

---

[١] درب الجلجلة Calvaire : هو الدرب الذي مشى فيه السيد المسيح يحمل صليبه إلى الجلجلة: المكان الذي صلب فيه. ويكنى به عن شدة العذاب الذي يفوق الطاقة.

(المترجم)

... الوحيدة الباقية من أهلي ... وقد فقدتها، أتدركين ذلك؟

بلى إنها تدرك ! ... وألزمت إدفينا نفسها بملازمة الهدوء. فالأسى لا يمكن أن يقاس، بالتأكيد، بعدد من فقدناهم، ومع ذلك ! فإن الموت قد انتزع كل أحباء إدفينا: أمها، وأباها، وخطيبها، وحتى المسكينة أونا، ويبدو أن ليز لم تتنبه لذلك، ولم تنظر إلا إلى ألمها الخاص.

استأنفت بعد ذلك وهي تنظر إلى فيليب، الذي بقي واقفا في الصالة وظهره إلى النافذة:

ــ كان يجب أن تطيعي ربر عندما طلب منك المجيء والاستقرار في إنكلترا. فأنا هناك وكان بإمكاني العناية بكم، بكم جميعا.

تبع ذلك صمت قصير. ومالت ليز برأسها لتخفي تكشيرة غيظ. إنها تحقد على إدفينا. إن حقدها كبير عليها، فبرفضها الصريح والحازم لمقترحات ربر حرمتها من القيام بدور الأم الذي رغبت فيه بحرارة طوال حياتها. وقد حرمتها إدفينا باعتزازها غير المناسب من حظها الأخير بأن تضم عائلة إليها.

قال لها ربر: باه، عندما ستقع في ورطة ستعود وتفكر بنا.

غير أن الأشهر مرت ولم يحصل شيء، ووفقا لهذا المحامي الذي بقي ربر على اتصال معه بن ... بن ماذا؟ بوند .. بونس ... بونز؟ فإن إدفينا تتولى مسؤولياتها بشكل رائع، ولكن إدفينا شابة، وستعود بالتأكيد للاهتمام بتكوين حياتها الخاصة، بعكس ليز التي ستستمر في ممارسة عيش قاتم دون فرحة فيه أو شعاع أمل.

تابعت قولها بحدة قريبة من العدوانية: «لقد تصرفت بشكل سيئ».

رد فيليب غاضبا: « إن أختي تعرف ما يجب عليها فعله»

تدخلت إدفينا ورجت أخاها أن يذهب ليتفقد جورج في غرفته، وهكذا أمكنها أن تتجنب نزاعا أوشك أن يحدث.

دامت إقامة الخالة ليز ستة وعشرين يوما كانت نكبة. فعلى مدى كل يوم تتابع بكاؤها وصراخها ومراثيها، ورغم جهود إدفينا ما فتئت

خالتها تنحي عليها باللوم، فـــالبيت غــير مرتـــب، والأولاد غــير منضبطين، ومطبخ السيدة بارنز غير مستساغ. وألحت ليز علـــى أن تضع أمتعة وحاجيات كات وبرت في رزم وصناديق مـــن كرتـــون، وساعدتها إدفينا في تفريغ الخزائن والدواليب. ثـــم اختـــارت الليـــدي هيكام، وهي دامعة، بعض الأشياء من مقتنيات أختها لتحتفـــظ بـــها كذكرى: حليتين أو ثلاثا، دفتر مذكرات حفـــلات رقـــص، مجموعـــة بطاقات بريدية مصفرة، صور تظهرهما معا في أيام اليفاع والصبـــا. ترهات لا تقيم لها إدفينا ولا الأولاد أهمية خاصة.

كان يوم رحيلها كيوم التحرير، رافقوها في السيارة إلى محطة السكة الحديدية في أوكلند، وعلى رصيف المحطة، كانت نوبـــة جديـــدة مـــن البكاء. أخيرا صعدت إلى مقطورة الدرجة الأولى دون أن تلتفت خلفها.

لم تتوقف خلال هذه الأيام الستة والعشرين لحظة عن البكاء، ولـــم يهدأ سخطها، كان حقدها يضنيها. ليز الناعمة ســـابقا، تحقـــد علـــى الأرض بكاملها. تحقد على القدر الذي انتزع منها كات، وعلى إدفينـــا التي حرمتها من أولاد كات، وعلى السير ربر الذي أفسد حياتها.

قالت ألكسيا وهم في طريق العودة: إنني أكرهها !

ردت إدفينا بهدوء: لا يجب ذلك.

ــ بلى ! لقد أجبرتك على وضع أثواب ماما في صناديق كرتـــون. لا يحق لها ذلك.

ــ لا أهمية لهذا يا ألكسيا، لن ننسى ماما مهما حصل.

لكن ربما كان هذا خطوة نحو النسيان، بعد كل حساب.

-XIV-

أقيم بمناسبة مرور سنة على وفاة برت وكات وينفليد، بتاريخ ١٥ نيسان ١٩١٣، قداس حافل في كنيسة الرعية حضره جمهور غفير من الأصدقاء والمعارف، أشاد خلاله القس في عظة مؤثرة بمزايا الفقيدين، لطفهما، ومساهمتهما الفعالة في حياة الطائفة، والمحبة التي أولياها لأولادهما، وكان هؤلاء يجلسون في الصف الأول، وهم يرتشفون كلمات الخطيب، ويرفعون بين وقت وآخر مناديلهم إلى أطراف أعينهم.

بعد القداس الجنائزي أقامت إدفينا حفل غداء لبعض الأصدقاء. كانت هذه هي المرة الأولى التي تستقبل فيها في البيت بعد نهاية **التيتانيك** الفاجعة وقد أعدت السيدة بارنز وشيلاغ مائدة الغداء في ظل أشجار الحديقة التي تغمرها الشمس، وقد احتفلوا أيضا بعيد ميلاد ألكسيا وأعدت القيمة الطيبة لهذه المناسبة قالب كاتو بالشوكولا مزينا بالقشدة ووردات السكر ــ قالب كات المفضل ــ وأطفأت الطفلة الشمعات السبع بنفخة واحدة.

وفقا لمعايير مجتمع النخبة فإن فترة حداد الآنسة وينفيلد قد انقضت وبدأت تنهال عليها الدعوات. ولم يخف على أعين سيدات المجتمع النافذة أن خاتم الخطبة ما يزال يلتمع في بنصر يد إدفينا اليسرى، إضافة إلى أن القس خلال الاحتفال الجنائزي قد أشار إلى شارل، لكن غض النظر عن جميع هذه التفاصيل عن طيبة خاطر، فإدفينا، وهي في الثانية والعشرين من عمرها، وما هي عليه من جمال وثروة، تعتبر محط أنظار شباب النخبة الراقية في المدينة وكانت في حفل الغداء هدفا لأنظارهم، وهذا ما لاحظه بن في شيء من الغيرة والألم.

أشار بعد أن غادر بقية المدعوين الآخرين: يالجمال بعد ظهر هذا اليوم.
ابتسمت إدفينا، وكانت قد جلست على أرجوحة بينما تــوزع الأولاد على المرجة الخضراء المشمسة، فأيدت ملاحظته وقــد بــدا عليــها الارتياح:

ــ في الواقع كان حفل الغداء ناجحا جدا ... وأعتقد أنهم قدروا هذا.

ــ إنني مقتنع، وهم فخورون بأبنائهم، وبصورة خاصة بابنتهم البكر.
وفكر في نفسه:« هذه العذراء التي تحولت خلال ســنة إلــى فراشــة رائعة» لكنه قال: ربحت رهانك يا إدفينا، وقد نجحت في استدراك الحالة.
وابتسمت من جديد:

ــ إنك تطريني يا عزيزي. لكن الأمر ما يزال بعيدا عن الانتــهاء. كل ولد يتطلب انتباها خاصا. يجب أن يحسن جورج نتائجه المدرسية، وفيليب قلق جدا خشية أن يرفض في جامعة هارفارد. وألكســيا ... ــ وصدرت عنها تنهيدة، وقطبت حاجبيها ــ أعترف إنني حائرة بشأنها.

ــ يصعب فعل أكثر مما فعلته، فــأنت...

لكنه توقف ليتيح لزوجين متأخرين توديع ألكسيا، وحيتهما برقــة لا متناهية واستمعت مجاملة إلى بعض طرف بخصوص برت.
عندما ابتعدا، لم يكن بن في الحديقة، واستعرضت إدفينا بسرعة ما حولها.

ــ لم يبق إلا جورج وفيليب على مقعد وهما منشغلان بمحادثة طويلة.
ودخلت إلى البهو حيث لم تجد أحدا، وألقت نظرة عبر باب المطبخ فوجدت تيدي وفاني وألكسيا يجلسون إلى مائدة يلتهمون بقايــا قــالب الكاتو. والسيدة بارنز ترتب الصحون بعد غسلها وتنشيفها بمســـاعدة شيلاغ في خزانة قاعة الطعام ... ووجدت بن في المكتبة وهو غــارق في استعراض عناوين الكتب التي تملأ رفوفها. والتفت عند اقترابــها، وبعد أن تبادلا بعض عبارات عادية سألها:

ــ تلقيت العديد من الدعوات أليس كذلك؟

لكنه تأسف سريعا على تسرعه بذلك السؤال. عجبا ! أيكون غيورا؟ يصعب الحكم على شعوره، لكنه يفضل لو أنها بقيت في ثياب الحداد القاتمة.

ـ نعم ... الناس مهووسون في الاعتماد على الظواهر البسيطة، فهم يعتبرون إنني مستعدة للإقبال على الدنيا لمجرد أنني تخليت عن سواد الألبسة، وليس هذا هو الحال بالطبع ! إنما لا يمكنهم إدراك الواقع.

نظر إليها وقد غمرته عاطفة غريبة. ما هي؟ أهي الرضى؟ أهو الانفراج؟ ولأي سبب؟ تساءل وهو عاجز عن أن يحلل أحاسيسه. إدفينا مجرد طفلة ... ابنة أعز أصدقائه ... وارتضى بشكل آلي كأس المشروب الكحولي الذي وضعته بشيء من النفوذ بين يديه وهي تقول:

ـ يبدو عليك القلق.

ـ كلا، أبدا !

ـ بلى ! إنك تجعلني أفكر بالخالة ليز. مم تخافون حقا؟ من الإساءة إلى سمعتي إن خرجت دون تبصر؟ من عدم المحافظة على نقاء آل وينفيلد؟

كانت تعبر بلهجة فكاهية، لم يستطع منع نفسه عن الضحك عند سماعها. عقب باللهجة ذاتها: لا يمكن إخفاء شيء عنك !

جلس بعدها على ديوان، دون أن تفارقها عيناه، وسألها:

ـ إدفينا، كيف تفكرين بتنظيم حياتك الآن ؟

أعقب ذلك فترة صمت، وهو يتأمل خاتم الخطبة الألماسي في إصبع الشابة وهو يقول في نفسه، المهم ألا تعتقد إنني أصبت بالجنون! غير أنه هو بالذات بدأ يرتاب في ذلك، ولما كانت تتأمله دون أن تجيب، ألح وهو يرى الدهشة ترتسم في عمق زرقة عينيها.

ـ إنني جاد، ماذا ستفعلين هذه السنة؟

غرقت في تفكير لا نهاية له و أجابت أخيرا:

ـ ما فعلته بالذات في السنة السابقة على ما أتوقع، الاهتمام بالأولاد، فأنا لا أرغب في شيء آخر يا بن.

لكن نفسه ثارت في صمت: ليس في الثانية والعشرين من العمر، وقال:

ـ إدفينا، ستأسفين يوما على هذه التضحية التي تفرضينها على نفسك. إنك في ميعة الصبا بحيث لا يمكن أن تخصصي حياتك كلها لأخوتك وأخواتك.

ابتسمت قائلة، وهي متأثرة باهتمامه: هذا يتعلق بالمعنى الذي نعطيه لكلمة تضحية، أمن الضرر أن ...

قاطعها سريعا: ليس ضررا إنما هي ورطة خالصة، إن الواجب بالتأكيد رسالة محترمة، لكن هذا لا يكفي لإسعاد الناس، فأهلك أنفسهم لم يكتفوا بالقيام بالتزامهم تجاه عائلتهم، وكان لديهم شيء آخر... حبهم...

هي أيضا كان لديها شيء آخر. هي أيضا كان لديها حبها لشارل. حب ما من شيء يعوضه...

كان بن يثبت فيها نظره بشدة، دفعتها بعد لحظة إلى الاضطراب، واستأنف:

ـ هل أدركت عما أتحدث يا إدفينا ؟

أجابت بشكل مبهم: نعم... بالتأكيد... إنك ترجو أن تراني سعيدة. وأنا كذلك بطريقة ما، هنا مع الأولاد.

ـ أهذا ما يلزمك؟ وتردد لجزء من الثانية ثم قال: إنني أتمنى أن أقدم شكلا آخر من السعادة يا إدفينا.

اتسعت حدقتا عينيها الزرقاوين إلى أبعد حد وتمتمت: بن... أتريد القول...

كانت أبعد بما لا يقاس عن أن تشك بذلك، فالفكرة التي يمكن أن تغذي فعل هذا الهوى تجاهها لم تخطر لها ببال. وأحس بها بن فجأة متوترة ومنذهلة بشكل رهيب. وأدرك وضعها تماما، إنه أول من ذهل

لافتتانه بها، اعتبر ذلك في البداية عائدا إلى الود والحنان اللذين يحق لكل رجل أن يشعر بهما تجاه أبناء أصدقائه، وشيئا فشيئا أدرك ما في طوية نفسه. إنه يحبها. إنه لا يفكر إلا بها منذ عيد الميلاد. ورأى أن ينتظر حتى شهر نيسان، فتكون قد انقضت عندئذ سنة على الكارثة، وامحت صور الماضي المؤلم. وتساءل فجأة وهو قلق إن لم يكن من الواجب أن ينتظر أكثر من ذلك.

توهج خداها كلهب من نار، وحولت رأسها، وكأن واقع هيامه بها يضعها في ارتباك شاق وقالت: لم أكن ... لم أكن أعلم...

استدرك بسرعة وهو يحبس يديها بين يديه:

ـ إنني أسف. كان من الأفضل أن ألزم الصمت. خسارة. الآن تعرفين كل شيء. أحبك... أحببتك منذ زمن طويل. وأيا كان قرارك أتمنى أن أحتفظ بصداقتك، أنت كل دنياي يا إدفينا، وكذلك الأولاد. لا طاقة لي على فقدك.

تمتمت بعد أن ألزمت نفسها بتثبيت نظرها عليه: لن تفقدني.

إنها مدينة له بالكثير، وهي تحبه أيضا، إنما على طريقتها، كصديق طيب قديم وأثير لدى العائلة. لكن هذا كل شيء. لا يمكنها أن توافق على ما يطلبه. أن تضع طرحة العروس الغالية الكائنة في أسفل علبتها لرجل آخر غير شارل أمر فوق طاقتها، فقلبها لم يخفق منذ البداية إلا لشارل، ولن يخفق لغيره حتى النهاية.

ـ لا أستطيع يا بن، أحبك محبة فائقة، لكنني لا أستطيع.

إنها لا تريد أن تجرح شعوره لقاء أي شيء في الدنيا.

ـ لماذا؟ ألم يمض الوقت الكافي على الفاجعة؟

هزت رأسها نفيا.

ـ هل يعود السبب للأولاد؟ قولي صراحة يا إدفينا.

تحول خوفه من فقدها إلى نوع من الذعر.

ـ كلا يا بن لا علاقة للأولاد بهذا الموضوع، ورفضي لا يتعلق بهم، كما أنه لا يتعلق بك أنت أبدا.

ثم أضافت وقد غشيت الدموع عينيها فجأة: «إنه بسبب شارل فلا أستطيع أن أخونه، لا ..»

وصمتت غير قادرة على المتابعة. بينما استمر بن في تأملها. إنه في الوقت الحاضر يأسف على نفاد صبره، إذ وجب ألا يتسرع، فجرحها لم يبرأ لكنه على الأقل تلقى جوابا. خاض معركة ضد أشباح التيتانيك وخسرها. غير أن قبسا من أمل جديد شع في سمائه على شحوبها.

ـ حتى الأرامل يتزوجن أحيانا. إن لك الحق بالسعادة يا إدفينا.

لم يبد عليها الاقتناع لكنها ردت بالقول:

ـ دون شك لكن ما يزال الوقت مبكرا جدا على هذا القول ... ولكن كلا، إنني أفضل أن أكون صادقة معك يا بن، أنا لا أعتقد أنني سأتزوج في يوم ما أبدا.

ـ هذا مناف للعقل.

ـ ربما، وعلى كل حال فإن الأولاد يحولون دون أن أغدو زوجة صالحة، فأنا منشغلة بهم كثيرا، بحيث سيلومني زوجي وبحق عاجلا أو آجلا على تقصيري.

ـ ليس أنا.

دفعتها هيئته شبه الجريحة إلى الابتسام وقالت:

ـ كيف يمكنك أن تحكم على الغيب؟ إنك تستحق زوجة توليك كل اهتمامها. فكر بما ينتظرني من اهتمامات والوقت المخصص لها. لن يكون لدي دقيقة واحدة أخص بها نفسي قبل نحو خمسة عشر عاما، وهو الموعد الذي سيبدأ فيه تيدي دراسته الجامعية. إنه موعد طويل الأجل، ألا تجده كذلك؟

أجاب على ابتسامتها بهز كتفيه، إنه يدرك خسارته، فإدفينا شديدة العناد ومتى اتخذت قرارا يستحيل أن تتراجع عنه، وهذا العناد يشكل

جزءا من جاذبيتها. إنه لا يجرؤ على قول هذا لها. والواقع أن عيوبها لا تعد شيئا أمام مزاياها وما تتمتع به من شجاعة، ومثالية متحمسة، ومزاج طيب. وبن يحبها لكل هذه الصفات، كما يحب أيضا شعرها، وعينيها، وشبابها وقد أيدها في رأيها من أجل الضحك أو التظاهر بالضحك.

ــ في الواقع، إن مدة خمس عشرة سنة فترة طويلة قليلا، سأكون عندئذ في الستين، ولن ترغبي بي أبدا.

ــ لكن إن استمر شياطيني الخمسة الصغار في استنفاد طاقتي فستبدو، بالتأكيد أكثر نشاطا مني.

وانطلقا في ضحكة مشتركة خمدت سريعا، ومدت إدفينا إليه يدها قائلة:

ــ لا تحقد علي يا بن فحياتي ملك لهم.

ستعتني بهم إلى النهاية بلا مقابل وضد كل شيء، لقد أقسمت على ذلك لأمها، فسعادة الأولاد أهم من سعادتها، ومع ذلك فإلى أية سعادة يمكن أن تطمح؟ إن الزوج الوحيد الذي أرادته قد مات، وهي لا تريد أحدا غيره، حتى ولا بن رغم انجذابها الكبير إليه. ونظر إليها طويلا ولمحت بريق القنوط في عمق حدقتيه. سألها:

ــ أنبقى أصدقاء.

هزت برأسها إيجابا وهي تغالب دموعها. كيف يمكنه أن يرتاب في ذلك؟ فبن صديقها الأكثر معزة، ومستشارها ، وموضع ثقتها. وفي بادرة تعاطف أحاطته بذراعيها وأسندت خدها إلى صدره، وتمتمت:«لا تشك بذلك، فلولاك لما خرجت أبدا من هذه المحنة».

ــ «يبدو أنك بالعكس قد خرجت إلى أبعد من اللازم» قالها بمرارة ثم ضمها إليه.

احتضنها هكذا لفترة في صمت، لم يحاول تقبيلها، ولا الدفاع مرة أخرى عن حبه. فلئن فاته حب إدفينا له، فعليه أن يقتنع بصداقتها. إنه متعلق بها إلى حد يرضيه القليل من الود الذي تهبه إياه.

بعد ذلك بقليل اجتاز عتبة مسكن آل وينفيلد بخطا ثقيلة، وكما في كل مرة يترك فيها إدفينا شعر بأن قلبه ينفطر.

وصلت برقية الخالة ليز في صباح اليوم التالي. توفي زوج الخالة ربر في يوم الذكرى السنوية الأولى لموت كات وبرت. وأعلنت إدفينا نبأ وفاته للأولاد عند موعد العشاء، وبدا عليهم التأثر، وتظاهروا بهدوء لم يحسوا به حقيقة، وأعان فيليب إدفينا على صياغة برقية تعزية، غير أنها مع تبليغ خالتها أرق مشاعرها الودية، وحثها على الصبر والسلوان حرصت على عدم دعوتها إلى سان فرنسيسكو، فزيارتها السابقة منذ ثلاثة أشهر قد سببت ما يكفي من الأضرار. وبعد تفكير قررت ألا ترتدي ثياب الحداد على اللورد هيكام، فإخراج الملابس السوداء، بعد أن رتبتها السيدة بارنز في أسفل إحدى الخزائن سيكون له بالتأكيد نتائج غير مستحبة على حساسية الأولاد. وإرضاء للشعور بالواجب ارتدت ثيابا رمادية لمدة أسبوع، ثم عادت إلى زيها المعتاد وكانت قد جددت خزانة ملبوساتها مختارة ألوان: الأزرق الباستيل، والبني الفاتح، والوردي المغبر، والأزرق الفاتح المتلائم مع شال الكشمير الذي قدمه لها بن في عيد الميلاد.

استمرت في رؤية بن كصديق ومستشار وكأن شيئا ما لم يحدث. كان يبدو عليه أحيانا الارتباك ولكن كانت إدفينا تعرف كيف تجد الكلمة المناسبة لتريحه، ولم يلحظ الصغار شيئا، حتى ولا جورج، لكن يبدو أن فيليب شك بالأمر فقد فاجأته في مناسبات متعددة يثبت نظره على بن بهيئة تساؤل.

في شهر أيار قامت إدفينا بأول زيارة لها وكانت تلبية لدعوة عائلة صديقة لأهلها. وقضت سهرة لطيفة لو لم تحاول ربة البيت أن تضعها على المائدة قرب ابنها، وقام هذا بمحاولات عديدة ليروح عن مدعوتهم التي حافظت على رزانتها. أهي محاولة للتقرب من أجل الزواج، بالمناسبة؟ تساءلت متضايقة بعد عودتها إلى المنزل، وخلال الدعوة الثانية، تأكدت من افتراضاتها، فقد بقي الابن إلى جانبها طوال

السهرة. كان شابا وسيما في الرابعة والعشرين من العمر، يمتلك ثروة طائلة، وملكية واسعة في سانتا بربارة، وحمصة صغيرة مكان المخ. وقد رفضت الدعوة الثالثة.

هرع طالبو قرب آخرون خلال أمسيات أخرى مختلفة، واستمعت إليهم إدفينا بلطف، وقبلت عرضا عبارة مديح، لكنها لم تشجع أحدا. ولم تقصر صديقاتها، وجميعهن متزوجات الآن ــ ومنهن من رزقن طفلا ــ عن سؤالها بخصوص إعادة بنيان حياتها. إنهن لا يفهمن معنى الأمانة لذكرى رجل؛ لكن إدفينا استمرت في التباهي بخاتم خطبتها لشارل،فهذا الخاتم يمثل في نظرها الفترة الأكثر سعادة من حياتها، حبها الوحيد، فلشارل منحت يدها وقلبها، وقد عاهدت شارل على أمانة خالدة، وما من رجل آخر يتمكن أن يمحو ذكراه. وقد زهدت إدفينا في السعادة منذ اللحظة التي عرفت فيها أن شارل لن يعود، ولم يعد لوجودها إلا هدف واحد وهو تربية أخوتها وأخواتها. إنها ترردده باستمرار في كل مرة يحاول فيها أحد طالبي الزواج لفت انتباهها.

هكذا ذهبت بكثير من الانفراج إلى تاهو في شهر آب مع الأولاد. وكان فيليب قد قبل في هارفارد قبل ذلك بشهرين، وهو لا يستقر في مكانه لشدة فرحته، وسيرحل إلى مدينة كمبريدج في ولاية ماساشوستس خلال شهر أيلول.

قالت له إدفينا، متأثرة، وهي تعبث بشعره:

ــ سنشتاق إليك كثيرا.

وفكرت بأن كات ستكون معتزة به.

استقروا في تاهو في الأكواخ الصغيرة الأنيقة المتناثرة بين الخضرة. وفي مساء وصولهم وبعد أن نام الأطفال، جلس فيليب وإدفينا على الشرفة الصغيرة المحاطة بهالة من ضوء القمر.

همس فيليب فجأة: هل أنت مغرمة ببن؟

تردد طويلا قبل أن يطرح عليها هذا السؤال. مالت إليه مندهشة من اللهجة البائسة في صوته. وبدت عينا الفتى المثبتة عليها مملوئتين بالقلق.

أجابت: كلا.

ــ وهو.

ــ أية أهمية لذلك؟

تمتم ببعض كلمات غير مفهومة تعبر عن قلقه، واستنشقت إدفينا بعمق الهواء النقي ، وعادت بخاطرها إلى الطرحة المخبوءة في خزانة غرفتها وتمتمت: أحببت شارل، وما أزال أحبه، وسأحبه دون شك دائما.

ــ آه ..نعم التفكير ... ــ وشعر بحمرة الخجل وبارك العتمة التي أخفت ارتباكه ــ اعذريني يا إدفينا، فأنا لم أرد أن أقول هذا. ردت بابتسامة ناعمة: لكنك قلته.

إذا الأمر هكذا. إنها ملك اخوتها وأخواتها. الغريب أن أباها وأمها كان لهما الحق في أن يتحابا، وأن يعيشا حياتهما، وأن يلهوا، أما هي إدفينا فلا. إنها لهم في السراء والضراء، حتى موتها. أو حتى لا يعودوا بحاجة إلى خدماتها. إنها الآن كل شيء لهم. أمهم، وأبوهم، عماد أسرتهم. ما دامت هنا يمكن لفيليب، ثم لجورج، وفيما بعد لألكسيا أن يتابعوا بكل هدوء دراستهم، واختيار مهنة لهم. وأن يتزوجوا فيما بعد، حاولت أن تشرح: ما الفرق إن أغرمت ببن؟ هذا لا يعني أن حبكم سيتضاءل في نفسي.

ــ هذا ما لا يمكن التكهن به.

وابتسمت وهي تهز برأسها، ومالت نحوه لتقبله على وجنته. ما يزال فتى، إنه ما يزال في الثامنة عشرة.

ــ قالت بصوت عذب: لا تهتم، فأنا دائما هنا.

ما فتئت تكرر هذه الكلمات منذ وفاة أمها.

همست بعد قليل، عندما توجه كل منهما إلى كوخه: طابت ليلتك يا فيليب.

نظر إليها مطمئنا. إنه يحبها أكثر من أي شيء في الدنيا. إنهم يحبونها كلهم. وإدفينا لن تتركهم أبدا. يمكنهم أن يثقوا بها.

ـ طابت ليلتك يا إدفينا.

دخلت الفتاة إلى كوخها، وأغلقت باب غرفتها. واستندت على كفافه. وفكرت وهي متأثرة والدموع في عينيها: لم يبق لها أحد غيرهم، لا أحد أبدا ما عدا طرحة العروس المخبوءة في أسفل الخزانة.. وخاتم الخطبة الذي يلتمع دائما في إصبعها.

-XV-

كان قطار هارفارد السريع يتطـــاول علـــى رصيــف المحطـــة، والركاب يدلفون بسرعة إلى المقطورات، وتجمعت جمهرة صغيرة في مقصورة فيليب. آل وينفيلد كلهم، بالتأكيد، والسيدة بارنز، وبن جونـز، وعدد من أصدقاء الطالب الشاب، واثنان من أساتذته المفضلين. إنــــه يوم مشهود بالنسبة له.

بتعجل الأم الحريصة سألته هامسة، بحيث لا يسمع أحد غيرهمـــا، إن كان قد وضع في مكان أمين زرمة الأوراق المالية التي أعطته أياها منــذ وقت قليل. وأجابها بالايجاب بإشارة من رأسه. كانت قسماته تتألق ببســمة عريضة، وهو يحاول أن يخفي عنها القبعة الأنيقة المزينة بريشة نعامة.

صاحت: مهلا! بينما كان يحاول التوجه نحو أصدقائه.

تبادلت الفتاة الشابة بعض عبارت مع بن، ونبـــهت جــورج إلـــى وجوب التعقل، وهي تحذره من التسلق على نافذة المقطورة. وجـــالت بنظرها مفتشة عن ألكسيا، ولم تلاحظ وجودها في الحـــال، فذعــرت وتلفتت في كل الأنحاء.

هذا الهوس في الإختباء... وانتابتها موجة مــــن الــهلع. فـــالمرة الأخيرةالتي اختفت فيها ألكسيا كانت على ظهر **التيتانيك**.

وبينما تهيأت إدفينا لمناداتها بملء فيها اكتشفتها في زاوية ملتصقـــة بالسيدة بارنز وأنظارها مثبتة على أخيها الكبير المتهيء لمغادرتــــهم، للتخلي عنهم...

في عشية ذلك اليوم سفحت ألكسيا الدموع غزيرة، وانتهت فـــاني إلى تقليدها وحتى تيدي انضم إلى جوقة المنتحبين

قال وهو يشد فيليب من كمه: ألا يمكن أن أذهب معك.

ارتسمت على محيا فيليب بسمة ســـاخرة قبــل أن يرفـــع أخـــاه ويضعه بيــــن كتفيـــه، وكـــاد رأس الصغـــير أن يلامـــس السـقف

تقريبا، وانطلق بشلال من الضحك وقد سرته هذه اللعبة الجديدة، وأحست إدفينا بفاني تتعلق بذيل ثوبها، وفكرت في نفسها: «يا الهي، لماذا يجب أن يذهب هو أيضا؟». بدت لها مرحلة أخرى من وجودها قد انتهت، وأن هذا الرحيل سيتبعه آخر وآخر، إلى أن تتفكك العائلة كليا. وفي اللحظة التالية تمالكت نفسها فلو أن أباها هنا، لكان فخورا جدا بابنه.

خلال إحدى مناقشاتهما الطويلة في تاهو أعلنت له: لن تبقى كما أنت، فالدراسة توسع الفكر، وتبدل النظرة إلى العالم، والمعرفة تقود إلى النضج. وربما ستنظر إلينا عند عودتك كبورجوازيين صغار ضيقي الأفق. أقسم فيليب نفيا، فهو شغوف بالنقاش مع إدفينا، وهي تقرن حب الدعابة بالحكمة، ورغم حداثة سنها فإن لها نظرة شخصية إلى الأمور، «إنها كائن فريد» قال فيليب في نفسه، وهذا ما فكر به شارل أيضا، ثم بن وقبلهم بمدة عرف برت قيمة ابنته البكر.

قالت لفيليب مرة أخرى وهي تقبله: سنشتاق إليك كثيرا

حافظت على رباطة جأشها، فلم تدمع لها عين، إذ عاهدت نفسها على ألا تفسد على أخيها فرحته، وكان فيليب قد صرح لها بأنه مستعد للبقاء في سان فرنسيسكو قرب أخوته، ولكنها قابلت عرضه برفض حازم، فمن الأنانية دفعه للتخلي عن دراسته العليا، وله الحق في أن يجرب فيها حظه، كما فعل أبوه وجده من قبله.

تمتم بن وهو يصافحه بحرارة: حظا طيبا! أيها الابن العزيز.

سمع صوت المراقب يصيح «إلى العربات» وسط ضجيج عجلات نقل الأمتعة وصافرات التنبيه. وتطلعت إدفينا إلى فيليب، وقلبها منقبض، وهو يعانق أصدقاءه. ثم التفت إلى أخوته الصغار ورفع فاني بين ذراعيه وطبع على جبينها قبلة رنانة وهو يقول: كوني عاقلة، ولا تغضبي إدفينا كثيرا. عديني؟

ردت الطفلة بصوت ابنة السنوات الخمسة والنصف الطروب: أعدك.

كشف فمها الأدرد عن ابتسامة ساحرة ـ وكانت قد فقدت سني الحليب الأماميتين ـ وأحاطت بيديها الصغيرتين عنق أخيها الكبير وتدحرجت على وجنتيها المتوردتين دمعتان كبيرتان. كانت قد بدأت تعد فيليب خلال تلك السنة أبا لها. وهمست له: عد إلينا بسرعة.

ستغدو فاني، بطبعها الرائق، ربة منزل ممتازة، فهي منذ الآن تهتم بأعمال الخياطة والتطريز، وقد صرحت في احد الأيام بجد أثار الضحك العام: سيكون لي أربعة عشر ولدا.

قبلها فيليب مرة ثانية قائلا: سأعود بأسرع ما يمكن، أعدك

تقدم نحو ألكسيا التي ما فتئت تنظر إليه بإمعان، فهذه الصغيرة متعلقة به بشكل عميق، وهو يدرك ذلك، فغالبا ما دخلت خلال الليل على رؤوس أصابع قدميها، إلى غرفته، وهو غارق في دراسته، تحمل له كأسا من الحليب تضعه بكل هدوء على مكتبه ثم تخرج.

ضمها إليه بكل حنان وهو يقول: اعتني بنفسك يا ألكسيا، سأعود.

لم يرف لها هدب، فجميع هذه الوعود كلمات وعبارات جوفاء.

أدركت ذلك منذ زمن؛ منذ سنة ونصف تماما، يقول لها الأشخاص «إلى اللقاء» ثم يخرجون من حياتها ولا تعود تراهم أبدا، هي تعرف ذلك جيدا، فهكذا فعل أبوها وأمها، والآن جاء دور فيليب، واستمرت تتابعه بنظرها وهو يطبع قبلة على رأس تيدي

ـ وأنت أيها الشقي الصغير، لا تمد يدك إلى علبة الشوكولا

وزقزق صغير العائلة ضاحكا، وكان قد أصيب في الاسبوع الفائت بعسر هضم تطلب أخذه إلى الطبيب.

أرعد صوت المراقب مرة ثانية: «إلى العربات» وأسرع بعض المسافرين المتأخرين إلى التعلق بالمقطورة.

تمتم فيليب إلى جورج بغمزة عين متواطئة: «اخرج من هنا أيها الماكر» وتصافح الشابان بحرارة.

بدأ الزائرون يغادرون القطار، وأطلقت القاطرة نفخة من البخار نحو السكة الحديدية، انسلت كسحب صغيرة بيضاء، وأحاطت إدفينا بذراعيها عنق أخيها قائلة

ــ إلى لقاء قريب يا عزيزي كن تلميذا متفوقا... ولا تحرم نفسك اللهو.

ــ شكرا ياويني... شكرا لأنك سمحت لي بالذهاب، ولا تترددي في طلبي إن احتجت إلي...

ــ قاطعته بهمسة: أعلم ذلك. لاتنس أنني أحبك

وضمته إليها للمرة الأخيرة، وأحست به يرتعش انفعالا، ولم تستطع الامتناع عن التفكير بابتعادها المفاجئ عن شارل... شارل الذي لم يتسن لها الوقت لتقول له إلى اللقاء.

شعرت بالدموع تخرش عينيها، وخرجت من المقصورة لتجد نفسها على رصيف المحطة مستندة إلى ذراع بن. وبدأ مستخدمو سكة الحديد يغلقون بوابات المقطورات، وحرك رجل في بزة رسمية مصباحا أمام القاطرة في رأس القطار، وانطلقت صفرتان متعاقبتان، ورفعت إدفينا يديها المكسوتين بقفازين إلى وجهها. وبدا فيليب على النافذة وبيده منديل أبيض يلوح به، وصدرت عن القاطرة زمجرة، وبدأ القطار السريع ينزلق بهدوء ليخرج من المحطة، واستمر منديل فيليب الأبيض يرفرف من النافذة فترة من الوقت ثم انطلق القطار بسرعة إلى أن غاب عن نظر إدفينا.

أخذوا جميعهم طريق العودة في سيارة بن الواسعة، ولم ينطق أحد بكلمة، وفي الخلف كانت ألكسيا وفاني تمسحان دموعهما، وجرب جورج أن يظهر خفة ظل، لكنه لم ينجح، وعندما ظهر المنزل في طرف الممر أحست إدفينا بفراغ كبير.

تركهم بن أمام البوابة الكبرى، فاجتازوا الحديقة في صمت ثقيل.
بدا لهم الداخل كأنه قبر، وحل المساء تدريجيا، وصحب جورج تيدي إلى الفناء خلف البيت حيث راحا يلعبان بالكرة إلى أن خرجت إدفينا بحثا عنهما.

وساعدتها فاني على بسط المائدة، بينما كانت ألكسيا تجلس حائرة على أحد المقاعد وهي غارقة في تأمل الكوة المزججة حيث يتراجع النور أمام غبش الظلام.

اجتمعوا ذلك المساء في صمت حول المائدة البيضوية، وكانت إدفينا قد طلبت من السيدة بارنز أن تعد لهم دجاجة محمرة يحبها الأولاد، وحملتها بنفسها على صينية طالبة من جورج تقطيعها.

قالت بلهجة أرادت أن تكون فكهة: إنك أنت رجل المنزل الآن.

رمق بنظرة السكين الكبيرة التي ناولته إياها، وأمسك بها كما يمسك بخنجر واخترق الدجاجة من طرف إلى آخر.

ـ جورج! ما هذا...

ـ دعيني أفعل يا إدفينا.

وقطع بضربة رهيبة جناحا بعد الآخر، تاركا المرق يتناثر على غطاء المائدة الأبيض. وغرقت فاني في الضحك، وعمل تيدي على تقليدها، وقهقهت ألكسيا بدورها، وبعد قليل كان الجميع يسترسلون في الضحك بمن فيهم إدفينا

ـ جورج، أرجوك أوقف هذه المذبحة.

وكما يوجه مصارع الثيران طعنة الرحمة إلى الثور رفع الفتى السكين المشحوذة وغرزها في اللحم المقطع والمحمر محققا نجاحا باهرا لدى مشاهديه الصغار.

صرخت إدفينا بين نوبتين من الضحك: أوه! هذا مريع، ياجورج، توقف.

قام جورج بانحناءة احترام تثير غيرة سارة برنهارت نفسها وقدم الصينية الحاوية على الدجاجة المقطعة لأخته الكبرى وأخذ مكانه بابتسامة تعبر عن رضاه التام عن عمله. وقامت إدفينا بالتوزيع.

سألت فاني الصغيرة بعد قليل: ألا نكتب لفيليب هذا المساء؟

وافقت إدفينا، وخلال ذلك كان جورج الماكر قد أرسل ملعقة من البازلاء إلى أنف ألكسيا وردت الفتاة برشقة مماثلة، ثم شارك تيدي وفاني في المعركة، وبدأت القهقهات مجددا من جميع أرجاء المائدة.

جورج! صاحت إدفينا مؤنبة

لكنها أحست فجأة بشيء ما ينحل في نفسها، كعقدة فك رباطها.

وغرزت شوكتها في وعاء البقول الفضي لتشارك بدورها في معركة البازلاء التي ألهت الجميع ونشرت الضحك لفترة.

خلال هذا الوقت كان قطار هارفارد السريع ينطلق على سكته الحديدية دون عناء خلال رحلته الليلية.

-XVI-

بعد أقل من اسبوع من سفر فيليب، أخذت ألكسيا تتلعثم، وتشكو من ذات الأعراض التي ظهرت عليها بعد موت أبويها. لكن تلك اللعثمة التي لم تدم إلا بضعة أيام خلال تلك الفترة، امتددت الآن؛ وعادت الكوابيس تنتابها، فلا تمر ليلة إلا وتقفز الفتاة كليا خارج سريرها وهي تصرخ صراخا حادا.

ازداد قلق إدفينا، أسرت بموضوع همومها إلى بن خلال الإجتماع الشهري لمجلس إدارة الصحيفة، فحثها على الصبر. وعند عودتها إلى المنزل كان أول رد فعل لها هو البحث عن ألكسيا. وخرجت السيدة بارنز من المطبخ وهي تمسح يديها بمنشفة قائلة:

ــ ألكسيا؟ لقد جاءت من المدرسة، وخرجت بعد ذلك مباشرة تقريبا.

كان يوما من أيام الخريف الرائعة، والشمس ما تزال تسكب إشعاعاتها الدافئة. لا شك ان الفتاة الصغيرة في تلك المتاهة الصغيرة من النباتات المزهرة المتسلقة التي كانت كات تسميها «حديقتها السرية» وهرعت إدفينا إليها لكن نداءاتها بقيت دون جواب؛ ولكن ليست هذه هي المرة الأولى التي لاترد فبها ألكسيا على مناداتها.

ــ هيا اخرجي من هنا أيتها البلهاء الصغيرة. تلقينا أخبارا من أخينا فيليب كانت قد وجدت رسالته على منضدة المدخل الصغيرة، ومعها رسالة من انكلترة، تشكو فيها الخالة ليز ــ ولكن متى لم تكن تشكو ــ من الرطوبة، والخدم، وكلفة الحياة، وكل شيء. وهي لاتترك مقرها الريفي إلا لتراجع طبيب في لندن، وخلال زيارتها الأخيرة التوى كاحلها وهي تصعد إلى الرصيف. وتبع ذلك لائحة طويلة بمتاعبها الصغيرة اليومية التي تعلق عليها أهمية مفرطة. وانتهت الرسالة، بالطبع، بالسؤال الذي حرصت على تكراره، «هل أفرغت

جناح والديك من أمتعتهما؟ » سؤال أغاظها هذا اليوم بشكل كبير. وراحت الفتاة الشابة تدور بأنظارها بين أسيجة الخضرة على أمل رؤية ألكسيا.

مامن جواب، وراحت تفتش في الطرف الآخر من الحديقة، متوقعة أن تكون ألكسيا مختبئة فيه، وبحثت بين جنبات الورد، ولم تنجح إلا في إحداث تمزيق في تنورتها من جراء اشتباكها بساق شائك

ــ ألكسيا؟.

ليس إلا الصمت الذي يتخلله حفيف الأوراق الناعم والنسيم يحركها. ومرت إدفينا على جميع الأماكن التي يحتمل أن تختبىء فيها، دون أن تنسى الكوخ الصغير من الخشب الذي بناه جورج بين الأغصان الملساء في شجرة الدلب الكبيرة. لكن عبثا...فقد بقيت ألكسيا مختفية.

عادت إدفينا نحو المنزل، وجبينها مقطب قلقا. وعند سؤال القيمة الكهلة مجددا أجابت وهي تهز رأسها بهدوء نفيا:

ــ كلا لم أشاهدها تعود إلى دخول المنزل مجددا، جلست هناك على المقعد لساعات، ولكن في المرة الأخيرة التي ألقيت نظرة من نافذة المطبخ لم تكن موجودة.

كانت شيلاغ قد تركتهم بعد عيد الفصح بقليل، وكانت السيدة بارنز تجد صعوبة في مراقبة أفرانها، ومراقبة الأولاد

ــ ألا يمكن أن تكون صدفة، في الطابق الأول؟

أجابت قيمة المنزل بأنها لا تعرف. وتابعت الفتاة الشابة تحرياتها، لكن ألكسيا ليست في غرفتها، ولا في غرفة إدفينا، وصعدت الفتاة الشابة درجات السلم، بعد تنهدة استسلام، باتجاه جناح والديها، كانت خالتها ليز على صواب، إذ وجب منذ مدة أن تتخذ قرارا بخصوص هذا الجناح؛ وعادت إلى ذهنها الكلمات الأخيرة التي سجلتها خالتها في رسالتها:

«حان الوقت لتقومي بتنظيف هذا الجناح. بالنسبة لي ، تخلصت من جميع أمتعة ربر، فهذا أفضل بكثير.

نادت برفق وهي تفتح باب حجرة زينة أمها حيث اعتادت الصغيرة أن تختبىء: «ألكسيا، هل أنت هنا؟»

مامن أحد في حافظة الثياب... وانتقلت إدفينا إلى الغرفة المجاورة، وأزاحت الستائر، ونظرت تحت السرير، مامن أحد؛ وأحست كأن كرة تتشكل في جوف معدتها. وعادت إلى النزول إلى الطابق الأرضي.

ـ جورج أين ألكسيا؟.

هو لم يرها، وعادا إلى التفتيش معا في كل الغرف، واستطلعا جميع الزوايا، حتى مكان غسل الثياب والقبو. وبعد نحو ساعة تحول تخوف إدفينا إلى ذعر.

هل حدثت لها مشكلة في المدرسة هذا اليوم؟

لم يعرف جورج بماذا يجيبها، ولا فاني، كما أن من غير المجدي سؤال تيدي، ذلك لأنه قضى بعد الظهر في مباني الصحيفة، تحت رعاية متوددة من مجموعة سكرتيرات شابات، بينما كانت إدفينا ترأس اجتماع مجلس الإدارة.... يا إلهي! أين يمكن أن تذهب؟.

هل لديك فكرة ياجورج؟.

لم يهتد إلى جواب، وكذلك الآخرون. وتهالكت إدفينا على أحد المقاعد في الصالة، وحاولت تجميع أفكارها، مامن شيء غير مألوف حدث خلال النهار، وإلا لأبلغها معلم المدرسة. ووفقا لما ذكرته السيدة بارنز فإن ألكسيا عادت في الوقت المعتاد، ولم يكن يبدو عليها أي إرهاق أوتشوش ولكن ماالعمل؟... وشحب ضوء النهار؛ والأمل في رؤية الفتاة الصغيرة تظهر بين لحظة وأخرى، يضاعف القلق والترقب. ودقت الساعة معلنة السابعة مساء. إنه موعد العشاء، وألكسيا لم تظهر.

خرجت الفتاة الشابة إلى الحديقة مجددا يصحبها جورج والسيدة بارنز، وعادوا بشعور الخيبة. وتولد لدى إدفينا اليقين القاتم إنما الذي

لا مفر منه وهو ان ألكسيا ليست في الحديقة ولا في المنزل. وبدأت يداها ترتعشان، وفكرت وهي في قمة قنوطها ببن جونز، فهو الوحيد الذي يمكنه مساعدتها وأسرعت إلى جهاز الهاتف وحركت المنبه اليدوي ثلاث أو أربع دورات وطلبت من عاملة المركز بصوت متهدج أن تعطيها المخابرة.

ما أن أعلنت لبن الحالة التي هي فيها حتى صاح: أنا آت!

وبعد عشر دقائق كان يقرع جرس الباب.

قال وهو يدخل: ماذا حدث؟ وخلال جزء من ثانية لاحظت فيه أدفينا اهتماما عائليا غريبا أ شبه باهتمام أبيها.

شرحت له الأمر بهدوء وا ستمع إليها وهو مستغرق في التفكير

ــ ألا يمكن أن تكون عند إحدى رفيقات صفها؟

أشارت إدفينا برأسها نفيا، فليس هذا من طبع ألكسيا، وقالت بذعر

ــ ليس لها صديقات إن صح القول، وعلى كل حال هي لا ترغب أبدا في زيارة أحد.. أوه! إنني شديدة القلق! فأنت تعرف وضعها.... إنها بحساسيتها المفرطة سطحية التفكير، وهي لم تستعد توازنها بعد صدمة موت أهلنا، وخاصة أمنا، ياإلهي! هل تفكر بأنها هربت؟

نظر إليها بن، مذعورا بدوره أيضا، إذا لم تكن الفتاة قد هربت، فيمكن لبعض أصحاب النوايا السيئة أن يصادفوها وقد تكون وقعت بين أيد شريرة..... وانتصب واقفا

ــ هل اتصلت بالشرطة؟ طرح السؤال بما أمكنه من الهدوء

ــ كلا أنت أول مااتصلت به هو انت. هل تعتقد حقا؟....

ــ نعم، يا إدفينا...

طلبت الفتاة الشابة من السيدة بارنز أن تأخذ الصغار إلى أسرتهم، وبالطبع فإن فاني رفضت الإمتثال وهي تطالب برؤية ألكسيا. ووجدت القيمة الطيبة كل عناء في إخراجها من الصالة

بينما كان بن يجري المخابرة الهاتفيـــة؛ وجــورج، والدمــوع فـــي عينيه، يضع يدا مشجعة علـــى ذراع إدفينـــا.

وجب ان ينتظروا نحو نصف ساعة بدت لهم لانهائية. ثـــم قـــرع جرس المدخل أخيرا؛ وأسرعت إدفينا وفتحـــت البـــاب حيـــث بـــدا شرطيان في ثياب رسمية؛ سرعان ما قصت عليهما الشابة الأحـــداث بسرد واضح.

قال ضابط الشرطة: أختك اختفت؟ وهي في السابعة من عمرها فقط؟ أين أهلك؟

ــ توفيا، وأنا ولية أمرها.

ــ حسن سنجري دورة في الحي، بالتأكيد لن تكون قد ابتعدت عنه.

ألقت نظرة قلقة على بن الذي كان قد تبعها مع جورج، وقبـــل أن تلتفت من جديد نحو الضابط وتسأله

ــ ألا يمكننا مرافقتكما؟

ــ لاجدوى من ذلك ياسيدتي! سنعثر عليها، ابقي هنا بهدوء مـــع زوجك وابنك.

وذهب الشرطيان، وأغلق الباب، ونظر جورج إلى بن ثم إلى إدفينا وقال لها متذمرا: لماذا لم تصححي له معلوماته.

ــ أية معلومات يا عزيزي؟.

ــ أن بن ليس زوجك

بدت عليها رعشة ذهول ودهشة فهي أبعد ماتكون عن التفكير بمثل هذه التفاصيل التافهة

وانفجرت بقنوط: حبا بالسماء يا جورج! أية قيمة لمثل هذا الشـــك ولضرورة تصحيحه؟.

وكان ظاهرا أن هذا مهم بالنسبة لجورج، والتقت عينا بن بعينـــي جورج للحظة وكشف في نظرته بريق الحرص على إدفينا كأخت لـــهم فقط مما أزال آخر أوهامه.

لن تكون الشابة حرة أبدا، وستبقى طوال حياتها ملك هؤلاء الأولاد الذين أرادت منحهم كل شيء.

ــ آمل ألاتحاول ركوب القطار!

قطعت عبارة إدفينا حبل تفكير بن، وقطبت الشابة حاجبيها وقد انتابها شعور مشؤوم. فسفر فيليب شوش ألكسيا.

علق بالقول: استغرب هذا صراحة، فهذه الصغيرة تخاف من ظلها، وفي رأيي، ليست بعيدة عن المنزل....

قاطعه جورج فجأة وقد غدا وجهه شاحبا: اللعنة! لم تفتأ طوال الأسبوع الفائت تطرح علي الأسئلة حول مواعيد القطارات، بل سألت البارحة بالذات كم من الوقت يستغرق السفر إلى بوسطن ... نسيت ذلك... ويني! إنها قادرة على ان تصعد إلى أي قطار دون أن تعرف إلى أين تذهب.

تبادلت إدفينا مع بن النظر. وكانت الساعة تشير إلى الثانية والعشرين مساء. بديهي أن شيئا ما حدث لألكسيا.

ــ عرض بن بصوت هادىء ورصين: يمكننا الذهاب إلى محطة القطار إن أردتما، لكنني لا أعتقد ان بإمكان ألكسيا القيام بمثل هذا العمل.

علق جورج بنبرة جافة: «إنك لا تعرف شيئا!.» ففي نظره لم يعد بن معدودا من أصدقاء العائلة منذ أن توهم رجل الشرطة أنه زوج إدفينا بل إنه غدا في المنطقة الباهتة الضوء التي يخشى منها.

لكن الفتاة الشابة المضطربة باختفاء أختها القاسي لم تنتبه لنفور أخيها المفاجىء من صديق العائلة.

صاحت: «هيا إلى المحطة» وتناولت شالها. وتوجهت نحو باب الخروج، وفتحته في اللحظة التي كان ضابط الشرطة قد وصل إليه وهم بقرع الجرس.

قال الضابط مستبقا أسئلة إدفينا: قمنا بتمشيط الحي بدقة وللأسف لم نعثر لها على أثر.

بعد ذلك بقليل كانت سيارة بن الواسعة تجري عبر المدينة باتجاه محطة القطار، والفتاة الشابة تدور بأنظارها عبثا في كل حي معتم بحثا عن أي أثر مفترض لألكسيا. وكانت ساعة المحطة شبه الفارغة تشير إلى العاشرة والنصف مساء عندما وصلوا إليها، وقطار باتجاه مدينة سان جوزيه على رصيفها، وآخر أكثر بعدا، يتهيأ للإنطلاق إلى الساحل الشرقي

ردد بن مرة أخرى: لا أعتقد أنها هنا

لكن جورج قفز كالسهم إلى الأمام وهو ينادي بأعلى صوته خلال الليل «ألكسيا! ألكسيا» ولامجيب ، وهرعت إدفينا إلى الإتجاه نفسه، وتبع بن خطواتهما. كان جورج يركض على محاذاة القطار الأول مستمرا في المناداة

«ألكسيا! ألكسيا!» وإدفينا تتبعه وهي تنظر إلى نوافذ المقطورات.

وهي منساقة بحس جورج الغريزي؛ وكان هذا الأخير يبدو وكأنه أقرب إلى ألكسيا من إدفينا نفسها، ومن فيليب. وبعد قليل كانا يحاذيان الخط الحديدي الثاني، دون أية نتيجة، وذهبا حتى إلى استكشاف كتلة عاتمة لبعض مقطورات تقبع مستقرة في نهاية الرصيف.

ـــ ألكسيا!

لا جواب. وكاد بن يعود من حيث أتى عندما سمعت ضجة بعيدة.

إنه قطار بضائع آت من لوس آنجلس، وهو يعبر المحطة قبل منتصف الليل بقليل متوجها إلى بورتلند في الأوريغون، وأبصرا بريق القاطرة الأبيض في الأفق، وفجأة بدت لهم حركة خفيفة بين ظلال خندق السكة الحديدية، حركة تكاد لاترى، قفز جورج على إثرها على القضبان وبدأ يعبرها قبل أن تتمكن إدفينا من إيقافه.

سمر الذهول الفتاة الشابة لكنها رأتها بدورها: كانت ألكسيا متكورة بين مقطورتين واقفتين على السكة الحديدية؛ لم تميزها بوضوح، لكن بدا لها أن الطفلة تبكي وهي تضم إلى صدرها بتشنج دميتها من البورسلين:

السيدة توماس.

تقدمت خطوة إلى الأمام، لكنها شعرت بيد بن الحازمة تجذبها إلى الخلف

ـــ كلا، يا إدفينا، كلا.

وبحركة سريعة أفلتت من قبضته وانطلقت في إثر أخيها وهي تصيح:

ــ جورج! جورج!

كان ضجيج القطار المقترب يغطي كل صوت، وفتش بن بتـــــهيج عن أية إشارة إنذار على أمل إيقاف الماكنة الجهنمية عن السير. ولكن عبثا فجورج مستمر في جريه عبر هذه الشبكة المتداخلة من القضبـــان والسكك وإدفينا تتبعه وهي ترفع طرف تنورتها وتصيح

ـــ جورج! ألكسيا.

قطع صفير القاطرة كلماتها، وشعرت فجأة ببن إلى جانبها وهـــــي ملتصقة بقبضة من حديد إلى الحافة الباردة والمصقولة لأول مقطـــورة متوقفة؛ ومر القطار في جلجلة كالعاصفة وهو يهدد بجذبها، وأطلقـــت إدفينا صرخة حادة. ومر كل شيء بسرعة مذهلة، واستأنفت الشـــابة نداءاتها لجورج وألكسيا بقنوط. هل تسنى لهما الوقـــت للجـــوء إلـــى مأمن؟ هل جرحا؟...أو ماتا؟

وخنقتها العبرات وهي تتعلق ببن الذي ميزت وجهه الشاحب في العتمة.

وفجأة رأتهما، مضطجعين تحت المقطورة الثانية، بعد أن بــــدرت من جورج ردة فعل في دفع ألكسيا قبل أن يغطيها بكامل جسمه.

انهمرت الدموع من عيني إدفينا وهي تتمتم «جورج... ألكسيا.....، أحبكما كثيرا..... كان هذا كل ما استطاعت أن تقوله. وانحنـــــى بـــن وذراعه ممدودة وسحب ألكسيا من مخبئها، وكانت الطفلة ترتعش فـــي كل عضو من أعضائها، وقد غطت شعرها الأشقر غلالة من ســـناج، وساقاها لاتقويان على حملها. ورفعها بن بين ذراعيـــه لينقلـــها إلـــى السيارة، بينما خرج جورج بدوره من تحت المقطورة؛ وفكرت إدفينـــا وقد غص حلقها انفعالا واعتزازا: إنه في الثالثة عشر من العمر وقـــد تصرف كرجل.

في السيارة التي أقلتهم إلى المنزل، أكدت ألكسيا ما خمنوه سابقا: لقد أرادت بكل بساطة أن تلحق بأخيها فيليب.

قالت لها إدفينا فيما بعد، وبعد ان حممتها، وأطعمتها، وأرقدتها في سريرها بين أغطية تفوح منها رائحة الخزامى: «لاتعودي إلى مثل هذا أبدا.

كانت هذه هي المرة الثانية التي تختفي فيها ألكسيا، وهي المرة الثانية أيضا التي تعرض فيها حياتها للخطر. وفكرت إدفينا بأن الثالثة يمكن أن تكون قاضية عليها، فأكدت بحزم: أبدا، أتسمعين؟

ـ نعم، يا ويني.

لن تلجأ الفتاة الصغيرة إلى الهرب، هذا ما وعدت به صراحة، وعلى كل حال هي لم تقم بهذا العمل عن قصد بل إنها مشتاقة لفيليب وأرادت لقاءه.

عقبت إدفينا بتأمل: سيعود قريبا.

اعترضت ألكسيا بصوت هادىء بشكل غريب: لم يعد بابا ولا ماما

ـ الأمر مختلف، سيعود فيليب في الربيع. نامي الآن.

وأطفأت النور واتجهت إلى المطبخ حيث بن وجورج ينتظرانها، وجعلتها نظرة مفاجئة إلى المرآة تقفز من مكانها: فبقعة سوداء قاتمة تغطي جبينها، وغبار أسود ناعم دقيق ينتثر على ثيابها.

قامت بإزالة هذه الآثار المفجعة قبل أن تدخل إلى المطبخ، حيث وجدت جورج يجلس إلى طاولة يلتهم بقايا عشاء أخوته.

سألها بن: كيف حالها؟

ـ حسنة.

على قدر الإمكان.... فألكسيا لم تعد تثق بأحد. وكيف تستطيع ذلك؟

ـ إدفينا، لا يمكن لهذه الحال أن تستمر....

وتبعها إلى البهو، وقد بدا تعسا إلى حد رهيب وعلائم غضب

مكبوت ترتسم على وجهه؛ وتابع بحدة غير متوقعة

ـ لايمكنك أن تستمري هكذا، وأنت تعلمين ذلك، هذا صعب جداً، وقاس جدا على شخص بمفرده. فوالداك كانا يتعاونان ويتبادلان المشقة، على الأقل.

ردت بهدوء: كل شيء سيسير على ما يرام.

لم تفتها ضغينة جورج الظاهرة تقريبا تجاه بن، ولكن هذا آخر شيء ترغب في التحدث به.

ـ تريدين أن تقولي بأنك ستستمرين هكذا إلى أن يكبروا؟

كان يتكلم بحدة دون أن ينتبه، وقد تحولت خيبة أمله، مضافة إلى الذعر خشية تعرض ألكسيا إلى مكروه، فغدت غيظا قاتما لم يستطع كبته.

عقبت بلهجة خشنة يكرهها: ماذا تريد أن أفعل؟ أتريد أن أهجرهم؟

ـ تتزوجين، ياللعنة! يمكنك....

وتوقف عن الكلام مندهشا من عنفه بالذات، ثم نظر إليها بتعبير مشوب بأمل خفي ـ فبعد كل حساب، ألم تلجأ إليه؟ ـ لكن إدفينا هزت كتفيها.

ـ أخيرا يا بن، زوج هو شيء آخر غير خادمة أطفال! ولا يمكن الزواج بذريعة بمثل هذه التفاهة. إنني أرفض أن أتزوج شخصا إذا لم أحببه كحبي لشارل.

اكتفى بالنظر إليها نظرة جريحة، وصدرت عن إدفينا تنهدة ثقيلة، فهي لا تريد أن تجرحه على ما يكنه لها من حنان كبير وصداقة دون حدود....

لكن هذه العواطف تبدو غثة تجاه الهوى الذي تخص به شارل.

أضافت بتلطف: كما أنني أعتقد ان الأولاد سيتألمون إن تزوجت. ربما أفكر في هذا يوما، عندما يغدون مستعدين لقبوله.

تمتم بصوت باهت: لن يأتي هذا اليوم أبدا، يا إدفينا، لن يتركوك أبدا تعيدين بنيان حياتك.... ففيليب وجورج، وألكسيا والصغار بحاجة ماسة إليك، بحيث لا يريدون تقاسمك مع أحد غيرهم. إنها شكل من

الأنانية لم تنتبهي إليه حتى الآن، سهوا أو قصدا. وعندما يكبرون ستجدين نفسك وحيدة، وسأكون أنا قد بلغت مرحلة من العمر لا أستطيع فيها الجري لمساعدتك.

واتجه إلى الخروج، ولما لم تتفوه بكلمة التفت إليها بهدوء قائلا:

ـ إنك تضحين بأجمل سنوات عمرك من أجلهم.

استمرت في نظرتها إليه وهي تهز رأسها برزانة.

ـ أعلم هذا يا بن، وهذا ما أتمناه تماما، وانا على يقين أن والدي يقرانني عليه في عليائهما.

ـ كلا، يا عزيزتي، هنا أيضا، أنت مخطئة، فوالداك يرغبان في رؤيتك سعيدة، بمثل السعادة التي كانا ينعمان بها.

عضت على شفتيها لتكبت دفق الدموع الحارقة التي تهدد بالتفجر، وودت لو تصرخ في وجهه: «اصمت! إن حبي الوحيد قد مات، وما من سعادة ممكنة» لكنها اكتفت بالقول بفتور:

إنني آسفة يا بن

تأملها مرة أخيرة وقال: وأنا أيضا، ياإدفينا

وخرج مغلقا الباب وراءه بعنف

وعادت الفتاة الشابة، ورأت جورج على عتبة الباب ينظر إليها... منذ متى هوهنا؟ بكل تأكيد منذ برهة طويلة؛ استنتجت دون أن تجرأ على سؤاله.

سألها: هل كل شيء على ما يرام؟

واقترب منها ووجهه عابس وعيناه قلقتان.

ردت مبتسمة: نعم.

ـ هل أنت آسفة لعدم استطاعتك الزواج من بن؟

لقد سمع إذا كل شيء وارتكس كفيليب تماما منذ عدة أشهر سابقة.

داعبت شعره بحركة مملوءة بالحنان، وأجابت بصراحتها المعهودة:

ـ كلا، صدقا لا. لو أنني أحببته لاستجبت له منذ أن طلب يدي في

المرة الأولى.

ــ وفيما بعد؟ هل ستتزوجين فيما بعد؟

أثار قلقه ضحكها، وعرفت فجأة أنها لن تتزوج أبدا، لا الآن، ولا فيما بعد. فشياطينها الخمسة لن يتركوا لها الوقت حتى للتفكير بذلك، وهي في قرارة نفسها باقية على إخلاصها لشارل.

أجابت: أشك في ذلك.

ــ لم لا.

ــ أوه، لأسباب عديدة. أولها لأنني أحبكم كثيرا ثم.... ــ واضطرب وجيب قلبها ــ لأنني لم أنس شارل.

تلاشى قسم من ذاتها دون شك، ومات بموت الأرستقراطي الإنكليزي الشاب. وما بقي من هذه الذات يعود إلى إخوتها وأخواتها.

اختفى جورج في قاعة الحمام، وبعد ذلك بنحو نصف ساعة اقتربت إدفينا من سريره وقبلته بحنان وتمنت له ليلة طيبة، وأطفأت المصباح على المنضدة القريبة وأغلقت بهدوء باب الغرفة خلفها، وتأكدت أن فاني وتيدي نائمان، وفتحت باب غرفة ألكسيا بكل هدوء وتأملت شعرها المذهب يبرق على الوسادة ذات اللون الفاتح.

بعد فترة طويلة، وفي سر سكون غرفتها، جلست على حافة سريرها، منهكة، مفكرة، إنه هناك في أسفل الخزانة، في علبة جميلة من الكرتون الصقيل الأبيض؛ ومنذ أشهر قاومت الرغبة في النظر إليه. وبعد قليل وضعت العلبة على غطاء سريرها، وسط المستطيل الأبيض الذي يشكله ضوء القمر المتسرب من النافذة، وفكت أصابعها أشرطة التافتا الزرقاء. ورفعت الغطاء وسحبت النسيج المهفهف المطرز بخيوط الحرير وبلآلئ صغيرة بلون الصوف. ورسمت الطرحة دوامة أبرقت في شبه العتمة منذ لحظة، لم تكذب على جورج.... فطرحة العروس هذه، لن يعرفها رأس إدفينا أبدا. وطوتها بعناية وأعادتها إلى علبتها؛ فالرجل الوحيد الذي استحق حبها لم يعد موجودا، ولن يكون هناك أحد غيره، إنها تعرف هذا بيقين مطلق.

-XVII-

عاد فيليب إلى سان فرنسيسكو في ١٤ حزيران ١٩١٤، وبينما كان القطار يدلف إلى المحطة، أطل برأسه من النافذة، وفي اللحظة التالية، أحس بخلجات قلبه تتسارع. كلهم هنا، من السهل معرفتهم بين هذا الجمع الخليط، وفي هذا النور الصيفي الساطع: إدفينا، وجورج، وألكسيا، وفاني، وتيدي، وهم يلوحون بأيديهم كالمجانين، لقد انقضت تسعة أشهر على سفره إلى هارفارد، وكانت ببطء قرن من الزمان.

كان أول من قفز إلى رصيف المحطة بعد أن سكن تتابع المقطورات الذي كاد ألا ينتهي، وأحاطت ذراعاه سريعا بإدفينا المبتسمة، بعينيها المخضلتين بدمعة، وأطلق جورج «هورا» حماسية، وراح الصغار يقفزون من حوله مستثارين، لكن ألكسيا وحدها بدت وكأنها لا تشارك في الفرحة العامة، فقد انتحت جانبا، وقد ثبتت على أخيها الأكبر نظرة مفتونة، شبه منكرة؛ وكأن وجود فيليب اخيرا، بلحمه وعظمه، أعجوبة. فقد عاشت الطفلة، خلال هذه الأشهر الطويلة من الغياب، ورغم وعود إدفينا، في ارتياب، وها إن الأمنية الأعز إلى قلبها تتحقق الآن. إذا يمكن الذهاب والعودة..... وعودة فيليب قد حطمت اللعنة التي حلت على العائلة منذ ليلة الغرق المأساوية.

قال وهو يضمها بين ذراعيه ويقبلها: «مرحبا يا صغيرتي العزيزة»

أطبقت ألكسيا جفونها، وقد أبرقت قسماتها بابتسامة مشعة، وعمر صدرها بفرح لا شائبة فيه، فمخاوفها القديمة هدأت دفعة واحدة... ففيليب قد عاد.... ووفى بوعده.

أما جورج فلم يهدأ في مكانه، وعندما تقدم أخوه الأكبر نحوه تظاهر بأنه يوجه إلى ذقنه لكمة يمينية، قبل أن يشده من شعره عدة مرات.

وقد أثارت هذه التظاهرة لدى الوافد ضحكة مجلجلة.

مسحت إدفينا دموعها خفية بمنديلها، وعاد فيليب إلى مقصورته وناول أخاه من النافذة حقائبه، وقام جورج بصفها بشكل منتظم على الرصيف.

وفكرت إدفينا لا شعوريا: «كم كبر!»، وتأملته بانتباه خفية، فالتلميذ الفتى الذي رافقته إلى المحطة منذ حوالي سنة غدا طالبا بأكتاف عريضة، وحركات واثقة؛ إنه في التاسعة عشرة من العمرالآن، لكنه يبدو أكبر من عمره، «إنه رجل الآن»، قالت في نفسها وخالجتها رغبة بالبكاء سألها: بم تفكرين؟

أجفلت عند سماع صوته وقد بدا مكتمل الرجولة، وأجابت

ـ بك يا أخي العزيز، أتعلم أنك غدوت شابا طويلا وسيما؟ والتقت أنظارهما للحظة. إن لقزحية أعينهما الزرقة ذاتها، وهما يعلمان مدى شبههما بأمهما. وابتسم فيليب

ـ مديح أقابله بمديح، فأنت أيضا تبدين رائعة. تجنب أن يقول: أنه لم ينم ليلة واحدة هناك دون ان يشعر بحنين مبهم يغرقه شوقا لهم. مع أن للحياة الجامعية مفاتنها. ألم يقل له بن جونز قبل سفره شيئا مثل: «سنوات الدراسة أجمل سني العمر، وسترى»

وكان على حق تماما. ربما أحبط في سان فرنسيسكو، لكنه تكيف معها بشكل رائع في هارفارد، حيث تعرف على شلة جديدة من الأصدقاء، وغالبا ما أحس بأنه موجود في كوكب آخر، أو أنه يعيش في الطرف الآخر من العالم. دامت رحلته في القطار أربعة أيام خالها دهرا، وقضى عيد الميلاد في نيويورك، لدى عائلة أحد رفاقه، وما فتىء يفكر بادفينا والآخرين، كان يشتاق إليهم كثيرا، والحال أنهم كانوا هم أيضا مشتاقين له! وهو لا يجهل ذلك.

كانت سيارة باكار كبيرة تنتظرهم عند باب الخروج من المحطة. وبحث فيليب بنظرة آلية عن بن

سأل عندما لم يره: أين بن.

ابتسمت إدفينا وقالت: إنه في لوس آنجلس، وهـــو يرســـل إليـــك تحياته، وأظن أنه بشوق لرؤياك للتحدث معك عن هارفارد.

هي أيضا بشوق عارم لإمطاره بألاف الأســئلة. كيــف الوضـــع هناك؟ أي نوع من الأشخاص يصادف فـــي الجامعـــة؟ أي الـــدروس يتابع؟ من هم أساتذته؟ أحيانا كانت تخامرها غيرة غامضة من فيليب. هي أيضا كان باستطاعتها أن تتابع دراستها. لم تخطر لها هذه الفكـــرة من قبل.... فقبل وفاة والديها وشارل، تطلعت إدفينا إلى سعادة بسيطة خصصت لجميع الشابات ممن هن في سنها: الزواج، وإدارة مـــنزل، وتأسيس أسرة وإنجاب أولاد. وبين ليلة وضحاها، وقعت علـــــى عاتقـــها مسؤوليات جسام. وبدأت تظهر لها نواقص ثقافتها. وعندما بـــــدأت فـــي ترؤس اجتماعات مجلس إدارة الصحيفة، لاحظت حولـــها الكثـــير مـــن الأمور، وتجلى لها الأمر ذاته في المنزل، فقد كانت تود أن ترسخ لـــــدى أخوتها وأخواتها معارف أكثر عمقا من دروس الطبخ أو العناية بالحديقة.

سأل فيليب متحيرا: ولكن من أتى بكم إذا إلى هنا؟

كان تيدي على ذراعه وراحت فـــاني وألكســـيا تتنازعـــان علـــى الذراع الأخرى. بينما هو يحـــاول فـــي ذات الوقـــت، دون جـــدوى، مساعدة جورج في إدخــــال علبـــة كبـــيرة مـــن الكرتـــون محشـــوة بالكتب في صنـــدوق الســـيارة.وبـــالطبع انشـــقت العلبـــة وتنـــاثرت محتوياتها علـــــى الرصيـــف، وبـــدأ الجميـــع فـــي التقـــاط الكتـــب المبعثرة، وأثار هذا المشهد العادي ضحــــك إدفينـــا، وهـــي تجيـــب أخاها باعتزاز: أنا، هل تظن أن لدينا ســـائقا آخـــر؟

ـــ من؟ وقهقه ضاحكا كأنه يستمع إلـــى فكاهـــة قديمـــة ســـارة؛ لست جـــلدة!

ـــ لم أكن في يوم من الأيام أكثر جدية، فقد تعلمت قيادة الســـــيارة وهذا كل شيء.

ألقى نظرة خاطفة على سيارة الليموزين الجديدة بلونها الأزرق السماوي التي اشترتها إدفينا بمناسبة بلوغها الثالثة والعشرين من العمر.

قال وهو مندهش ويتنازعه الشك والإعجاب: أتعرفين فعلا القيادة؟

لم يتوقع ان يرى أخته البكر النحيلة الجسم، الحساسة، تستطيع السيطرة على هذه السيارة الضخمة.

ــ بكل إتقان، أيها السيد، وسأبرهن لك على ذلك الآن، هيا أيها الأولاد، سنأخذ طريق العودة.

كدست الأمتعة في الصندوق، ودلف أفراد العائلة صغارا وكبارا إلى داخل السيارة، وجلست إدفينا خلف المقود؛ وحبس فيليب أنفاسه، وأمام دهشته الكبرى أقلعت السيارة بكل هدوء وبعد قليل كانت الباكار تنطلق بسرعة باتجاه المنزل دون أي عائق، وعلى المقعد الخلفي كان الصغار يتحدثون كلهم في وقت واحد. أما جورج فأنه لم ينقطع عن طرح الأسئلة الغريبة على أخيه الأكبر. وأخيرا وصلوا ونقلوا الحقائب وعلبة الكرتون إلى البهو حيث تسود طراوة منعشة.

قال فيليب مازحا وقد أذهلته قليلا نشوة اللقاء ومشقة السفر:

ــ وفقا لما أراه فإن شيئا لم يتغير.

وارتد بنظره إلى إدفينا يتأملها مليا وقد لاحظ لأول مرة اكتمال ملامحها، وقوامها الأصيل الجذاب، وأناقتها. إنه لم يرها من قبل بمثل هذا الجمال، وهذا التألق، وهذه الأناقة، وتحقق أن هذه المرأة الشابة الفاتنة هي أخته، وليست أمه.... وتساءل بإبهام لماذا هذا الوجود المنعزل، وحياة العفة، من أجل تربية أولاد، هم بعد كل حساب ليسوا أولادها.

سألها بشيء من الإلحاح أثار استغرابها: هل أنت على ما يرام؟

نظرت إليه بدورها، إنه أطول منها بكثير، بمثل طول أبيهم، بل ربما أطول قليلا.

ــ تماما وأنت؟ هل أنت مسرور حقا في هارفارد؟

ــ بشكل كبير، فالدراسة توسع الذهن، وقد التقيت بمجموعة من الأشخاص يثيرون الإهتمام، لكنني أتضايق من أجلكم... من المؤسف أنها على هذا البعد، وإلا لتمكنت من الحضور غالبا.

أجابت بلهجة متفائلة: لا تشغل بالك، لم يبق إلا ثلاث سنوات... ستنقضي سريعا، لو تعلم كم أنا مشوقة لرؤيتك على رأس الصحيفة وخاصة....

وابتسم: ليس شوقك لشخصي إذا!

وإستأنفت: وخاصة في كل مرة يجب علي فيها أن أحضر هذه الجلسات المرهقة التي أرأس فيها مجلس الإدارة.

واضافت ذهنيا: «والتعرض للوم بن الصامت، من المؤكد أن صداقتهما بقيت سليمة، ولكن منذ اليوم الذي كادت فيه ألكسيا تنسحق في ليله البهيم بين عجلات القطار، تدهورت العلاقات بينهما

سألها فيليب: هل سنذهب إلى تاهو هذه السنة؟

ــ نعم، في شهر تموز كالعادة، حيث سنبقى هناك لمدة أربعة أسابيع. ولكن ما هي مشاريعك لشهر آب؟.

لم يكن لديه أي مشروع، ويجب أن يعود في شهر أيلول إلى هارفارد، لكنها تفضل ألا يفكر بذلك منذ الآن. وأمامهما في الوقت الحاضر شهران ونصف للبقاء معا.

انقضى الأسبوع الأول سريعا، وكانوا يخرجون تقريبا كل مساء لتناول العشاء في أحسن المطاعم؛ وكلهم فرحون باللقاء، كما أن فيليب يريد الإجتماع بكل أصدقائه. وقد لاحظت إدفينا في مطلع شهر تموز أن أخاها يبدي اهتماما خاصا بشابة من المحيط الذي يحيون فيه، وهي الشقراء الرائعة الحسن بكي هانكوك ــ التي يمتلك أهلها فيلا رائعة في تاهو ــ وفي كل مرة تلتقي فيها بفيليب على العشاء، في المدينة أو في البيت تبدو وكأنها متعلقة كليا بشفتيه، وهي في الثامنة عشرة تماما من العمر، وتعامل إدفينا باعتبار موقر تخص عادة به السيدات المسنات.

لاحظت ذلك لفيليب ضاحكة: أقسم أن هذه الصغيرة تعتقد أني أمك!
ــ أنا أقول بالأحرى إنك تثيرين فيها انطباع مهابة لك.
ــ بل إنها تفكر بأنني في عمر قيمات الأديرة[1]

حل آل هانكوك في تاهو في ذات الوقت الذي انتقل إليها آل وينفليد، ولم تتأخر بكي عن التردد إلى مكان إقامتهم، بحيث تكاد لا تغادره وفي أحد الأيام دعت إدفينا وفيليب وجورج إلى لعبة كرة مضرب في الملعب المجاور وبعد عدة جولات طلبت بكي من فيليب مرافقتها، وأعارتهما إدفينا سيارتها وتابعت اللعب مع جورج، ونجحت في إلحاق الهزيمة به.

قال ساخرا: هيه، ليس هذا سيئا بالنسبة لعجوز صغيرة!
ووجهت إليه بغضب كرة لم يستطع ردها قائلة:
ــ استمر في دعابتك لأوقف دروس تعلم السياقة
تظاهر بالندم العميق وهو يقول: ألف معذرة!

ووجهت إليه كرة ثانية ردها هذه المرة بضربة رهيبة من مضربه دفعتها إلى الإبتسام. إنه فتى موهوب في كل شيء.... تعلم قيادة سيارة الباكار الضخمة بسهولة مدهشة نسبة إلى سنيه الأربعة عشرة. وهو الآن أكثر اجتهادا في المدرسة، وقد لاحظت إدفينا منذ بعض الوقت أنه يبدي اهتماما خاصا بالفتيات، وله رأي في كل شيء.

صرح لإدفينا منذ بضعة أيام فجأة بينما كان يتدرب على قيادة الباكار في طريق ريفي قرب البحيرة (وكانا قد تركا فيليب مع الأطفال) :
ــ أتساءل لماذا يعاشر فيليب هذه البكي؟.
ــ لماذا تقول هذا؟. لكنها في قرارة نفسها كانت تطرح ذات السؤال.

---

(١) Age canonique: هو العمر الذي لا يقل عن أربعين عاما المشترط لخدمة رجال الدين والأديرة بالنسبة للنساء.

قال بغموض أولا، لكن بدا أنه قرر أخيرا أن يكشف عما في قرارة نفسه:

لأن ... لأنها في رأيي تحاول إغراءه لأسباب نفعية.

كانت هذه ملاحظة هامة

ــ نعم؟ وماهي هذه الأسباب؟

بدا عليه الإنصراف إلى التفكير، ثم دار بالسيارة في أحد المنعطفات بمهارة استحق عليها ثناء إدفينا، ثم عاد إلى موضوع محادثتهما

ــ باه! أتساءل أحيانا إن لم يكن مرد اهتمامها بفيليب عائدا إلى موضوع صحيفة بابا.

كبحت إدفينا ابتسامة ساخرة، فإذا كان والدا بكي ــ وهما مالكا فندقين ومطعم ــ لا يحتاجان أبدا لدعم مالي. فإن الصحيفة ــ وهي تدر دخلا يزيد عن مداخيل كل مشاريعهما مجتمعة؛ تضيف بريقا معتبرا للثروة. وسيغدو فيليب في يوم بمثل أهمية أبيه، وإذا كانت الشابة بكي قد انطلقت منذ الآن لتتصيد زوجا، فإنها اختارت بالتأكيد غنيمة طيبة.

ــ قد لاتكون على خطأ.... رغم أن أخاك يمتلك جاذبية تدفع وحدها الفتيات للجري وراءه دون أن يكون الهدف كونه صاحب صحيفة مستقبلا.

اكتفى جورج بان هز كتفيه باستخفاف ودار بالباكار نصف دورة ليتخذ طريق العودة.

ــ إدفينا، لا تعدي تصريحي مسيئا، فأنا عندما أكبر لن أفكر بالعمل في الصحيفة.

ألقت عليه نظرة مواربة مندهشة وسألته: «كلا؟ وماذا ستشتغل؟»

ــ لا أعلم حتى الآن.... إنما الصحيفة عمل مناسب لشخص كفيليب أما انا فلن ألقي فيها إلا الضجر.

بدا واثقا من نفسه بحيث لم تستطع الإمتناع عن العبث بشعره تعبيرا عن إعجابها به، إنه ما يزال فتى، ولديه الوقت الكافي ليغير رأيه، ومع ذلك غامرت بالتعليق: «ومع ذلك فلا شك أن لديك فكرة عن المهنة التي تهتم بها» بدا عليه للحظة الإنصراف إلى التفكير ثم قال:

ــ لست متأكدا حتى الآن ــ وارتسم ظل من تردد على قسماته ــ ولكنني أعتقد أنني سأحب العمل في الأفلام

تحولت دهشة إدفينا إلى استغراب وسألته:

ــ في الأفلام؟

هز رأسه إيجابا بشكل جدي، ثم انطلق في وصف فيلم رآه حديثا وتمثل فيه ماري بيكفورد

قطبت حاجبيها، وصالبت ذراعيها وتحرت منه باستنكار: حقا؟ ومتى تسنى لك الذهاب إلى السينما؟

ذلك أنها تراقب بكل عناية أوقات خروجه وأسبابها.

بدرت منه ابتسامة عريضة وقال: متى؟... في اليوم الذي أهرب فيه من المدرسة.

ــ تمتمت مرتعبة: أوه! يالك من مخادع صغير بائس!

وأغرق كلاهما في الضحك

ــ إنني أعلم.... وفي هذا سر جاذبيتي.

إن لديه ردا على أي شيء، ودخلت سيارة الباكار تحت قبة الأشجار المظللة، في الطريق المتعرج الذي يقود إلى الملكية التي تتوزع عليها الأكواخ الأنيقة؛ ثم توقفت أمام بوابة الخشب، والتفتت إدفينا، وهي تدير قبضة الباب، إلى أخيها الفتى مرة أخرى، وصوت صغير يهمس في داخلها

«ليس كل ما قاله إلآ أوهاما، أحلام زهو فتى صغير» لكنها أحبت التأكد: ــ لم تكن جادا فيما قلته لي منذ لحظة، أليس كذلك؟

ــ كل الجد، سأقوم بصنع أفلام يوما ما؛ سيكون فيليب مدير الصحيفة وسأكون أنا مؤلف أفلام سينمائية، وسترين
ــ آمل ألا تتركا إدارة الصحيفة تقع على عاتقي.

رد الفتى بصوت لامبال: يمكننا دائما بيعها

ــ كلا، لا يمكن ذلك دائما!.

حرصت إدفينا ألا تعبر عن فكرها صراحة، فمنذ سنة تعاني الصحيفة من متاعب مادية متفاقمة بسبب إضراب العاملين فيها، وتراكمت الخسائر بالرغم من أن الأرباح بقيت هامة نوعا ما، ورفضت إدفينا عدة عروض لشرائها. فقد حددت لها هدفا وليست مستعدة للتراجع عنه وهو المحافظة عليها لمدة ثلاث سنوات إلى أن يغدو فيليب متهيئا لإدارة شؤونها، وبعدها يتصرف بما يراه مناسبا. قالت في نفسها: «ثلاث سنوات» وبدت لها هذه المدة فجأة طويلة.

قال فيليب وهو يراهما يدخلان: وبعد إلى أين وصل درس سياقة السيارة؟

كان تيدي ينام القيلولة في أرجوحة نصبت في ظل أشجار الزيزفون. وقام فيليب بمحادثات ممتعة مع فاني و ألكسيا.

تهالكت إدفينا على مقعد خيزران وهي تستنشق بعمق هواء الحديقة المنعش.

إنها تحب اعتدال الجو في قلب الجبال خلال أوقات بعد الظهر. وبدا جورج أمامهم وقد تجهز بقصبة صنارة الصيد وهتف بأنه على موعد مع أحد جيرانهم عند مصب النهر في البحيرة.

ــ هيئوا أنفسكم لوجبة من سمك الترويت!.

وهرع إلى الشعب المؤدي إلى البحيرة الكبرى. وبقي فيليب وإدفينا جالسين بصمت ينعمان بعذوبة المناخ عند العصر.

سألت إدفينا أخيرا، بالمناسبة ماذا كان موضـــوع هـــذه المحادثـــة الطويلة مع الصغيرتين.

ــ ماما، بالطبع، ذكرنا كم كانت جميلة. ونادرا مـــارأيت ألكســـيا بمثل هذه الغبطة والطلاقة

كانت هـــذه هـــي إحـــدى نـــزوات ألكســـيا الجديـــدة: أن تعـــدد لساعات ميزات أمهم الوفيرة، جمالـــها، ولطفـــها، ورقتـــها. وغالبـــا ما كانت تأتي خلال الليل لتندس في سرير إدفينـــا وتطـــرح عليـــها آلاف الأسئلة حول كـــات. ويبـــدو أن هـــذه المحـــاورات الطويلـــة، الشاقة أحيانا بالنسبة للكبار تستهوي الصغار كثـــيرا، فتيـــدي يعـــبر عن عبادة أبيـــه.

سألها يوما: ويني. لماذا توفي والدانا؟

وردت بالجواب الوحيد الذي استطاعت إيجاده.

ــ لأن الله دعاهما إليه.

ــ لماذا.

ــ لأنه يحبهما على ما أعتقد.

بدا على تيدي الإقتناع والرضى، لكنه عاد في اللحظة التالية وقـــد اكفهر وجهه الصغير وسألها: هل يحبك الله انت أيضا يا ويني.

ــ ليس إلى حد استدعائي إليه ياعزيزي.

تمتم تيدي مطمئنا: آه! حسن إذا.

من كات وبرت لم يحتفظ الصغير إلا بذكـــرى مبهمـــة تقريبـــا ــ صور مشوشة لوجهين محببين، لكن السنتين اللتيـــن انقضتـــا علـــى اختفائهما أضعفت ألم الأوقات الأولى الممض.

أيقظها صوت فيليب من تأملاتها الشاردة، وهو يسأل:

ــ هل أتيت بصحيفة هذا اليوم؟.

ــ لم يتسن لي الوقت. وفي الواقع، نسيت كليا.

أجاب بأن لا أهمية لهذا الأمر، فسيحضرها بنفسه عندما يذهب للقاء بكي. فالأخبار السياسية تهمه. وكان مقتل ارشيدوق النمسة وزوجته، منذ عدة أسابيع في سراييفو، قد أحدث دوي القنبلة في الصحف.

وفي رأي فيليب، يهدد هذا الحادث بتوجيه ضربة لتوازن التحالفات في أوروبة.... وبعد ذلك بنحو ساعة أكد العنوان العريض على الصفحة الأولى من **التلغراف صن**، صحيفة آل وينفيلد، مخاوفه؛ فأوروبة بين النار والدم واغتيال الدوق أوجد ذريعة مثالية للنمسة لتعلن الحرب على صربية، وتلقت روسية وفرنسة إعلان ألمانية الحرب عليهما، بينما قامت الجيوش الإلمانية بخرق حياد بلجيكة. وأعلنت بريطانية العظمى بدورها الحرب على امبراطوريات أوروبة الوسطى؛ وخلال أسبوع كانت حمى الحرب الدامية قد انتشرت في كل البلدان الأوروبية.....

سألت إدفينا بعد عدة أيام وهم في سيارة الباكار العائدة بهم إلى سان فرنسيسكو:«كيف سيكون رد فعل الولايات المتحدة، آمل ألا تتورط بلادنا في هذا السعير الجنوني.

عقب فيليب وهو يهز كتفيه: لا أرى سببا في الوقت الحالي، خاصة وان الرئيس ويلسون حيادي موثوق.

كان يتتبع جميع طبعات الصحافة؛ وفي سان فرنسيسكو تردد على صحيفة أبيه بأمل التقاط معلومات أخرى، وقضى أمسيات كاملة يتناقش مع بن ــ الذي عاد خلال ذلك الوقت من لوس أنجلس ــ حول تطور الأحداث في أوروبة.

أخذ الصراع في الشهر الذي تلا، أبعادا مريعة، فاليابان دخلت الحرب إلى جانب التفاهم الفرنسي ــ الإنكليزي؛ واشتد الهجوم الألماني على فرنسة؛ فالحريق الذي بدأت شعلته في سراييفو تحول بسرعة كبيرة إلى نيران جمر واسعة تهدد بتحويل نصف العالم إلى رماد، بينما النصف الآخر يشهد المجزرة وهو منذهل.

تابع فيليب تطورات الأعمال الحربية باهتمام يقارب الهوس. نوع من الحماس الشبابي لم يلبث ان أقلق إدفينا؛ وعندما عاد إلى هارفارد لم تستطع حبس دموعها؛ ولم ترد أن تقول له شيئا بخصوص الصحيفة، وذلك لتجنيبه موضوع ارتباك إضافي. لكن الوضع بين مجلس الإدارة والنقابات أخذ يزداد توترا في كل يوم بحيث غدا لا يحتمل. وتساءلت بقلق وهي وحيدة من جديد، إن كان بإمكانها أن تتحمل مدة ثلاث سنوات. وبدا لها فجاة أن الإنتظار حتى انتهاء فيليب من دراسته الجامعية فوق طاقتها. فالإجتماعات تتحول غالبا إلى نزاعات عنيفة بين أعضاء مجلس الإدارة، وفي مناسبات عدة تحملت الرئيسة الشابة انتقادات لاذعة بسبب سياستها المحترسة لكنها لم تتراجع، وقالت في نفسها «يجب الصبر»، والتصرف وفق مقتضيات كل مرحلة، لكسب الوقت بأي ثمن، إلى أن يحين الموعد الذي ستسلم فيه راية القيادة إلى فيليب؛ وبالطبع فإن بيع «تلغراف صن» ليس موضوع بحث.

اشتدت الحرب الكبرى خلال العام ١٩١٥، بينما كان فيليب يتابع سنته الدراسية الثانية، وتعرضت انكلترة للحصار البحري الألماني؛ ولم تعد تصل إلى إدفينا إلا رسائل نادرة من الخالة ليز. وكانت الليدي هيكام تحص ابنة اختها في دأب متميز على التخلص بأي ثمن من أمتعة والديها؛ «يجب قطعا تنظيف الجناح الأعلى»؛ وبيع المنزل، والصحيفة، وإلا ستندمين فيما بعد وتختتم رسالتها بطلب المجيء للإقامة في هوفرمورمانور. «لاتنسي بعد كل حساب، إنني أخت أمك».

كانت قد مضت مدة طويلة على تنظيف «الجناح الأعلى»، لكن إدفينا حرصت على عدم تكرار ذلك لخالتها. كما حرصت على عدم شرح رفضها الذهاب والإقامة في قصرها المهدم.

في شباط؛ افتتح معرض بناما ـ الباسيفيك أبوابه رغم الحرب. وقامت إدفينا بزيارته مع الأولاد الذين أرادوا أن يعودوا إليه في كل أسبوع. وقبل ذلك بشهر تم ربط نيويورك بسان فرنسيسكو بخط هاتفي

وكان فيليب في زيارة لأصدقائه في نيويورك ففاجأ إخوته بالإتصال بهم هاتفيا. كان ذلك في مساء أحد الأيام، وقت العشاء. ورن جرس الهاتف بينما كانت السيدة بارنز تضع على المائدة وعاء كبيرا من الحساء الساخن، وتناولت إدفينا السماعة، كان الإتصال الهاتفي مريعا، فالخشخشة مزعجة على الخط، لكن صوت فيليب الواصل عبر السماعة جعلها تقفز فرحا.

ـ فيليب!

والتفتت أربعة رؤوس في آن واحد نحوها، وبرقت في ذات الوقت أربعة أزواج من الأعين، وكل واحد يريد ان يتحدث مع فيليب الذي كان يضحك على الطرف الآخر من الخط

ـ أقبلكم جميعا

كانت دعوة تنتظره في هارفارد ليشهد تدشين «مكتبة ذكرى وايدنر» التي أسستها السيدة وايدنر إكراما لذكرى ابنها. وبتصفحه لبطاقة الدعوة انتابته الذكريات المؤلمة التي كانت قد بدأت تمحي مع الزمن. ففيليب قد تعرف على هاري وايدنر على **التيتانيك**. وراح هاري مع والده السيد وايدنر بين ضحايا الكارثة المريعة، وجرى الاحتفال برزانة وحزن، وساده جو من الخشوع.

كان جاك تاير بين المدعوين أيضا، وتبادل الشابان بعض العبارات قبل أن يفترقا. عبارات عادية، دون موضوع معين، كلمات مجاملة لا قيمة لها، تلقى لإخفاء الأفكار الحقيقية، فكل واحد يعرف تماما ما يتذكر الآخر، فأعينهما تتفاهم وكأنها تقول: كم هو غريب لقاؤنا في أمسية مناسبة اجتماعية بعد أن قضينا ليلة ليلاء معلقين على طوف واحد فوق بحر أسود جليدي. هذا ما فكر به فيليب، وأسرع مستأذنا السيدة وايدنر في الإنصراف.

وُجد صحفيان عند مدخل البناء، وآلة التصوير ذات الومَّاض في أيديهما، وهما يستجوبان بفتور أحد الناجين السابقين، وتسلّل فيليب بمهارة. وفي اليوم التالي أعلنت جريدة محلية في مقال صغير إحياء ذكرى ضحايا التيتانيك. فالمأساة، وقد مَضَت عليها ثلاث سنوات لم تعد تثير الانتباه الذي تحوّل إلى أخبار عالمية حاليَّة أكثر اضطراماً وخطراً.

تطرّق فيليب في إحدى رسائله إلى لقائه مع جاك تاير، لكن إدفينا تجنَّبت التلميح لها في جوابها، وعلى غرار الجريح الذي يتجنّب أية حركة تسبّب انفتاح جرحه، تجنّبت الفتاة الشابة بعض المحادثات المؤلمة. كان فيليب يجد في موقفها أحياناً بعض المغالاة، وأحياناً يدرك ويقدّر معاناتها، فهي بعكس بقية الناجين من الكارثة لم تفقد أشخاصاً أعزاء وإنّما تركت قطعة من ذاتها في أعماق اليمّ. تركت روح الشابَّة العابثة المرحة ولن تتمكن أبداً من أن تستعيد مرح الحياة.

ندم لأنه لبّى دعوة السيّدة وايدنر، وكذلك لأنه تحدّث عنها إلى إدفينا.

وإذ نعتقد أننا دفنّا الماضي، وتجاوزنا مخاوفه، يكفي شيء ما لا معنى له، كلمة أو لقاء، لتنبثق الأشباح ثانية....

في شهر أيار طرأ حادث دامٍ ذكَّر فيليب بقسوة أشدَّ بأشباح **التيتانيك**.

كان الشاب في الحرم الجامعي عندما انتشر الخبر كالنار في الهشيم مثيراً استنكار الرأي العام الأمريكي، فقد أغرق الألمان بطوربيد الباخرة **لوزيتانية** وهي مركب أسفار بحرية مدني، وكان على متنه ألف ومئتا مسافر.

قرأ فيليب التحقيقات الصحفيَّة منذهلاً، وأعاد قراءتها. كيف لا تعود إلى الذاكرة حادثة غرق أخرى جرت في ليل صقيعي ومماثل أيضاً منذ ثلاث سنوات؟ ولم يكن قادراً على التفكير طوال اليوم بشيء

آخر إلا في وقع هذا النبأ على إدفينا. تصوّر تماماً الصدمة التي ستتلقاها. وما فتئ يردد «يجب أن اتصل بها، يجب أن أكلمها».

لم يخطئ فيليب، فإدفينا اطَّلعت على المأساة من الصحيفة، وأغمضت عينيها، وتقلّصت قسمات وجهها، ولأوّل مرة تركت قاعة المجلس قبل انتهاء الاجتماع. وهرع بِنْ في أثر المرأة الشابة، وقد شده لشحوبها المفاجئ، وعرض عليها مرافقتها بالسيارة، فرفضت بإشارة نفي من رأسها، دون كلمة، ودون نظرة، وشاهدها تهبط بسرعة درجات سلّم البناء، وفي اللحظة التالية كانت في الشارع. كانت رجلاها تصطكّان، لكنها ألزمت نفسها بالسير قدُماً، ومشت طويلاً بخطوات من يسير في نومه، ولا تعرف بأيّة معجزة تمكّنت من الوصول إلى شارع كاليفورنية؛ لكن طوال الطريق كانت تلتبس في ذهنها فاجعة **لوزيتانية** بكارثة **التيتانيك**. وانبثقت مجدّداً الصور الرهيبة بقوة حقود، بعد أن كانت دفينة اللاشعور، نتيجة صراع مستمر في كل لحظة، خلال ثلاث سنوات طويلة، وظهرت كهذه الشياطين الاسطورية المنحبسة في القوارير، لكن ما أن تتحرر حتى تبدو بشكل أشدّ شراسة.

تراءت وجوه كات وبرت وشارل أمام عينيها اللتين غشّاهما الدمع، وصعدت في الممر ودخلت المنزل وهي تتضرّع لراحة نفوس ضحايا **اللوزيتانية** وتسمّرت وسط البهو؛ وخيّل إليها أنها تستمع إلى آخر الألحان التي عزفتها أوركسترا الباخرة، و إلى صرير السلاسل المروّع وهي تتحرّك على البكرات، وصرخات استغاثة الضحايا الذين يغرقون، ثم تصدُّع المركب الرهيب قبل أن يغوص بدقيقة واحدة في الأعماق.

صاحت ألكسيا وهي تشاهد أختها الكبرى تنزع قبعتها ذات الغلالة لتكشف عن وجه في منتهى الشحوب: «إدفينا؟ ماذا حدث؟»

أجابت الشابة وهي تداعب وجنة أختها: «لا شيء يا عزيزتي، لا شيء أبدا، إنني تعبة قليلا»

تابعت إدفينا بنظرها أختها الصغيرة ابنة التسع سنوات، وعندما غدت لوحدها من جديد، تهالكت على أحد الدواوين منهكة

نجح فيليب في الاتصال بأخته هاتفيا في ذات المساء، وصرخ على الطرف الآخر من الخط لتتغلب كلماته على الوشوشة: «كم هي قذرة الحرب! »

ـ كيف تجرأ هؤلاء الوحوش على مهاجمة مركب مدني؟

ـ ويني إنني أعرف ما تشعرين به. ولكن جربي أن تبعدي هذا عن تفكيرك.

إنه يطلب المستحيل، وهو يعي ذلك، وإدفينا لم يغمض لها جفن طوال الليل؛ واستمرت بقايا الصور تتوالى على شاشة ذاكرتها، مشاهد واضحة، دقيقة، معندة. سماء تنتثر فيها الأنجم، وريح جليدية... وصرير زوارق ترمى في البحر، وصراخ المرتمين في استغاثة مريعة مفجعة يتلاشى والبرد القطبي يهد قواهم... وشارل، وكات، وبرت على سطح إقلاع زوارق الإنقاذ وقد بدأ يميل ببطء.

توصلت في الأوقات الأخيرة إلى الاستنتاج بأنها ستتوصل إلى العيش بشكل طبيعي؛ وأن الذكريات السيئة تشحب مع مرور السنوات إلى أن تضمحل.

تساءلت الآن وهي تتقلب دون كلل على سريرها دون أن تجد الراحة:

«أما لهذا الليل إذا من نهاية؟»

ثم ذعرت وهي تجد نفسها تقارن رغما عنها الفترة الذهبية التي عرفتها قرب شارل مع تلك الفترات القاتمة القاسية التي اختارت أن تقضيها مع الأولاد. وترك هذا التباين طعما مرا في فمها الجاف.

-XVIII-

بعد إغراق اللوزيتانية[1] نقضت إيطاليـــة حلفــها مـــع ألمانيــة، وانضمت إلى الحلفاء، وتعددت جبهات القتال عبر كل أوروبة، وفـــي الخليج، وما بين النهرين، وأفريقية. وفي شهر أيلول طــرد الـــروس، الذين خسروا نحو مليون جندي، من بولونية وليتوانية بهجوم ألمـــاني، وأخذت الحرب منحى خارقا، لكن أمريكة بقيــت محترســة، وعلـــى الحياد.

تضخمت المجزرة في العام التالي، وسقط في العام ١٩١٦ سبعمئة ألف جندي فرنسي وألماني في فردان؛ وخلال معركة السوم تعــرض المتحاربون لخسائر ثقيلة ــ أكثر من مليون رجل. واستمر الأســطول الألماني في المناوشة على السواحل البريطانية، يغـــرق دون تميــيز السفن الحربية، والسفن التجارية والمراكب. وقامت القـــوى الجويــة للإمبراطوريات المركزية بقصف لندن وباريس بينما كان الإيطـــاليون يوجهون مدافعهم نحو المدن النمساوية. وانساقت البرتغال إلى الحــرب فحشدت جيوشها على حدودها وباتجاه مضيق جبل طارق.

أعيد انتخاب ويلسون في شهر كانون أول، فأكد مجددا على الحيـاد الأمريكي مع الاحتفاظ بدور الوسيط؛ غير أن أركان الحرب الألمـــان عدوا نتيجة الصراع مرهونة بضـــرب مصـــادر تمويـــن الإنكلـــيز والفرنسيين وحلفائهم، وفي ٣١ كانون ثـــاني ١٩١٧ أنـــذرت برليـــن واشنطن بأن غواصاتها تلقت الأمر بإغراق جميع الســـفن التجاريـــة الواردة من الولايات المتحدة.. وهو إنذار وضع دبلوماســـية الرئيـــس

[1] لوزيتانية: سفينة مدنية انكليزية، أغرقتها غواصة ألمانية بتاريخ ٧ أيار ١٩١٥، وكان على متنها عدد من الركاب الأمريكيين مما أثار انفعالا كبيرا في الولايات المتحدة لكن دون أن يعدل من سياسة تلك البلاد.

الأمريكي أمام امتحان قاس. وكان ويلسون قبل ذلك بعدة أشهر قد وضع بلاده «فوق الصراع الدائر» ووجد نفسه بين ليلة وضحاها المدافع المتحمس «عن الحريات العزيزة على الشعب الأمريكي».

رفضت إدفينا فكرة إرسال جنود أمريكيين لتضخيم صفوف المتحاربين. ولم تكن هي الوحيدة التي تتبنى مثل هذا الرأي، فبن ومعظم أعضاء مجلس إدارة صحيفة **تلغراف صن** يشاركونها في ذلك، وكانت الريبورتاجات عن الحرب تشغل الصفحات الأولى من الجريدة. لكن انتباه إدفينا كان متوجها نحو مشاكل أخرى. فالمشروع الناجح الذي أسسه في السابق برت وينفيلد بعرق الجبين بدأ يتراجع خلال السنوات الأخيرة. فقد تضافرت، مع الأزمة الاقتصادية التي أوجدتها نقابات الصحفيين، المنافسة الحادة التي أثارها بضراوة أقطاب صحافة سان فرنسيسكو مثل آل يونغ الذين ما فتئت قدرتهم تتوسع.

وهكذا فبعد خمس سنوات من وفاة برت، بدأ يحس بغيابه بقساوة؛ وانخفض الدخل العائلي بشكل محسوس، بينما بقي مستوى معيشتهم بالدرجة ذاتها. ولكن إلى متى يمكنهم الاستمرار؟ رجل واحد يمكنه أن ينقذ الصحيفة من الإنهيار؛ وفيليب هو هذا الرجل، ولإدفينا ملء الثقة بقدرته. ولحسن الحظ فإن دروسه الجامعية قد أوشكت على الانتهاء، وسيكون قريبا هنا، ليضع يده على كل شيء، ولتستعيد المؤسسة خلال سنة أو سنتين ازدهارها السابق؛ ولتلقى إدفينا عندها شيئا من الراحة.

اقترع الكونغرس الأمريكي على الحرب ضد قوات الحلف المركزي في ٢ نيسان ١٩١٧ وأنبئت إدفينا بالخبر من الصحيفة، ومرة أخرى لجأت إلى بن جونز، فهو صديقها الدائم، ومستشارها، وموضع ثقتها. وقد اتخذت صداقتهما انطلاقة جديدة في اليوم الذي أقام فيه المحامي علاقة حميمة مع امرأة أخرى؛ ولم تستأ إدفينا مطلقا من ذلك، فهي تعرف منذ مدة طويلة أنها لن تتزوج بن أو غيره. واستقبلها بلطف، كعادته دائما، وأبدت له مخاوفها.

ـ لا تخشي شيئا يا إدفينا، فأخواك خارج نطاق التعبئة العسكرية، ولله الحمد، ففيليب ما يزال طالبا، وجورج تحت سن التجنيد.

انتهت إلى الابتسام مطمئنة.

انك على حق يا بن، فقد تأثرت بقراءة جميع هذه التقارير الدامية عن الحرب، والتي ترد إلى الصحيفة يوميا.

هذه الميادين من المعارك المدمرة، المغطاة بمئات الألوف من جثث الشباب ـ في أعمار أكبر بقليل من عمري أخويها ـ صدمتها وتسلطت عليها، لكنها استدركت وهي في طريقها إلى المنزل: «نعم، إن فيليب لا يخشى شيئا، وسيعود قريبا، وكل شيء سيسير إلى الأحسن». وفي الخريف سيبدأ جورج بدوره دراسته الجامعية لأربع سنوات في هارفارد.

أعلنت لها ألكسيا عند دخولها: «تلفن فيليب، وذكر أنه سيعود إلى الاتصال فيما بعد».

لكنه لم يفعل، ولم تهتم إدفينا كثيرا لذلك، فلا شك أن الأمر غير هام، إذ غالبا ما يتصل ليطمئن عليهم وليسألها عن الأخبار الجديدة، أو ليدلي لها بانطباعاته عن هذه العملية العسكرية أو تلك. وهي تستمع إليه، وفي صميمها إعجاب بهذا الاهتمام الحساس، ففيليب أوسع مدارك منها.. بالتأكيد كان بإمكانها، هي أيضا، أن تتثقف، وتكثر من القراءة، وتتعمق في العديد من المواضيع المثيرة، لكن لم يتوافر لها الوقت. فما بين الاهتمام بالأولاد واجتماعات الصحيفة تجري الأيام بسرعة مدوخة؛ وإدفينا تقضي حياتها وهي تجدل الشعر، وتمسح الأنوف، وتجمع الدمى، والدفاتروألعاب الجنود الرصاصية وتركض وراء تيدي ليتناول كأس الحليب، وتراقب فاني وتواسي ألكسيا، فعلى الدوام، وفي ركن ما من المنزل، لابد من وجود أحد يحتاج إليها. وبعد ذلك، فتبادل وجهات النظر مع فيليب حول مصائر بلدان العالم يمدها بإحساس منعش بالراحة. وتبقى الحرب الموضوع المفضل لدى الشاب، كما أن جورج أيضا يبدي اهتماما كبيرا بأخبارها، إنما عبر

الأفلام الحديثة، فهو يتردد باستمرار على قاعات السينما، مصاحبا على الدوام واحدة من صديقاته العديدات. فخلال بضع سنوات غدا «غفروش» الصغير، وفقا لتسمية كات وبرت دون جوان حقيقيا يأسر قلوب الفتيات؛ والدعوات التي يتلقاها لا تعد ولا تحصى.

أبدت إدفينا تذمرها، مراعاة للمبدأ، موجهة إليه اللوم.

ــ إنك تلهو كثيرا.

ورد عليها سريعا: بعكسك تماما.

كانت هذه هي الحقيقة المرة. فالقواعد الاولية في التربية تحول دون خروج الشابة ابنة العائلة الكريمة منفردة، وهذا بالضبط ما تريد أن تتجنبه إدفينا، فهي لا تريد الخروج برفقة أي رجل.

ــ لماذا لا تخرجين أبدا كما... كما جميع الناس؟

واستدرك عبارته بعد أن كاد يقول «كما من قبل». فهو يذكر تماما كيف كانت إدفينا «من قبل» زمن والديهم وشارل، تخرج إلى حفلات الاستقبال في المدينة، بأبهى زينة وهندام. وهي بالطبع لا تتحدث الآن عن ذلك أبدا، حتى ليكاد جورج يتساءل أحيانا إن كانت ما تزال تذكره، وإن كانت ما تزال تحتفظ بأثوابها السابقة الرائعة، وقد جرب في إحدى المرات أن يتطرق إلى هذا الموضوع، لكن إدفينا صدته بعنف؛ ثم اعتذرت بذريعة أن فاني وألكسيا ستطلبان رؤية هذه الأثواب السابقة، إن سمعتاه، وهي لا ترغب أبدا في إظهارها لهما. وأمام هذه الحجة لزم جورج صمتا متحفظا؛ فهو يعلم انها تعلة واهية. وأن هذه المجموعة من الثياب الفخمة التي تليق بأميرة قد دفنت دون شك في أحد الصناديق التي تحتفظ بها السيدة بارنز في القبو، و إدفينا قد تخلت عنها نهائيا لتلتزم بهندام تقليدي، «بأثواب تناسب عمري» كما تقول بهوسها في أن تظهر في سن متقدمة، رغم أنها لم تتجاوز السادسة والعشرين.

ردت على جورج: «ولكنني أخرج، وقد ذهبت في الأسبوع الماضي بصحبة بن وصديقته إلى إحدى الحفلات الموسيقية.

ـ أنت تعلمين جيدا ما أقصد.

وهزت كتفيها، ولم يلح جورج، فهو من جهة يلــوم أختــه علــى حياتها المعتزلة، ومن جهة أخرى، هذا يطمئنه كما يطمئــن فيليــب والأولاد. وبعد كل حساب، فإدفينا لا تريد تجديد حياتها، وهي تحلــم دائما، رغم انقضاء خمس سنوات بخطيبها، ووجه شارل الوسيم قــد إمحى قليلا، لكن قلبها مايزال أمينا لذكراه. وإدفينا تكــره وشوشــات الصالونات التي يثيرها موقفها. فخلال زياراتــها النــادرة، لاحظــت بعض النظرات المتأسفة، ووصل إلى سمعها بعض تمتمات مشــفقة... «هل لاحظتها؟» «يا للصغيرة المســكينة»... «لــم تــتزوج رغــم جمالها»... أو «يا إلهي أية مأساة!» بل وحتى في إحدى المرات: «لقد عنست»لكنها لم تتذمر، فهي أكثر اعتزازا من أن تتيــح لاحــد إبــداء الإشفاق عليها؛ أو إصدار حكم على تصرفاتها، والزواج ليــس وســيلة لإخراس الألسنة الخبيثة. وطرحة «التول» الموشاة باللآلئ ما تزال هنــا في أسفل خزانتها. وهي لم تنظر إليها منذ أكثر من ثلاث سنوات، وذلك لتتجنب آلاما لا جدوى منها. إنها لن تضعها أبدا. فهذا الفصل من حياتها قد أغلق نهائيا. وربما وضعتها ألكسيا أو فاني في يوم ما...

هزت رأسها لتطرد هذه الأفكار السوداء؛ ما الفائدة من تكرار هــذه القصص القديمة؟ ورغما عنها وجهت نظرها إلى جهاز الهاتف الــذي بقي صامتا؛ وتذكرت أن فيليب لم يعاود الاتصال. وابتسمت، فأخوهــا أراد بالتأكيد أن يعلن لها دخول الولايات المتحدة الحــرب، وهــي لا تشك في أن له رأيه في هذا الموضوع.

فتح باب المنزل بجلبة، ودخل جورج مسرعا إلى الصالــة التــي تجلس فيها وقال وعيناه تبرقان: بدأت التعبئة العامة، وهــم يريــدون متطوعين، لو قبلوا بي لكنت الآن في خدمة العلم.. ثم أضاف وهـــو ينتقل من موضوع إلى آخر: عجبا، أراك فاتنة اليوم.

كانت رائعة الجمال في الواقع، بشعرها الغزيــر الأســود اللمــاع المتموج على كتفها حتى ظهرها، وبالثوب المسترسل الذي ترتديــه،

وقد أعاد إليها شعرها المتهدل مظهر الشابة في ميعة الصبا، بعكس تلك التسريحات التي تضمه وتلفه على طراز العجائز. وراح جورج يغذ خطاه على السجادة عائدا للتحدث في موضوعه الأول متنهدا:

ــ كم رغبت أن ارتدي بزة الجيش الأمريكي المجيد.

ألقت عليه نظرة باردة وقالت برصانة: اترك الحرب للبالغين، فأنت ما تزال يافعا، وعلى عاتق فيليب صحيفة يجب النهوض بها.

نظر إليها متاثرا بسلطتها، ولم يجد في هذه المرة أي جواب للرد عليها.

كانت إدفينا تعبر الحديقة تحمل بين ذراعيها باقة من الورد الريحاني، ذلك الذي غرسته أمها منذ سنوات. كانت قد انقضت خمسة أيام على إعلان الحرب بعد تصويت الكونغرس بالموافقة عليها. وكانت مستغرقة في التفكير وهي تدور حول المنزل، وفجأة تسمرت في مكانها فقد بدا لها طيف شاب طويل رياضي يطل تحت مظلة المدخل، ورفت بأجفانها وهي بعكس الضوء وهتفت: « فيليب »

وتبعثرت الورود على المرجة الخضراء وهرعت ليضمها أخوها بذراعيه القويتين وككل مرة تراه فيها دهشت لمرأى كتفيه العريضتين، لكنها تذكرت بتأثر:

«ولكن، هذا صحيح، إنه الآن في الحادية والعشرين من العمر».

قالت باسمة: «وبعد، ماسبب تشريفنا بزيارتك؟»

لكن في اللحظة التالية إمحت البسمة عن شفتيها عندما قال لها فيليب وقد ظهرت عليه رصانة شبه رسمية: «أريد أن أصارحك بأمر».

ــ ماذا حدث؟ إنه لم يتخذ أبدا قرارا ذا أهمية دون أن يستشيرها؛ إنه يكن لها احتراما كبيرا بحيث لا يستغنى عن رأيها.

ــ يجب أن يكون لديك سبب هام للحصول على إذن بمغادرة هارفارد.

تحدثت بلهجة مرتاحة لكن قلبها لم يكن كذلك فقد أحست بشعور غامض يغزوه فجأة. كلا، كلا، لا مبرر لمخاوفها. وتبعته إلى المطبخ بخطا بطيئة، قد لا يصرح لها بما تخشاه، قد يكون رفد من الجامعة بكل بساطة، قد..

ـ قال: طلبت إذنا بالتغيب
جلست بتثاقل على كرسي.
ـ أوه! ولكم يوم؟
لم يجرؤ أن يقول لها في الحال، من الأفضل مداراتها؛ وأحس بحفيف ثوب؛ قد تكون السيدة بارنز في مستودع المؤن.
ـ إدفينا، هيا بنا إلى غرفة أكثر هدوءا، يجب أن أحدثك.
صحبته إدفينا إلى الصالة دون أن تتفوه بكلمة.
قالت تلومه بعد أن أغلقت الباب المضاعف المزخرف بالنقوش: كان يجب أن تتصل بي هاتفيا قبل حضورك.
طلبت منه ألا يتحرك من هارفارد، وليست لديها أية رغبة في سماع الكلمات التي يتهيأ للنطق بها.
ـ فعلت ذلك، ولكنك لم تكوني في المنزل. ألم تنبئك ألكسيا؟.
ـ أنبأتني أيضا بأنك ستعاود الاتصال.
وسادت فترة من الصمت، شعرت خلالها بان الدموع تكاد تطفر من عينيها. كان بمنتهى الوسامة، والجاذبية، والحنان أيضا.. ورأته يتنفس بعمق، وكأنه يستجمع شجاعته وقال:
ـ لم أتصل مجددا لأنني أخذت القطار في ذات اليوم... واستنشق من جديد نفسا عميقا ـ لقد تطوعت وتجندت في الجيش يا إدفينا.

غاض الدم من وجنتي الفتاة الشابة، مع أنها توقعت هذا التصريح. لكنها شكت بإمكان حدوثه. إنما تمنت بكل قواها أن تكون مخطئة في توقعها. وقفزت عن الكنبة التي كانت تجلس عليها وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا وهي تعصر يديها .
ـ إدفينا .

ـ هيا اصمت! كيف أمكنك أن تفعل مثل هذا الأمر؟ بأي حق ستشوش حياتنا بعد كل الذي عانيناه؟ إن الأولاد بحاجة إليك، وكذلك جورج... ـ وكذلك أنا بالذات...

توجد عشرات الأسباب التي تمنع فيليب من الالتحاق بالحرب، لكن عقلها توقف عند واحد فقط: إنها لا تريد، إنها ترفض أن تفقده.

صاحت بتأوه: لا يمكنك أن تفعل هذا؛ إن مستقبلنا مرتبط بـــك... نحن.. خفت صوتها، وأشاحت برأسها، وتمتمـــت: لا تفعـل هـذا.. أرجوك، لا تفعل هذا .. لا تفعله...

ـ إدفينا، حاولي أن تفهمي، لا يمكنني أن أبقى هنا أجلس في مكان مريح دافئ أقرأ في الصحف التقارير عن المعـــارك دون أن اختنــق خجلا. إن من واجبي أن أخدم بلادي.

دارت على عقبيها لتثبت نظرها في عينيه، ولتنفجر غاضبة:

ـ هراء وهذر، فواجبك هنا! واجبك يتطلب بـــالأحرى أن تنــهي دراستك، وتهتم بإخوتك وأخواتك. انتظرت سنوات لتكبر ـ هذا مـــا انتظرناه جميعا ـ من أجل أن تتحمل مسؤولياتك، لامن أجل أن نراك تهرب منها.

ـ أنا لا أهرب يا ويني، أنا ذاهب إلى الحرب... لبعض الوقـــت. لن يطول الأمر؛ وسأعود سريعا للاهتمام بالعائلة... أقسم لك.

شعر بشكل رهيب انه مذنب، لكن قراره بقي ثابتا لا يــتزعزع. إن بلاده بحاجة إليه أيضا، وقد لبى نداءها. وهو في صميم قلبه يـدرك أن أباه ـ لو كان على قيد الحياة ـ لأثنى على تصرفه؛ وعدد كبير مـــن الطلاب التحقوا بالقوى العسكرية الأمريكية، وما من أستاذ حـــاول أن يثنيهم عن عزمهم. ما من رجل جدير بهذا الاسم يجرؤ على أن يقترح عليه موقفا جبانا.

لكن إدفينا امرأة، وهذا الرحيل في عينيها مماثل للخيانة. وهـــاهي ذي الآن في مواجهته، تكاد تصعقه بنظرة سوداء وهي تزمجر.

لن أدعك تذهب.

تباعد مصراعا الباب المزخرف فجأة ليظهر جورج على مدخـــل الصالة ليجمد في مكانه فجأة، متحيرا، مقطب الحاجبين، ينتقل ببصـــره بين أخيه وأخته؛ أدرك للتو أن أمرا خطيرا قد حدث.

ــ ويني؟ ماذا جرى؟

ــ جاء أخوك يعلن لي عن رغبته في التطوع والذهاب إلى الحرب.

لو أن فيليب ارتكب جريمة لما استخدمت لهجة أكثر مرارة.

لكن جورج اندفع نحو فيليب وربت بقوة على ظهره هاتفا

ــ مرحى أيها البطل! أظهر لهؤلاء الانذال قدرتك! اجعلهم يذوقوا الأمرين! إنني...

لكنه توقف وهو يتنحنح وتذكر فجأة وجود إدفينا. وتقدمت هذه خطوة نحو الأخوين، وهي تزيح شعرها الطويل إلى الخلف بحركة ملؤها الهياج والغيظ:

ــ وإذا كانوا هم الذين سيذيقونه الأمرين، وبدلا من أن يغدو البطل الذي تحلم به يا جورج، يسقط صريعا بكل حماقة، برصاصة عدوة. آه! سيكون الأمر بالتأكيد اقل طرافة، وإثارة، وفخامة!

ونظرت إليهما كل بدوره، وصاحت:

ــ استمعوا إلي جيدا، أنتما الاثنان! قبل أن تتصرفا باندفاع، فكرا الآن وفي المستقبل؛ هذه العائلة ما تزال باقية حتى الآن بنعمة من الله، ولن أدعكما تدمرانها.

واتجهت نحو باب الخروج، منتصبة، في خطوة ثابتة، واستدارت عند العتبة، وأعلنت بصوت قاس موجهة عباراتها لفيليب:

ــ لن تذهب! تدبر أمرك مع الجيش، قل لهم إن خطأ ما قد حدث، لكنك لن تغادر هنا، هل هذا واضح؟ إنني أمنعك!

وصفقت الباب بغضب خلفها، وسمعا في اللحظة التالية وقع خطواتها على درجات السلم.

-XIX-

سألت ألكسيا وهي تسرح بنشاط شعر دميتها المذهب، السيدة توماس، التي لا تفارقها: لماذا عاد فيليب إلى المنزل؟ هل طردوه من مدرسته؟ وضعت إدفينا صحنا من البيض المخفوق أمام فاني، وقدمت فنجان شوكولا بالحليب الساخن لتيدي؛ بينما تناول جورج و فيليب عشاءهما في النادي الذي كان يتردد عليه والدهما، حيث التقيا هناك ببن. هذا كل ما كانت تعرفه، إذ أنها لم توجه كلمة لفيليب منذ ظهر البارحة.

أجابت أختها: حضر فيليب ليزورنا فقط... وسيعود إلى هارفارد غدا أو بعد غد.

كانت نبرة صوتها، رغم جزمها، لا تخدع أحدا، فوجهها الشاحب، بقسماته المتغضنة يكذب كلماتها، فحتى تيدي بدا أنه مدرك لما تعانيه. لكن إدفينا لم تترك لهم الفرصة لمجادلتها، بل جمعت بخفة بقايا الفطور وكدست الكؤوس والصحون في المغسلة، وقبلت الأولاد شبه ذاهلة.

ـ هيا سريعا، ستتأخرون عن مدرستكم.

بعد مغادرتهم خرجت إلى الحديقة وجمعت الورود الريحانية التي انتثرت منها على المرجة الندية الكثيفة، وبدا أن الأزهار، رغم ذبول خفيف طرأ عليها، أخذت تتفتح، لكن إدفينا لم تلحظ ذلك، فعدا ماقاله لها فيليب، لا أهمية لأي شيء عندها. وتنفست بعمق نسيم هذا الصباح المشمس.

ـ كلا، لن يذهب فيليب ليتعرض للقتل في الطرف الآخر من العالم. لن تسمح بهذا، هي تجهل حتى الآن كيف ستتصرف، لكن فيليب لن يغدو طعما للمدافع. إنه لن يتخلى عنهم، ليس الآن، لا يحق له ذلك.

ملأت مزهرية بالماء القراح، وبدأت ترتب فيها الوردات واحدة بعد الأخرى والجبين متعال، والعين ثابتة، وكلما تكاثرت الورود في

وعاء الكريستال ترسخ يقينها؛ فكرت بالاتصال هاتفيا ببن، عندما دخل جورج إلى الغرفة بمحفظة منتفخة بالكتب تحت إبطه. كان متأخرا عن كليته كالعادة، لكنه في هذه المرة لم يحاول إيجاد عذر.

ــ ويني، هل ستحاولين حقا ردعه؟

كان يتكلم بكل هدوء وفي نظرته قبس خامد كئيب... لقد خسرت إدفينا الجولة، وهو يعرف ذلك، حتى ولو لم ترد الاعتراف، وجورج يدرك تماما وجهة نظر فيليب؛ ربما لأنه هو رجل أيضا. ونظرت إليه أخته، إذا لم تهدئ بوادر الطيش التي انتابت البكر فإن الأوسط سيكون مستعدا للحاق به إلى ميادين القتال الأوروبية متى استطاع ذلك.

ــ صرحت بكل برود: لن أحاول بل سأعارضه ــ ثم وضعت الورود الأخيرة في المزهرية بقوة لا جدوى منها ــ لا يحق له اتخاذ مبادرات بمثل هذه الأهمية دون أن يطلب رأيي.

فكر جورج: «رسالة وصلت» لكنه قال:

ــ أنت على خطأ في المواجهة بعنف. لو كان أبي موجودا لما قال لا لفيليب... فأبي كان يقول دائما يجب أن تقاتل دفاعا عن أفكارك.

حدقت به النظر من جديد، وخلال ثانية من الوقت اخترقت بارقة من فولاذ زرقة حدقتيها الغامقة، وعلقت بصوت أجش: «لكن والدنا لم يعد بيننا»وتحقق جورج فجأة من مدى ما تعاني من ألم. واستأنفت:

ــ لكنني لا أعتقد بأنه كان سيسمح له بالتخلي عنا. إن الأمور تختلف الآن وأنا أرفض عدم القدرة في الإتكال على أحد من أجل...

ــ ولكنني أنا هنا...

هزت رأسها نفيا:

ــ كلا؛ بدءا من شهر أيلول لن تكون أبدا هنا.

كان قد تلقى قبوله في الجامعة، ووفقا للتقليد العائلي سيتمم دراسته في هارفارد.

ــ أصغي إلي يا ويني.

ــ لا تتدخل من فضلك، إنها قضية بين فيليب وبيني.

رد معترضا: أبدا، إنها قضية بين فيليب وذاته. فالقرار يعود إليه سواء شئت أم أبيت. وقد قرر أن يدافع عن أفكاره؛ وأن يصارع من أجل العدالة في العالم، مجازفا بتكديرنا أو إغاظتنا. يجب أن تفهمي موقفه.

صاحت وهي تشيح برأسها لتخفيف دموعها:

ــ ليس علي فهم شيء، أسرع الآن إن اردت اللحاق بصفك في الوقت المناسب.

استدار الفتى على مضض، وفي البهو التقى بفيليب يهبط الدرج.

سأله: كيف هي الآن؟

ناقشا المشكلة من جميع نواحيها مساء، وحتى ساعة متأخرة من الليل، واتخذ فيليب قرارا حاسما بالذهاب.

ــ ليست على ما يرام. أعتقد انها توشك على البكاء.

تصافح الأخوان، وانطلق جورج. إنه متأخر كثيرا، لكنه لا يبالي، فالفصل الأخير قارب الانتهاء، وفي حزيران سيكون حائزا على شهادة Drew School، وفي شهر أيلول سيلتحق بهارفارد. وفي نظره، تمثل المدرسة المكان المثالي لاختيار الأصحاب، واصطياد الفتيات، المكان الذي يمكن اللهو فيه قبل العودة لوضع الأقدام تحت مائدة البيت. وهو أقل اجتهادا من فيليب غير انه يعتبر في طليعة طلاب صفه. ودفع مصراع البوابة وهو يتنهد، بعد كل حساب، فإن حياة الجندي ليست طريفة على الدوام، وجورج كان يفضل في أعماقه، لو بقي فيليب بتعقل في الولايات المتحدة حيث ينعم بالأمان. لكنه فكر وهو يسير على طول الرصيف الغارق في الشمس:

«أخيرا فإن الإختيار يعود إليه. و إدفينا على خطأ في عنادها.

لو وجد أبونا لقال ذلك، إنها تعامل فيليب كطفل».

وجد فيليب إدفينا في الحديقة، وقد قابلت حججه بصمت معند، وأدارت له ظهرها وهي تقلع الأعشاب الطفيلية بحركات غاضبة تعبر عن مزاجها. لكنه استمر في الكلام، وبعد فترة من الوقت التفتت نحوه ووجنتاها غارقتان في الدموع وقالت:

بما أنك لست طفلا كما تريد أن تعلن، إذا برهن على أنك رجـــل. لقد تشبثت بهذه الصحيفة الكريهة خلال خمس سنوات بأمل أن تستلم إدارتها. وماذا ستقترح علي الآن؟ أن انتظر أو أن أبيع على الأرجح؟.

ــ يمكن للصحيفة أن تستمر أيضا دوني لبعض الوقت، فالمشكلة ليست هنا وهذا ما تعرفينه.

ــ المشكلة هي...

وفتشت بعصبية عن الكلمات المناسبة التي تهرب منها. وبقي هو واقفا، ويداه تتأرجحان، وعيناه ممتلئتان بالثقة.

نزعت إدفينا آليا قفازي البستنة، واقتربت منه، ووضعت كفيها على كتفه.

المشكلة هي.. ــ ومن جديد إرتعش صوتها، وتحولت دموعها إلى نحيب ــ أنني لا أريد أن تذهب . إنني أحبك وأقلق عليك. صحح موقفك أرجوك، فكر بـ....

ــ إدفينا، لاتلحي.

ــ لا يمكنك أن...

واختنقت الكلمات بالعبرات؛ وبكل قواها كانت تنبذ الفكرة الرهيبة لهذه المحنة الجديدة: فتيدي، وفاني، و ألكسيا، وهي بالذات، كلهم بحاجة إليه؛ فإذا ذهب لن يبقى إلا جورج، و جورج ما يزال مراهقا طائشا، وولدا متقلب الأطوار، إنه عصفور لا يرغب إلا بالطيران خارج عشه.

وفجأة شد القلق على قلبها كأنه ملزمة مميتة. سيكبر الأولاد، وسيتركونها كلهم، وليس لها غيرهم في الدنيا. كيف تتحمل فقدهم؟ كلا يجب أن يبقوا كلهم مجتمعين، كعائلة سعيدة متحدة.

ــ أرجوك.

ثبتت عليه نظرة متوسلة بحيث ترقرقت الدموع في عينيه، هو أيضا. لقد اجتاز آلاف الكيلو مترات بهدف إقناعها، وتوقع ردة فعل سلبية ولكن ليس إلى هذا الحد.

قال أخيرا وقد بدا أن كل كلمة تسبب له ألما مريرا: لن أذهب دون مباركتك، وإذا كنت ترين أن الوضع مضن حقيقة، وان وجودي في الصحيفة وفي البيت، ضروري إلى الحد الذي تزعمين، سأجدني مضطرا إلى أن أقول لهم: إنني غيرت رأيي، وأنني غير ذاهب معهم.
وصمت، وقد كاد تنفسه يتوقف، وكأنه بذل طاقة غير محتملة، وغدت عيناه كهوتي قنوط.

ـ واذا لم تذهب، ماذا سيحدث؟.

ـ لا أعلم.

وتاه نظره على شجيرات الورد التي غرستها أمه، وعلى السنديانة الظليلة التي كان يحب أبوه أن يستريح تحتها، ثم تأمل وجه إدفينا، وقال بصوت يثير الشفقة:

ـ سينتابني شعور بأنني خائن حتى نهاية العمر...

ثم حركه تجديد في الطاقة، فصاح:

أوه! يا ويني، لن أبرأ من هذا الشعور أبدا. إنه أقوى مني بكثير، لا أستطيع أن اترك الآخرين يقاتلون مكاني.

اكتفت بان تتأمله بانتباه مستمر؛ بدا شديد الثقة بنفسه، وشديد التحمس والحزن في آن معا، بحيث شعرت أن قلبها ينفطر. إنها لا تعي تماما ولوع الرجال بالحرب. ربما كان في ذلك اختبار لهم، نوع من شعائر الانتقال إلى سن الرشد؛ وهي تعرف غريزيا أنها إن منعت فيليب من الخروج عن دائرة طفولته فلن يغفر لها أبدا.

سألته بصوت متلطف، لكنه لم يلحظ افترار البسمة على شفتيها:

ـ أليس مكانك هنا؟.

ـ أنت من يفكر بذلك! تعتبرينني طفلا، لكنني رجل الآن، ومكاني هناك يا إدفينا

هزت رأسها بصمت، ونفضت آليا تنورتها من الغبار ووريقات العشب الأخضر اللماع العالقة عليها، ورفعت نظرها نحو السماء

اللازوردية البراقة حيث امتدت غيمة بيضاء ترسم أشكالا غريبة، ثم صرحت له بهيئة ارتسامية وبصوت يرتعش قليلا: «حسن، لقد حصلت عليها!».

إن فيليب على حق، لم يعد طفلا، إنه شاب الآن، بل رجل يجب احترام رأيه. وله الحق في أن يحارب من أجل الدفاع عن مبادئه.

ما هي إذا؟. وتجلت ابتسامة إدفينا وهي تقول:

ـ مباركتي أيها الأحمق! إنني أكذب إن قلت إنني أمنحك إياها وقلبي مغتبط. لكنك أنت وحدك المسؤول عن قدرك ـ وامحت ابتسامتها، وغشيت الدموع عينيها ـ إنما حاول أن تعود إلينا سالما. عدني بأنك ستعتني بنفسك، إذ لو أصابك مكروه فلن أقوى على العيش بعدك.

ـ أعدك... إنها كلمة شرف.. سأعود يا إدفينا، وسأكون مجددا هنا، ولن يطول وقت غيابي، سترين.

وتعانقا لفترة طويلة، بينما كان تيدي ينظر إليهما من نافذة في الطابق الأول.

-XX-

أعد فيليب حقيبته مساء اليوم نفسه، بمعاونــــة جــورج؛ وتطــرق الأخوان بعدها إلى مواضيع متعددة حتى ساعة متأخرة. وكان الوقــت قد تجاوز منتصف الليل عندما أحسا بالجوع فنزلا إلى المطبخ يعـبران غرف المنزل بقاطنيها النائمين.

جلسا إلى المائدة وأمامهما فروج بارد مغمور بالمــايونيز، وهمــا يحتسيان البيرة الفاتحة اللون، وراح جورج يتحدث بحماسة وهو يــهز فخذ الفروج الذي بدأ يلتهمه:

ـ هل تعلم أنني أحسدك على ذهابك إلى أوروبة؟ من المؤكد أنــك ستصادف مواكب من الفتيات الجميلات في فرنسة

ابتسم فيليب، فهو ذاهب إلى الحرب، وليس في رحلـــة ســياحية، وحث أخاه

ـ كن لطيفا مع إدفينا، بلغها أخبارك بانتظام عندمــا تغــدو فــي هارفارد

ـ لا تقلق سأكون أخا مثاليا

وملأ جورج من جديد كأسي البيرة، فأمامهما الليل بطوله للتحـدث، ليلهما الأخير... قبل مدة سيفترقان فيها طويلا.

ألح فيليب قلقا: إنني أعتمد عليك، إننا مدينان بالكثير لإدفينا، لاتنس ذلك.

مضى على وفاة والديهما خمس سنوات تماما

أجاب جورج بلا مبالاة: نعم إنها ضحت من أجلنا، ولكنها هي التي أرادت ذلك.

وتناول بهدوء رشفة من كأس شرابه المزبد.

كان يتمنى أن يرى أخاه بالبزة العسكرية. وعقب فيليب وقــد بــدا عليه التفكير:

ـ لم يكن لديها خيار، وربما كانت قد تزوجت دوننا. رغم أنني أتساءل غالبا إن لم تكن ما تزال مغرمة بشارل؛ وتفكر باستمرار به.

ـ لن تنسى إدفينا أبدا شارل. فهو رجل حياتها، ولا أحد غيره. هز فيليب رأسه: إنك على حق دون شك. ومع ذلك جرب أن تكون حاضرا في كل مرة تحتاج فيها إليك... واعتن بها.

وتوقف للحظة، واحتسى رشفة من البيرة، وغمر أخاه الشاب بنظرة حنان، وتمتم وهو يداعب شعره المسرح جيدا: سأشتاق إليك. أيها الماكر.

كبت جورج تنهدة غيورا، ففيليب محظوظ لإمكانه السفر في هذه المغامرة وجورج يتمنى لو يتبعه إلى هناك. و أمسك كأسه، ورفعه لفترة في الهواء، و عينه مثبتة عليه، بينما انبثقت روائع صور ملحمة خارقة في مخيلته المحمومة. و أخيرا استيقظ من شروده ورفع الكأس إلى شفته و أكد لأخيه: وأنا أيضا سأشتاق إليك أيها المحظوظ الكبير، أتعلم؟.... إنني فخور بك، إنما....

وبدا عليه أنه يفتش عن الكلمات المناسبة وارتسم طيف هارب في ذهنه، وظهر على قسماته النضرة الإرتعاش وأنهى عبارته بتحفظ: «إنما إعمل على أن تعود» إنها ذات العبارة التي نطقت بها إدفينا، ووافقه فيليب قائلا

ـ هذا وعد، وأنت إعمل على أن تقضي سنتك الدراسية الأولى في هارفارد بتفوق، وستقص علي كل شيء عندما نلتقي.

وأفلتت من جورج عبارة: "ربما التقينا في وقت أبكر مما تعتقد"

وانتصب فيليب واقفا وصاح: من غير الوارد أن تتطوع أنت أيضا، يكفي رجل من كل عائلة. إنهم بحاجة إليك هنا.

وتنهد جورج، وبدا الحزن في عينيه وهو يجيب: لم أقل شيئا....

كان يفكر دائما بمغامرات أخيه في فرنسة.

وذهبا للنوم بعد الساعة الثانية صباحا، واجتازا الممر وهما متخاصران كصديقين قديمين. وعندما عادا إلى المطبخ في اليوم التالي كان الجميع فيه وحرصت إدفينا ان تحضر بنفسها طعام الفطور أمام حسرة كبرى من السيدة بارنز. ولاحظت مبتسمة وهي تلمح إلى قسمات أخويها المجهدة من السهر:

ــ نمتما متأخرين كثيرا البارحة.

وفي ذات الوقت سألت فاني فيليب والدموع في عينيها: «أسافر؟ كانت الدقائق تمر بسرعة غير معقولة وما كاد فيليب يحتسي جرعتين من القهوة مع الحليب، دون ان يتمكن من تناول شيء آخر ــ حتى حان موعد الرحيل.

وبعد لحظة كان الجميع في سيارة الباكار، وعلى عتبة المنزل، السيدة بارنز تمسح عينيها بطرف مئزرها. وبدت المسافة من البيت إلى المحطة أقصر من أي وقت مضى، وقطعوها في جو من فرح مصطنع؛ وبعد ذلك وجد فيليب نفسه على الرصيف، المكتظ بشباب مثله، يتهيؤون للإلتحاق بالجيش.

بدت فاني تغالب الدمع، بينما اعتزلت ألكسيا في صمتها الخالد، فهذا اليوم ذكرى ميلادها الحادية عشرة. تمتمت إدفينا: اعتن بنفسك، لا...

وضاعت بقية العبارة في ضجيج القطار المقترب. و سببت اهتزازات العجلات المنتظمة على السكة الحديدية ارتعاش إدفينا. وعندما توقفت القاطرة بدا الزمن متسارعا، وهرع مد المسافرين يتزاحم على رتل المقطورات الطويل ووجب على فيليب، وحقيبة سفره في يده أن يتقدم وقد لفته دوامة الجمهور و التفت إلى إخوته الباقين إلى الخلف، وصاح تيدي ودمعة كبيرة ترف على أهدابه:

متى ستعود إلينا؟

ــ سريعا...كونوا عاقلين أيها الأولاد... إدفينا، جورج، اكتبا لي

واخترق نداء المراقب جلبة الأصوات: إلى العربات!.

وأرسل القطار صفرة نافذة الصبر، وامتدت نفثة خارقة من البخار في الهواء الصباحي. وعلى مرقاة المقطورة ألقى فيليب نظرة أخيرة إلى الخلف: ما يزالون جميعهم هنا، إدفينا تحمل تيدي بين ذراعيها، وجورج يمسك بإحدى يديه فاني وبالأخرى ألكسيا وهما جامدتان كأنهما في صورة: صورة مشجية انطبعت أزلية في ذاكرة فيليب. ونفثت القاطرة لهاثا من بخار، وصدرت عنها صفرتان، وانطلق القطار مسرعا ليغيب بعد دقيقة عن الأنظار، فكأنه لم يكن أبدا هنا، وكأن فيليب لم يجر أبدا هذه العودة القصيرة إلى المنزل.

توجهت إدفينا مع إخوتها الآخرين إلى باب الخروج وإحساس رهيب بالفراغ يكاد يصعقها. وفي الوقت ذاته، وفي القطار الذي يجري مسرعا إلى وجهته أرخى فيليب العنان لدموعه.

-XXI-

استمرت الحرب ضارية، والضحايا تتراكم في ميادين القتال، وفي تشرين الثاني تقدمت الجيوش الإنكليزية ـ الأمريكية المعسكرة في كامبري[١] ببطء، لكن الهجوم الألماني المضاد الذي جرى بعد عشرة أيام أجبرها على التراجع إلى نقطة إنطلاقها الأولية تقريبا.

كانت الصحف تنشر في كل يوم تقارير المعارك الجارية، وعدد القتلى المتزايد دائما يدب الرعب في فؤاد إدفينا. وكان فيليب المحافظ على وعده، يكتب لها بانتظام وهو يصف جحيم الخنادق ـ الوحل، والمطر، والثلج ـ لكنه يمر بصمت دون المشهد المؤلم لعشرات ألوف الأجسام الدامية، وصرخات النزع الأخير للمحتضرين، والخوف المستمر من الموت العنيف الكاسح.

في الولايات المتحدة كانت تتوالى إعلانات التعبئة وعليها صورة للعم سام وهو يشير بإصبع محذرة على أساس العلم ذي الأنجم والأشرطة. وفي روسية فقد القيصر عرشه، وتوجهت العائلة المالكة في طريقها إلى المنفى.

سألت فاني مع اقتراب عيد الشكر: هل سيغدو جورج بدوره بطلا؟

اسرعت أدفينا للرد بلهجة جافة: كلا!.

يكفيها عناء القلق، ليلا ونهارا، على فيليب، وهي لا تحتاج إلى مزيد من الهموم. ولحسن الحظ فإن جورج في أمان في هارفارد، وهو يتصل بها هاتفيا باستمرار، ويوجه إليها رسائل ملأى بالفكاهات التي تدفعها إلى الإبتسام. يقص عليها لقاءاته، ومغامراته الغرامية العديدة، ورحلاته إلى نيويورك حيث يؤم باستمرار قاعات السينما المعتمة، فهوسه بالفن السابع قد تزايد مع الزمن؛ وهو يكن إعجابا لا حدود له بشارلي شابلن؛ وغالبا ما يرسل إلى إدفينا بعد اكتشافه أحد الأفلام؛ ملاحظات من

---

(١) KAMBRAI : بلدة في مقاطعة شمال فرنسة إلى الجنوب من مدينة ليل (المترجم)

صفحات وصفحات، تدهش على الفور بدقتها فكانت إدفينا تتساءل ما إذا كان سينصرف مستقبلا إلى صناعة السينما كما صرح لها منذ ثلاث سنوات، لكن هوليود في الوقت الحاضر تبدو بعيدة جدا عن هارفارد. حضر جورج لقضاء عيد الشكر في البيت، وأعدت السيدة بارنز وجبة خاصة بالعيد، وعندما اجتمعت العائلة في قاعة الطعام الكبرى، أجرت إدفينا الصلاة التقليدية، وهي تفكر بفيليب الموجود حاليا في قاع أحد الخنادق في مكان ما من فرنسة.

ورتل تيدي بمنطق سنواته السبع: ...وبارك اللهم جورج الذي لن يغدو أبدا بطلا بسبب إدفينا

تحول صغير آل وينفيلد إلى جني صغير محبوب يتعلق دوما بأذيال أخته الكبرى، فهي في نظره ــ وذكرياته لا تتعدى صورة مبهمة عن كات، أمه الحقيقية. سافر جورج في ذات اليوم إلى بوسطن تلبية لدعوة أحد الأصدقاء؛ وبرزت الشمس بعد الظهر تخترق حجب الغيوم، واغتنمت إدفينا فرصة جمال الطقس فخرجت مع الأولاد إلى الحديقة، وانطلقت الفتاتان تثرثران، بينما أكب تيدي على اللعب بالكرة وهبط المساء بهدوء، وبعد عشاء خفيف، وحمام تقليدي أرسلت إدفينا الأولاد إلى أسرتهم، ولجأت بدورها إلى غرفتها، وما كادت تأوي إلى سريرها، وقبل أن يدب النعاس إلى عينيها، رن جرس المدخل في المنزل الصامت. وجلست الفتاة الشابة في سريرها مندهشة. ورن الجرس مرة أخرى. هذا الزائر المتأخر سيوقظ بذعر كل أهل البيت، ولكن من يكون؟ أحد أصدقاء جورج دون شك!.

قفزت من السرير، وارتدت بسرعة مبذلا، وهبطت الدرج، وفتحت الباب على عجل لتتجنب رنة ثالثة، وظهرت في ضوء القمر هامة انسان كبير القامة، رجل لا تعرفه، من المحتمل أن يكون قد أخطأ العنوان

ــ نعم؟.

نظر إليها بشعرها المحلول المسترسل يحيط بوجهها الناعم، وقامتها النحيلة، إنها تبدو كيافعة في مطلع الشباب، إذ أنه سألها:

هل أمك هنا؟
تلجلجت بالقول مرتبكة: أوه...إنني انا ربة المنزل، ماذا تريد؟
طاطأ ببصره على الغلاف الذي يحمله بين أصابعه، والذي لاحظته الشابة فجأة.
ـ أأنت إدفينا وينفيلد؟
ـ نعم...ما الأمر؟
لكن يدا صقيعية عصرت قلبها، وانبهرت أنفاسها، وتناولت البرقية، وهرعت إلى الصالون، وأضاءت المصباح القريب من الكنبة الكبرى حيث جلست، وفضت الغلاف سريعا فانكشف عن ورقة قربتها إلى الضوء وقلبها يخفق بشدة، رسم نور المصباح عبر كمته دائرة بيضاء على الورقة؛ وفجأة أخذت الأحرف المرسومة على الورق تتراقص بجنون أمام عينيها:
.... بمزيد من الأسف، نعلمك أن أخاك فيليب برترام وينفيلد توفي هذا اليوم ٢٨ تشرين ثاني ١٩١٧ في ميدان الشرف في كامبري يلي ذلك توقيع غير مقروء يشج أسفل الصفحة.
بقيت إدفينا للحظة طويلة جامدة في مكانها متلاشية القوى. نجا فيليب من كارثة التيتانيك لكن القدر لم يمهله إلا خمس سنوات. ورفعت يدها ببطء إلى فمها لتحبس صوت النحيب المتواصل الذي يهزها.
رددت «خمس سنوات»، بينما دفق من الدموع غشى بصرها. خمس سنوات ليغدو رجلا؛ خمس سنوات ليذهب ويقتل في الطرف الآخر من العالم على يد الجنود الألمان. صعدت الدرج بمشية مترنحة، وفي غبش العتمة التي تغلف العتبة ميزت وجها صغيرا أبيض... كانت ألكسيا.
تشنجت أصابع إدفينا على البرقية، ونظرت إليها أختها اليافعة وهي لا تجرؤ على أن تلفظ كلمة، لكن عندما رفعت إليها إدفينا بدورها بصرها أدركت مباشرة ما حدث. وتهالكت كل منهما بين ذراعي الأخرى، وبقيتا هكذا طويلا، دون حراك، متضامتين كطفلتين تائهتين.

-XXII-

صاحت إدفينا عبر بوق الهاتف: آلو... آلو...

وجب الانتظار يومين قبل أن يعود جورج من زيارة بوسطن، ويلتحق بهارفارد. كانت قد طلبت المخابرة من عاملة الهاتف، وترددت رنات طويلة عبر الصمت، قبل أن يطفو صوت على الخط عبر ألفي كيلومتر ومن خلال خشخشة رهيبة.

هتفت بملء رئتيها: السيد وينفيلد، من فضلك.

طلب منها البقاء على الخط، ومرت فترة طويلة تكاد لا تنتهي، وما من مجيب إلا الصمت. أخيرا رن صوت جورج المألوف عبر السماعة ــ آلو! آلو! من يتكلم؟

ابتلعت ريقها، وهي عاجزة عن لفظ الكلمات المشؤومة. ولكن يجب النطق بها، فمن حق جورج أن يعرف هو أيضا كالآخرين. كان الأولاد قد بكوا دون توقف ساعات طويلة، وها هم الآن يجلسون ثلاثتهم على درجات السلم يلاحظونها بأعين حزينة

ــ جورج هذا أنا، أتسمعني.

ــ نعم، ماذا حدث؟

فتحت فمها، ولكن ما من كلمة استطاعت أن تعبر الشفتين الشاحبتين، وانبثقت الدموع، ترتسم أخاديد لامعة على الوجنتين.

نجحت أخيرا في أن تقول بتلعثم: بخصوص فيليب...

لكن قبل أن تنتهي عبارتها أدرك كل شيء.

صرخ وقد أحس بالدم يكاد يتجمد في عروقه: ياإلهي، هل أصابه...

ــ تلقينا برقية منذ يومين. قتل في فرنسة...

ووجدت من واجبها أن تضيف: قتل في ميدان الشرف في فرنسة لكنها أحست بالقلق فجأة من هذا التفصيل: إنه...

وتوقفت مرة أخرى عن الكلام مرهقة

أعلن جورج بصوت تخنقه العبرات: سأعود إلى المنزل.
إنهما يبكيان كلاهما الآن عبر الهاتف. ووقفت ألكسيا عندئذ، وصعدت الدرجات الأخيرة، واختفت في الطابق. وتصورت إدفينا تماما إلى أين تذهب، فالفتاة تحبس نفسها في الجناح الذي يضم غرفة نوم والديها منذ مدة طويلة.
تابعت إدفينا وعيناها مثبتتان على العتبة الفارغة: «اسمع يا جورج، لا حاجة لمجيئك»
لم يبد عليه الإقتناع.
ردد دون أن يخفي نحيبه: «سأكون في البيت خلال أربعة أيام»
ملأ موت فيليب نفسه بإحساس ثورة عاصفة. وعاد إلى ذاكرته لقاؤهما الأخير، وعض بقسوة على شفتيه، وهو يتصور تشجيعه له بل وغيرته منه... كانت إدفينا على حق، ما كان يجب أن تدعه يذهب، كان يجب أن تفرض عليه البقاء.
كررت إدفينا عبر الهاتف وهي تخشى ان يسبب غياب جورج المتكرر ضررا له في هارفارد: ـ كلا يا جورج، ليس من الضروري أن تحضر.
وظنت لفترة أن المخابرة قد قطعت، ثم جاءها صوت أخيها مجددا عبر المسافات وكأنه يخترق نفقا طويلا.
ـ .... ما وضع الصغار؟
ـ جيد قدر المستطاع.
كان تيدي وفاني لا يتركانها قيد أنملة، فما أن تبتعد بضع خطوات حتى ينفجرا بالنحيب، بدا ظاهرا أنهما يخافان أن تموت هي أيضا.
وبدت على ألكسيا كل علائم الوهن.
وزالت الخشخشة، وسمع صوت جورج واضحا وكأنه يتحدث من الغرفة المجاورة: «وأنت؟»

هزت رأسها محاولة التركيز على جوابها، ولكن رغما عنها تحولت أفكارها مرة أخرى إلى فيليب الذي قضى في العزلة والبرد.

ردت: لا بأس.

ـ إذا إلى اللقاء خلال أربعة أيام.

حاولت أن تتكلم لردعه عن القيام بهذه الرحلة الجديدة لكنه كان قد أغلق الخط، فوضعت بدورها سماعتها على الجهاز، وتوجهت بنظرها إلى تيدي وفاني الجالسين على درجة وسط السلم وقالت لهما: سيأتي جورج.

انقضى النهار ببطء، وقدمت إدفينا العشاء للأولاد أبكر من المعتاد، وذهبت بهم إلى غرفتها الخاصة، وقبل أن يدب النعاس إلى أعينهم، راحوا يتحدثون معا عن فيليب، ولطفه، وقلبه الطيب، وأناقته الطبيعية، وعن ذكائه أيضا. واستذكروا مشاهد من الصيف الماضي في تاهو مع بكي هانكوك... أخيرا غلب على الصغار التعب فأغفوا، وأخذت إدفينا مكانا على الكنبة الواسعة المحشوة المواجهة للسرير، ومضت في خيالها، وهي تتأمل الرؤوس الثلاثة المتجاورة بشعورها الجعدة على الوسادة، ذكرى مبهمة رأت خلالها لثانية نفسها في زورق الإنقاذ المنزلق فوق بحر بسواد الحبر.

كانوا يجتازون ليل الصقيع على أمل أن يجمعهم النهار في اليوم التالي بذويهم. أما هذا المساء فقد خابت جميع الآمال.

وصل جورج بعد أربعة أيام كما أعلن، وانقطع الصمت المخيم على المنزل الكبير بصدى وقع خطواته النشطة على درجات السلم، وبصوته الدافئ عبر الغرف، ووضع حقائبه، وخرج في الحال إلى الحديقة بحثا عن إدفينا. كانت بين شجيرات الورد، فضمها إلى صدره، والدمع يغشي أعينهما.

قالت في ساعة متأخرة من الأمسية وبعد أن نام الأولاد:

ـ في النهاية، أنا مسرورة لمجيئك... فالمنزل كئيب جدا دون فيليب، ما من شيء أكثر رهبة من القول لأنفسنا: «لن يدخل بعد الآن

إلى هذه الغرفة، أو لن يصعد أبدا على هذا السلم.هز جورج رأسه، فهو يعاني تماما من الإحساس ذاته، وقد ذهب بعد الظهر فحبس نفسه في غرفة أخيه وبكاه طويلا. كان يتوقع عندما دلف إلى داخل المنزل، عن وعي أو دونه أن يجد فيه فيليب.

قال: نعم، هذا غريب، لا يمكنني أن أتصور أنه لن يعود أبدا، لدي دائما الانطباع بأنه في فرنسة، وأنه في يوم سيعود إلى البلاد، وسينفتح الباب ويظهر فيليب على العتبة.

ارتسمت على شفتي إدفينا ابتسامة شاحبة

ـ نعم، أعلم، خالجني الانطباع نفسه بالنسبة لأمي، وأبي، وشارل، ونوع من اعتقاد لا منطقي بأنهم سيعودون يوما... ولكنهم لم يعودوا.

قال مفكرا: نعم كنت في تلك الفترة حدثا لا أستطيع تحليل عواطفي. كم تألمت يا إدفينا!

ـ لقد تألمنا كلنا.

ـ ليس بقدرك ـ أحس بهذا فجأة ـ فإضافة إلى والدينا، خسرت شارل، كم هو مريع خسارة شاب لم يتسن له الوقت لبدء حياته.

توقف لحظة، ثم نظر إليها، كان هناك بن بالطبع، لكن جورج يعرف أنها رفضته، ومن ثم تفننت في تثبيط عزيمة الخاطبين الأكثر جسارة.

ـ إدفينا، لم تحبي احدا آخر، أليس كذلك؟

ـ كلا، أغلقت فصل الحب منذ زمن طويل. فالحياة ليست بهذا القدر من الطول بحيث تحتوي حبين بقوة متساوية. هذا لا يحدث إلا مرة واحدة، على ما أفترض. وقد انقضت هذه المرة بالنسبة لي.

خبا صوتها، ومال جورج إليها

ـ ليس هذا عدلا، يا ويني... إنك تستحقين بيتا سعيدا، وعائلة. ألا تريدين أن يكون لك أولاد؟

صدرت عنها ضحكة ساخرة.

ـ ايضا كلا شكرا! إن لدي خمسة يا عزيزي، هل نسيت؟

أجاب بصوت رزين: الأمر مختلف

ــ أي فرق بين إنجاب ولد وتربيته؟ إنه يحب بالطريقة ذاتها.

ولما راح يتأملها بامعان أضافت:

ــ وعدت أمي أن أهتم بكم يا جورج، وحافظت على وعدي... ولا أريد شيئا آخر.

وبدا عليها الرضى وعدم التأسف على شيء.

ــ ومتى ستعود إلى الجامعة؟

ــ فعلا بهذا الخصوص... أرغب في أن أتحدث معك، ولكن الرحمة! ليس هذا المساء.

انتصبت إدفينا مذعورة

ــ بأي خصوص؟ هل توجد مشكلة بالنسبة لدروسك يا جورج؟

ما الفائدة من أن يتكتم طويلا؟ أصلح الشاب جلسته على كنبته وبدا بهيئة المطمئن البال وهو يصرح لها:

ــ كلا، لا توجد أية مشكلة، يا ويني، ولكنني قررت ألا أعود إليها.

تأملته لدقيقة طويلة، وكأنها تحاول أن تعي جيدا معنى هذه الكلمات.

وكان رد فعلها تماما كما توقع جورج

ــ كيف؟ ألن تنهي دراستك الجامعية؟

منذ ثلاثة أجيال وآل وينفيلد من حملة شهادات هارفارد. فالجد وينفيلد ثم برت، ثم فيليب. وبالتأكيد سيتبع تيدي ذات الطريق، وفيما بعد فإن أولاد تيدي وأولاد جورج سيسيرون على هذا التقليد العائلي. هذا هو النظام المتبع، وهو نظام ثابت، لم تفكر إدفينا في وضعه موضع شك وقد قالت هذا لجورج، ولكن يبدو أنه لم يتأثر به.

ــ انني آسف يا ويني.

كان قرار الإلتحاق بالجامعة قد فرض عليه عندما ذهب فيليب إلى الحرب. أما الآن فما من حجة يمكنها ان تحوله عن رأيه.

ـ ولكن لماذا؟

ـ إن مكاني هنا. والحق يقال، لم أتعود أبدا على هارفارد، لـهوت هناك وتعرفت على عدد من الأشخاص المثيرين للاهتمام. لكن عـالم الكتب ليس عالمي. أرغب بشيء أكـثر إثـارة... وأكـثر حيويـة. والمؤلفات العلمية التي تحلل هذه الاسطورة اليونانية، أو تحـل هـذه المعادلة الرياضية، تسبب لي الملل العميق. إنني مختلف عن فيليـب. وأنا أحتاج إلى الواقع المحسوس، وأعتقد انني سأباشر العمل.

خفضت إدفينا بصرها لتخفي خيبة أملها، وغضبها. بقي جورج ذلـك الفتى اللامبالي الذي عرفته دائما. لم تنضجه الأحداث. ولم يكلف نفسـه بالتفكير... جربت أن تثنيه عن عزمه في الأيام التالية لكن كل مناقشـة بدت بدون جدوى، جرب بن جونز نصحه، لكن عبثا. وبقي جورج على موقفه، وبعد خمسة عشر يوما بدأ تدريبه في صحيفة والده.

في الصباح كان يذهب دوما متأخرا، فهو عمل غير راغب فيـه. أما في المساء فيعود متأخرا. كان مظهره المنهمك يدفع إدفينـا إلـى الابتسام أحيانا، فأخوها ما يزال في نظرها فتى غـرا، وهـو يثـير العطف في صراعه وتحمله لمسؤوليات تتطلب من هو أكثر رشدا.

لكن عبثه ومغازلاته أكسبته الشهرة بسرعة، وتـاقت كـل سـان فرنسيسكو لمعرفته وتدفقت الدعوات عليه من جميع الجهات، وسـعت العائلات الأكثر رفعة مثل آل يونغ. وآل كروكل، وآل سبريكل بكـل الوسائل لدعوته إلى موائدها. وكانت إدفينا ترافقه أحيانا. بالرغم مـن أنها تفضل في معظم الوقت أن تقضي السهرة بهدوء فـي منزلـها. وشيئا فشيئا تغلب ميل جورج إلى الظهور في المجتمع على الاهتمـام الذي يبديه للصحيفة. وبالطبع فقد بدأ يتغيب عن اجتماعـات مجلـس الإدارة. وتجدد هوسه بالسينما، فكان يهجر المكتب الإداري الصحفـي ليتردد على القاعات المعتمة. بعد ذلك ببضعة أشـهر، وفـي شـهر

حزيران بالضبط، انتحت به إدفينا جانبا وقالت: «حبا بالسماء يا جورج، كن رصينا! فهذه الصحيفة في النهاية ستؤول إليك يوما ما.

واعتذر ببرودة، وفي الشهر التالي ازداد الوضع سوءا، واضطرت إلى تهديده بانقاص راتبه.

ــ أستميحك عذرا يا إدفينا، لكن لم أعد أستطيع الاستمرار، فهذا فوق طاقتي، وفي كل مرة يتوجه إلي الموظفون باسم «سيد وينفيلد» يخيل لي أنهم ينادون والدي. أوه! ومن ثم تبا فأنا لا أفهم شيئا من هذه المهنة الكريهة.

ــ ما عليك إلا أن تستعلم، عجبا! ما من أحد حصل على المعرفة بالوحي كما تعلم. تخليت عن دروسك لتعمل، إذا قم بعملك كما يجب.

كانا يقفان متواجهين وسط الصالون الكبير والمساء يرسم ظلالا طويلة.

انفجر فجأة وقد فقد السيطرة على أعصابه: لماذا لا تديرين هذه الصحيفة الملعونة بنفسك، إنك تحبين هذا، الإدارة! تديرين البيت، والأولاد، وكل شيء، وبعد لن تتمكني من تطبيعي، يا عزيزتي! لن تسيطري علي كما سيطرت على فيليب.

تأملته للحظة، ونفسها تغلي غيظا، ثم رفعت يدها ووجهت إلى وجه جورج صفعة، وتراجع الشاب خطوة منذهلا، وقد تركت الصفعة أثر احمرار على وجنته، لكن لم يبد عليه الانفعال واستدرك

ــ اوه! إدفينا، اعذريني. لم... لم أرد أن أقول هذا.

لكنك قلته! عبرت صراحة عن فكرتك يا جورج، هذه هي الصورة التي كونتها إذا عني ــ ووجهت إليه نظرة تبرق شررا جعلته يخفض بصره ــ صارعت طوال هذه السنوات من أجل حياة هذه العائلة. وكانت هي هدفي الوحيد في الواقع. ربما كان يجب علي أن أترككم، كلا منكم وحظه... أو أن أعهد بكم إلى الخالة ليز وزوجها ربر. فحقدك لم يكن يزيد عما أبديته الآن.

وتوقفت لبرهة، مبهورة الأنفاس، وقد غشيت الدموع عينيها، وحاولت أن تحتفظ بمظهر من الهدوء، لكن آهة منتحبة هزتها، وتفجر غضبها المكبوت من جديد.

ـ بقيت إلى جانبكم لأن أمي طلبت مني ذلك، ولأنني أحبكم... لم يكن لكم أحد في العالم غيري. فأبي قد توفي... أما أمي...

وتوقفت مرة أخرى وتساءلت لماذا لم ترد كات أن تأخذ مكانها في أحد قوارب الإنقاذ وكان في وسعها ذلك، في الوقت المناسب. كانت تطرح على نفسها هذا السؤال منذ خمس سنوات دون أن تجد له جوابا.

وتابعت: ... اختارت أمي أن تموت مع أبي.

ويبدو أنها أسفت لأنها استرسلت في كلامها إلى هذا الحد لكن لم يعد باستطاعتها التوقف

ـ عندئذ يا جورج، من بقي غيري؟ أنت بالطبع، ولكنك كنت في الثانية عشرة من العمر، فيليب كان في السادسة عشرة.

وأدارت له ظهرها، لكنه تبعها إلى الغرفة المجاورة التي كانت في السابق مكتبا لوالدهما.

ـ إدفينا، اعذريني، لم يكن في نيتي أن أجرح شعورك.لقد تهورت لأني أشعر، في اعماقي بخطأ كبير... إدفينا افهميني ارجوك، لن أنجح ابدا في هذه الصحيفة الكريهة. ليس لي شخصية أبي، ولا شخصية فيليب. وليس لي شجاعتك... يجب القبول بي كما أنا.

لست مؤهلا لأكون مدير صحيفة ياويني، لا أستطيع هذا، لست صالحا لهذه المهنة، ولست مخطئا إن حاولت، وأنا آسف، صدقيني.

التفتت ببطء لتتأمله وكان يبدو بالفعل مرهقا وعلى وشك أن تتفجر عيناه بالدموع

سألته وقد سكن غيظها كأم لا تستطيع أن تستمر في القسوة طويلا على ولدها:

ـ هل تعلم على الأقل أية مهنة تريد أن تمارس؟

ـ أنت تعرفينها بقدر معرفتي، يا ويني. أريد أن أجرب حظي في هوليوود، وفي إنتاج الأفلام، إنه حلم قديم مازلت أمني النفس به.

انتاج أفلام! وهو في التاسعة عشرة من العمر... فكرة غير معقولة، وهم.

وكيف ستبدأ هذا العمل؟

وأبرقت عينا جورج.

ـ إن لي بعض صلات ـ لكنه صحح تحت نظرتها المستقصية ـ صلة واحدة بالأصح. فعم أحد أصدقائي صاحب اليد الطولى في أكبر الاستديوهات هناك.

ليست هذه إلا أوهاما يا جورج، آمل أن تعي ذلك.

ـ لكن لماذا؟ وما يدريك؟ كيف يمكنك أن تتنبئي بألا أغدو أكبر منتج للسينما في الولايات المتحدة؟ بل وحتى في العالم كله؟

دفعتها حماسته إلى الابتسام. إن نصف ذاتها يميل إلى الاقتناع بما يقول، بينما نصفها الآخر، الأكثر تعقلا، فيحضها على الاحتراس

تشجع جورج بضحكتها فأعاد الكرة مجددا

ـ إدفينا يا أختي الحبيبة اللطيفة، دعيني أحاول على الأقل.

ـ وإن رفضت؟

غاضت الابتسامة سريعا عن محياه، وخبا بريق عينيه، وعبرت قسماته عن خيبة أمل كبرى، وتمتم بتنهيدة: «عندئذ سأبقى، وسأستسلم للواقع الراهن... لكن إن سمحت لي بالذهاب، فإنني أعدك بأن آتي لقضاء جميع العطل الأسبوعية في المنزل.

وبدرت منها ضحكة جديدة... إنه فعلا لا يقاوم.

ـ حقا؟ وأين سنسكن المعجبات بك؟

ـ سيخيمن في الحديقة. وبعد؟ هل ستدعينني أسعى إلى الغنى والشهرة؟

أجابت: هذا ممكن... لكنها استدركت مقطبة الجبين: والصحيفة؟
قال بصراحة بعد صمت: لاأعلم، لن أتمكن أبدا من إدارتها بشكل ملائم.
انتفخ صدرها بتنهدة فالوضع الاقتصادي **لتلغراف صن** يسبب لـها الصداع، ومرة أخرى يطرح الموضوع، بمثل حدة اليوم الآول، فدون رجل من العائلة على رأس الصحيفة لا يمكن لـها أن تصمد أمام العائلات الكبرى المسيطرة على الصحافة.
أشار جورج بحذر: ربما كان من الأفضل بيعها.ففيليب كان الوحيد بيننا المؤهل لإدارتها.
لكن فيليب قدمات منذ سبعة أشهر، وتيدي مايزال في الثامنة من العمر.
أضاف بمظهر مرتبك: إنني آسف يا إدفينا، فأنا لست فيليب.
وابتسمت قائلة: أعرف ذلك، وأنا أحبك كما أنت.
ـ هل يعني هذا... ولم يجرؤ على صياغة تتمة سـؤاله، ولكن عندما أحاطت عنقه بذراعيها أشرق وجهه
ـ نعم ايها الماكر الصغير! لقد فهمت جيدا. ليس لـي الحق أن أمنعك من أن تتمم ما قدر لك. وفكرت «لا نعرف أبـدا ما يخبئ الغيب!؟ لم لا ينجح في السينما؟
وبينما كان يتهلل، سألته: «وبالمناسبة من هو عم صديقك؟ آمل أن يكون رجلا محترما.
ـ إنه أفضل الجميع
وذكر اسما لم تسمع به إدفينا من قبل. وهزت رأسها وهي نصف مطمئنة.

-XXIII-

أخذ الزمن يجري بسرعة لا تصدق، وفي نهاية شهر تموز، وبعد قضاء عطلتهم السنوية في تاهو، انطلق جورج إلى هوليوود.

كانت إقامتهم قرب البحيرة الكبرى، في ذات الملكية التي يضعها أصدقاء برت منذ سنوات تحت تصرفهم، فترة استراحة، استغلتها إدفينا للإسترخاء.

كانت تسبح بانتظام في وقت مبكر صباحا كي لا تغير أشعة الشمس من بريق بياض بشرتها، وتلعب بكرة المضرب مع أختيها وجورج، وتسترخي على كرسي طويل تحت مظلة كبيرة. وقادتها النزهات الطويلة عبر الغابة إلى أن تتخذ قرارا في موضوع الصحيفة. إنه الوحيد الذي يفرض نفسه، والذي وجب عليها، بالأحرى، ان تتخذه منذ مدة طويلة، وهو البيع... البيع بأسرع ما يمكن كي تتجنب الإفلاس.

هنا، في هذه الجنة الخضراء بدا غياب فيليب أكثر قسوة أيضا، فكل شيء مدعاة للتذكير به، مباريات كرة المضرب، والنزهات، والقريدس التي يصطادها جورج بشبيكة، وكان فيليب شغوفا بها.

كلفت إدفينا عند عودتها إلى سان فرنسيسكو بن جونز لاقتراح عرض شراء الصحيفة على آل يونغ. وكان جورج قد استقل القطار السريع إلى لوس آنجلس، لكن أصدقاءه استمروا في الاتصال به هاتفيا في المنزل خلال الساعات غير المناسبة. شاهدت إدفينا القطار يبتعد في خشية مبهمة.

فهوليوود تشكل في نظرها نوعا من غاب معقد في تصنعه لن يلبث جورج وينفيلد، وهو في فورة الشباب أن يضل فيه. فعاصمة السينما الأمريكية يسكنها، وفقا للشائعات، فاتنات في معاطف الشنشيلا، همهن الإغواء، وأصحاب ملايين يسعون إلى المغامرة وهم

يجوبون الشوارع والجادات في سيارات الليموزين الجديدة الفخمة. ومن المؤكد أن بالإمكان الوصول في هذا الوسط إلى نجاح باهر بين ليلة وضحاها ـ هذا مالا تشك فبه إدفينا ـ ولكن بالإمكان أيضا التعرض إلى فشل مدمر.

سألت إدفينا بن جونز خلال أحد الاجتماعات: «هل أنا على حق في بيع الصحيفة حالا؟

أليس من الأفضل الانتظار قليلا؟ فقد لا يوفق جورج في هوليوود، وقد يغير رأيه...

أجاب بن بصراحة: «فات الوقت يا إدفينا» ـ إنه لا يخفي عنها شيئا، وهي تثق به وتقدره ـ إن الخسائر قد تجاوزت الأرباح، فبيعي الآن إن كنت تريدين تجنب الإفلاس.

منحته موافقتها. لكن آل يونغ رفضوا عرض الشراء بكياسة. إنما تقدمت بعد شهر مجموعة ناشرين تكونت في سكرامنتو بعرض مضاد، وبعد دراسة الملف حث بن إدفينا على الموافقة.

ـ ليس المبلغ خارقا، لكنه يتيح لكم العيش بيسر لنحو عشرين سنة، ولتأمين تربية وتثقيف أختيك وتيدي.

قالت بهدوء: وبعد ذلك؟ بعد عشرين سنة ستكون في السابعة والأربعين من العمر، دون زوج وبالتالي دون دخل ـ إلا إذا أمدها جورج والآخرون بوسائل تأمين احتياجاتها.

أجاب بن: بين شرين يجب اختيار أهونهما. والاحتفاظ بالصحيفة هو أسوأ الحلول. فبيعي يا إدفينا قبل فوات الأوان، وسأنصحك كيف توظفين قسما من رأسمالك. يجب توقيع عقد البيع، فليس أمامك إلا هذا الاختيار

الاختيار، كان متوافرا لها قبل عدة سنوات، لكنها أبعدته برفضها طلب بن الزواج منها، ثم باغلاق الباب أمام كل ساع للزواج منها. وأحست فجأة بعقدة الذنب. لكنها قالت في نفسها: «ما الفائدة من

مراجعة الماضي؟» ما من مجال لاستدراك ما فات. لقد تجاوزت سن الزواج. والفتاة لا تتزوج في سن السابعة والعشرين. أوه! إنها لا تعلق كبير اهمية على هذا! وهي غير آسفة على شيء. غير أنها في يوم سفر جورج، وفي اللحظة التي تهيأت فيها للذهاب لوداعه، نظرت إلى وجهها النضر في المرآة، وخالجها شعور بأنها تعيش على هامش الحياة، لكن هذا الإحساس لم يدم إلا للحظة قصيرة، عجلت بعدها إدفينا لمسحه من خاطرها.

كان جورج يكتب لها مرتين في الأسبوع، ملتزما بوعد قطعه على نفسه، وكانت رسائله، وكل منها أكثر طرافة من الأخرى، تثير ضحك أختيها وتيدي حتى تسيل دموعهم، فإدفينا تقرؤها لهم بصوت عال وهم يقهقهون. وهو بموهبة قص فطرية يرسم في كتاباته شخصيات غريبة: نجمات مبتدئات محاطات بالبريق والإغراء، وممثلات متدثرات بالفراء الفخم يلاحقهن حشد من أصحاب الملايين. «حضرت لأول مرة البارحة، تصوير فيلم، إنه أمرأسطوري... كاد أحد المعجبين بالبطلة الشابة يدوس بقدمه الأفعى المدجنة التي تجرجرها النجمة معها في كل مكان كأنها كلب صغير، وحدث شبه هياج عام، وطرد الرجل المسكين من الاستديو»

وفي رسالة أخرى: «التقيت أخيرا بعم صديقي وقد وضع بين يدي في الحال آلة تصوير من أجل تعلم المهنة بدءا من أسفل السلم، وفقا لقوله، وسأبدأ في العمل خلال اسبوعين.»

وفي رسالة ثالثة: أنشأت علاقات لابأس بها... إنني ألهو كثيرا، رغم أنني أعمل دون انقطاع...»

صرحت فاني ذات يوم بقناعة مطلقة «سيغدو جورج نجما كبيرا»

إنها في العاشرة من عمرها الآن، وتكن إعجابا لا حدود له، لأخيها الكبير.

وهوليوود الملقبة من قبل المجلات «مصنع الأحلام» تسحرها. كما أن ألكسيا تبدو أيضا مفتتنة بالصناعة السينمائية، وهي قمة في الجمال، ولما تبلغ الثانية عشرة من عمرها، نحيفة، رشيقة كنبتة معرشه، بعينين براقتين وشعر مفرط في الشقرة يلفت جميع الأنظار، وهي بخجلها تبدو متحفظة، يصعب التعرف عليها، وتلزم بين الناس صمتا شبه مطلق ما فتئ يقلق إدفينا كدلالة على حساسية مرضية لم تبرأ منها أختها منذ وفاة والديها. وزادها موت فيليب سوءا، وهي الآن تخص أخاها جورج بكل المحبة التي كانت توليها لأمها، ومن ثم لفيليب، إنها متعلقة به بشكل مفرط، وعند وجوده في البيت كانت تتبعه إلى كل مكان كظله. وعند خروجه مساء، كان يجدها لدى عودته متأخرا على درجات السلم بانتظاره

كانت لاتفتأ تسأل منذ أن سافر أخوها: «إدفينا، متى سنذهب لرؤية جورج في هوليوود؟»

وكانت إدفينا تجيب باستمرار:«ليس قبل مبيع الصحيفة»

قبلت عرض مجموعة سكرامنتو حوالي عيد الشكر، وقد أمن لها عقد البيع، كما توقع بن، مبلغا مهما يكفيها للعيش بشكل محترم خلال عشرين سنة... بشرط عدم التبذير وتقليص بعض النفقات

حذرها المحامي من المشتريات غير المتبصرة، ومن تجديد الأثواب مع تغيرات الموضة ومن تجديد السيارة بصورة خاصة. وردت

ــ أوه يابن يمكنني أن استغني عن جميع هذه الترهات. المهم هو أن أنجح في تربية الأولاد وتثقيفهم

قامت الفتاة الشابة لآخر مرة بزيارة مكتب والدها في الصحيفة عند توقيع عقد البيع. سيشغل مدير جديد الآن كرسي الإدارة، إنما في ذهن جميع الموظفين مايزال هذا المكتب يحمل اسم برت وينفيلد.

أفرغت بعناية جميع الأدراج والخزائن، ورزمت جميع الأوراق والملفات الشخصية، ولم تبق إلا صورة كبيرة في إطار معلق على الحائط،

وهي تمثل إدفينا بعمر ثلاث سنوات إلى جانب أمـــها، وقــد أنزلتـــها ولفتها في ورقة حريرية ووضعتها في أسفل حقيبتـــها ثــم ســطرت توقيعها في أسفل الأوراق التي قدمها لها بن قائلة مع تنهدة

«حسن، ها نحن!» وبدا عليها أنها تقول «ها قد انتهى كل شيء!»

رد بن مع ابتسامة حزينة «أحسنت التصرف»

تولد لديه انطباع بأنه يشهد نهاية مأساة، كم كان يسعده لو أمكن أن يرى فيليب مكان والده لكن القدر شاء غير ماتمناه.

سأل وهو يرافق إدفينا إلى باب الخروج: «ما هي أحوال جورج؟»

ـ كسمكة في الماء! أعتقد أنه وجد أخيرا طريقه، أو على الأقل أنا آمل ذلك.

ـ نعم الخبر، إنني مسرور له.

هو يعتقد أن جورج لو استمرعلى رأس الصحيفة لسبب دمارها.

استمرا للحظة واقفين على مدخل البناء. وأخيرا قال

ـ يمكنك دائما الاعتماد علي يا إدفينا.

وشكرته وهو يفتح لها باب سيارة الباكـــار. وبقـــي واقفـــا علـــى الرصيف إلى أن اختفت السيارة الكبيرة عند منعطف الشارع

اتخذت إدفينا طريقها باتجاه البيت وهي فريسة انفعال لا يوصـــف. فموت فيليب، وبيع الصحيفة أغلقا فصلا هاما في حياتها.

-XXIV-

جاء جورج ليقضي عيد الشكر مع العائلة، لم تره إدفينا يوما بمثل هذا التألق، ومرحه يدفع إلى بهجة كل من يراه. فالفتى اللامبالي قد تحول إلى شاب مبتكر تحركه طاقة جديدة؛ وما أن وضع قدمه في البيت حتى انطلق في سرد متحمس لمغامراته.

لقد التقى بمجموعة من الأشخاص «الرائعين» وفقا لتعبيره، خلال حفلات رقص خاصة «جنونية ».

وخلال الجلوس إلى المائدة كان يثير ضحك الأولاد بمجموعة من الفكاهات المسلية. وفي رأيه أن بالإمكان إقامة صلات هامة في هوليوود مع أشخاص كالأخوين وارنر، أو نورما وكونستانس تالمادج، وذلك بتلبية دعوة استقبال بكل بساطة. وقد قدم إلى شارلي شابلن شخصيا؛ وتبادل بعض الأحاديث مع توم ميكس في إحدى السهرات. ووفقا لأحاديثه، فإن هوليوود تتمثل كجنة تسود فيها الحرية، والإقبال على الحياة، وحب الفن. وهذا بالضبط ما يلزم له.

إن عم صديقه يسمى سام هورويتز؛ وهو رجل خارق يتضاعف بشخصية الإنسان العملي الذي لا مثيل له في تحقيق المشاريع، وهو يعرف جميع الناس بدءا من الكناس حتى أصحاب المقام الأول مرورا بكبار منتجي المدينة. وقد أسس سام الأستوديو الخاص به منذ أربع سنوات.. وفي يوم ما سيصل إلى القمة.

إنه شخص ممتلئ بالمزايا، ذكي، صاحب موهبة، جذاب، وهو معبود على مسارح إعداد الأفلام.

واستمر يتغنى بمدح سام هورويتز لفترة طويلة من الوقت وتابع بملاحظة أثارت بصورة خاصة انتباه إدفينا.

ـ وابنته فاتنة، وهي وحيدة، وقد فقدت أمها في حادثة قطار مأساوية، ونشأت في كنف والدها الذي يعبدها.

وبدا أن الشاب يعرف الكثير عن شؤون هذه العائلة، لكن إدفينا كبحت فضولها ولم تطرح عليه أي سؤال متطفل.

سألته ألكسيا بصوت مشوب بالإعجاب: هل يمكننا الذهاب لزيارتك هناك؟

إن أخاها يتمثل في نظرها شخصية كبيرة، إنه عبقري لا مثيل له، اكثر أهمية من كل نجوم السينما مجتمعين. بالطبع، هو في الوقت الحاضر يقوم بعمل مساعد مصور، وهو مركز متواضع، لكنه سيحلق سريعا جدا بجناحيه الخاصين. فجورج يحلم بأن يدير أحد هذه الاستديوهات التي تصنع الأحلام؛ وسيحقق حلمه، وألكسيا مقتنعة بقدرة أخيها. قال جورج دون أن يجيب على سؤال أخته:

ـ وعدني سام بوظيفة مساعد منتج في العام القادم؛ وهو يريد أن أثبت قدرتي على منصة التنفيذ.

قالت إدفينا: آمل أن تكون هناك أكثر مواظبة على العمل منك في الصحيفة.

وابتسم: بل واكثر أيضا مني في هارفارد. وأضاف:

ـ إن السينما رسالة، هي هوى مضن لا يحتمل أي كسل، يجب الانصراف إليه بكل قوانا أو تركه، فلا حلول وسطا فيه؛ وجورج يهنئ نفسه لأنه وجد أخيرا الهدف الذي يسعى إليه، وهو يأسف لأن فيليب غير موجود ليقاسمه فرحه.

كانت الحرب قد انتهت منذ عدة أسابيع. وهذا ما ذكر إدفينا بشكل أكثر قسوة باختفاء فيليب الظالم؛ فقد ضحى بحياته من أجل سبب عبثي ما تزال لا تفهمه. ومحاربو الأمس يتبادلون الآن المصافحة، ويقومون بتوقيع معاهدات السلام، ويقدرون خسائرهم؛ وهي عشرة

ملايين قتيل في صفوف الحلفاء فقط، وعشرون مليون مشوه حرب. إنها ضريبة فادحة جدا دفعتها الإنسانية باسم المصلحة العامة.

لم تصلها أية أخبار من الخالة ليز منذ نحو سنة. أرسلت فقط كلمة تعزية إلى إدفينا بعد وفاة فيليب؛ ثم انقطعت أخبارها.

لامت نفسها: «يجب أن أكتب للخالة ليز». ووجهت إليها رسالة بعد عيد الشكر، وبعد عودة جورج إلى لوس أنجلس. ولم يردها جواب. وعاد جورج بعد شهرين لقضاء عيد الميلاد مع أفراد العائلة. وخلال إقامته القصيرة، متعهم بقصص جديدة عن عالم السينما. وبدا عليه انه مستمر في افتتانه به، لكن إدفينا لاحظت أن اسم هيلين هورويتز يتكرر أكثر فأكثر على شفتيه. يبدو انه مغرم بشغف بابنة رب عمله ــ استخلصت ــ لكنها مرة أخرى، كتمت فضولها.

أثارت ألكسيا زيارتهم المفترضة له في هوليوود، وكما في المرة الأولى تجاهل جورج السؤال. وتساءلت إدفينا بدورها إن كان يرحب بمثل هذه الزيارة. ربما هو بحاجة إلى الاستقلال. ولكن يجب أن يحس أيضا بالحاجة لإثبات قدرته على الاهتمام بمستقبله. على كل، مايزال في العشرين من العمر....» وهو بالأحرى مايزال فتى، لم يصل تماما إلى طور الرجولة قالت في نفسها وهي تراه يلعب مع تيدي وأختيه. إنه جسميا يشبه جميع النفاجين ممن هم في عمره، لكنه يحتفظ بقلب طفل.

حمل معه هدايا فاخرة! للبنات: دمى، وفساتين، وأحذية ــ ودراجة، وعكازي بهلوان لتيدي؛ وسترة رائعة من فرو الثعلب الفضي لإدفينا، تذكر بالفراء الذي كانت تتزين به أمها؛ وألح عليها أن ترتديها في موعد الإفطار يوم ٢٥ كانون أول. كان جورج، بحضوره الحار، ودعاباته المستفيضة ينشر البهجة والسرور بشكل مستمر في المنزل الكبير، وهو نديم مستحب يحول الموائد إلى مجالس ضحك. وفي ليلة عيد الميلاد ذهب يحيي الجيران من فوق أسيجة الحديقة وهو يجثم على عكازي البهلوان اللذين أحضرهما لتيدي. وعندما سافر عاد البيت صامتا من جديد.

وصلت رسالة من إنكلترة بعد بضعة أيام من رحيل جورج؛ وفضت إدفينا الغلاف، لكن الورقة التي سحبتها من داخله لم تكن تتضمن الخط الدقيق المتراص للخالة ليز إنما خطا أكبر حرفا لكاتب العدل.

أعلمها رجل القانون في رسالته بوفاة الليدي هيكام التي جرت نحو نهاية شهر تشرين أول. لكن بطء المعاملات الإدارية، المتفاقم نتيجة الحرب، منعته من الاتصال بها في وقت مبكر، وذكر أن السيد ربر كان قد أوصى بلقب نبالته وأراضيه إلى ابن أخيه الوحيد ووريثه من فرع هيكام، غير أنه وفقا للقانون ولضميره قد ترك لأرملته مبلغا محترما من المال مخصصا ليقيها من الحاجة... ومالت إدفينا على الرسالة... «وهو مبلغ أورثتكم إياه خالتك بموجب وصيتها...»

توقفت الفتاة الشابة عن القراءة، وبقيت لحظة طويلة مسمرة، وعيناها مستقرتان على الرقم المذكور في ورقة مراسلها، رقم هام أكبر بكثير من المبلغ الناتج عن بيع الصحيفة. هو ثروة صغيرة لن تمكنها بالتأكيد من أن تتنقل في رولز رايس أو في الإسراف بنفقات هوجاء، لكنه يؤمن لها استقلالا ماليا حتى نهاية حياتها. أطبقت جفونها، وقد غمرتها عاطفة امتنان لا توصف. هذه الرسالة تمثل جوابا لصلواتها وتهدئة لجميع مخاوفها. لقد أنقذتها الخالة ليز، ووجهت شكرا صامتا لهذه المرأة التي لم تكن في الواقع تحتل مكانا أثيرا في قلبها.

تمتمت وهي تتهالك على كرسي وتطوي ببطء الرسالة: «أوه ! يا إلهي».

صفق باب المدخل، وكانت ألكسيا كعادتها كل يوم سبت، وهو يوم عطلة مدرسية، تهتم بالعناية بالحديقة ــ وهي ذات يد تمرع بالخصب كيد أمها ــ وعندما رأت أختها البكر تجلس في قاعة الطعام الكبرى، وراحتاها منطبقتان على سطح المائدة الصقيل تجمدت في مكانها وسألتها بصوت قلق:

ما هذه الرسالة؟ أتتضمن أخبارا سيئة؟

كانت ألكسيا تسيء الظن بالرسائل والبرقيات كالطاعون.

ـ نعم ولا.. الخالة ليز قد غادرتنا إلى الدنيا الآخرة؛ لكنها تركت لنا هدية سخية جدا يا ألكسيا . هدية ستستقبلينها بافتتان في يوم ما.

منذ نهار الاثنين، ستطلب من المصرف الذي تتعامل معه أن يرشدها إلى أفضل وسائل الإيداع وأكثرها ضمانة لها.. وللأولاد. ووقفت ألكسيا تتأملها دون تعليق، فالميراث لم يكن يثير اهتمامها، لكنها سألت:

ـ ما سبب موتها؟

ـ لا أعلم ـ وأعادت فتح الرسالة، وتفحصتها سريعا ـ إن كاتب العدل لا يذكر شيئا عن ذلك ـ ثم طوت الورقة بعصبية، مع إحساس بالضيق. ألا يجب أن تشعر بشيء من الأسى تجاه هذا الحداد الجديد؟ فليز، رغم كل شيء، الأخت الوحيدة لكات.

رددت مرة أخرى أمام ألكسيا: لا أعلم ربما قضت من النزلة الوافدة الإسبانية. في تلك السنة، فتك الوباء الرهيب فتكا ذريعا في أوروبة والولايات المتحدة مضيفا ضحاياه إلى ضحايا الحرب الكبرى، لو أن كات بقيت على قيد الحياة لكانت الآن في الثامنة والأربعين من العمر. وليز تكبرها بثلاث سنوات فهي في الحادية والخمسين إذا.

تمتمت: لطيف منها أن تفكر بنا.

هزت ألكسيا رأسها وجلست قرب إدفينا التي ابتسمت لها وسألتها: هل نحن أغنياء الآن، وهل يمكننا القيام بزيارة جورج؟

غاضت الابتسامة عن محيا الشابة وأجابت:

ـ لست واثقة من رغبته في رؤيتنا نحل عليه بمتاعنا الغالي والرخيص... ولكن بالمقابل لدينا القدرة الآن على توظيف طاهية وبستاني.

كانت السيدة بارنز قد تقاعدت عن العمل في الصيف الفائت، ولجأت إدفينا إلى الإستعانة بخادمة.

لم تكن متحمسة لفكرة الذهاب إلى هوليوود، ونقائصها وصخبها الاجتماعي فعاصمة السينما لا توحي لها أبدا بالثقة؛ ومقابل لوس أنجلس تبدو سان فرنسيسكو مدينة ريفية صغيرة، ومع ذلك فوقاية ألكسيا من بعض الأخطار تبدو في كل يوم مهمة اكثر فاكثر صعوبة. وطبيعي أن المراهقة لا تعي ذلك. والحال أن إدفينا لحظت غالبا نظرات اشتهاء لاهبة في أعين بعض الرجال وهي ترمق أختها.

تنهدت ألكسيا قائلة: أريد أن أرى هوليوود، متى نذهب إلى هناك؟، إنك وعدتني.

وانتصبت وهي تتكلم، وأزاحت إلى الخلف تاج الشعر الذهبي المكلل لهامتها. إنها تمتلك هذا النوع من الجمال الأخاذ الذي يلفت النظر دائما. ويكفي أن تظهر في مكان ما حتى تتوجه إليها جميع الأعين. ومع أن فاني وإدفينا تتمتعان بقسمات ذات نقاء كبير، وجميع آل وينفيلد يتميزون بالجمال اعتبارا من كات وبرت؛ ويتمتعون بجاذبية إضافة إلى رشاقة وظرف طبيعيين؛ لكن ألكسيا مختلفة، فهي تجذب الآخرين كمغناطيس.. وخاصة الرجال. إنها لم تتجاوز الثالثة عشرة لكنها تبدو اكبر عمرا. فتجوالها في هوليوود يعني تعريضها لاشتهاء بعض الأفراد الساعين إلى اقتناص الفتيات الجميلات. لكن وساوس إدفينا مسحت أخيرا بمخابرة هاتفية من جورج؛ الذي حض أخته، بعد أن علم بأن الليدي هيكام تركت لهم ثروتها، على الركوب في أول قطار مع الأولاد والإلتحاق به.

قال: سنحتفل بهذه المناسبة! لكنه استدرك: إنني آسف يا إدفينا، يجب أن أظهر قليلا من الاحترام لذكرى الخالة المسكينة ليز.

كانت صراحته أقوى من إرادته، إنه لا يستطيع أن يخفي عواطفه. فهو يتفجر فرحا عند شعوره بما يسر، ويغمره القنوط إن ألم به حزن. وفي الحالة الحاضرة لا يمكنه أن يتظاهر بأسى لا يحس به. إننا نتألم

على فقدان من نحب، لكن الخالة ليز وزوجها السيد ربر لم يعرفا كيف يكتسبان ود أبناء وينفيلد.

أسرت إليه إدفينا: إنني مثلك، لا أتمكن من أن أتكلف الحزن، فبعض ذاتي في حداد على الخالة ليز، لكنني اعترف أن بعضها الآخر في لا مبالاة. غير أنني ممتنة لها، فبفضل ميراثها لن انهي أيام شيخوختي تحت جسر.

ورنت ضحكة جورج عبر السماعة قائلا: «لن أتركك تحت الجسر يا إدفينا أو أنني سأشاركك المكان.

ــ أوه! سأكون مندهشة إن ارتضيت تقاسم مكان معك.

ضحكة جديدة عبر السماعة وسؤال: وبعد؟ متى ستحضرون؟

ــ «في عيد الفصح، عندما تعطل المدارس». أجابت متخلية دفعة واحدة عن جميع تصميماتها الوقائية الطيبة.

وضعت السماعة، وإذا بتيدي عند أسفل الدرج يسألها مذعورا: أصحيح أنك ستنهين أيام شيخوختك تحت أحد الجسور؟.

ــ كلا، أيها الماكر الصغير، كنت أمزح مع جورج، من علمك الاستماع عند الأبواب؟.

قاطعتها ألكسيا وهي تقفز من البهو وقد أشرق وجهها بابتسامة عريضة: وأنا أيضا، سمعت حديثك وسأكون متلهفة لحلول موعد الذهاب.

كان النور المنعكس يرسم شريطا وضاء حول شعرها، وهي جميلة كرؤيا.

ومرة أخرى، حام ظل المخاوف على إدفينا. إن ارتكبت خطأ؟ إن كانت تقود ألكسيا مباشرة إلى شدق الذئب؟.

لكنها فكرت فيما بعد «باه! إنها ما تزال طفلة» ربما كان لها مظهر المرأة مصغرة، وستكون بالتأكيد موضع إعجاب جميع الرجال المحيطين بها، لكن إدفينا ستكون هناك من أجل حمايتها.

بدت فاني بعد ذلك بقليل وسألت متهللة: «سنذهب إلى هوليوود؟

ــ نعم خلال عيد الفصح.. إن كنتم عاقلين.

برقت ثلاثة أزواج من الأعين، وأطلقت ثلاثة أفواه صيحة ابتهاج. وراحت إدفينا تضحك معهم، ثم قبلتهم، ففرحتهم وحدها تبرر كل هذه التضحيات، وهي لا تأسف على شيء، وفجأة بدت لها الحياة بسيطة وسهلة. تلقت الشابة رسالتين أخريين من كاتب عدل الخالة ليز، خلال أسبوع. كان رجل القانون يستفهم إن كانت الآنسة وينفيلد ترغب بالمجيء لزيارة هافر مور قبل أن يمتلك اللورد الجديد القصر، وتستلم بدورها ميراثها. لكنها أجابته في الحال راجية أن يهتم بالإجراءات المطلوبة «لأن من المتعذر عليها أن تغادر حاليا سان فرنسيسكو» دون أن تذكر الأسباب.

ما من شيء في العالم يمكن أن يقنعها بركوب سفينة مجددا. ففكرة عبور بحري طويل وحدها تجعلها ترتعش ذعرا. وأجاب الرجل الطيب بأن وجودها ليس ضروريا، ولكن إن أحست يوما بالحاجة إلى زيارة القصر....وأسرعت إدفينا لإجابته مؤكدة انها لن تتأخر عندها عن تبليغه.

أقاموا قداسا احتفاليا بمناسبة الذكرى السنوية لوفاة والديهم، كما اعتادوا كل سنة. ولاول مرة منذ سبع سنوات لم يستطع جورج الحضور؛ فقد كان في زحمة عمل تنفيذ أحد الأفلام، وأرسل إلى ألكسيا هدية بلوغها الثالثة عشرة. وأطفأت ألكسيا شموع الاحتفال بالعيد في أول نيسان، إذا أنها بناء على نصيحة إدفينا توقفت عن إحيائه في الموعد الصحيح لتجنب ذكريات غرق **التيتانيك** المؤلمة.

أهدتها إدفينا بالمناسبة فستانا وسترة متجانسين بمناسبة سفرهم إلى هوليوود؛ كانا من طراز جميل اكتشفته في محلات مانيين. قماشهما من التفتا الزرقاء المزخرفة بياقة عريضة من الدانتيل، وهما بمجموعهما وخاصة السترة التي تشد الخصر قد أظهرا جمالها بشكل مذهل ملأ نفس إدفينا انفعالا وسرورا.

أخيرا حل اليوم الذي طال انتظاره. واستقلت إدفينا والأولاد القطار السريع باتجاه لوس انجلس. وبينما كانت سلسلة المقطورات الطويلة تبتعد ببطء عن محطة سان فرنسيسكو، أطلق تيدي صيحة راعدة «هوليوود نحن آتون إليك» مما أثار قهقهة أخواته.

- XXV -

تعدت زيارة هوليوود كل أمنيات ألكسيا الهوجاء، فقد جاء جورج لاستقبالهم في محطة السكة الحديدية في سيارة كاديلاك فخمة مستأجرة، وأقلهم إلى «بيفرلي هيلز أوتيل» وهو من أكبر الفنادق فخامة وقد بني منذ سبع سنوات. وكان قد حجز لهم مسبقا أمكنة فيه.

قال عند وصوله إلى صالون الفندق الكبير:

ــ إن جميع نجوم السينما يبيتون هنا.

يمكنهم، وفقا لما صرح به جورج، أن يصادفوا وجها لوجه، ماري بيكفورد، أو دوغلاس فيربانكس، أو غلوريا سوانسون؛ وفتحت فاني وألكسيا أعينهما الواسعة؛ فقد أبصرتا قبل قليل، وعند وصولهم، في صدر سيارة ليموزين يقودها سائق ياباني شارلي شابلن؛ أما تيدي فقد فضل وهو يطل من نافذة مزججة أن يتأمل السيارات.

هتف: « أوه! إدفينا، انظري! سيارة ستوتز باركا!

جمدته سيارة أخرى من الطراز ذاته، في مكانه، وهو منذهل إعجابا. ومنذ اليوم الأول أحصى أربع سيارات رولز ــ رايس، وواحدة مرسر راسيابوت، وواحدة كيسل، وواحدة بيرس ــ آرو. وجهد في كل مرة أن يثير انتباه أخوته حول عجائب صناعة السيارات؛ إنما دون طائل، فهن اكثر اهتماما بالموضة النسائية. وكانت إدفينا قد جهزت حقيبة من ألبسة السفر الأنيقة لألكسيا، وأخرى لها دون أن تنسى سترة فراء الثعلب الفضي الفخمة التي قدمها لها جورج في عيد الميلاد. ولكن بالمقارنة مع الموديلات السائدة هنا ــ الصدارات المزركشة بالبرق، والتنانير الطويلة التي تشد على الردفين وتكشف عن ربلة الساقين بدت ثيابهن بسيطة جدا، وقديمة الطراز. وقامت إدفينا بدورة على بيوت الأزياء برفقة جورج. ورغبت في شراء

بعض القبعات... ولم يكن أخوها مبالغا، ففي الجو هنا ما يثمل، نـوع مستمر ومحموم من البهجة في الاقبال على الحياة يدفع إلى الملاهـي. وقد أرادت في إحدى الأمسيات وهم يتناولون عشاءهم لدى سونست ـ إين في سانتا مونيكا أن تتعلم رقصة الفوكس ـ تروت وقادها جـورج إلى الحلبة وهما يضحكان.

دندن على النغم المتلاحق للرقصة الجديدة: خطوة إلـى الأمـام، وخطوة إلى الخلف، وخطوة إلى الجـانب... آه! يـا إلـهي! قدمـي المسكينة!

وأغرقت في الضحك، نعم إن البهجة معدية في هوليـوود، وقـد مضت مدة طويلة لم تله فيها بهذا القدر. وتراءى لها طيـف ذكـرى للحظة قصيرة، تمثلت والدها وهو يعلمها إحدى خطوات الرقص ـ لم يكن جورج آنذاك إلا طفلا ـ لكن الرؤيا خمدت في اللحظة التاليـة، وتوقفت الموسيقى، وعادا إلى مكانهما يلهثان. أدركت إدفينا الآن سبب انجذاب جورج إلى هذه المدينة، ونحو هـذا الجمـهور مـن شـباب «مجانين السينما» الذين يضعون أحلامهم في صورة.

كانت المناقشات المتحمسة تجري من حولهم، ويجري الحديث عـن ماير أو عن د. و. غريفيث، وتذكر أسماء مثل صموئيـل غولـدون وجس لاسكي...

وينطلق جورج، في تألق، يكيل المديح لسام هورويتز وسيناريوه المقبل.

كانت الأيام تتوالى في دوامة من التردد على أماكن اللهو المختلفة، وشاهد الأولاد برفقة جورج آخر مسرحية كوميدية لماك سينيت. ومن مرآها البهيج إلى أفلام شابلن، ومساء وبعد إذن من إدفينا إلى مربـع «ثري اوكلوك بالروم»، الغريب المشاهد في الضواحـي، ثـم إلـى مرقص دانسلاند الفخم في كولفرسيتي، وذات مساء آخر دعاهم إلـى مطعم فندق ألكسندريا الشهير، وهو مكان مواعيد شهيرات الشاشة.

ـ مع قليل من الحظ ستشاهدون واحدة أو اثنتين مـن شـهيرات نجمات السينما. وبسم لهم الحظ ـ لكن هذا يبدو بديهيا في هوليوود ـ

إذ أمكنهم أن يروا بإعجاب وبمنتهى الطمأنينه غلوريا سوانسون وليليان دي جيش على مائدتين منفصلتين تحيط بهما حاشية من المعجبين. وكذلك دوغلاس فيربانكس وماري بيكفورد يتناولان العشاء منفردين وجها لوجه. ووفقا للشائعات الرائجة فإن غزلهما لن يلبث أن يوصلهما إلى الزواج.

في اليوم التالي التقوا بجورج في الأستوديو ليشهدوا التصوير، وأعلنت عندها إدفينا: «حقا، إن هذا لساحر، هل تعملون دائما بمثل هذه السرعة؟»

ــ يجب ذلك. فالفيلم يصور في أقل من ثلاثة أسابيع... إنني آسف لغياب سام يا إدفينا، فقد كنت راغبا في أن تتعرفي عليه. بالمقابل عرفها على هيلين هورويتز، ابنة سام، خلال عشاء دعا إليه في مطعم «فندق هوليوود» الأكثر فخامة في المدينة. ووصلت هيلين متأخرة قليلا وهي ترتدي فستانا من الحرير الأبيض شديد الأناقة يقولب جسمها وتأملتها إدفينا باسمة، وجه كامل الملاحة، وشعر أشقر متألق مسرح إلى الخلف، وبشرة شفافة. أنها فتاة ذات جمال أخاذ، بمثل طول جورج تقريبا، قامة هيفاء نحيلة، وهي تقرن بغرابة، تحفظا طبيعيا مع الإنتماء إلى طبقة عابثة، وقابلت بابتسامة خجول ابتسامة إدفينا التي هنأتها على أناقتها.

ــ «أوه! إنه موديل صممه لي بواريه خصيصا» عقبت ببراءة، وكأن الاعتماد في لبسها على أكبر دور الأزياء الباريسية أمر طبيعي جدا.

إنها مخلوقة إثيرية من نوعية ألكسيا، وبمثل رقتها، ورهافتها؛ وهي كألكسيا لا تقدر الأثر الذي تحدثه في المحيط من حولها. فقد نشأت في لوس أنجلس، بعيدا عما يسميه والدها «حمى الاستديوهات». وهي تفضل الفروسية على السينما.

سألت: هل تحبون الخيول؟

ودعتهم إلى مزرعتها في سان فرناندو بعفوية سحرت إدفينا؛ فابنة

المنتج الهوليوودي الكبير هي في النهاية، شابة بمنتهى البساطة، رغم زينتها المدمرة.

ـ شكرا يا عزيزتي، ولكن ألكسيا تخاف الأحصنة... هل تعرفين جورج منذ مدة طويلة؟

أحنت هيلين رأسها إيجابا، وقد اصطبغت وجنتاها بحمرة لطيفة. وابتسمت إدفينا، فهذه الطفلة الرقيقة لا تشبه أبدا فتيات العلاقات العابرة اللواتي يلهو معهن جورج. أحست مباشرة بهذا وهي تشاهدها تعبر قاعة المطعم وقد توجهت إليها جميع الأنظار. وأشرق وجه جورج. ثم شاهدتهما إدفينا يرقصان. إنهما يشكلان ثنائيا جميلا، وخطواتهما تتوافق بشكل رائع بينما تتشابك نظراتهما. إن ما يشعر به أحدهما نحو الآخر يتجاوز الافتتان العابر وإدفينا تعرف هذا لأنها أحست به عند وجود شارل، إنه الحب، فكرت وقد غص حلقها انفعالا. هذا الحب اللاهب الوحيد لا يحصل للمرء إلا مرة واحدة في الحياة.

قالت هيلين بعد وقت قصير: من المؤسف أن والدي ليس في المدينة، إنه يبني فيلا في بالم سبرينغ، وقد ذهب ليشرف على سير الأعمال، ولن يعود قبل أسبوع، إنني متأكدة انه كان سيسر بلقائكم.

أجابت إدفينا، دون أن تفارق عيناها جورج: آمل أن تسنح لنا الفرصة في موعد آخر.

استغرق الشاب في حديث مع مجموعة من الأصدقاء توقفوا قرب مائدتهم، إنهم مجموعة شبان في أناقة طاغية ويبدو أنهم من المنصرفين إلى اللهو بمزيد من الطيش، وكان جورج يتبادل الضحك معهم، وفكرت إدفينا:«إنه سعيد، والتمعت ابتسامة ود على شفتيها، إنه سعيد وقد وجد أخيرا الطريق الذي يلائمه».

عادوا بعد عدة أيام إلى الأستوديو، ليحضروا نهاية التصوير، وكان الفريق يعمل بنشاط إذ يجب الانتهاء من اللقطات الأخيرة والاستفادة من ضوء النهار. وعند انتهاء عمل اليوم اقترب أحد المخرجين من إدفينا

يطلب منها الإذن للسماح لألكسيا بأن تلعب دورا في فيلمه المقبل، وترددت الشابة لكن جورج سبقها إلى القول«هذا غير وارد» مما خيب أمل ألكسيا.

صرح جورج لها فيما بعد وقد اكفهر وجهه:«لن يستغلوا أبدا أختي الصغيرة، ولن أسمح بهذا، ولن ينتهزوا فرصة صغر سنها. إن العمل في الأفلام للراشدين. ألا توافقينني.

هذا هو رأي إدفينا تماما. ومع ذلك نظرت إلى جورج وهي مندهشة من تفكيره المحافظ.

قالت فجأة، وعيناها دامعتان: إنك على حق في الاستقرار في هذه المدينة وقد كنت على صواب عندما لم أحاول منعك.

مرت الأيام الأخيرة بسرعة، وحان موعد العودة، وجاء جورج لمرافقتهم إلى المحطة؛ وأحاط الأولاد به سريعا وهم يسألونه:

ـ ستجدد الدعوة لنا، أليس كذلك؟

ردت إدفينا بدعابة: لقد رأى منكم ما فيه الكفاية.

ـ بالعكس، ففي المرة القادمة سأكون قادرا على استقبالكم في منزلي.

إنه يفكر باستخدام نصيبه من ميراث الخالة ليز لشراء فيلا صغيرة، وهو في الوقت الحاضر يشارك أحد أصدقائه في شقة في بيفرلي هيلز، الضاحية الأكثر يسرا في المدينة.

رافقهم جورج مدى النظر. وفي المقصورة أسندت إدفينا رأسها إلى المتكأ المنجد. مر كل شيء بسرعة! وبطريقة ممتعة! وأطلقت تنهيدة رضى. فكل قلقها بخصوص جورج قد تبدد دفعة واحدة. ولأول مرة في حياته راح أخوها يعمل بجد، وهو مستعد لكل التضحيات من أجل بلوغ الغاية التي رسمها لنفسه. وابتسمت الشابة بشرود، هوذا قد مرت سنوات دون أن تشارك في مثل هذا اللهو، وأحست بتجدد روح شبابها.. واقتلعها صوت ألكسيا من سحابة ذهولها الخفيفة وهي تقول:

ـ سأعود إلى هناك يوما.

ـ سنعود جميعا يا عزيزتي.

واستمرت ألكسيا تحدق فيها بشدة فريدة.

ـ أريد أن أقول إنني سأعود إلى **العيش** هناك.

ولفظت هذه الكلمات بنبرة قاطعة.

وردت إدفينا محاولة أن تعيد موضوع الحديث إلى أخيها: مثل جورج؟

اكتفت الفتاة اليافعة بتوجيه نظرة إلى أختها ينعكس فيها بغرابة شعور كامن بالغيظ، وبعد ساعات، وبينما كان القطار يغذ السير إلى سان فرنسيسكو رمقت ألكسيا أختها الكبرى بعينين مغضنتين مجددا بالنقمة وسألتها:

ـ لأي سبب لا تريدينني أن أعمل في السينما؟

ـ فكر جورج بحق، أن هذا الرأي غير مناسب.

ـ ولماذا؟

منحت إدفينا نفسها وقتا للتفكير شغلته ببعض حركات عادية ـ رفعت أكمام فاني، وزررت لتيدي سترته ـ ثم قالت أخيرا ردا على ألكسيا

ـ لأن هذا المجال مقتصر، في الأرجح، على الراشدين، إنه عالم ما زلت لا تدركينه ويمكن أن يجرحك.

وبدا أن ألكسيا لم تقتنع بهذه الملاحظة، وصرحت بحدة قاتمة ذعرت لها إدفينا :«في يوم ما سأغدو ممثلة، ولن تستطيعي منعي من ذلك.

سألتها إدفينا وقد تقطب حاجباها: وما الذي يدفعك إلى التفكير بأنني سأحاول منعك؟

ـ إنني أعرف، وقد فعلت ذلك كما فعل جورج أيضا. لكن المرة القادمة ستكون مختلفة.

وساد الصمت كغطاء من رصاص غلف المقصورة. فقد غلب النعاس على تيدي وفاني فنام كل منهما على أحد كتفي إدفينا، وتاهت هذه بأفكارها نحو هيلين وجورج، ورنقت بدورها في تهويمة، وإيقاع العجلات على السكة الحديدية يهدهدها. بينما أشاحت ألكسيا بوجهها، وهي على المقعد المقابل، نحو النافذة تتأمل الزجاج العاتم بعناد.

-XXVI-

كانت السنوات الأربع التالية، بالنسبة لجورج ممتلئة بالتجارب فقد لاقت أفلام مثل **كويرهد أو الشيخ** إقبالا كبيرا من الجماهير. بينما تميز سيسيل ب. دي ميل بكوميديا مفرحة مثل **المقايضة وجنة الأبله.** وتابع أخ إدفينا تدريبه لدى سام هورويتز ، فساهم في عشرات الأفلام، وأخذ يصعد بأناة سلالم المهنة، وتدرج من معاون مصور، إلى معاون مدير أستوديو، وغدا منتجا في العام ١٩٢٣، وتحقق أخيرا حلم طفولته، وكذلك الوعد الذي قطعه لإدفينا.

أصبح جورج يعرف كل الناس في الوقت الحاضر، من مدراء بارامونت ويونيفرسال حتى النجوم الأكثر شهرة على الشاشة؛ وهو الذي يحل محل سام عندما يسافر هذا الأخير في رحلة عمل، أو لمناقشة ميزانية فيلم جديد مع مصرفيي وول ستريت في نيويورك. وفي أثناء ذلك غدت بيوت التوزيع التي تعددت في جادة سنسيت تفرض إرادتها، لذلك أسس شابلن، وغريفيث، وماري بيكفورد، ودوغلاس فيربانكس اتحاد الفنانين لصيانة استقلالهم الفني والمحافظة عليه.

أعتاد الأولاد وإدفينا على الذهاب إلى هوليوود مرتين في العام، وكان جورج يأتي لاستقبالهم في محطة القطار لينقلهم إلى منزله: فهو يملك فيلا صغيرة أنيقة في نورث كرسنت دريف في حي سكني، ويربح ما يكفي من المال الآن لتوظيف كبير خدم وطاه. وهو يعد أحد الرجال الأكثر تأثيرا في الصناعة.

قالت فاني بنشوة: أنه اكثر وسامة من رودولف فالنتينو

وليست، دون شك، هي الوحيدة في هذا التفكير، فهناك مجموعة من مخلوقات الحلم ــ ممثلات، ونجمات مبتدئات، وممثلات صامتات ــ تسعى لمرافقة الشاب فهو يسحرهن ببسمة، ويصحبهن للعشاء في المطاعم الكبرى، ويرسل لهن الأزهار، لكن واحدة فقط لها مكانتها في نظره:

وهي هيلين هورويتز. وقد لاحظت إدفينا ذلك في مناسبات عديدة؛ والفتاة في الثانية والعشرين من العمر الآن، وقد تفتح جمالها، وتبدو متعلقة بكل إخلاص بجورج. وفي المرة الأخيرة التي صادفتها فيها إدفينا كانت ترتدي فستانا مذهلا موشى بخيوط الفضة يقولب جسمها الرائع كأنه جلد ثان لها. وقد اجتازت قاعة كولو آنوت غروف، مستندة إلى ذراع جورج، غير مبالية بما تحدثه في قلوب الرجال من افتتان، ودون أية نظرة إلى عدسات آلات التصوير التي تمطرها بدفقات نور من وماضاتها.

تمتمت إدفينا لجورج بعد ذلك: إنها جميلة جدا، لماذا لا تشارك في أي فيلم من أفلام والدها؟

ـ طرحت ذات السؤال على سام منذ نحو سنة، إنه معارض بشدة لهذه المشاركة، فهو يرغب في وقاية ابنته من الغاب الهوليوودي.

وامتنعت إدفينا عن طرح سؤال آخر رغم انه يحرق شفتيها منذ مدة طويلة.

هاقد مضت أربع سنوات على جورج وهو يعاشر هيلين، ويبدو واضحا أن كلا منهما يهيم بالآخر، فلماذا لا يتزوجان؟

وعادت إلى سان فرنسيسكو دون أن تحظى بجواب؛ وبعد ذلك بأسبوع تفجر نزاع بين إدفينا وألكسيا بخصوص **غراميات فرعون**، وهو فلم جريء جدا في رأي إدفينا لكن ألكسيا تريد أن تراه بأي ثمن. وقطع رنين الهاتف جدلهما. وكان جورج على الطرف الآخر من الخط.

ـ إدفينا، أدعوك لحضور العرض الأول لفيلمنا الجديد، وقد تلطف دوغلاس فيربانكس وأعارني فيلته في **بيكفر** من أجل مساء الاحتفال. وستكون مناسبة رائعة، ستاتين أليس كذلك؟ وستكون فرصة لك للهرب من الجن الصغار المحيطين بك، ولتتنفسي قليلا، ما رأيك؟

هي ترى أنها مناسبة كبرى طيبة، بالتأكيد، ولكنها تشك في إمكان

ترك الأولاد الثلاثة وحدهم. وأمام إلحاح جورج انتهت مرة أخرى إلى تسلق درج إحدى مقطورات قطار لوس أنجلس السريع.. وهي تقل بقية أفراد العائلة معها. كانت ألكسيا في السابعة عشر من العمر تقريبا، وهي تنافس في جمالها ابنة سام هورويتز، رغم أنها لم تستجب لموضة الشعر القصير، ولا للهندام المقولب للجسم بأثوابه المقصبة؛ وكافحت إدفينا لتبعد المعجبين عن أختها الشابة، وشكرت الله لأن هذه تبدي ريبة طبيعية تجاه الغرباء، ولا تشعر بالأمن إلا وهي في حضن العائلة. وقد احتفلت فاني بعيد ميلادها الخامس عشر وهي تعد بأن تكون ربة منزل كاملة إضافة إلى كونها طاهية ماهرة، وإدفينا تعهد إليها بكل ثقة بشؤون المنزل عند تغيبها النادر لشأن ما في المدينة: موعد في المصرف أو مع بن جونز، رجل القانون الذي بقي مستشارها الأمين، واستمر محافظا على صداقته الخالصة لإدفينا بعد أن تزوج منذ سنتين.

كان تيدي بالطبع من مجموعة المسافرين، وهو الآن في الثالثة عشرة، ويفكر منذ الآن في دراساته المستقبلية الجامعية في هارفارد، وهو يحلم بإدارة مصرف، إنه خليفة برت، وفيليب... كما فكرت إدفينا بتأثر.

نزلوا هذه المرة في فندق بفرلي هيلز، إذ استضاف جورج في منزله مجموعة من المدعوين النيويوركيين. عدا عن أن الأولاد – وإدفينا مستمرة في هذه التسمية رغم معارضة ألكسيا – يحبون هذا الفندق الفخم، فالحياة فيه مثيرة، خاصة وأن بين نزلائه الدائمين مشاهير نجوم السينما أمثال بولا نغري، ولاتريس جوي، ونوا بري. كما يشاهد فيه غالبا شارلي شابلن، وقد لاحظ تيدي في صالونه الواسع ذي النوافذ الزجاجية العريضة ويل روجرز وتوم ميكس بطلي أفلامه المفضلين.

رافقت إدفينا جورج إلى حفل العرض الأول، وهي ترتدي للمناسبة فستانا مقصبا بخيوط الذهب من موديلات شانيل، كما قصت شعرها وفق الموضة الجديدة؛ وبدت رغم مقاربتها لسن الثانية والثلاثين محافظة على مظهرها الشاب، ولم تغير السنون أبدا من نعومة بشرتها

ولا من صفاء عينيها الزرقاوين الواسعتين ودخلت مستندة إلى ذراع أخيها القصر الذي بناه دوغلاس فيربانكس لماري بيكفورد منذ ثلاث سنوات مضت بمناسبة زواجهما.

سألت بعد قليل: أين هيلين؟

كانا في الحديقة، وفي يد كل منهما كأس من الشمبانيا. وهما يتأملان أزواج الراقصين يتتابعون على الحلبة، بعد أن حيا جورج عددا لا يحصى من المدعوين وعاد إلى قرب أخته. وكانت هذه هي المرة الأولى التي لم يشر بها إلى هيلين. أجاب بسرعة، بسرعة كبيرة: «إنها في بالم سبرينغ مع والدها» ثم أضاف فجأة وباقتضاب: «إن سام لا يريد أن نتقابل بعد الآن».

هذا هو بالتأكيد السبب الذي دعا جورج إلى الطلب من إدفينا مرافقته إلى حفل الاستقبال، ونظرت إليه مندهشة من الحزن الذي انعكس في عينيه؛ وشعرت بما يعانيه من ألم مفاجئ لهذا الإجراء، وتمتمت تسأله مستنكرة:

ـ كلا؟ ولكن ما السبب؟.

ـ «أنه يرى أن علاقتنا العاطفية قد طالت» أجاب بلهجة تهرب؛ قبل أن يتناول كأس شمبانيا آخر من نادل يتجول بالمشروب.

فكرت مذعورة: «أنه يشرب كثيرا» فقانون تحريم الخمر في الولايات المتحدة زاد من الاستهلاك الكحولي لدى سكان هوليوود، ففي هذا المجتمع المشع بأنوار السينما يحترم القانون في الظاهر، لكن ليعوض عما فات في المجالس الخاصة. وتأملت جورج المرح بطبعه وقد تقطب جبينه خلافا لعادته وسألته مجازفة بأن تبدو فضولية:«ولكن لماذا لم تتزوجها؟، ألست مغرما بها؟»؟.

وتناول جرعة من كأسه، وهز رأسه إيجابا، وبدت على شفتيه ابتسامة حزينة وتنهد قائلا: «نعم، إنني متيم بها، ولكن لا يمكنني طلب الزواج منها؟».

ـ وما السبب؟

ـ الشائعات، آه، من ثرثارات هوليوود اللواتي يجففن الحلـــوق.. إنني أسمعهن من هنا:«وينفيلد يتزوج الابنة ليضع الأب في جيبـــه... ها هو واحد آخر يتزوج بدافع المصلحة» ـ وألقى بأسى نظرة علـــى أخته ـ اقترح علي سام أن أكون شريكا له. وبعد... ـ ورفع الكـــأس مرة أخرى إلى شفتيه ـ إما العمل أو هيلين. لا يمكن الحصول علـــى كل شيء، ماذا تريدين؟

ـ ولكن يا جورج ..

قاطعها بصوت كئيب: لا أريد أن يقال إنني سلكت معها سلوكا نفعيـــا، لا أتحمل هذا، وأنا مقتنع أنها هي بدورها لن تتحمله.. وها إنني منذ أشهر أحاول إيجاد حل لهذه المعضلة، دون أن أهتدي إلى ذلك، يا إدفينـــا، إلا إن استقلت، وتركت كل شيء وعدت إلى سان فرانسيسكو مع هيلين...

غير أنني هنا شخص مرموق، أما هناك فأنا لا شيء..

لا شك انه يفكر بأسلوب حياته الاسطوري في هوليوود، وبفيلته الفخمـــة، وإسطبله، وبحصته من الميراث التي انفقها كليا ولم يبق على شيء منها.

ـ ها انت يا عزيزتي، تعرفين كل شيء الآن. إن طلبت يد الابنـــة الوحيدة لشريكي مستقبلا، فسنتهم أنا وهي بالتخطيط النفعي.

ووضع كأسه بهيئة متقززة، كفاه ما يعاني. وفي هذا المساء لا رغبـــة له حتى في السكر، ولو اطاع نفسه لبكى في حضن أخته الكبرى.

ـ اعترضت إدفينا بضراوة: هذا غير معقول؛ غير معقول ومثـــير للسخرية. فإذا كان سام قد رأى فيك الشخص المناسب لتكون شـــريكه، فما من سبب ليرفضك صهرا له. إنك تقلل من شأن نفسك يا جـــورج، وأنت الآن من أشهر المنتجين في هذه المدينة.

ـ وأكثرهم عزلة ـ وأطلق ضحكة متذمرة ـ انسي كل هذا يا إدفينـــا، إنني أرفض أن أدع هيلين تفترض بأنني أسعى إلى زواج مصلحـــــة، وأفضل الموت إن فكرت بذلك يوما.

هل تكلمت معها في هذا الموضوع؟

ـ كلا ـ وإنما تناقشت به مع سام. إن هيلين في الثانية والعشرين من العمر، ووالدها يفكر، بحق، إنها إن لم تتزوجني، فسيفكر لها سريعا بزواج آخر.

نظرت إليه إدفينا نظرة مغلفة بالحنان، إنه لم يبلغ بعد الرابعة والعشرين من العمر، وقد تهيأ له كل شيء ليكون سعيدا، لكنه يزمع على التصرف بحيث يجانب السعادة، وذلك باسم مبادئ يهتم بها وحده... وحاولت أن تشرح له ذلك، لكنه بقي باردا كالجليد. وتمتم فيما بعد وهو يرافقها إلى الفندق بسيارته اللينكولن، العربة الكبيرة ذات الأربعين حصانا، ذات الهيكل الذي يمكن كشفه.

ـ لا يمكنني أن أفعل هذا يا ويني، فهيلين ليست مكافأة تمنح لقاء خدمات قدمت.

تأملته حانقة.

ـ توقف يا جورج عن التلفظ بالحماقات. أتحبها، نعم أو لا؟.

ـ نعم ولكن...

ـ إذا تزوجها. فالحياة قصيرة جدا، فلا تفسدها. لا تترك الحظ يفوتك. فنحن لا نحب إلا مرة واحدة، جورج ..

ورأى دمعة صغيرة تلتمع على حافة أهدابها، وخمن بمن تفكر؛ إنها لم تنس أبدا شارل. وبعد كل هذه السنوات، مازال قلبها يخفق للخطيب المفقود على متن **التيتانيك**، وحاول أن يتكلم، لكنها قاطعت كلامه بالقول:

ـ أفترض أيضا أن عرض سام قد استهواك. ألا ترغب في أن تكون شريكه؟

ـ نعم، بالضبط...

ـ إذا؟، اقبل ! واطلب منه يد ابنته، وسيكون مسرورا في قبولك صهرا ـ ومالت نحوه، ووضعت يدها فوق كتفه، وقالت

بصوت مرتعش: «لنا الحق في أن نكون سعداء يا جورج. بل إن من واجبنا أن نسعى إلى السعادة. فلا تضع وقتك وتفوت فرصة سعادتك لأسباب لا تستحق التوقف عندها. إن سام يقدم لك عرضا استثنائيا فاقبله، وهيلين هي امرأة حياتك فاسع لها أيضا. لا ترفض أيا منهما حبا بالسماء. إنك لم تعد تنتمي إلى سان فرنسيسكو يا صغيري؛ وحياتك هنا. وهنا ستحقق أحلامك؛ وتصعد سلم النجاح؛ وستنجح يا جورج، يكفي أن تريد ذلك...

لقد سرت في الطريق، فلا تدع عزيمتك تخور الآن ــ وابتسمت له عبر الدموع ــ

هيا، اذهب واشتر لها خاتم خطبة يليق بها وتوقف عن الأفكار السوداء أنت تستحق أن تكون شريكا لسام... كما تستحق هيلين.

تأملها منذهلا:

ــ أتعتقدين هذا؟ حقا!

هتفت وهي تعبث بشعره المسرح بعناية، والمردود إلى الخلف: إنني متأكدة أيها الماكر الصغير.

وانطلقا ضاحكين في ذات الوقت، واسند جورج رأسه على كتف أخته وهو يفكر في نفسه والدموع تترقرق في عينيه، وهو يتأمل شعرها القصير وتسريحتها الجميلة المتموجة: «ماتزال فاتنة، خسارة ألا تتزوج، وألا تحب شخصا آخر غير شارل».

كانت الشمبانيا التي احتساها قد بدأت تثمله، فتجرأ على أن يطرح عليها السؤال الذي طالما أمضه

ــ ألا تأسفين على بقائك عازبة ياويني؟ ألم تكرهي هذه العزلة الإلزامية؟ وقرأ الجواب في حدقتيها الزرقاوين القاتمتين قبل أن تنطلق بكلماتها:

ــ لا أشعر بالعزلة يا جورج، وانتم جميعا حولي. أحبكم إلى درجة

لا تتطلع فيها عيناي إلى أي شخص آخر.. من المؤكد أنني لو تزوجت شارل لكنت أكثر سعادة. ولكنني لا أتذمر.

فكرت اكثر من مرة بالعزلة الرهيبة التي تنتظرها، وانتهت إلى الائتلاف مع هذه الفكرة. خلال خمس سنوات سيبدأ تيدي دراسته الجامعية وحتى ذلك الوقت تكون أختاها قد تزوجتا بالتأكيد، وكذلك جورج، ولكل منهم عائلته وهمومه الخاصة. وستبقى إدفينا وحيدة في منزل آل وينفيلد الكبير.

رددت:«لا آسف على شيء» وكأنها تريد أن تؤكد ذلك لنفسها، ومالت على جورج وطبعت على خده قبلة وهي تقول: إن الحياة أمامك، يا عزيزي، هيا اذهب إلى بالم سبرينغ ساعيا إلى هيلين، واستغل الفرصة لتقبل عرض سام، وانس ألسنة السوء، ولا تهتم بما يفكر به الآخرون ابتسم.

ـ ويني، هل قيل لك سابقا إنك فتاة رائعة.

وبينما كان يرافقها إلى الفندق، انتابه تبكيت الضمير، فإدفينا قد ضحت بحياتها من أجلهم... وبينما كان يستعد لإبداء هذه الملاحظة لها، امتنعت شفتاه عن النطق، وتسمر في مكانه، وجحظت عيناه. فمخلوقة رائعة الجمال تجتاز البهو... إنها ألكسيا !ولكن أين وجدت هذا الثوب اللؤلؤي الذي يبرز مفاتنها؟ وهذه القبعة التي تبرق بألماسات صنعية وتزينها ريشة بيضاء جميلة؟ ومن أجرى لها هذه التسريحة؟.. وكيف تتجرأ على أن تتأبط ذراع هذا الرجل الذي يعرفه جورج حق المعرفة، ولم تشاهده إدفينا من قبل؟.

همست إدفينا مذعورة: يا إلهي!

كانت قد ذهبت إلى حفل الاستقبال، وهي تعتقد أن أختها قد أوت إلى سريرها الناعم. لم تكن ألكسيا قد رأتها حتى الآن، ويبدو أنها آتية بدورها من الخارج. ونظرت إدفينا إلى جورج وسألته:

ـ من هذا الرجل؟

كان طويل القامة، أنيقا، جذابا؛ إنما يبدو وكأنه والد ألكسيا.

وانتاب الشحوب وجه جورج وقال هامسا.

ـ إنه يسمى مالكولم ستون، وهو ممثل من الدرجة الثانية لاحقه الفشل، لكنه كازانوفا من الصنف الرديء يمارس مواهب إغرائه على النساء وخاصة من هن في مقتبل العمر.. والثريات. وقد جرب سابقا نصب شباكه لهيلين. التمع في عيني جورج لهب هيجان قاتل ودوى صوته كالرعد عبر القاعة.

ـ ستون!

والتفت الرجل، وسمرت علائم الذعر قسمات ألكسيا المرهفة. كانت قد ذكرت لمالكولم رغبتها في العودة قبل منتصف الليل؛ وقد ذهبا للرقص في «**هوليوود اوتيل**» ومر الوقت دون انتباه. سبق أن صادفته عدة مرات في صالون الفندق الكبير، وتعرفت عليه، وعندما ذكرت له اسمها، سألها إن كانت تمت بصلة قرابة إلى جورج وينفيلد، المنتج الشاب«الصاعد»، وازدهت بهذا الإطراء فذكرت أنه أخوها. ودعاها إلى الغداء، وكانت إدفينا قد صحبت تيدي وفاني في جولة عبر المدينة. واستغلت ألكسيا فرصة غياب أخوتها وذهبت إلى الموعد، وخلال الغداء فتنها بأحاديثه المنمقة، وعباراته الغزلية. والآن ها هو ذا جورج هنا، ووجهه شاحب يقطر غضبا.

ـ ماذا تفعل هنا مع أختي؟

بدت على شفتي الكوميدي ابتسامة ماكرة، وأجاب بصوت متكلف، وبلهجة بريطانية مغالية في التقدير.

ـ لا شيء يضير، أيها الصديق العزيز، سمحت لنفسي أن أدعوها إلى الرقص، والواقع أننا قد قضينا سهرة طيبة.

تبينت إدفينا تماما وهي واقفة في مكانها من نظرة ألكسيا أنها واقعة تحت تأثير جاذبية مرافقها؛ فأختها المراهقة الخجول كانت تبدي دائما ميلا إلى الرجال الناضجين.

صاح جورج وقد خرج عن طوره: هل تعلم إنها لم تبلغ بعد السابعة عشرة من عمرها؟

خبت ابتسامة الرجل الغاوي والتفت نحو ألكسيا قائلا:

ـ يبدو أن سوء تفاهم قد حصل، على ما اعتقد. فقد أكدت لي الآنسة أنها في الحادية والعشرين. لا توبخها يا سيد وينفيلد، فهي شابة ناعمة جدا.

وأخذ يد ألكسيا وقد غدا وجهها قرمزي اللون ووضعها في يد أخيها، مضيفا بلهجة لا مبالاة: اعذرني يا صديقي.

قطب جورج حاجبيه.

ـ أنذرك بعدم الاقتراب منها.

ـ بالطبع يا صديقي العزيز.

وانحنى قليلا، وانسحب مسرعا. وامسك جورج بذراع ألكسيا وقادها عبر الحديقة نحو الجناح الذي تشغله مع إدفينا التي تبعتهما. وما أن وصلا إلى الداخل حتى انهمرت دموع الفتاة المراهقة وهي تطأطئ رأسها بعناد وانفجر جورج:«اللعنة! ماذا دهاك؟ هل أصبت بالجنون لتخرجي مع مثل هذا المخلوق؟

سبق أن وجه اللوم غالبا لإدفينا معتبرا أنها شديدة القسوة على أختهما، أما الآن فلا... بل إنه قد تمالك نفسه كي لا يوجه لها صفعة، والواقع أن الفتاة لم تعد طفلة، كما أن إدفينا لن تسمح له بذلك.

ـ صاح مزمجرا:«إنه رجل نصاب، متهتك، سافل، عديم الشرف والوجدان يجري وراء صاحبة دوطة، ممثل فاشل يحوم حول الاستوديوهات، وهو مستعد لكل شيء لقاء التوصل إلى التعرف على أحد.

تحول بكاء ألكسيا إلى نحيب، وصاحت وهي تواجه نظرة أخيها المستنكرة:«إنك تكذب، مالكولم ليس الشخص الذي تصفه. إنه لطيف، ملؤه المراعاة، وقد وعدني بأن يجد لي دورا في فيلمه القادم، بينما تحاول، أنت يا جورج، بكل وسيلة أن تمنعني من أن أغدو ممثلة!

صاح والغضب يكاد يخنقه:«وسأستمر في ذلك! ماذا تعتقدين؟ أأتركك تعاشرين أنذالا من هذا الصنف؟ لا تكوني حمقاء يا ألكسيا؛

ماتزالين طفلة... فراشة صغيرة يمكن أن تحرق جناحيها على لهب نور المسرح. إني أمنعك من رؤية هذا السافل.

ــ صرخت وهي تفلت منه وترتمي على كنبة وكتفاها يرتعشان من النحيب وإدفينا تقترب منها ملؤها الحنان:«ليس لك الحق في أن تمنعني من أي شيء»

قالت لها إدفينا برفق: يا عزيزتي، لماذا لم تطلبي مني الإذن بالخروج، لماذا لم تعرفيني على صديقك؟

منذ طفولتها الأولى لم تثق ألكسيا بأحد، ولم تنفذ إلا ما يدور في رأسها، مما كاد يكلفها حياتها مرتين. وهزت الفتاة رأسها وتضاعف نحيبها.

ردت متأتئة، وأصابعها متشنجة على منديل، ودموعها تسقي نسيج الفستان الحريري الذي أخذته من خزانة إدفينا: لأنك .. لأنك تمنعينني من الخروج.

ــ وهل يمكنني أن اعرف عمر هذا السيد؟ سألت بملاحظة استهجان تافهة انزلقت في نبرة صوتها.

أجابت ألكسيا باقتناع: إن مالكولم في الخامسة والثلاثين.

رد جورج بسخرية:«يا للنظر! إنه ينوف على الخمسين... اللعنة! لكانك ولدت البارحة.»وبدرت منه حركة سخط متصاعد، والتفت إلى إدفينا يتوقع تأييدها، لكن هذه لزمت الصمت. ليس مرد هذا السذاجة فقط، بل والملل من سان فرنسيسكو الفاترة؛ مما دفع ألكسيا إلى الاعتقاد بأنها اكتشفت المعنى الحقيقي للحياة في تتابع الحفلات الهوليوودية البراقة.

تابع جورج بقسوة: إن مصادقة هذا الوحش تتضمن مخاطر يجب أن تعيها جيدا. وانا أترك لك يا إدفينا التفاصيل.

اقتصر رد ألكسيا، وهي تدفن وجهها بين يديها على بكاء مثير للشفقة لكنه لم يزد جورج إلا غضبا واستأنف:«أما أنت، فسيكون من حظك ألا أرسلك إلى البيت قبل الاحتفال بعيد ميلادك».

كان قد اتفق مع إدفينا على الاحتفال بعيد ميلاد ألكسيا السابع عشر

في مطعم فخم من مطاعم جادة سنست. وفي الأسبوع التالي تأزم الوضع، وغدا التوتر بين جورج وألكسيا لا يحتمل، وحاولت إدفينا عبثا إصلاح ذات البين. انفردت عدة مرات مع ألكسيا لنصحها، لكن دون جدوى. والمشكلة أن الفتاة كانت تجذب الرجال كالذباب. فجمالها الفاتن يغطي في الحال على جمال بقية الشابات الموجودات بمن فيهن أختاها. ومما زاد الطين بلة ان أحد الباحثين عن المواهب من شركة فوكس الذي يرصد نزيلات الفندق تصدى لألكسيا بعد يومين من مشكلة ستون وسألها: هل ترغبين العمل في السينما؟

واعتذرت إدفينا بلطف عن أختها؛ مما أثار في الحال نوبة جديدة من البكاء؛ وعبرت ألكسيا كالسهم الصالون ولجأت إلى جناحها وهي ناقمة على الدنيا بكاملها بشكل عام وعلى أختها البكر بوجه الخصوص.

استفهم جورج في ذات المساء: ماذا جرى لها؟ وما سبب حردها؟

هزت إدفينا كتفها؛ ألكسيا لم تكن يوما فتاة سهلة، بل هي أبعد ما تكون عن ذلك، ومنذ أن توفي والداها شكلت مصدر قلق دائم لإدفينا؛ والمراهقة الآن رغم خجلها المرضي تتحرق شوقا للعمل في السينما.

قالت لجورج عند انفرادهما: إن ألكسيا في المرحلة الصعبة من العمر، وهي فاتنة الجمال، والملاحة أحيانا مصدر اضطراب، والناس يقدمون لها عروضا مغرية على أطباق من فضة، ونحن نحذرها من لمسها، مما يولد في ذهنها بأننا نحن السيئون، وبصورة خاصة أنا بالذات.

قال وقد أدرك مدى معاناة أخته البكر: أحمد الله على أنك هنا، يا إدفينا؛ والآن كيف سنتصرف مع هذه المراهقة العنيدة؟

بدرت من الشابة ضحكة متسامحة، فألكسيا، بعد كل حساب، لم ترتكب أية جريمة وأجابت بكل هدوء: لا شيء، سنعود إلى سان فرنسيسكو، وسيعود كل شيء إلى مجراه الطبيعي، وما عليك إلا أن ترجو السماء لترسل لها عريسا مناسبا بأسرع ما يمكن.. وعليه هو

عندئذ تهدئة ألكسيا والحد من مناورات المعجبين.

تمتم جورج بارتباك: آمل ألا أرزق أبدا بفتيات.

ردت ضاحكة، مداعبة: وأنا أرجو لك دزينة منهن، وبالمناسبة ماذا قررت بخصوص هيلين؟ وماذا تنتظر للذهاب إلى بالم سبرينغ؟

ـ تلفنت وأجابني قيم المنزل أن السيد والآنسة في زيارة أصدقائهما في سان دييغو، وسأذهب لأراهما عند عودتهما. إنني آسف لأنك لم تلتقي بسام هذه المرة، فهو كما تعلمين، يقدرك كثيرا.

كان الاحترام متبادلا، وكان جورج قد عرفها على سام هورويتز منذ ثلاث سنوات، وهو رجل طويل، عريض المنكبين، تشع عيناه ذكاء، ويوحي وجهه بالرزانة، وكل شيء فيه ـ من خطواته الثابتة إلى مصافحته المرحبة ـ ينم عن رجل صلب، قوي الإرادة.

ـ سأراه في المرة القادمة. واحذر من ألا تكون قد فاتحته بالموضوع فأنا لا أسمح لك بأن تفوت الفرص المؤاتية.

ـ أمرك مطاع يا سيدتي، يمكن أبداء ذات النصيحة لاختنا الطائشة. بدت ألكسيا بعد أن ذرفت سيولا من الدموع على مستقبلها المهني، الذي وئد في المهد، مدركة لخطئها، وتم الاحتفال بعيد ميلادها في جو من السرور ولم يبق إلا يوم واحد لاتخاذ طريق العودة، واستغلت إدفينا الفرصة لتأخذ تيدي وفاني إلى أمكنة تصوير مناظر فيلم جديد يشارك فيه جورج، لكنهم لم يستطيعوا إلا الملاحظة من بعيد لأن التصوير انحصر في مكاتب الإنتاج، لكنهم استمتعوا برؤية ليليان غيش أمام الكاميرات، وأطل عليهم جورج بعد انتهاء مجموعة اللقطات، فطرحت إدفينا عليه السؤال الذي يشغل بالها منذ أن واجه مندوب فوكس أختها.

ـ متى ستقترح دورا على ألكسيا.

تنهد مستغرقا في التفكير بعد أن استند بارتياح على كرسيه وأجاب:«لا أعلم، لماذا؟ هل غدوت مديرة أعمالها؟.

ـ كلا، إنما فكرت أن مثل هذا الإقتراح إن ورد منـــك سـيطفئ لواعج فؤادها. إنها تعاني من الهوس الذي عانيته تجاه السـينما، يـا جورج.. وهي جميلة جدا... وأنا أعلم إنها ما تزال في مطلع العمـر، وغير ناضجة، ولكن خلال سنة أو سنتين..

ـ لا تربكيني يا إدفينا، إن النجاح في هذه المهنة يتطلب أنيابا وأظافر.

ـ إنه لا يحبذ رؤية ألكسيا تعمل في مثل هذا المجال، فهو كسام الـذي أبعد ابنته بعناية عن حقارة نظام النجومية، وقال هذا لإدفينا فأذعنت.

ـ نعم، والواقع أن هيلين لا تقل جمالا عن ألكسيا.

ـ إن والدها يفضل أن يغلق عليها بالمفتاح ولا يسمح لها بأن تغدو ممثلة. فهو يعرف جيدا هذا الوسط المشبوه بحيث لا يغامر بـانخراط ابنته فيه.

كانت هذه خاتمة أقر فيها عدم القبول. وهزت إدفينا رأسها.

ـ في هذه الحال أنا امتثل لرأيك. هي فكرة طرأت على البال.

ـ بالمناسبة أين هي؟

ـ أنها في الفندق تستريح.

ـ أمتأكدة أنت؟

دفع هذا السؤال إدفينا إلى الابتسام؛ فمنذ بعض الوقت تدور تحفظـات جورج حول الريبة الخالصة، فهو يرى في كل رجل يوجه الكلام لألكسـيا كائنا سيئ النية يجب الحذر منه، وأبدت هذه الملاحظة له، فضحك بـدوره معها. ذهبوا بعد التصوير إلى الغداء، ثم رافقهم جورج في السيارة إلـى الفندق، قبل أن يعود إلى الأستوديو. لم تكن ألكسيا في غرفتها. وأرسـلت إدفينا تيدي يبحث عنها، وعاد الفتى الصغير بعد قليل مخفقا فهو لم يجـد ألكسيا لا في الصالون الكبير، ولا على حواف المسبح.

ـ لعلها تقوم بدورة قبل السفر على أمل أن تشاهد للمرة الأخـيرة أحد أفلام توم ميكس في الجوار.

ساعدت فاني إدفينا في حزم الحقائب، ومع هبوط الليل لم تظـهر

ألكسيا، وبدأ قلق إدفينا يتحول بهدوء إلى ذعر؛ فلعل جورج على حق في شكوكه؟! وتهالكت الشابة على الكنبة فريسة اضطراب حائر. كانت تود مخلصة أن تمنح ألكسيا ثقتها. لكن هذه كانت مختلفة تماما عن بقية أفراد العائلة؛ فهي كثيرة الانغلاق على نفسها، وكثيرة الغموض والوجل؛ وقد تعلقت طوال طفولتها بالراشدين كما تفعل الآن، كانت تكن ودا عميقا لإدفينا وجورج، لكنها لم تبرأ أبدا من الصدمة التي خلفها موت فيليب الذي يبدو انه أثر بها أكثر من موت والديها. إنها مخلوقة مرهفة الشعور، روح حساسة؛ دفعتها الحاجة الماسة للشعور بالأمان إلى أن تتعلق، بحماسة، حيرت إدفينا، بالأشخاص المتقدمين في العمر من أصدقاء برت، وبالطبع بفيليب، وقد ازداد هذا البحث القانط عن أب هياجا مع مرور السنين.

في الساعة الثامنة مساء اتصلت إدفينا بجورج: «إنني آسفة لإفساد السهرة عليك، لكن ألكسيا ليست هنا ولا اعلم مكان وجودها.

أجل مشروع سهرته، ووصل، ببزة السموكن إلى الفندق بعد عشرة دقائق. قائلا:

ـ ألم تشاهديها مع أحد؟ آمل ألا تكون مع مالكولم ستون، على كل حال ليست غبية إلى هذا الحد.

صححت إدفينا وهي تحبس دموعها:«إدفينا ليست غبية، لكنها صغيرة السن.

علق جورج بعنف ناسيا أنه ما يزال في الرابعة والعشرين من عمره: ليس الصبا عذرا، وأنا أيضا كنت صغير السن، ولكنني لم أكن أختفي، لأي أمر، كل ثلاثين ثانية، والأسوأ إن كان ذلك مع خمسيني شائخ!

ـ جورج لا تضع الوقت أرجوك، فربما حصل مكروه لالكسيا..

هز كتفه بغضب، كلا لم يحصل شيء لهذه الحمقاء، فهوليوود ليست جحر قطاع طرق، ولا يختطف فيها إنسان بالقوة. يجب أن تكون قد رافقت فردا ما بملء إرادتها، وهذا الفرد هو مالكولم ستون

النذل... وأحس براحتي يديه تخزانه.

تفجر قائلا: يا للغبية! إنها لكثرة ترددها مع هـذا القـذر على المرابع الغاصة بالمخبرين الصحفيين الذيـن يـترصدون الأخبـار، تحرض صحف الإثارة التي لن تلبث أن تتناول هذا الموضوع.. وهـذا بالضبط ما أريد تجنبه.

ترك إدفينا وحدها، وذهب إلى قسم موظفي الاسـتقبال، وأمطـر موظفيه بالأسئلة ودس خفية بعض إكراميات فـي جيبيـن أو ثلاثـة جيوب، وعاد بعدها غاضبا ينبئ إدفينا.

ـ أختك تلهو ببساطة في **روزاريا بيتش**، مع مالكولم ستون، فـهذا الوغد قد استأجر سيارة... ـ وقلد جورج بغضب صوت مخـبره ـ «نعم، كانت فتاة شقراء رائعة الجمال ترافقه». هل تعلمين مـا هـو **روزاريا بيتش**؟ مربع ليلي مشبوه على الطرف الآخر ضمن الحـدود المكسيكية، غير خاضع لقانون تحريم الكحول، ويمكن لعشـيرين أن يلقيا غرفة لقضاء الليل.

ـ يا إلهي! ـ بدأت إدفينا بإرسال تيدي وفاني إلى غرفتيهما لتجنـب الاستماع إلى هذه المناقشة الشاقة وسألت جورج :«ماذا سنفعل الآن؟

ألقى نظرة على ساعته، وكانت عقاربها تشير إلى الثامنة والنصف مساء وقال بصوت عاصف: إذا أسرعنا يمكن أن نصل قبل الحاديـة عشرة للإتيان بألكسيا.

وإذا كان ذلك الوغد قد تجرأ على مد يديه القذرتين إليها فسأقتله.

اعتبرت إدفينا مرد هذه التهديدات عائدا إلى الغضـب، وتنـاولت بسرعة معطفا من خزانتها، وذهبت توصي فاني وتيدي بألا يخرجـا من غرفتيهما لأي عذر، ولحقت بجورج في الرواق؛ وبعد قليل كانـا ينطلقان في اللينكولن بأقصى سرعة باتجاه الجنـوب. بعـد سـاعتين وصلا إلى **روزاريا بيتش** الممتد على شاطئ منعزل، إنما يمكن علـى أنوار لافتته رؤية العديد من السيارات الأمريكية الفخمة المرصوفـة

جنبا إلى جنب، حيث يأتي الناس للمقامرة واللهو بعيدا عـــن سـلطة قانون المنع في لوس أنجلس.

اجتازا العتبة دون أية كلمة، وشعرت بجورج متوترا، وهو جاهز لإثارة فضيحة وتحري جميع غرف الطابق الأول للبحث عن ألكسـيا. ولحسن الحظ كان الثنائي ما يزال في قاعة اللعـب، وكـان مـالكولم ستون جالسا إلى المائدة الخضراء يلعب البكرا، وبدا عليـه السـكر، وألكسيا تجلس إلى جانبه، ويبدو أنها شربت بدورها بعـض الكحـول إنما بشكل غير كاف لتهدئة عصبيتها وكـانت أولـى مـن لاحظـت أخويها، وكاد يغمى عليها؛ واجتاز جورج القاعة بقفزتين وأمسك بـها من ذراعها ودفع بها بقسوة نحو البار

ــ أوه.. أنا ...

لكنها كانت عاجزة عن المتابعة، ورفع مالكولم نظره وقال بـبرود وهو يكشف عن كامل أسنانه بابتسامة ماكرة:«عجبا! أنت هنا؟.

لكن جورج لم يبتسم بل قال وهو يكظم غيظه.

ــ يبدو لي أنك لم تفهمني جيدا في المرة الأولى، سـأكون اكـثر وضوحا الآن، ألكسيا في السابعة عشرة. فاستمر في التحويم حولـها لأرفع عليك دعوى إغراء قاصر، وبذلك تودع كـل سـيرة عملـك ككوميدي يا ستون.. هل أنا واضح بما فيه الكفاية هذه المرة؟

ــ تماما، في الواقع أسأت فهم إنذارك الأول.

خلع جورج سترة السموكن وألقى بها على كرسي، وأمسك مالكولم من ياقته، وألزمه على الوقوف، ووجه إليه ضربة عنيفة من قبضة يده على فكه، واتبعها بأخرى على ضفيرة عنقه؛ وهو يهدر

ــ أرجو أن يذكرك هذا جيدا من الآن فصاعدا.

خر مالكولم ستون على ركبته، غائبا عن الوعي.

وتناول جورج سترته تحت أنظار الحضور المنذهلين ودفع ألكسـيا بقسوة نحو باب الخروج وإدفينا تتبعهما.

-XXVII-

كانت العودة إلى سان فرنسيسكو شاقة على الجميع، وخاصة على ألكسيا، التي ما فتئت تبكي طوال الطريق، دون انقطاع، بدموع حارة، فإضافة إلى ما هددها به جورج من عقوبة، فإن موقف مالكولم منها قد أذلها، ففي بداية مغامرتها الطائشة لم تخطر لها فكرة نية الكوميدي بقضاء الليل معها، لكنها أحست بذلك غريزيا عندما برز جورج وسط القاعة العابقة بالدخان، كفارس مقدام في شكة سلاح براقة، فتجلت لها الحقيقة، وشعرت بالخزي، مع أن مالكولم أعد كل شيء ليكسب ثقتها، فعاملها كفتاة صغيرة، وكان يناديها «يا طفلتي» بصوت متملق سكب في نفسها ارتياحا فريدا. لكن ما من شيء يحل محل شعور الأمان الذي تحس به قرب إدفينا... وجلست ألكسيا في اللينكولن بانفراج كبير.

وجه إليها جورج تأنيبا مرا طوال الطريق بين الحدود المكسيكية والفندق.

وصاح في النهاية كخاتمة لتعنيفه بعد وصولهم: «لن تضعي قدمك بعد الآن هنا، إذ لا يمكن الوثوق بكلامك، ولو إنني في مكان إدفينا لحبستك في أحد الأديرة، إنما من حظك أنك تعيشين معها وليس معي.

ذهبت ألكسيا للنوم مجروحة الفؤاد. وتناول جورج كاسا أخيرا برفقة أخته البكر لكن لم يهدأ، بل زاد تفجرا، وهو يتهالك على أريكة ويطلق تنهدة خانقة، وهو يجرع رشفات من كأس الويسكي:

ـ اللعنة، هذه الحمقاء لم تعي في أية ورطة كانت ستقع. كدنا نصل إلى توقع يوم نرى فيه ابن حرام بين ذراعيها، لو لم نتدخل في الوقت المناسب..

لم يعد ينقصنا إلا هذا.

ـ جورج !
ـ هذا ما كان محتملا حدوثه، يا عزيزتي، لكنها غير قادرة على الفهم.
ـ لقد فهمت الآن.

أكدت لها ألكسيا ذلك قبل وقت قليل، عندما صحبتها إلى غرفة نومها وساعدتها في خلع ثيابها، بينما كانت دموع الخجل تغشي عينيها. ووضعتها إدفينا في السرير وأحاطتها بكل حنان كما لو أنها طفل صغير أخطأ. إن ألكسيا الآن في مرحلة النضج، رغم بعض المظاهر الطفولية في طباعها. فالصدمات النفسية التي تعرضت لها في الماضي جعلتها عطوبا عزلاء أمام حقائق الوجود القاسية. ما من أحد في العالم يمكن أن يعطيها ما تحتاج إليه، وما ينقصها بمرارة... ألكسيا ستبقى دائما في بحث عن الأب والأم اللذين فقدتهما وهي في السادسة من عمرها، خلال ذلك الليل الرهيب الذي دفعتها فيه يدان مجهولتان من فوق حاجز الباخرة مع دميتها إلى قارب إنقاذ.

شرحت إدفينا لجورج: «كان قد وعدها بأن يعيدها. وكانت تجهل كل شيء عن مخططه، بالتأكيد، لكن تجلت لها بوضوح نيته عندما وصلنا لنجدتها كبطلين في أحد أفلام المغامرات.

ـ قال وهو يحرك أصابعه التي ما زالت تؤلمه عقب اللكمات التي وجهها إلى مالكولم: «حظها كبير، فالأبطال نادرون في الحياة، وخاصة إن كان الموضوع يتعلق بقذرين من صنف ستون. تتملكني الرغبة بقتله لمجرد التفكير بنواياه. آه ! لو تجرأ على إبداء أية مقاومة أو إن يحاول التعرض لها في المستقبل»
ـ لن يفعل هذا، غدا سنعود إلى سان فرنسيسكو، وحتى موعد مجيئنا من جديد إلى هنا، يكون قد وجد بالتأكيد ضحية جديدة... أي وسط تعيش فيه يا عزيزي المسكين!

أضحكته ملاحظتها المتحسرة، أخيرا كان الروع أكبر من الضرر ومرت الورطة بسلام.

استأنفت بدعابة لاذعة: إنما لاحظ أنني بدأت أتذوق الحياة في هذه المدينة الممتلئة بالمفاجآت، رغم تقدمي في العمر.

التفت نحوها وقد بدرت منه ضحكة جديدة، وكما في كل مرة ينظر إليها، أدهشه بريق عينيها، فإدفينا أكثر جمالا من أي وقت مضى، بشعرها المقصوص والمحيط بوجهها الناعم في تسريحة على طراز جان دارك...

«خسارة أن تبقي دون زواج» تسللت هذه الفكرة إلى خاطره مرة أخرى وكأنها تبكيت ضمير.

ــ أنت حقا جميلة يا ويني! انتظري قليلا وسأجد لك عريسا.

قهقهت بمظهر يعني أن الزواج بالنسبة لها لم يعد في أولويات اهتماماتها. والعرسان يجب إيجادهم لألكسيا وفاني... دون نسيان هيلين.

ــ تعني واحدا كمالكوم ستون؟ هذا يثير الرهبة.

ــ يمكن أن يوجد من هو أفضل في هذه النواحي.

ــ رائع! أنبئني عندما تعثر على هذا العصفور النادر، وحتى ذلك الحين، يا أخي الصغير العزيز ــ وانتصبت وهي تتمطى بلطف ــ سأعود إلى مدينتنا القديمة الطيبة سان فرنسيسكو حيث تختصر الحياة الاجتماعية باستقبال عابر لدى آل كروكر، وحيث الأقاويل الأكثر هذرا تنحصر بقليل من الأشياء «هل رأيت سيارة فلان الجديدة؟»، «هل لاحظت النظرات المتبادلة بين فلان وفلانة خلال أمسية افتتاح الأوبرا؟»

تنهد قائلا: يا لقدس الله! ليس غريبا أن فكرت بهجر تلك الضيعة!

لكنها اتمت ملاحظتها بتثاؤبة كبحتها سريعا وهي ترافق أخاها حتى المدخل: «إنما هناك ما من أحد جرب حتى الآن أن يغوي أختك الصغيرة»

ــ هي ذي ميزة حسنة. طابت ليلتك يا ويني.

ــ تصبح على خير، أيها الأخ الحبيب، شكرا على كل شيء يا جورج.

قبلها بلطف على وجنتها قبل أن يخرج ليستقل سـيارته اللينكولـن الأثيرة المغشاة بالغبار عقب تلك المغامرة الهوجاء، وانطلق بهدوء من أمام الفندق وهو يفكر بهيلين التي اشتاق إليها، ثم تحولت أفكاره نحـو إدفينا التي تستحق كل الفخر.

-XXVIII -

جاء جورج إلى سان فرنسيسكو بعد شهرين دون سابق إنذار. ولم يكن قد بدرت منه أية أخبار منذ مدة، لكن إدفينا لم تقلق بشأنه وهي تعلم أنه غارق في العمل.

صعد الممر الضيق المؤدي إلى المنزل وابتسامة عريضة تشرق على وجهه، وأعلن عند وصوله بزهو أنه قد طلب يد هيلين وأن الفتاة الشابة وافقت سريعا على الخطبة، فالعالم الآن ملكه، واغرورقت عينا إدفينا بدموع الفرح، لكنها استدركت في اللحظة التالية وسألته فجأة

ـ وشراكتك مع سام؟

ـ كنت على حق، فقد كان رد فعل هيلين كما توقعت تماما، وكذلك سام، وعندما عرضت تحفظاتي، عقب عليها بأن من الحمق إعارة الاهتمام لمثل هذه الأمور، فهو يعرف عواطفي بالنسبة لابنته، ولا يبالي قطعا بالشائعات، وهو مسرور جدا لمصاهرتي.

هتفت متهللة: تهاني ومتى موعد هذا الزواج الميمون؟.

هم الآن في شهر حزيران، ولو أن الأمر يعود إليه لتزوجا في الحال، قهقه ضاحكا وهو يقول: ليس قبل شهر أيلول، فهيلين تريد متسعا من الوقت، فهي تكد لتنظم حفل استقبال يبز أكبر إخراجات سسيل دي ميل السينمائية إذ لن يقل عدد المدعوين عن ألف شخص.

ابتسمت إدفينا، فهذا يعني، في الواقع، أنه سيكون عرسا رائعا يتلاءم مع أعرق التقاليد الهوليوودية، وهي لم تشاهد أبدا جورج بمثل هذه السعادة، استأنف حديثه بالقول: أريد أن أفاتحك بموضوع آخر، وأنت تعرفين مدى تقديري لنصائحك.

رفعت إليه بصرها مزهوة بهذا الإطراء اللطيف وسألته: ما هو هذا الموضوع؟

ـ إنه سيناريو فيلم نفكر به أنا وسام منذ سنتين، وهو مستقر في أدراج مكاتبنا على أمل أن نكتشف الفتاة المثالية لتقوم بدور يتيمة شابة..

وخطرت لنا منذ فترة فكرة جريئة... لكن لا أعلم يا إدفينا، فأنا ما زلت مترددا وغابت ابتسامته، وقطب حاجبيه، ولما كانت مستمرة في التحديق به دون أن تدرك ما يرمي إليه، استأنف:

ـ لا شك أنك خمنت ما أعني، فالأمر يتعلق بألكسيا، ما رأيك؟

تأملته منذهلة، وتذكرت صياد فوكس الباحث عن المواهب. بديهي ليس ثمة ما يقلق إن مثلت ألكسيا تحت أشراف أخيها، ويبدو أن جورج كان يفكر بذات الطريقة، إذ غرق الاثنان في الضحك، وكان جورج أول من عاد إلى بحث الموضوع جديا.

ـ لم أتوصل إلى اتخاذ قرار، ياويني، وسام يرى أن ألكسيا هي الشخصية المناسبة، وأنا أوافقه، وأعلم أنها ستجسد دور البطلة بإتقان، كما أنها ما فتئت تمطرني بالرسائل راجية أن أختبرها ... وأنا أرفض من جهة، بينما أتساءل من جهة أخرى إن لم تكن فعلا صاحبة موهبة. باختصار، إنني متردد ولا أعلم أي موقف أتخذ.

بدا عليه فعلا أنه مرتبك. وهزت إدفينا كتفيها.

ـ طرحت مطولا على نفسي السؤال ذاته، إنها تبدو شديدة الحماسة، وفي ذات الوقت متخاذلة سهلة الانقياد.. ولكن منذ شهرين كنت تعلن جازما رفضك لقيامها بأي دور في ميدان السينما، فما الذي جعلك تغير رأيك؟

أجاب بتأمل: إنه الزمن. في البدء كانت مجرد فكرة تسلط أحد المخرجين عليها تثير اضطرابي. أما الآن فالأمر مختلف.. بإمكاني أن أقنعها بتوقيع عقد بحصر العمل معنا مما يجعلها في مأمن من هذا النوع من المخاطر... شريطة ألا تفقد صوابها، بالطبع، أمام أول وافد مزده بوسامته.

لم يكن مستعدا لنسيان مغامرة ألكسيا السيئة مع مالكولم ستون، ولا الطريقة التي خلصها بها من بين براثنه.

ـ يجب باستمرار ألا تغيب عن العين فألكسيا في الواقع طفلة، إن لم تحط أحوالها النفسية بالاهتمام، فإنها تقوم بحماقات لجذب الأنظار إليها.

ابتسم قائلا: إذا فستغدو نجمة. إنهن جميعا هكذا.

ـ متى تريد أن تبدأ؟

ـ خلال أسبوع أو اثنين لتغدو حرة في نهاية الصيف.

ما من أمر يحول دون ذلك، فألكسيا أنهت الدراسة في الكلية، وفاني وتيدي باشرا عطلتهما الصيفية، وأختا إدفينا كمعظم الشابات لا ترغبان بمتابعة الدراسة الجامعية والواقع أن الفيلم سينتهي خلال شهر آب، مما يتيح لإدفينا العودة إلى سان فرنسيسكو في الوقت المناسب لتهيئة الأخوين الصغيرين للسنة الدراسية القادمة حيث سيكون تيدي في الصف الثامن، ولا يتبقى لفاني إلا سنتان في كلية الآنسة سارة ديكس هاملن للبنات.

تابع جورج: بالطبع لن تذهبي إلى تاهو هذه السنة، لكن من المحتمل أن أرسلكم إلى دل كورونادو أو كاتالينا. غير أن..

وتوقف وقد بدا طيف فكرة يلوح للحظة على قسماته.

ـ ياه ! لا يهم، الموضوع يتعلق بمعرفة مدى المجازفة في إخضاع ألكسيا لمتطلبات وضغوط التصوير.

وقفت الفتاة الشابة أمام النافذة وجالت بنظرها في الحديقة، كانت جنبات الورد التي غرستها أمها في الحديقة منذ سنوات سابقة ملأى بأكمام الزهر المتفتحة تحت الشمس الساطعة، وسط الأزاليات التي زرعتها إدفينا بدورها منذ نحو سنة.

قالت بعد فترة: أعتقد أن علينا أن نساعدها على تحقيق أحلامها.

سألها مترددا من جديد: لماذا؟

ـ لأنها لن تسامحنا أبدا لأننا رفعنا إصبع الرفض أمامها بعد أن تهيأت لها الفرصة.

ـ لسنا مضطرين للتصريح لها، ولا حاجة لمعرفتها به.

قالت وهي تتوجه إلى الكنبة وتجلس عليها: كلا، بالطبع، أما نحن فنعرف. ألكسيا تستحق أكثر مما يمكن لسان فرنسيسكو أن تعطيها، فهي استثنائية بجمالها ـ وبدت عليها ابتسامة الأم المعتزة بجمال ابنتها ـ جئت تطلب رأيي يا جورج، وإليك به: أعطها فرصتها، وإذا تصرفت لسوء حظها برداءة، فسنحبسها في غرفتها ونرمي المفتاح في البالوعة وانتظرت ليتوقف عن الضحك قبل أن تتابع:

ـ لكل واحد الحق في أن يجرب حظه مرة في الحياة. وقد قمت أنت بتجربتك

تمتم بالرغم عنه تقريبا: وأنت؟

بدرت منها ابتسامة وقالت: إنني سعيدة تماما كما أنا. ولكن لنعد إلى موضوعنا يا جورج وينفيلد، هل أستطيع استدعاء ألكسيا؟

وافق بهدوء

دخلت ألكسيا إلى الصالة قبل العشاء بقليل، وكانت الفتاة قد قضت بعد الظهر في متاجر المدينة الأكثر أناقة مع صديقة لها، وهي تلميذة ضعيفة تقريبا مثلها ومثل فاني، وهذا ما ذكر إدفينا بعبارة قالها برت قبل ذلك بسنوات:

«إدفينا وفيليب وتيدي هم أدمغة العائلة» لكنه كان سيسر للنجاح الذي حققه جورج.

دخلت ألكسيا إلى الغرفة بمظهر قلق.

ـ يبدو أنكما تريدان محادثتي، ما الأمر؟

كانت أشعة آخر النهار تحيط شعرها الأشقر الذهبي بهالة براقة، وفكر جورج تلقائيا بأنها مؤهلة فعلا لهذا الدور.

ابتسمت إدفينا وقالت: لا شيء مهم، يريد جورج أن ينبئك بشيء يسرك على ما أعتقد.

تنقلت نظرات ألكسيا الشفافة بين أختها وأخيها وسألت أخيرا: «هل ستتزوج» هز رأسه موافقا وهو يبتسم.

تخمينك صحيح يألكسيا، فأنا وهيلين سنقترن في أيلول القادم، وبانتظار ذلك الموعد هيأت مع إدفينا بعض المشاريع لك.

امتقع وجه الفتاة خلال ثانية، عن أية مشاريع يتحدث؟ هل سيرسلانها إلى إحدى هذه المدارس الداخلية الكئيبة حيث تلزم بعض كبار العائلات كريماتهن بإتمام دراستهن. لكن جورج استبق اسئلتها.

ـ هل ترغبين بالمجيء إلى لوس أنجلس ـ وبينما كان يصوغ بقية كلماته كان وجه الفتاة بشرق أمامه ـ.. لتقومي بالتمثيل في أحد الأفلام؟

نظرت إليه لفترة، ثم قفزت نحوه لتحيطه بذراعيها قائلة:

أحقا؟ آه يا الهي! هل هذا صحيح؟ هل يمكنني الذهاب يا إدفينا؟

هل ستسمحين لي؟

أضحكت فرحتها العارمة الآخرين، وغمرت وجه جورج بشلال من القبلات الممتنة.

قال وهو يزيح الذراعين المحيطين بعنقه، ويشير أمامها بسبابته محذرا.

«نعم، نعم، نعم، لكنني حريص على أن أنبهك: إنني لا أريد مشاكل!»

لا تفكري أبدا بتكرار حيلتك الصغيرة الرعناء منذ شهرين، وإلا انسي منذ الآن موضوع السينما.

أسرعت إلى إعلان موافقتها، وتعلقت بعنقه وهي تهز رأسها بعنف

ـ جورج يمكنك الاعتماد علي، سأكون نموذجا في حسن السلوك، أقسم لك. بعد الفيلم، سنعيش جميعا في هوليوود، أليس كذلك؟

تبادل جورج مع إدفينا نظرة، إنهما لم يفكرا بذلك.

ـ كلا يا ألكسيا، ستعودون إلى سان فرنسيسكو ليتمكن تيدي وفاني من إنهاء دروسهما.

هتفت بعين متضرعة:

ـ ولكن ألا توجد مدارس في هوليوود؟

ثم خطرت لها فكرة رأتها أفضل لها: «أو يمكنني أن أعيش معكما أنت وهيلين!»
تنهد جورج، بينما كانت إدفينا تضحك في سرها، وقال: كلا.
ـ لم لا؟
ـ لأنني لا أرغب في ارتكاب جريمة، أو أن أطلق قبل نهاية العام.
بدت مشوشة لكن في اللحظة التالية خطرت لها فكرت أكثر فخامة:
ـ إن غدوت ممثلة كبيرة، سيكون لي بيتي الخاص في جادة سنست مثل بولا نغري.
فيلا رائعة مع خادم، ووصيفات، وقيم للمنزل.. وسيارة.. أوه! وكلبان إيرلنديان!
تركت الغرفة مسرعة لتتابع في مكان آخر حلمها، ونظر جورج بابتسامة ماكرة إلى إدفينا:
قال متنهدا: ها نحن! نستبق متاعب كبرى، هذا ما أخشاه. قلت لسام: أريد أن أسمح لأختي بالتمثيل، بشرط ألا تنتشي بالنجاح.
وبماذا أجابك؟
ـ إنه قد سدد أتاوته للمجتمع، وأن ابنته وأختي ليستا مشكلته، والأمر يتعلق بي
ـ هوذا رجل ذو إحساس سليم.
ـ أعرف هذا... وبالمناسبة فهو يرغب بأن يدعونا إلى مطعم فخم للاحتفال بخطبة هيلين.
ابتسمت وهي تنهض: فكرة طيبة جدا، والآن هيا بنا إلى العشاء.
على المائدة أعلنت إدفينا للأولاد النبأين السارين، وهنأ تيدي وفاني ـ اللذان يكنان كل تقدير لهيلين الفاتنة ـ جورج بحرارة، وأبديا سرورهما لتوقع رحلة جديدة إلى لوس أنجلس، وبدا عليهما السرور لنبأ ترشيح ألكسيا كنجمة سينمائية مستقبلية. وللحظة قصيرة خشيت إدفينا رد فعل فاني، ولكن هذه لم تظهر أي إحساس بالغيرة من ألكسيا، بل العكس، أشرق وجهها سرورا وأرادت أن تعرف سريعا إن

كان بإمكانها حضور تصوير الفيلم، سألت بعد ذلك بقليل قلقة: سنعود بعد ذلك إلى هنا، أليس كذلك يا ويني؟

إن فاني لا تتخلى مقابل أي شيء في العالم عن البيت والمدينة اللذين شهدا ولادتها، وهي ترغب أن تعيش هنا لا في هوليوود، حتى وإن توافر لهم هناك فيلا فخمة وكلبان سلوقيان إيرلنديان.

ـــ بكل تأكيد طمأنتها إدفينا.

ـــ آه! حسن.

أقبلت فاني على طبق طعامها بارتياح. وتساءلت إدفينا كيف يمكن لأولاد تربوا معا أن تتميز شخصياتهم بمثل هذا الاختلاف في الكبر.

-XXIX-

ذهبت العائلة إلى لوس أنجلس بعد خمسة عشر يوما، وأقاموا هذه المرة في منزل جورج الذي حرص أن يرعى ألكسيا بعين يقظة. ومنذ اليوم الأول فتن تيدي بإسطبل أخيه الكبير. وفي صباح اليوم التالي جلست إدفينا في الظل المنعش على الشرفة تتأمل أخاها الصغير وهو يتبختر فوق الحصان عندما انزلقت سيارة ليموزين فخمة ضمن ممر المنتزه وتوقفت أمام درج الفيلا: كانت سيارة رولزرويس سوداء تبرق قضبان كروم عليها، وافترضت أن أحد أصدقاء جورج قادم لزيارته. ونزل السائق في بزة رسمية وفتح لسيدة الباب، وبرز في النور المعاكس والمبهر رجل طويل القامة، رياضي الجسم، ذو منكبين عريضين وهالة من الشعر الفضي، وتوقف للحظة وكأنه يريد أن يتأمل جيدا المرأة الشابة التي أعجب بقامتها الفارعة يبرز جمالها ثوب من الحرير الأزرق الفاتح، يزيد من لمعان شعرها الأسود القصير وهي تمسك بين أصابعها برقة سيكارة، وقابلت إدفينا نظرة الرجل المتأملة بمثلها للحظة قصيرة، ثم ألقت سيكارتها وقد أشرق وجهها بابتسامة عذبة وتمتمت.

ـ اعذرني، لم أعرفك، أنت السيد هورويتز أليس كذلك؟

تناول اليد الرقيقة التي مدتها إليه، مبتسما بدوره. لقد قدمها إليه جورج منذ بضع سنوات، خلال إحدى الأمسيات، وأفتتن بذكائها، ورفعتها، ولطفها والآن وكأنه يكتشفها من جديد، أدهشه جمالها...

أجاب بصوت رصين، شبه لا مبال: أرجو أن تعذريني بدورك، فأنا أيضا لم أعرفك، وللحظة ذهلت وأنا أتساءل ماذا تفعل هذه الشابة الجميلة لدى صهري المقبل.

... وتراءى له وهو يستعيد رغما عنه سياق أفكاره هذا

الجمال المتفتح المشع رغم بساطة هندامها وخلوه من أية حلية صارخة.

أضاف: إنني مسرور لمجيئكم، وكذلك هيلين، وأشكرك لقبولك حضور تمثيل الفيلم، كما أن جورج سعيد جدا.

كل شيء يشير إلى الرجل القادر المهاب. لكن سام هورويتز بعيد عن طغمة السينمائيين المتكلفة، فقد عرف كيف يحافظ على المظهر الطبيعي والبساطة اللذين لاحظتهما إدفينا لدى هيلين، ورغم وضعه الاجتماعي الرفيع، فإنه يعبر بلطف محبب يريح محدثيه. وجنبا إلى جنب راحا يتأملان مشهد تيدي فوق مطيته، وأشار إليهما الفارس الصغير بيده محييا عند مروره، ورد عليه سام في الحال ولم يكن قد تعرف على صغار آل وينفيلد حتى حينه، إنما كان قد عرف عن طريق جورج قصة عائلته المؤلمة، فذات مساء حدثه جورج بالتفصيل عن المأساة المفجعة التي قضى فيها أهله نحبهم، وكيف قامت إدفينا بتربية أخوته وأخواته، وتأملها من طرف عينه دون أن يخفي إعجابه بها، وقال في نفسه «جميلة وشجاعة».

وأعاده صوتها إلى الأرض وهي تسأله:

ــ أتحب أن تتناول فنجانا من الشاي؟

«أخيرا ها هي ذي إنسانة لا تلزمك على ابتلاع الشمبانيا في الساعة الحادية عشرة صباحا!» وقبل بارتياح، وتبعها إلى الداخل وهو يحاول إبعاد نظره عن طيف ساقيها الرشيقين، وتأرجح ردفيها بخفة تحت الثوب الحريري.

طلبت المرأة الشابة من قيم الدار أن يحضر لهما الشاي قبل أن تقود ضيفها عبر مكتبة واسعة ذات نوافذ مغلقة إلى فسحة مظللة مؤثثة بموائد حدائقية وكراسي من الخيزران الإنكليزي.

سألها بعد أن أتى القيم بالشاي: هل أنت مسرورة في لوس أنجلس؟

ـ كثيرا، وأنا أحتفظ بذكرى رائعة عن زياراتنا السابقة لمدينتكم، والأولاد يعودون إليها بفرح ـ وابتسمت ـ وهذا الفيلم حدث كبير بالنسبة لهم، أما ألكسيا فهي في قمة السعادة، إن هذه الصغيرة محظوظة.

ـ إنها محظوظة لأنك قربها. إن هيلين كانت تتمنى لو حظيت بعائلة كعائلتكم...

فهذه الابنة المسكينة قضت سنوات طويلة في عزلة بصحبة والدها الكهل.

ارتعش قبس شفقة في عمق الحدقتين الزرقاوين القاتمتين، وحولت المرأة الشابة نظرها وقالت هامسة:

ـ «لكل عائلة غائبوها، وجراحها»... ثم أضافت وقد ارتسمت على شفتيها المكتنزتين ابتسامة منتصره: وأخيرا واجهنا المحنة وتغلبنا عليها».

وأحنى رأسه منفعلا، إنها كائن استثنائي، امرأة خارجة عن المألوف ليس فقط بسبب جمالها أو أناقتها. بل إن قوة مشرقة تنبثق منها.

لقد لاحظ ذلك خلال لقائهما الأول، كما لاحظ هذا الاعتزاز النادر الذي يجعلها أكثر جاذبية.

سألها بفضول ساذج دفعها إلى الابتسام من جديد: «ما هي مشاريعك للأيام القادمة. هل ستنتهزين الفرصة لزيارة مواقعنا السياحية الساحرة؟ أم ستكتفين بالتردد على الأصدقاء؟

بدرت منها ضحكة أثيرية، ومن جديد أحس سام أنه واقع تحت تأثير جاذبيتها. إنها تذكره بابنته في بعض الفترات، لكن شخصية إدفينا تبدو أكثر قوة، وأكثر استقلالا.

ـ إنني أقوم بدور القهرمانة العقوق بالنسبة لنجمتك المقبلة يا سيد هورويتز.

يبدو ظاهرا أن جورج لم يطلعه على مغامرة ألكسيا المزعجة، ومع ذلك فقد أيد موقف إدفينا بمظهر رصين. فهو يدرك شعورها تماما، وقد كان سيتصرف كتصرفها بالنسبة لهيلين.

تابعت: إنها اليوم في المدينة مع جورج، لذلك أنا هنا مع الولدين الأصغر عمرا. لكن اعتبارا من نهار الغد سأقوم بوظيفة الحارسة، والماشطة، والمرشدة.

زاد على قولها وهو يضع فنجانه على الصينية ويمد ساقيه: إنه عمل العبد الروماني.

كان يبدو في نحو الخمسين من العمر... وهو بالتأكيد رجل جذاب دون شعور منه بذلك. وفجأة تنبهت إدفينا لشيء جديد، فها هما وحيدان يثرثران منذ اكثر من نصف ساعة بألفه صديقين قديمين، لكن وصول تيدي أنهى حلم يقظتها، وقامت إدفينا بمهمة التعارف وصافح الفتى سام، وبعد بعض عبارات المجاملة، التفت تيدي إلى أخته وعيناه تبرقان إثارة وقال

ــ هذه الأحصنة رائعة يا ويني! لقد جربت اثنين منها.

أراد أن يبدأ بجواد عربي، لكن سائس الإسطبل اقترح عليه حصانا أقل جموحا.

تابع الفتى فجأة: كم أحب أن أعرف من أين اشترى جورج هذه الخيول؟

ــ لا أعرف يا حبيبي، يجب أن تسأله.

قال سام: تخليت له عن أحدها، وهو هذا الذي كنت تمتطيه الآن، إنه حصان رائع، وأنا أتأسف عليه أحيانا.

توجه إلى تيدي بهذه اللهجة المتوددة والمنشرحة التي سرت لها إدفينا كثيرا ونظر إليه الفتى متشككا وقال: «لماذا بعته إذا؟»

ــ جورج وهيلين مغرمان بالفروسية أما أنا فقد تجاوزت عمر التعلق بهذه الهواية.

كان يتحدث بلهجة مازحة. أبدت إدفينا حركة استنكار وقالت:

ــ لا تنظر هكذا إلى نفسك يا سيد هورويتز.

ــ ناديني سام، وإلا فسأشعر أنني أكبر عمرا أيضا. ولا تنسي أنني سأغدو قريبا جدا.

بدأ تيدي يضحك، وقلده سام، وتبعتهما إدفينا بدورها.
وفي اللحظة التالية رفعت حاجبيها وسألت.
ـ هل هناك شيء يجب أن أعرفه عن هذا الزواج؟
أسرع سام لطمأنتها، إنه يعبر بكل بساطة عن أمل. والواقع أن الأمنية الغالية عليه رؤية حشد من أحفاده يقفزون في كل مكان حوله. وقد كان هو بالذات يرغب بأولاد كثر لو لم يفقد زوجته في وقت مبكر...
وملأت إدفينا مرة أخرى فناجين البورسلين بالشاي وتمتمت: «يجب أن يكون للشعور بعمومة طفل أو طفلة تأثير غريب».
حتى الآن لم تفكر بهذا، فقد ربت خمسة أولاد وكأنهم أولادها، لكنها لم تهتم أبدا بأولاد الآخرين. ووعدت نفسها بدراسة هذه المسألة فيما بعد.
قبل أن يستأذن سام بالانصراف دعاها إلى منزله في مساء ذلك اليوم بالذات
ـ مع الأولاد بالطبع.
ـ لو كنت في مكانك لفكرت مرتين قبل المغامرة بدعوة هؤلاء الفتيان، يا سيد هورو... أو عذرا !.. يا سام.
وتلونت وجنتاها بحمرة خفيفة، وابتسم سام قائلا.
ـ بل بالعكس، هذه مناسبة سارة لي، وأنا حريص على دعوة تيدي وفاني وألكسيا وجورج طبعا، إلى مائدتي. لم أنس أحدا، اليس كذلك؟
ونهض واقفا، وهو يتأمل إدفينا من طول قامته، ورفعت نحوه عينين مندهشتين، ومرة أخرى أحست بالإغراء المنبعث من هذا الرجل يغلفها كهالة. كان طويلا جدا، وجذابا في الواقع.. ولكن يا لها من فكرة عبثية! فهذا الرجل والد زوجة أخي المقبلة، ولا شيء آخر.
ـ سأرسل سائقي للإتيان بكم في الساعة السابعة مساء.

ـ شكرا.
ورافقته مع تيدي حتى باب الخروج.
ـ إلى هذا المساء.
وتوقف لفترة على المدخل قبل أن يشد على يدها مصافحا، ثم انزلق على المقعد الخلفي من الرولز، وبعد دقيقة كانت السيارة الفخمة تبتعد.
سألت فاني وهي تخرج إلى درج المدخل: من يكون هذا الرجل؟
أجابت إدفينا بلهجة هادئة، وعيناها شاردتان.
ـ والد هيلين، دعانا إلى العشاء هذا المساء.
عاد تيدي يشيد بمدح الخيول، وقال في النهاية: سأذهب لتجريب الجواد العربي.
ـ يجب ألا تفعل، يا كنزي.
بدا على تيدي الحرد، لكن فاني لم تتح له الفرصة للاحتجاج عندما سألت
ـ هل من الضروري حقا أن نذهب إلى هذا العشاء؟
ـ نعم يا عزيزتي، يجب ذلك.
عادت ألكسيا بعد فترة إلى المنزل وبعكس فاني أظهرت حماسا كبيرا لدعوة هورويتز. لكنها شكت من هندامها وطلبت من إدفينا أن تعيرها أحد فساتينها، كانت قد وقعت عقد العمل المنظم من قبل جورج، وبدت وكأن لها أجنحة للطيران.
تنهدت وهي ترتدي ثيابها قائلة: كم أرغب أن ألهو هذا المساء!
جاءت الرولز لنقلهم في الساعة السابعة تماما حسب الموعد، وبدرت عن ألكسيا صيحة إعجاب وهي تراها وأسرعت لتأخذ مكانا فيها مع أخوتها، بينما فضل جورج أن يذهب بسيارته، إذ ربما رغبت هيلين في الخروج بعد العشاء.
كان منزل آل هورويتز أشبه بقصر يسيطر ببهائه على منازل الجوار رغم مهابتها وينم داخله على الجمع بين حسن الذوق والرخاء

ـ تتابع صالات عالية السقف ـ مع خشب محفور وزخارف جص ثمينة تغلف الجدران، وأثاث عصري، ولوحات لكبار الفنانين، وأرضية من الرخام الأبيض تظهر جمال سجاجيد الأوبوسون ذات التفردات اللونية الرائعة.

استقبل سام مدعويه ببساطته المعتادة، وقبل إدفينا على وجنتها وكأنه يعرفها منذ زمن، وطلب من الأصغر سنا أن يتصرفوا على هواهم، وقامت هيلين المتألقة باصطحاب فاني وألكسيا لزيارة غرفتها ودهشت الأولى أمام مجموعة دمى البورسلين القديمة لديها، بينما بهرت الثانية بقاعة الحمام ذات المغطس الواسع المركب من الرخام الوردي.

وفي الوقت نفسه صحب سام تيدي وإدفينا إلى اسطبلاته حيث ترتع الخيول العربية الأصيلة وخيول سباق كنتكي ضمن حظائر ومروج معشوشبة تخلع عليها آخر إشعاعات المساء كل ما يوحي بترف المكان. وفجأة أدركت إدفينا سبب تردد جورج في طلب يد هيلين.

خلال العشاء دارت الأحاديث حول موضوعات عادية، وعرضت هيلين بحيوية مشاريعها للمستقبل. فهي رغم جمالها الفاتن وأناقتها الصارخة، لا تطمح لأكثر من أن تقوم بشؤون منزلها وتربية أطفالها، وقد أسرعت فاني بتأييدها في رأيها، بينما زمت ألكسيا شفتيها بشيء من السخرية قائلة: «أوه! كلا، فأنا لن أكون قعيدة بيت!»

قال سام وقد بدا عليه الانشراح: «حقا؟» وما هو تصورك للحياة، يا آنستي الشابة.

ولم تتردد لحظة في الإجابة: «أن أخرج، وألهو، وأرقص طوال الليل، وأمثل في الأفلام... وأهرب من نير الحياة الزوجية.

ابتسم رب المنزل قائلا: إنه برنامج واسع، أتمنى لك تحقيق أمنياتك، إنما ليس كلها، فخسارة في الواقع أن تبقي عانسا.

ما كاد يلفظ الكلمة الأخيرة حتى غاضت ابتسامته، وتوجه بنظره إلى إدفينا بمظهر الآسف: وبدرت منها ضحكة مشرقة وهي تعقب:

ـ قل ولا تبال يا سام، إنني عانس وأنا معتزة بوضعي.

استمر في تأملها دون أن يبتسم وقال برصانة:

ـ لا تثيري السخرية، لو أن أهلك ما زالوا على قيد الحياة لأسست عائلة منذ زمن طويل.

اكتفت بأن هزت رأسها. ليس بالضرورة، فالقدر يلعب أحيانا مع الإنسان أدوارا غريبة. بديهي هذا صحيح لو أن شارل بقي حيا... أما الآن، فيبدو متعذرا أن تتصور حياة أخرى.

قالت بهدوء: لا يمكن أن نغير تصاريف القدر.

غيرت هيلين ببراعة موضوع الحديث، وفيما بعد، وهم يتناولون كأسا مهضما في الصالون، راحت تداعب والدها على انفراد مبدية دالتها عليه وتجهم سام قائلا: لا يمكن أن أتغلب على ضعفي أمامك.

لكنه لم يستطع أن يمتنع عن التفكير بالخطيب الغامض الذي قضى منذ سنوات على متن التيتانيك وما تزال إدفينا مخلصة لذكراه.

قالت هذه: تأخر الوقت وحان موعد إعادة الأولاد إلى المنزل.

إنها تسميهم دائما هكذا رغم حرد ألكسيا.

واقترح سام: «أدعوك بعد ذلك مع جورج وهيلين لتناول كأس أخير في ملهى (كوكوآنوت غروف)»

«لم لا؟»

وفي الليموزين التي أوصلتهم إلى المنزل، راحت ألكسيا تعبر عن حردها.

لماذا لا تدعى هي ايضا؟ لماذا تعامل دائما كمراهقة؟. لكن إدفينا بقيت باردة كالمرمر.

ـ ما تزالين في مطلع العمر يا حبيبتي، وأمامك حياة كاملة للهو.

ثم قطعوا بقية الطريق إلى المنزل في صمت ثقيل.

عهدت إدفينا «بالأولاد» إلى قيم منزل جورج وخرجت متقدمة إلى سيارة الرولز حيث استقبلها سام على المقعد الخلفي وهو يقدم لها كأسا

من الشمبانيا المبرد من محفوظات بار السيارة.

قالت وهي تنقد عابثة الشطط الهوليوودي: آه من هذه المناسبات المغرية بالشراب الذي يمكن أن يتحول إلى عادة مشؤومة.

قال بعد أن طلب من السائق الانطلاق: لا أعتقد أنك ممن يرضخون للعادات، يا عزيزتي، فأنت أقوى بكثير من ذلك.

وتلاقت أنظارهما، كانت قزحيتا عينيه الزرقاوان الفاتحتان تومضان في شبه الظلمة.

أكدت على قوله: ربما كان هذا صحيحا.

ـ ما من شك في ذلك، وإلا لما ضحيت بحياتك لتربية خمسة أولاد ورفع كأسه بصمت، وقلدته إدفينا قائلة: صحة عزيزينا الخطيبين، وابتسم سام وكان جورج وهيلين يتبعانهما في سيارة الشاب، ولكن لأول مرة لم تكن ابنته العزيزة هي موضوع تفكيره الوحيد.

رقصوا خلال ساعات في **كوكوانوت غروف** كأنهم أربعة رفاق قدامى، وقص سام بعض الفكاهات المضحكة، ونافسه جورج في ذلك، ثم رقصت هيلين التانغو مع أبيها، بينما راقص جورج إدفينا، ثم أجروا التبادل، واحست إدفينا وسام يحتضنها بسعادة غريبة، وتناسقت خطواتهما وكأنهما يرقصان معا منذ مدة طويلة، وشعرت وهي بين ذراعي سام أنها خفيفة كالريشة.

وعادا إلى المائدة بينما بقي الخطيبان على حلبة الرقص، وشعرا أنهما وحدهما في العالم، وراح سام يحدثها عن الماضي، فهو أيضا قد اجتاز محنا شاقة، تمتم أخيرا كخلاصة: لم يكن الأمر سهلا، وغالبا ما اعتبرتني هيلين قاسيا جدا. إن من الصعب الاهتداء إلى التصرف الملائم مع الولد.

ـ إنها تعبدك

استمر جورج وهيلين في الرقص. كان كل منهما يبدو وكأنه خلق للآخر، وملأت السعادة المتجلية على وجهيهما نفس إدفينا بفرح لا

يوصف، إنما خالطته فجأة كآبة فريدة، فلأول مرة منذ مدة طويلة تراءى لها شبح شارل الباهت ينبثق من إحدى زوايا ذاكرتها. كانت قد خلعت خاتم الخطبة منذ عدة سنوات، وغالبا ما لامست إصبعها، وهي تنقب في علبة حليها، ألماسته البراقة في إطارها الرائع وغشيت عينيها الدموع.

طلب منها سام أن يعودا إلى الرقص عندما عزفت الأوركسترا موسيقى تانغو مجددا ونهضت وهي مسرورة لانها تخلصت من ذكرياتها المبهمة، وبينما تمايلت منتشية مع الأنغام، وقع نظرها على جورج وهيلين. إنهما يشكلان ثنائيا رائعا. وفكرت باعتزاز بمهارة جورج في الرقص، وقالت في نفسها إن سام قد نال في صلته بأخيها كل ما يتمناه.

كانت الساعة الثالثة صباحا عندما قرروا العودة إلى المنازل، وعلى درج الفيلا عانق جورج خطيبته بينما انحنى سام على يد إدفينا الناعمة

قالت: شكرا على كل شيء.

أجاب وهو ينتصب: يجب علينا أن نذهب للرقص غالبا.

لكن إدفينا أحست بعد ثانية بشعور غريب بالندم.

بدأ تصوير الفيلم صباح اليوم التالي، وتقدمت ألكسيا إلى حقل أضواء الكاميرات وقد غص حلقها من الخوف، لكنها خلافا لكل توقع لم تبدر منها أية نزوة بل انصاعت بكل لطف لمتطلبات المخرج، وأعادت بعض اللقطات عدة مرات، دون أن تتفوه بكلمة، وبدت في الأيام التالية لينة العريكة في طاعة مثالية، وبعد فترة أحست إدفينا أن ما من حاجة لملازمتها فأختها تقوم بشكل مدهش بكل ما يتطلبه دورها، وكل الفريق من النجمة الرئيسة حتى آخر ممثل ثانوي يبدون الود والإعجاب لها، حتى ليصح القول أن ألكسيا قد تكيفت مع هذا العالم المحيط، وهو عالم مبتور دون شك، وممتلئ بالحيل والمكر والأوهام، إنما هو عالم يناسبها، فهم يدللونها، ويوجهون لها الكلام

بكل لطف، ويطنبون في إطرائها، ويعاملونها كفتاة صغيرة أميرة، وبالطبع فإنها لا تطلب أفضل من ذلك.

قالت إدفينا ذات مساء: هذه معجزة، لقد تغيرت ألكسيا كليا

كانوا على مائدتهم المعتادة في **كوكوأنوت غروف**، وكانت الأوركسترا تعزف أنغاما حديثة، وكان بين الراقصين رودولف فالنتينو وهو يحتضن كونستانس تالماج، وتابعتهما إدفينا بالنظر لفترة قصيرة. وكانت الأمسية لطيفة، رغم غياب سام، ولاحظت بدهشة أنها قد اشتاقت إليه.

وافقها جورج وهو يملأ كؤوس الشمبانيا لأخته وخطيبته.

ـ نعم إن ألكسيا موهوبة بل ويتحدثون عنها في الكواليس بأنها ستغدو من بطلات الشاشة، والواقع أنها تجاوزت كل توقعاتي وهذا ما يقلقني.

ـ ولأي سبب؟

لن يتأخر المنتجون الساعون وراء المواهب الجديدة لعرض عقود أخرى عليها هل تدركين ما أعني؟

نعم إنها تدرك تماما، وقد درست الموضوع من كل جوانبه، لكنها لم تهتد إلى حل. فلجورج حياته الخاصة الآن، ورغم ما تفكر به ألكسيا، فهي ما تزال في سن يستحيل السماح لها فيها أن تستقر بمفردها في لوس أنجلس.

لا يمكنني أن أبقى في هوليوود يا جورج، ففاني وتيدي بحاجة لي، ويجب أن أرافقهما إلى سان فرنسيسكو. لكن لا تشغل بالك كثيرا فسأهتدي إلى حل لهذه المشكلة.

انتهى تصوير الفيلم في نهاية شهر آب، وعادت إدفينا مع جماعتها الصغيرة إلى سان فرنسيسكو، والتحق تيدي وفاني بمدرستيهما. وبدا منزل آل وينفيلد قاتما على كبره مقارنة مع حفلات هوليوود البراقة. وكانت إدفينا تتأسف أحيانا، وهي تسترخي في الحديقة على الأمسيات العامرة في عاصمة السينما، وتقول في نفسها: «يجب أن يكون جورج

وهيلين يتناولاون العشاء في المطعم الفلاني» أو «إنهما، على الأرجح يرقصان في المكان الفلاني»

وكانت ألكسيا من جهتها لا تكف عن المطالبة بالعودة إلى هوليوود. ولحسن الحظ سيعودون في نهاية الشهر لحضور حفل الزفاف الموعود، وكانت إدفينا تأمل وتخشى في آن معا تلك الفترة، فألكسيا تريد البقاء والمشكلة ستعود إلى الظهور.

«يا ألهي!، أية معضلة!» إنها لم تجد حلا حتى لحظة ركوبهم القطار إلى لوس آنجلس.

كان جورج ينتظرهم في محطة القطار لينقلهم إلى فندق **بيفرلي هيلز**، وما أن أغلق باب الجناح عليهم حتى تهالك جورج على كنبة بتنهيدة طويلة:

ـ يا لمشقة كل هذه الحياة خارجا..تناولنا عشاءنا البارحة مساء في فندق **الكسندريا**، وما قبله في **بيكفير**، وهيلين لا تعرف أين تضع رأسها مع كل هذه التحضيرات لحفل استقبال العرس. إن الزواج مرهق.

قالت إدفينا مازحة: يا عزيزي المسكين: ولكن كيف حال العروس المقبلة؟

ـ كروعة الصبا، فهذه المخلوقة على رقتها تخفي قوة غير متوقعة. وأية ذاكرة!

إنها تتذكر كل شيء قطعا، ما من تفصيل يفوتها، من يجب أن يأتي، وأين يجب أن يجلس، وهي تحتاط لكل شيء. وما علي إلا أن أرتدي بزة الزفاف وأتأكد بأنني لم أنس الدبلة، وأتسلم بطاقات رحلة شهر العسل.

دونها لا أعرف كيف كنت سأتمكن من التصرف.

ابتسمت إدفينا، منذ شهر طلبت هيلين منها أن تكون الإشبينة الأولى وقد تأثرت كثيرا لهذه البادرة الرقيقة.

تقرر أن يحتفل بالزواج في مقر آل هورويتز الفخم. تحت المظل ذي القبة التي ستكسى بالورود والغاردينيا، وبعد ذلك سينتقل المدعوون العديدون ــ ومن بينهم أشهر نجوم السينما ــ للتحلق حول الموائد العامرة.

بينما نصبت منصتان كبيرتان في المنتزه الكبير لأفراد فرقتين من الاوركسترا ستقومان بإحياء الأمسية.

انتصب جورج قائلا: اليوم سأدفن حياة العزوبية

راحت إدفينا بعد أن بقيت لوحدها تفكر بهدية الزواج التي أتت بها لهيلين. وأطلت فاني برأسها من الباب نصف المفتوح قائلة:

ــ ويني إننا ذاهبون في جولة مع تيدي وألكسيا.

أجابت بشكل آلي: «كونوا حذرين».

ففي هذا المكان بالذات التقت ألكسيا بمالكولم ستون، لكن هذا وفقا لما ذكره جورج لم يعد يبدو له أثر. كما أن ألكسيا قد تغيرت.

-XXX-

منذ الحادية عشرة والنصف، كان كل شيء جاهزا لحفل الزفاف، ونصبت خيمتان كبيرتان من جهة وأخرى من المنتزه حيث استقرت فرقة أوركسترا في كل منهما. وبدأ جمهور متميز يتدفق على كل منهما منجذبا بأنغام بول ويتمن العذبة، المتجاوبة مع الصوت النحاسي لعازف الجاز كنغ أوليفر.

عند الظهر تماما قدمت وجبة غداء فخمة من قبل جيش من الخدم بالبزات الرسمية في قاعة الطعام الواسعة. وسام هورويتز بكامل أناقته يحيي المدعوين. وعندما رأى إدفينا استقبلها بابتسامة عريضة، واقتربت مشعة في ثوبها الرشيق من الحرير الأبيض يعلوه عقد طويل من اللآلئ ذات الإنعكاسات القزحية من مجوهرات أمها.

تمتمت: إنه يوم كبير بالنسبة لآل وينفيلد.

أجاب: وبالنسبة لآل هورويتز أيضا.

ووافقته باشارة من رأسها، فهي تعرف تماما ما يشعر به عشية فراق ابنته الوحيدة. إنه فريسة خليط غريب من الفرح والحزن العميق؛ و إدفينا يخالطها الشعور ذاته رغم أن جورج قد غادر البيت العائلي قبل أربع سنوات.

وابتسمت قائلة: إلى لقاء قريب يا سام، فأنا متوجهة لتحية ابنتك. كانت ألكسيا وفاني قد انسحبتا إلى الجناح الخاص بإشبينات العروس، بينما التحق تيدي بموكب العريس... وسارت إدفينا باتجاه غرفة هيلين.

كانت هذه جالسة أمام طاولة زينتها، وبدت بهدوء جليل. كانت ما تزال في تنورة داخلية، لكن شعرها مسرح، وأظافر يدها مخضبة، ولم يبق عليها إلا أن تنتعل حذاءها الحريري، وثوب العروس الفخم

الممدود بعناية فوق السرير؛ وقبلتها إدفينا على وجنتيها، وسرحت ببصرها نحو دوائر أسفل ثوب العرس من دانتيل شانتيي، والأزرار الدقيقة من الصدف، وتول الذيل المطرز... والطرحة المغسولة والمكوية حديثا المعروضة في غرفة الملابس المجاورة، وتكاد تملأ كل فراغها. وتلألأت الدموع بين أهداب إدفينا لرؤيتها. إنها هنا كسحابة سحرية كما كانت منذ إحدى عشرة سنة، عندما حلمت إدفينا، وهي الخطيبة الشابة بوضعها لشارل. وقد قدمتها الآن لهيلين... والتفتت على وقع خطوة عابرة، كانت العروس واقفة على عتبة الغرفة، وعيناها مخضلتان بالدمع، ومدت يدها بلطف لتلامس كتف إدفينا. وتبادلت الشابتان نظرة أخوية طويلة، ولاحت على شفتي إدفينا ابتسامة. فبعد كل هذه السنوات ما يزال شارل ماثلا في أعماق نفسها. وأطبقت أجفانها، وبدا لها وجهه المحبب مشرقا كما في اليوم الأول من خطبتهما. وفتحت عينيها مذهولة لصفاء الذكرى.

ـ شكرا لأنك قبلت هذه الهدية يا هيلين.

ـ شكرا لانك قدمتها لي. كم كنت أود لو كنت قد لبستها أنت أيضا. قالت إدفينا وهي تبتسم لعروس أخيها: لقد لبسها قلبي، ولا آسف لأنني أحببت هذا الرجل الرائع.

وتهدج صوتها قليلا، هذه هي المرة الأولى التي تشير بها إلى شارل منذ مدة طويلة.

لكنها نجحت في أن تضيف: جورج شاب رائع أيضا. أتمنى لكما كل سعادة الدنيا يا عزيزتي.

وتعانقت الشابتان، ثم صحبت هيلين إشبينتها الرئيسة إلى الغرفة. وكان موعد الاحتفال قد حدد في الساعة الخامسة بعد الظهر. وقبل الموعد بساعة ساعدت إدفينا العروس على ارتداء ثوب العرس، ثم ثبتت لها إكليل أزهار البرتقال والطرحة المهفهفة على خصلات

شعرها المسرحة بكل عناية وهكذا بدت هيلين بعد زينتها كتجلي ملاك. هبطت الدرج الأثري المؤدي إلى الطابق الأرضي كأميرة تضارع نور الشمس؛ وكان والدها ينتظرها ليصحبها إلى حيث ينتظر العريس، ووصيفات الشرف يمسكن ذيل الثوب المتموج.

تأمل سام ابنته الحبيبة بنظرة ملؤها الحنان وانزلقت نظرته نحو إدفينا التي تشكل خاتمة الموكب. كانت المرأة الشابة قد استبدلت بثوبها الأبيض طقما أكثر ارتساما مطعما بالدانتيل الأزرق الخزامي، وتنورته قصيرة من الأمام بينما تستطيل من الخلف برقة لا متناهية، وقبعتها الجرسية ــ وهي أحد موديلات بواريه ــ تصل حتى عينيها فتكسبها مظهرا خجولا وغنجيا في آن واحد، وهي تحمل بين يديها المكسوتين بقفاز طويل طاقة من الأوركيدة البيضاء.

قدم سام ذراعه لابنته، فاستندت إليه وسار الأب والابنة عبر صفين من المدعوين يتمتمون بتعابير الإعجاب لهيلين والاحترام لسام وقد أدركوا مدى انفعاله رغم مشيته الهادئة. ودخل موكب العروس إلى القاعة التي أعدها سام كصالة للاحتفال؛ وكان جورج في صدرها يحيط به أشابينه.

وعند أول إيقاع **للمعزوفة الزفافية** التفت، وأشرق وجهه لرؤية عروسه. لو ان برت و كات حاضران لغمرتهما السعادة والإعتزاز... أما إدفينا فقد حبست دموعها.

جرت التتمة كما في حلم فقد تناول سام يد ابنته بقفازها الأبيض، وبابتسامة حزينة وضعها بين يدي عريسها، ودفعت هذه الحركة الارتسامية جميع السيدات الحاضرات إلى التنهد... وسار العروسان يتبعهما الشهود ليقفوا تحت سرادق وفق تقاليد المذهب الديني لهيلين. وأحست إدفينا بدموع الفرح تترقرق في عينيها، لكنها تصطبغ بالمرارة كلما تراءت في خاطرها ذكرى حبها المفقود.

زلق جورج الدبلة الذهبية في إصبع هيلين، وحطم تحت كعبه كأسا من الكريستال ثم تبادل العروسان بين تصفيق الحضور المتواصل قبلة حارة .. ومسحت إدفينا دموعها.

بعد قليل من الوقت، راح سام في الحديقة يقص فكاهات مضحكة؛ وانتصر الضحك على الدموع. وتوزع المدعوون على المرجات الخضراء وعبر المنتزه وكانت كل اوركسترا تحت السرادقين تواصل عزفها الطروب، والشمبانيا تتدفق كالسيل، ورأت إدفينا سام تحت أنوار جديدة: صادق الود، ملؤه الحيوية محبا للدعابة، وهو مضيف يقظ لا يهمل أيا من مدعويه، لكنه كان يعود إليها كلما سنحت الفرصة ليبدي لها ملاحظة ممتعة، أو ليروي لها طرفة مفرحة. وقامت بدورها بتقديمه إلى جميع مدعوي جورج، ومعظمهم من أصدقاء أهلهم، ومن بينهم بن جونز ومعه زوجته التي بدا ظاهرا أنها تنتظر مولودا.

ومرت الساعات والموسيقيون مستمرون في عزف المقطوعات التي عرفت النجاح والشهرة خلال العام، وحل المساء بظلاله على الحديقة وأضيئت أشرطة متتابعة من المصابيح وشارك العروسان جماهير المدعوين بالرقص، وخصت إدفينا سام برقصة تانغو بينما رقصت فوكس تروت مع جورج، وشارلستون مع أحد نجوم السينما، والفالس مع تيدي، وتذوقت الأطعمة الشهية التي يدور بها الخدم على أطباق من فضة. كما تناولت كأسا من الشمبانيا، وشاركت في أحاديث مع أشخاص فكهين لا تعرفهم، ومن المؤكد أنها لن تلتقي بهم بعد ذلك.

عند منتصف الليل توارى العروسان مستقلين سيارة دوزنبرغ جديدة لماعة ـــ هي هدية من سام؛ فعليهما أن يأخذا صباح اليوم التالي القطار إلى نيويورك؛ ومنها إلى كندا. وكانا قد فكرا في البدء أن يقضيا شهر العسل في أوروبة. لكن جورج رفض فكرة عبور المحيط في باخرة ولم تعارض هيلين في البقاء فوق القارة الأمريكية، إذ أنها ستسعد في أي مكان ستوجد فيه مع جورج.

اجتازت سيارة الليموزين بوابة مقر آل هورويتز تحت نظرة إدفينا الحانية، وصدرت عن الشابة تنهيدة ارتياح، لكنها تساءلت عن مكان وجود ألكسيا وفاني، إذ أنهما غابتا عن نظرها منذ فترة... من المحتمل أنهما تلهوان برفقة فتيان من عمرهما.

التفتت إلى سام قائلة: كان عرساً رائعاً.
ـ نعم، فأخوك شاب جذّاب يوحي بالودّ
وردّت له الإطراء مع ابتسامة
ـ وابنتك شابّة لطيفة جداً.

ودعاها إلى رقصة أخيرة وقادها إلى الحلبة وسط أزواج الراقصين المتشابكين. وخلال ثانية من الزمن لمحت رجلاً ينفصل عن زمرة من المدعوين. وقطبت إدفينا حاجبيها. إنّه مالكولم ستون! لا شكّ أن أحدهم قد صحبه إلى حفل الاستقبال... واستغلّت إدفينا توقف الأوركسترا لتجمع عائلتها الصغيرة.

بعد العودة إلى الفندق، وبينما بدأت الأخوات الثلاث يتهيأن للنوم، طرحت إدفينا على ألكسيا السؤال الذي يحرق شفتيها.
ـ كان ستون في الاحتفال، هل شاهدتِه؟.

لم تجب الفتاة أولاً، لكنها بعد فترة صمت هزت رأسها إيجاباً.

نعم كانت قد رأته، بل ورقصت معه، لكنها حرصت ألا تعترف لإدفينا فالكوميدي وصل في ساعة متأخرة، وعندما طلب منه قيّم قصر آل هورويتز بطاقة دعوته، زعم انه قد أضاعها.

انتهت ألكسيا إلى الردّ بصوت لا مبال وهي تنزع عقد اللؤلؤ الذي استعارته من إدفينا: نعم لقد لمحته.

جلست إدفينا أمام منضدة الزينة، وقد بدا عليها القلق؛ وسألت أختها:
ـ هل كلمّك؟.
ـ ليس تماماً لقد تبادلنا التحية فقط.
ـ إيه! لا تنقصه أبداً الوقاحة.

لم تقل ألكسيا شيئاً. كانت قد كذبت بشكل مخجل دون أن يخالجها أي تبكيت ضمير. فهي قد تحدّثت مطوّلاً مع مالكولم.

ـ قال لها مؤكداً: سنمثِّل معاً في فيلمك القادم، فقد قمتُ باختبار الترجيح.

نظرت إليه ألكسيا، فهي لم توقّع أي عقد، لكنه بدا جاداً، ومتـــأكداً من نفسه...

أعادها صوتِ إدفينا إلى اللحظة الحاضرة عندما سألتهما:

ـ لقد قضيتُ سهرة ممتازة، وأنتما؟

عزمت على نسيان مالكولم ستون، أخيراً، أصبح هذا من الماضي

هتفت فاني حالمة: كم هي جميلة العروس.

اتفقت جميع الآراء، فهيلين فاتنة حقاً. و جورج رائع...

بعد نصف ساعة أطفأت إدفينا المصباح قرب سريرها، فهي منهكة من انفعالات النهار، وانزلقت في سريرها ترجو نوماً مجـدّداً للقـوى وعادت بفكرها إلى العروسين، واغتبطت لأنها أهدت طرحتها لهيلين.

في الغرفة المجاورة بقيت عينا ألكسيا محدّقتين في العتمة، فالفتـاة المراهقة لم تكن تفكر أبداً بالعروسين الشابين، إنّما كانت تحلم بمالكوم وموعدهما في اليوم التالي.

-XXXI-

التقى مالكولم و ألكسيا في **فندق امباسادور** حسب اتفاقهما. ودخلت إلى قاعة الطعام الفخمة حيث كان ينتظرها. واتخذت مكانـــــها علـــى المائدة، وبدأت في نزع قفّازيـــها بحركـــات متقطعـــة تكشـــف عـــن عصبيتها. لا أحد من أفراد عائلتها يعرف أين هي الآن. فإدفينا تقـــوم ببعض المشتريات لجورج؛ وكان غيابها حظا غير متوقَّـــع بالنســـبة لألكسيا، وتيدي في البيسين. وكان من السهل خداع فاني الجالسة فـــي صالة جناحهما، مستغرقة في قراءة إحدى الروايات. وقد صرّحت لـــها ألكسيا بأنها ذاهبة لرؤية «صديقة» لها؛ وما أن غدت في الرواق حتى طلبت من البوّاب أن يستدعي لها سيارة تكسي.

قالت متنهّدة: ستغضب أختي إن عرفت شيئاً عن هذا اللقاء.

عانق بنظره «التايور» الفاتح اللون الذي يشير إلى حسن تكويـــن جسمها، وتأمّل الوجه «المعبود» بهدوء وهو مستغرق فـــي التفكـــير. كانت تعتمر قبعة صغيرة تضفي غُلالتها ظلاً مخملياً علـــــى عينيـــها الفاتحتين، شبه الشفّافتين، المثبّتتين عليه بثقة مطلقة.

قال مبتسماً وهو يقبّل أطراف أصابع يدها: ما من ســـبب يجعلـــها تدري بلقائنا. بدأت بشرة الفتاة تخزها في مكان لمسه لها، ولم تعــرف سبب هذه الظاهرة، فمالكولم هنا أكثر جاذبية منه في ذاكرتــــها... ولا شيء يقلق عندما مال نحوها بمنتهى اللطف.

تابع بضحكة: لكنّ أخاك العزيز ليس في المدينة، على الأقلّ، فـــهو يغزل غرامه المكتمل في مكان ما من... بالمناسبة أين ذهب العروسان.

ـــ إلى نيويورك ثم كندا

ـــ عجباً، ليس إلى أوروبة؟ هذا الفتى يدهشني دائماً. (ولمّا بقيـــت

صامتة) تابع أسئلته: وكم سيبقيان؟

ــ ستة أسابيع.

تناول يدها، ووضع قُبلةً ملتهبة على راحتها.

ــ ماذا ستفعلين دونه، يا عزيزتي المسكينة؟ إنّه لا يفكر إلا بزوجته الشابة الجميلة، الحقير! ياحبّي المسكينة، ها أنت وحيدة في الدنيا.

سبق له في مناسبات أخرى أن لاحظ قدرة إيحائه عليها. وقد أغفل عن قصد الإشارة إلى إدفينا، هذه الحارسة الشرسة، ولم يخب سعيه، إذ ترقرقت الدمعة في عيني ألكسيا تحت غلالة قبعتها.

ــ لا تخشي شيئاً، يا طفلتي، فعمّك مالكولم سيهتمّ بأمرك.

وأحنت رأسها مقتنعة، وبدا ظاهراً أنها نسيت حادثة روزاريا بيتش. بدّل فجاة موضوع الحديث وسألها: إلى أين وصل فيلمك القادم؟

ــ لم يُرِدِ جورج أن أوقّع أيّ شيء قبل عودته.

بدا عليه الانشراح وهتف: إذاً ستكونين حرّة لمدة شهرين!

ــ اعني ليس تماماً، إذ يجب أن أعود إلى سان فرنسيسكو لأن أخي وأختي ما يزالان في المدرسة.

ابتسم لها مالكولم ستون واحسّ انّه قادر على التغلُّب على هذه العقبة الجديدة التي برزت في طريقه، ما من شيء يمكن أن يحرفه عن هدفه. فألكسيا تنظر إليه بهيام فهي من هذا النوع المرأة ــ الطفل الذي يثير شهوته بجنون. ومد يده وداعب خصلة من شعرها الأشقر، لكنه عندما انحنى ليختطف قبلة ملتهبة من شفتيها أبعدت فمها، فاكتفى بتقبيل وجنتها المخملية.

همست مذعورة فجأة: يجب ان أذهب الآن.

يجب ألا يتسرّع وألا يثير شكوكها، وعجّل بطلب وجبة شهية مع أكثر من مشروب كحولي. المهم أن يغري فريسته الفتيَّة بالشراب،

وتذوّقت كأس الخمر الأولى بطرف شفتيها، ثم الثانية، ثم الثالثة التي تغلَّبت على كلّ تحفظاتها ونحو نهاية بعد الظهر كانت سمحت له بتقبيلها جهراً وهي تتعتع وتقهقه، وبعد ذلك بقليل كانت تستلقي بلا مبالاة في عربة مالكولم الذي قادها إلى بيته وهي تطلق شلاّلات من ضحك غير مكترثة بشيء؛ بل أثار مرحها الصاخب مرآى شرطي على الرصيف، وسيّدة تنزِّه كلبها، وحتى فكرة انتظار إدفينا لها ـ إنّما أين؟ وانطلقت في نوبات ضحك جديدة.

أصعدها إلى شقته وفتح زجاجة خمر جديدة وضعها في دلو مبرَّد، وراحا يتبادلان أنخاب حبهما ونجاحاتهما، وفتل رأس ألكسيا، وعبر أبخرة الكحول أحسّت بقبلاته الملتهبة تغمر كل جسدها وأرادت لهذه الأحاسيس المثيرة أن تتوقَّف لكن أعضاءها لم تمتثل لروحها، وبعد لحظة استسلمت للإثارة، واعتبرت مالكولم زوجها.

لم تكن واعية عندما أعادها بعد نحو ساعة إلى السيارة قبل أن يلقي حقيبة على المقعد الخلفي. كان هذا هو القسم الثاني من مخططه. مخطط كبير سيمكنّه من حلّ جميع مشاكله. ترك أجرة الشقة في غلاف على منضدة المطبخ، وعزم على أن يترك السيارة قرب محطة القطار، مع كلمة موجّهة إلى صاحبها الصديق الذي استعارها منه.

كان القطار واقفاً عند الرصيف، ودفع ألكسيا إلى إحدى المقصورات الفارغة، وفتحت عينيها فجأة، وألقت نظرة تائهة حولها وتمتمت:

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

انزلق إلى قربها وأحاطها بذراعيه قائلاً: «إلى نيويورك لرؤية جورج»

ـ نعم؟ ولماذا؟

ـ استرخي يا صغيرتي، فكل شيء سيسير على ما يرام.

وقبَّلها، فألكسيا هي جواز سفره إلى النجاح. نعم، إنّه أعدَّ خطة

متقنة: أن يستغلّ إلى أقصى حدّ أخت جورج وينفيلد المراهقة، وهكذا يفقد المنتج الطموح السيطرة على الموقف، وهو بعد زواجه من ابنة سام هورويتز لا يمكن أن يسمح لنفسه بإثارة فضيحة.

أقلع القطار وبدأ سيره بلهاثه المنتظم. ونظر مالكولم إلى ألكسيا التي تغطّ في نومها على المقعد إلى جانبه. وهنا نفسه، لم يكن بإمكانه أن يقع على أفضل من هذه الفريسة فهي فتاة فاتنة، مثال الجمال الحقيقي.

-XXXII-

ـــ كيف ألا تعلمين أين ذَهَبتْ؟

كانت قد مضت خمس دقائق تماماً على مغادرة قطـــار نيويـــورك السريع محطة لوس أنجلس؛ وانهمرت دموع فاني، وأجـــابت بشـــكل يثير الرثاء: لا أعلم، ذكرت لي بكل بســـاطة إنـــها ذاهبـــة «لرؤيـــة صديقة» دون أن تحدّد لي من هي.

ـــ وبالطبع لم تري تلك الصديقة.

وهزَّت الفتاة الصغيرة رأسها، فألكسيا تبرَّجت مـــدة ســـاعات ثـــم خرجت.

انتابت إدفينا رعشة: «إنّـــه ســـتون، لا أحـــد غـــيره»، وبـــرزت الفكرة تلقائياً في خاطرها، وتـــأكَّدت فجـــأة مـــن أن ألكســـيا كذبـــت عليها في العشيَّة.... إنـــها لـــم تصدقـــها تمامـــاً، لكنـــها لـــم تُـــرِد الإلحاح في الموضـــوع.

أسرعت إلى بهو الفندق، واخبرها البوّاب أن أختـــها قـــد ذهبـــت بسيارة أجرة، وعادت بعدها إلى جناحهم حائرة، وعندمـــا تجـــاوزت الساعة الثامنة مساءً، ولم تظهر ألكسيا، تناولت الهاتف وطلبـــت مـــن عاملة المقسم أن تصلها بالرقم الشخصي لسام هورويتز.

ـــ اعذرني، على إزعاجك في مثل هذه الساعة يا سام وشرحت له ببعض عبارات المشكلة، يجب مهما كلف الأمر اقتلاع ألكســـيا مـــن شبَاك مالكولم ستون، إن كانت قد ذهبت للقائه.

أجاب قبل أن يغلق الخط: سأتكفَّل بالأمر.

أرسلت الشابة أخويها فاني وتيدي إلى النوم، وجلست تنتظر فـــي الصالون، وعاد سام إلى الاتصال بعد نحو ساعتين.

ـــ حصلت على عنوان هذا المخلوق مـــن قبـــل أحـــد أصدقائـــه

الكوميديين. إنه يسكن حيّاً حقيراً... أمنعك يا إدفينا أن تتحركي إليه، يمكنني أن أذهب بنفسي حالاً، إذا أردت.

رفضت، عليها أن تلاحق الموضوع بنفسها، وأخيراً اتفقت مع سام على الذهاب معاً، وتجاوزت الساعة منتصف الليل عندما وصلا إلى العنوان المطلوب، لكن رنين جرس الشقة بقي دون جواب، وبدا واضحاً أن ما من إنسان في هذا المكان المعتم.

فكرت مذعورة: يجب إبلاغ الشرطة! ولن تهتم بالفضيحة، ورافقها سام إلى الفندق.

ـ هل تريدين أن أبقى معك يا إدفينا.

كلا، إنها ترغب في البقاء وحدها، وأسفت لأنها أشركت حَمَا جورج في هذه القضية، وتركها على مضض، وكانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً عندما وصلت إلى جناحها الصامت، وقلبها يختلج بأمل مبهم... للأسف لم تكن ألكسيا قد عادت، وقضت الليل ساهرة قرب الهاتف الذي بقي صامتاً. وفي اليوم التالي مع الفجر ذهبت تنبئ الشرطة باختفاء أختها؛ وهي في الحقيقة لا تعلم إلا القليل، ولم تستطع إلا أن تردّد المعلومات التي ذكرتها فاني، ألكسيا ذهبت «لرؤية صديقة» ولم تعد. ومع مرور الوقت تحوّلت مخاوفها إلى ذعر، وعادت إلى الفندق تنتظر. واتصل بها مفوّض شرطة ليعلمها بأن تحقيقاتهم لم تؤدِ إلى نتيجة، إذ لم يعثروا على مالكولم ستون، ولم تُلاحَظ أيّة فتاة تنطبق عليها مواصفات ألكسيا برفقته، وما من آنسة تحمل اسم وينفيلد قد أدخلت في أي من مستشفيات المدينة خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية.. ووضعت إدفينا السماعة مع شعور بالفراغ. لا يمكن لألكسيا أن تتلاشى في الفراغ، ويجب أن توجد في مكان ما، ولكن مع من؟ أمعنت التفكير، ولم يرد إلى ذهنها إلا اسم مالكولم ستون. يمكن أن تكون قد أخطأت... إذ يصعب على إدفينا الإعتقاد، بعد إنذارات جورج، أن يجدّد هذا المغوي الحقير محاولاته؛ قفزت من

مكانها على رنين جرس الهاتف، وكان الوقت ظهراً. كان سام على الطرف الآخر من الخط.

قال: إنّك على حقّ.

قام من طرفه بتحريات دقيقة. سدّد ستون أجرة شقته قبل أن يغادرها، فقد لقي سام صدفة أحد معارف الممثل في ذلك الصباح بالذات في الأستوديو فأنبأه أن السيارة المعارة قد وجدت قرب محطة سكة الحديد مع كلمة كتبت بسرعة موجهة لصاحبها.

ــ وهكذا يُرجَّح أن يكون صاحبنا قد غادر المدينة...

وتشنَّجت أصابع إدفينا على سمّاعة الهاتف، هل يمكن أن يتجرَّأ على أخذ ألكسيا معه؟

وعقب سام: «يمكنك تقديم شكوى خطف ضده».

ولكن قد تكون ألكسيا تبعته بملء رضاها؟!. عند ذلك ستتناول صحف الإثارة الموضوع مُدمِّرة سمعة الفتاة، وسمعة جورج الغائب.

تابع سام وهو قلق من صمتها:« إدفينا، إنني مستعد لأية خدمة أستطيع تأديتها لك».

كلا، كلا، ستجد حلاًّ، إنّ في الأمر سوء تفاهم بالتأكيد، ستعلمه عندما تحصل على أخبار جديدة عن ألكسيا. فقد برز خاطر جديد في رأسها. يجب عدم نشر هذا الخبر المكدِّر. ومنع الفضيحة من أن تلوِّث جورج و هيلين وسام. يجب أن تجد وسيلة لوضع اليد على مالكولم ستون، واستعادة ألكسيا..

وأنهت الفتاة الشابة المخابرة، وقد أحسّت وكأنَّ الحمى تنتابها. وفجأة التمع في خاطرها شعاع ضمن غيهب القلق. إنها تعرف جيّداً ألكسيا، ولن تتأخر هذه في الإتصال بها. وتغلَّب قرار العودة إلى سان فرنسيسكو على بلبلتها، ستنتظر هناك في جو البيت العائلي، فلابد من أن تتصل ألكسيا بها.

هاتفت باختصار سام لتودّعه، وطلبت من أخويها التهيؤ وأعدّت حقائبها، وفي صباح اليوم التالي، كانوا في القطار.

خيّم الصمت الثقيل طوال المسافة، فأفكار إدفينا تدور دون كلل حول ألكسيا وكلما جهدت في تصوّر أعمالها وحركاتها، كلما خالجها قلق ممضّ. وهمدت حركة تيدي بينما استرسلت فاني في ذرف الدموع بصمت في إحدى الزوايا، ثم تمتمت تلوم نفسها: «كان من الواجب أن أشكّ بشيء ما، وأن أطرح عليها بعض الأسئلة.. كان هذا نتيجة خطئي.

وضمتها إدفينا إلى صدرها قائلة: كلا يا حبيبتي، لا لومٍ عليك.

وحدّقت فاني في أختها البكر، وعيناها الواسعتان تُغشيهما الدموع:

ــ وإذا لم تعد ألكسيا؟ إذا لم تعد أبداً؟

تراءت بسمة شاحبة على شفتي إدفينا. فيما يتعلق بالعودة، فإنها ستعود، لا شكّ في هذا، ولكن متى؟ وكيفٍ؟ وفي أيّة حالة؟ فالله وحده يعلم.

والغريب انها اطمأنت لتوقعها أن تكون ألكسيا مع مالكولم ستون رغم خسّته فالحقيقة دائماً محتملة أكثر من الارتياب. وأطلقت إدفينا، عندما دخل صف المقطورات الطويل محطة سان فرنسيسكو، تنهيدة ارتياح مسبقة.

انقضت ثلاثة أيام في الانتظار، ثلاثة أيام تكاد لا تنتهي ظنت إدفينا خلالها أن القلق سيدفعها إلى الجنون. أخيراً تحقق هذا الاتصال الهاتفي المتوقع في حوالي الساعة العاشرة مساءً.

ــ اللعنة يا ألكسيا! هل تدركين فقط ما سببتِه لنا؟ أين أنتِ؟

ــ اسمعي، يا ويني...

وتهدّج صوت ألكسيا. لم تكن لتجرؤ على الاتصال لو لم يُلحّ عليها مالكولم. فقد مرّ الأسبوع الأخير كحلم سيّء لم تستطع الاستيقاظ منه. ففي القطار كانت مريضة كجرو كلب، وفي الصباح ذكر لها مالكولم ضاحكاً إنها كانت تشخر خلال ليلة عرسها. فقد تزوّجا وفقاً لقوله في لوس أنجلس بينما كانت ألكسيا في حالة سكرٍ مفرطة، وليبرهن لها على ذلك، مارس معها الحبّ، لكن ذلك كانَ تجربة

مؤلمة على الفتاة لم تشعر خلالها بأيّة متعة. وهي نادمة الآن بمرارة على زواجها من مالكولم ... لقد خدعها وتلاعب بها، إنّها تعي ذلك، لكنها تفضّل الموت على أن تعترف بخجلها لإدفينا.

نجحت أخيراً في أن تؤكد لإدفينا بلهجة بدت غير مقنعة للأذنين المتيقظتين:

إنني بخيرٍ وأنا مع مالكولم.

ـ شككتُ بهذا.. لماذا فعلتِ هذا يا ألكسيا؟ لماذا كذبت عليّ؟

ـ لم اكذب عليك، ففي ذلك المساء لم أقضِ إلا لحظة قصيرة معه، وراقصته في رقصة واحدة، لكنني وافقت على رؤيته في اليوم التالي على الغداء.

فكرت إدفينا مرتعبة بأنه أطول غداء في حياتها بالتأكيد، إنّها متأكدة دون أي وهم مما حدث بعد ذلك بين أختها المراهقة وهذا النذل العديم الوجدان والشرف.

ـ ألكسيا، أين أنت؟

ـ في نيويورك.

وكشفت عن لهجة توتّر في صوت محدِّثتها، وورد إلى خاطرها للحظة الاتصال بجورج لكنها تراجعت سريعاً فهو في صميم شهر العسل في مكان ما من كندا، فما الفائدة من إزعاجه؟ وفجأة خطرت لها فكرة أخرى: لا حاجة أبداً لإطلاع جورج، ولا سام، فهذه المشكلة يجب أن تُسوَّى في سرِّية تامة، هذا شرط ضروري إن كانت تحرص على وقاية سمعة أختها.

ردّدت: في نيويورك؟ ولكن في أي مكان بالضبط؟

ـ في فندق ايلينوا. واعطت ألكسيا اسم شارع في عمق الجهة الغربية.

هذا الفندق ليس بالطبع **البلازا** ولا **ريتز كارلتون** ، وبديهي انه من الصنف الملائم لشخصية مالكولم ستون.

وصمتت ألكسيا للحظة مترددةٍ ثم أطلقت عبارتها: وكذلك يا ويني، نحن متزوجان.

ومادت الأرض تحت قدمي إدفينا: ماذا؟ أنتما...

ــ متزوجان، نعم، قبل أن نأخذ القطار.

وغفلت عن أن تذكر لها عدم احتفاظها بأيـــة ذكـــرى عـــن هـــذا الاحتفال.

ــ ومتى ستعودين؟

وفكرت في ذات الوقت:«إنها قاصر ولن يصعب على محام مـــاهر الحصول على إلغاء هذا الزواج طبقاً للأصول الواجبة».

وران الصمت على الطرف الآخر من الخـــط، وأخـــيراً أجـــابت ألكسيا، مع تنهيدة غريبة وكأنها تستجمع قوى فـــوق بشـــرية لحبـــس دموعها:

ــ لا اعلم، فمالكولم يريد تجريب حظّة في برودواي.

وبعينين مغلقتين، قامت إدفينا بعملية حسابية ذهنية سريعة.

ــ ألكسيا، اسمعيني، ابقي حيث انت، اتفقنا؟ سآتي لأخذك وســـاد الصمت من جديد، وأخيراً أفلتت منها العبارة:

هل.. هل ستخبرين جورج؟.

ردّت بقوة: ــ لن أقول كلمة لأي إنسان، وأنت بدورك لا تذكـري هذا لأحدٍ، فكلما قلّ عدد المطلعين على هذا الموضوع، كلما كان ذلـك أفضل.

ألكسيا، اسمعيني. لا تغادري مكانك. سآتي لأخذك، والعودة بك إلى البيت، وسنعمل على إلغاء هذا الزواج غير المعقول، وســـيبقى هـــذا بيننا، هل هذا واضح؟ وعادت كلمات جورج إلى ذاكرتها:«المهم عـدم وجود ولد على ذراعيها».

ما كادت ألكسيا تضع الســمّاعة حتـــى ندمـــت علـــى اتصالـــها، وبعد ساعة، غيَّرت رأيها كلية؛ فقد بـــدا مـــالكولم لطيفـــاً، ومارســـا

الحب، وأحسَّت هذه المرّة بالمتعة، وهي، بعد أن فكرت ملياً، لا تريد العودة إلى كاليفورنية، وتفضّل البقاء معه في نيويورك.

كانا قد نزلا في فندق بائس، نفرت منه ألكسيا في البدء، ولم تنقطع عن البكاء في الأيام الأولى، فمالكولم نصب لها كميناً، وهي حاقدة عليه. أما الآن، وهي تراه متمدّداً إلى جانبها فقد اكتشفت انها مغرمة به؛ وبعد كل حساب، فهو رجل حياتها، إنّه أحياناً يبدو فظّاً، عندما يكثر من الشراب؛ وتترك يداه بعد ذلك انطباعات حمراء على بشرتها الناعمة. لكن عندما يزول تأثير الكحول يغدو رقيقاً ويعاملها بلطف، ويناديها «يا طفلتي». وعندما قدّمها للمرّة الأولى لأحدهم كزوجته أحسّت بالاعتزاز يغمرها فقد شعرت أنها قد غدت امرأة راشدة.

في صباح اليوم التالي تحوّل تخوُّف ألكسيا إلى اقتناع، لقد أخطلت بإعطاء عنوانها لإدفينا، وأسرعت إلى الهاتف لتعلن لها أنّه لا ضرورة لانتقالها. وللأسف كان الوقت متأخراً، فقد أعلنت لها فاني أن أختهم البكر هي في طريقها إلى نيويورك.

ــ أوه ألكسيا، لماذا قمت بهذا التصرُّف؟

جعلتها أصابع مالكولم الضاغطة على ساقها ترتعش. فقالت بطيش وكأنها تفسِّر كل شيء: سنقوم بتمثيل أفلام معاً، ثم أريد أن أصبح زوجته. وغصّت فاني على الطرف الآخر من الخطّ وهي تقول: ماذا؟ هل تزوّجت؟ لم تذكر لها إدفينا شيئاً، وتذكَّرت ألكسيا فجأة أن من المفروض أن تلزم الصمت حيال هذه القصة فأجابت بإبهام: تقريباً!

أعلنت فيما بعد مخاوفها لمالكولم. لن تتردّد إدفينا في إلغاء هذا الزواج. لكنه قلبها على السرير وبدأ يفكُّ أزرار الصدار الرخيص الثمن الذي اشتراه لها عندما وقف القطار في محطة شيكاغو.

همس لها: لا تشغلي بالك، يا طفلتي، فقد أعددت لك مفاجأة.

خطرت له الفكرة بالطبع عندما أدرك أن أبواب برودواي مغلقة في وجهه.. وضمَّهما عناق متقد اكثر حرارة من سابقيه، ثم نهض مالكولم وارتدى ثيابه، وغادر الغرفة القاتمة الصغيرة، وعاد بعد فترة طويلة وهو يترنّح ويلوّح ببطاقتي سفر في الباخرة.

ـ سيترتَّب كل شيء، يا طفلتي، غداً سنرحل إلى لندن.

إن البريطانيين وحدهم، المتمرسون بتقاليد مسرحية طويلة يمكنهم تقدير موهبته. هذا ما قرّره، وما إن يغدو مشهوراً في انكلترة حتى يعود ظافراً إلى كاليفورنية ...

وأضاف في ذهنه مع ابتسامة ماكرة: وستعود أخت ألكسيا الكبرى بخفّي حنين. فبقليل من الحظ ستغدو ألكسيا حاملاً بسرعة؛ وإن لم يحدث هذا فتكفي الخشية من الفضيحة لتفحم آل وينفيلد ليسعوا إلى إرضائه. وعندئذ سيعيش هو، مالكولم ستون، عيشة باذخة على نفقة جورج وينفيلد.

-XXXIII-

حرصت إدفينا قبل مغادرتها كاليفورنيا على طمأنة سام، وأكدَّت له على الهاتف أنَّ كلَّ شيء على مايرام، إذ أن الأمر يعود إلى سوء تفاهم، كما توقَّعت فألكسيا عقب جدال صغير استاءت وأخذت القطار بمفردها إلى سان فرنسيسكو، وقد وجدوها في المنزل.

وسأل مرتاباً: ومالكولم ستون؟

وبدا أنه غير مصدِّق تماماً لما تقول.

عقَّبت بيقين مصطنع بشكل متميز: أوه ! إنها لم ترَه، شكراً لمساعدتك يا سام، ليس لديها أيّة دقيقة تضيعها. وعهدت بأخويها إلى قيّمة المنزل الجديدة، وطلبت منهما الكتمان وهي تعدهما بالعودة بأسرع ما يمكن.

ـ ومهما حدث لا تتفوهوا بكلمة لجورج إن اتصل.

وصعدت إلى قطار نيويورك السريع، وقلبها ممتلئ بالتخوف، فالذكريات المؤلمة المدفونة في اللاوعي لن تتأخر في الصعود إلى السطح. وبينما كان القطار يغذُّ السير ليلاً انبثقت في نفسها ذكرى رحلة أخرى. شذرات صور منسيّة عادت إلى ذاكرتها، ورأت نفسها قبل إحدى عشرة سنة، في مقصورة مماثلة لهذه المقصورة مع أهلها وشارل وإخوتها وأخواتها الصغار، وكانوا متوجِّهين آنذاك إلى نيويورك، لسيتقلوا الباخرة **موريتانيا** إلى إنكلترة دون أن يشكّوا بالمأساة التي تنتظرهم.

وصلت إلى نيويورك منهكة وتوجهت من المحطة إلى **فندق ايلينوا**، ودخلت المكان القميء. تبحث بأنظارها عن ألكسيا نادمة، وهي تستعدُّ لتشرع في وجه مالكولم سيف القانون... وأنبأها مستخدم

نصف ثمل أن السيد والسيدة ستون قد غادرا الفندق، وقد تركا رسالة.

فضَّت إدفينا بأصابع متوتّرة الغلاف، وراحت عيناها المشككّتان تفكّان بسرعة أحرف كتابة أختها الطفولية: «نحن ذاهبان إلى لندن حيث سيقوم مالكولم بإجراء بعض التجارب المسرحيَّة هناك». وأنهت رسالتها بأن على كل زوجة أن تتبع زوجها... يجب أن تكون شديدة الولع بهذا الستون بحيث لا تبالي بخوفها من السفن لتصحبه وهو الذي لا يعرف بالتاكيد أين يضع قدميه، لأن ألكسيا لم تشر أبداً **للتيتانيك**.

ترقرقت عينا إدفينا بالدموع في سيارة الأجرة التي أقلتها إلى فندق **ريتزكارلتون**.

وحاولت فيما بعد، في الغرفة الواسعة، وقد لازمتها ذكريات إقامتها السابقة أن تجهد في تنظيم أفكارها، لو أن بإمكان أحد أن ياتي لمساعدتها، ولكن من؟ أهلها وفيليب ماتوا... جورج ما يزال في شهر العسل، سام بالكاد تعرَّفت عليه، وبنْ؟ ومدت يدها إلى الهاتف لتتراجع متثاقلة. إنها لا ترغب أبداً في أن تعلن له فشلها.. كلا! لا بد من اتخاذ قرار، وعليها وحدها اتخاذه، كما اعتادت أن تفعل دائماً.

قضت الليل في التفكير وهي متمددة على السرير العريض وعيناها ملتهبتان تستعرض في خاطرها سياق الأحداث الأخيرة. «انتهى كل شيء، فأنا لا استطيع ابداً أن أصعد على متن باخرة. وبعد كل حساب فقد تكون ألكسيا قد حدَّدت اختيارها نهائياً، بهذه الفكرة كان قنوطها قد بلغ الأوج. وفي اللحظة التالية غيَّرت رأيها: هل ستترك أختها ابنة السبعة عشر ربيعاً تفسد نهائياً حياتها دون أن تحرِّك حتى إصبعها الصغرى؟

هذا ما لا يمكن تصوُّره، ولا يمكن قبوله. لا يمكن لهاتف ألكسيا إلا أن يكون استغاثة نجدة، ومن واجبها النهوض لإغاثتها.

كانت في الصباح منهكة، وقد حصلت في العشيَّة على قائمة السفن

المتوجهة إلى أوروبة، وللحظة فكرت بأنها اهتدت إلى الحل وهو أن ترسل برقية باسم السيد ستون لكل سفينة، لكنها من جديد عدلت عن رأيها.

فالبرقية لا تتمكن أبداً من أن تعيد امرأة عاشقة إلى رشدها.. كلا يجب أن تتصرَّف. وتتصرَّف بسرعة...

خيل إليها أنها ترى وجه أمها عبر غشاء من الدموع وعرفت آنذاك ما وجب عليها أن تفعله.

بعد ظهر اليوم نفسه حجزت لنفسها قمرةً على الباخرة **باريس**، وكانت ألكسيا قد أقلعت قبلها بثلاثة أيام على الباخرة **بريمن**.

-XXXIV-

بدت ألكسيا شاحبة تماماً، وبمنتهى الجمود، حاول مالكولم جاهداً، إنما دون جدوى، أن يقوّي معنوياتها، وسرعان ما عدل عن وصف أبَّهة العاصمة البريطانية، وقد افترض أنها لم تركب يوماً في سفينة. وطلب زجاجة شمبانيا وغمرها بالقبلات.

ـ سنسافر يوماً في الدرجة الممتازة، يا صغيرتي، فكري بهذا. لم يحظ حتى بابتسامة. وعندما رفعت **البريمن** مرساتها بدأت ألكسيا ترتعش بكامل أعضاء جسمها.

أنت لا تحسّين بدوار البحر على الأقل...

لم يتلق جواباً. وهزّ كتفيه، لقد أنفق آخر فلوسه ليستأجر قمرة في الدرجة الثانية على الباخرة الرديئة المرعبة. ولكنه عرف ما هو أردأ منها، إنها ليست على هذه الدرجة من السوء بعد كل حساب.

فالمسافرون الألمان لن يترددوا في الإقبال على الشراب، وهم مغرمون بالفكاهات الدسمة، وإذا ساعده الحظ فيمكنه أن يستعيد في المقامرة، وهو يتبختر «وزوجته الصغيرة العزيزة» مستندة إلى ذراعه، كل ما أنفقه.

وبينما كان المركب القديم ينزلق خارج الميناء، تهالكت ألكسيا على الفراش الضيق، وعيناها جامدتان، وفي المساء ساءتِ حالتها، وانحنى يتفقَّدها لكنها بدت وكأنَّها لم تلحظ وجوده، وهي تتنفَّس بصعوبة، مذعورةً.

ورنَّ مالكولم جرس المشرف.

ـ وأطل هذا برأسه من الباب نصف المفتوح، ـ ماذا تريد أيها السيد؟

كان قد لاحظ زوجة الأمريكي الفاتنة، وعلى كل هما ثنائي جميل، باستثناء أنه يبدو بعمر والدها.

ـ إن زوجتي مريضة، أرجو أن تستدعي الطبيب المناوب.

ابتسم المشرف: «بكل تأكيد يا سيدي، لكن إن سمحت لي أن أبيّن رأيي فإن السيدة تشكو من دوار البحر، وفنجان من الحساء مع بعض بسكويتات يشعرها بالارتياح.

وقطع تأوه ألكسيا كلامه، فهو أشبه بخوار حيوان يحتضر، والتفت الرجلان كانت المرأة الشابة هامدة على السرير شاحبة كتمثال من شمع.

ـ لقد أُغمِي عليها. الطبيب! أسرع!

وغاب المشرف، وجلس ستون على حافة السرير، يكاد يموت رعباً. إن حدث مكروه لألكسيا فيمكنه أن يقول وداعاً إيّتها الفيلات، والعربات الفخمة، وكل ما داعبته أحلامه، بل إن جورج وينفيلد سيخنقه بيديه شخصياً. أراد الطبيب الذي وصل بعد قليل أن يعرف ما إذا كانت قد تعرَّضت لإجهاض، ونظر إليه مالكولم متحيِّراً، كيف يمكنه أن يعرف، إنه لم يفكر بهذا.. كلا، هذا غير ممكن فقد كانت عذراء عندما هربا. وأجاب بأنه لا يعرف شيئاً، فطلب منه أن ينتظر في البهو.

بدا له أن ساعات قد انقضت قبل أن يظهر الطبيب من جديد.

ـ كيف هي الآن؟

ـ إنها نائمة، لقد أعطيتها أبرة مسكنة...

واشار إليه بأن يتبعه إلى صالة استراحة صغيرة، حيث جلس بتثاقل وهو يلقي عليه نظرة غير راضية، بل شبه ساخطة.ـ هل أنت مضطر للسفر إلى أوروبة يا سيد ستون؟

نظر إليه مالكولم دون أن يدرك سبب سؤاله.

ـ الواقع .. نعم.. إنني كوميدي، وعليَّ التمثيل في مسرح لندني.. إن لي دوراً هاماً في مسرحيَّة كلاسيكية من مسرحيَّات الموسم الحالي.

هذا كذب بالطبع، لكنَّ حياته كلّها نسج أكاذيب. وتحت نظرة محدّثه المتقصيَّة أشعل سيكارة.

ـ ألم تقل لك امرأتك شيئاً؟ ألم..

لكن الطبيب الألماني توقف عن الكلام، وتساءل فجأة «هل هما متزوجان فعلاً؟» إنها في مقتبل العمر، وتنتعل حذاء باهظ الثمن.

ردّ مالكولم مندهشاً: عفواً؟ ماذا كان عليها أن تقول لي؟

ـ ألم تحدّثك عن إقامتها السابقة في أوروبة؟

وعاد إلى ذاكرته وجه المرأة الشابة المثير للشفقة، وهي تنتحب وتتعلق به وتصرخ مذعورة: «لا أستطيع البقاء على هذا المركب، إنه سيغرق».

وقد طمأنها ما استطاع، وقرَّر وضعها تحت المسكّنات طوال الرحلة، وإذا وافق الامريكي فإنه ينوي نقلها إلى المستوصف.

قال مالكولم، وقد بدا الانزعاج: لا أفهم، ما الامر؟

ألا تعلم إنها كانت من مسافري **التيتانيك**؟

فتح الكوميدي فمه مذهولاً، وفكّر الطبيب: «لايبدو عليه أنه يعرف الشيءالكثير عن امرأته المزعومة»

ردّ مالكولم بصوت متحفظ: «حقاً؟ يجب أن تكون صغيرة جداً آنذاك...»

ـ كانت في السادسة من عمرها، وغرق والداها وخطيب أختها في تلك الكارثة.

هزّ ستون رأسه. هذا يفسِّر سبب عناية جورج وإدفينا اليقظة بها وحدها.

ولم يخطر له يوماً أن يسألها عن والديها، كما أن ألكسيا ليست ميالة إلى الاعترافات، وهذا ما يلائمه تماماً.

تابع الطبيب: لقد انفصلت عن عائلتها خلال عمليات الإنقاذ، وقد التقت بأخوتها واخواتها فيما بعد...

ساد الصمت بعد ذلك، وبدا وجه الطبيب مكفهرّاً. في تلك الفترة

كان يعمل على متن الباخرة **فرنكفورت**، وقد أطلع على جميع برقيات استغاثة الباخرة الغارقة.

تابع الطبيب: إليك اقتراحي. سنحتفظ بزوجتك في المستوصف ونخضعها للمسكِّنات طوال الرحلة، وإلا فإننا نخشى ألا تتحمل كآبتها، إنّها عطوب نفسيّاً كما تعلم.

ارتد مالكولم ستون على كرسيه وهو ينفث سحابة دخان من سيكارته. أهي إلى هذا الحدّ من التعقيد، مراهقة هستيرية فقدت نصف عائلتها في غرق **التيتانيك**.

وتساءل في ظرف ثانية، كيف يمكن له أن يعيدها إلى الولايات المتحدة، بعد ان ينتهي كل شيء.. سيرى...، على كل، ستكون هذه مهمة جورج وإدفينا. وحتى ذلك الحين ستبقى ألكسيا تحت رحمته، وسيضطر أخواها للتعامل معه والقبول بشروطه.

قال موافقاً: «جيّد جداً»، لن يهتم.. سيلعب بالبوكر.

ـ ستسمح لنا إذاً بنقلها يا سيد ستون.

ـ «نعم بكل تأكيد» ردّ على الطبيب وهو يوجِّه إليه واحدة من أجمل ابتساماته المسرحيَّة؛ بعد ذلك بقليل، نقلت ألكسيا إلى المستوصف حيث وضعت تحت عناية مشدَّدة.

وبفضل المهدِّئات المعايرة بشكل مدروس نامت طوال الرحلة. لا تستفيق من خدرها إلا لتعود إليه مجدَّداً.

إنها تذكر بشكل مبهم أنها وجدت على متن باخرة... لكن أيها لاتعلم، وقد نادت أمها أكثر من مرة في العتمة، لكن أمها لم تأتِ. وقد كان إلى جانبها امرأة، وجه أبيض، وهي تتمتم لها من وقت إلى آخر كلمات لم تفهم منها شيئاً. وأحياناً بدا لها أن تتساءل عمّا إذا كانت الباخرة العملاقة قد غرقت، وعمّا إذا كانت قد التقطت على باخرة أخرى... ربما أخيراً ستلتقي بأمها.. أو ربما ستبقى إدفينا وحدها الراعية لها.

-XXXV-

سحبت إدفينا ستائر كوى قمرتها في الدرجة الأولى منذ دخولــــها. كانت معتقدة أن مغامرتها ستنتهي في نيويورك، فلم تحمل معها مـــن الأمتعة إلا كيساً يحوي القليل من الثياب ولـــوازم الســفر، ودون أي فستان سهرة بالطبع. قالت في نفسها وهي ترتب أغراضها القليلة فـــي خزانتها «لا أهمية لذلك» فهي تعتقد أنها ليست بحاجة إلى مزيد مـــن التأنق. واجتازت سلم الصعود، والقلق يعتصر قلبها، فهدفها الوحيد من السفر إلى لندن استعادة أختها، وهـــي لا تبـــالي بكـــل مـــا عـــداه... وتصفحت إدفينا عدة مرات الرسالة التي تغنّي فيها ألكسيا على مختلف الأنغام أنشودة سعادتها قرب مالكولم، وبقراءتها مـــا بيـــن الأســـطر أدركت أنها اتخذت القرار الصحيح، فبداهة، إن ألكسيا الساذجة تلاحق سعادة وهميّة، ولا تنوي إدفينا التخلي عن هذه المعركة. فـــهذا النـــذل ستون استغلَّ صغر سِنّ أختها وقلّة تجربتها، ولن تكون لـــه الكلمـــة الأخيرة، وستقاتل إدفينا حتى النهاية لتخليصها من هذه الورطة السـيّئة وتعيدها إلى سان فرنسيسكو، وبشيء من الحظ الملائم لن يدري أحـــد بهذه القضية المؤلمة، وهي مستعدّة لكلّ شيء حتى للكـــــذب صيانـــةً لشرف أختها. واجتازت رصيف الركوب مرتخية الساقين، وهي تتبـــع المضيفة حتى قمرتها، حيث تهالكت على كنبة وعيناها مغلقتان، وهـــي تجهد لضبط تنفّسها المشوّش.

ألقت المضيفة نظرة مفعمة بالإهتمام على هذه المسافرة التي ينـــمُّ شحوبها عن قلق خفي وسألتها بلطف بالفرنسية: «هل تحتاجين إلـــى شيء ما؟ أتفضلين الصعود إلى سطح النزهة؟ إن نسيم البحـــر النقـــي سينعشك.

ـــ كلا شكراً، قد أصعد فيما بعد.

لم تَنْوِ التحـــرُّك، وعندمـــا ســـتعلن صفـــارة البـــاخرة الإقـــلاع،

ستبقى جالسة، متسمِّرة في مكانها، وأصابعها متشنِّجة على مسند الكنبة الجانبي... تفكّر بشيء آخر، بجورج وهيلين وهما يتابعان بهدوء قضاء شهر العسل... بأخويها الباقيين في المنزل، وقد نبّها بكل عناية لعدم ذكر شيء عن هذا الموضوع لجورج إن اتصل هاتفياً، ووعدا بالتقيد بما أوصت. وقبل أن تغادر نيويورك، أطلعتهما على تطور الاحداث، ولكن لم يَبدُ على أي منهما تقدير لخشيتها.

فعند الميتة المأساوية لوالديهما كانت فاني في الرابعة من عمرها وتيدي في الثانية، ولم يحتفظا من **التيتانيك** إلا بذكرى ضبابية، بينما لم يمحُ كَرُّ السنين هذا الكابوس من ذاكرة إدفينا، كذلك من نفس ألكسيا، على ما تفترض، والغصَّة المؤلمة في فؤادها.

تناولت العشاء في الليلة الأولى في غرفتها، لكنها لم تلمس شيئاً تقريباً من المآكل الشهية التي تحملها الصينية المقدَّمة لها، واستغرب المشرف وهو يعود لحمل الصحون «الفارغة» أن يجدها لم تُلمَس، كما استغرب بقاء الستائر مرخيَّة على الكوى. وفي اليوم التالي لاحظ أنها قد ازدادت شحوباً،

فسألها: «هل تشكو سيدتي من دوار البحر؟».

رفعت عينيها عن صفحة الورقة التي كانت تسوِّدها بخطها الدقيق وأجابت:

ــ كلا، كلا، كلّ شيء على ما يرام.

وهزّ حاجبيه متحيِّراً. وعادت إدفينا ثانية إلى منضدة الكتابة الصغيرة، كانت قد بدأت من أجل نسيان مخاوفها، تكتب رسالة طويلة لألكسيا تريد أن تسلّمها إيّاها يداً بيد عند لقياها. وذهب المشرف وهو يحمل صينية الإفطار، قائلاً في نفسه: إنها «امرأة رصينة». وعندما وجدها فيما بعد في ذات المكان منشغلة بالكتابة اعتقد أنها كاتبة، أو أنها توجِّه رسالة لعاشق هجرها!..

ولكن أيّة فكرة تدفعها للعيش حبيسةً، والستائر حولها مسدلة.

وعندما حمل إليها وجبة الغداء، تجرَّأ على أن يقترح عليها أن تروِّح عن نفسها بالخروج إلى السطح وأكدّ لها: «إنه نهار رائع من أيام تشرين أول، وعلى سيدتي أن تنتهز الفرصة للتنزُّه على السطح.» ونهضت ضاحكة، وألقت نظرة دائرية على القمرة التي لم تغادرها منذ يومين.

أحست بالهواء الندي يحركها فاستندت إلى الدرابزين عندما شعرت أن ساقيها لا تساعدانها على السير، ولحظت عدداً من زوارق الإنقاذ مرصوفة على السطح فبذلت مشقّة دون العودة سريعاً من حيث أتت.

كانت ألحان مطربة تنبعث من صالون الشاي، ووصل إلى مسمعها نغم فالس..

إنه ذات الفالس الذي رقصت على وقعه مع شارل في الليلة الأخيرة، قبل وقوع الكارثة، وغشيت الدموع عينيها، واندفعت إلى الأمام كأن شبحاً يطاردها، فاصطدمت مع رجل كان في طريقه إلى السطح.

تمتمت: أوه، عذراً إنني آسفة.

ترنّحت لكنه أسندها بيد صامدة تماماً ترتدي قفازاً وهو يقول: «إنها غلطتي»

كان يرتدي معطفاً أنيقاً بقَبَّة من فراء القندس، ويعتمر قبعة من اللبد تغطي شعره الأشقر، وهو طويل القامة، وفي نحو الأربعين من العمر.

أضاف وهو يلتقط صحيفة وكتابين سقطا منه على الأرض: اعذريني.

إنها حركة عادية، رتيبة، طمأنت إدفينا. ففي بعض اللحظات ولمجرد التفكير أنَّها على متن باخرة، وسط المحيط، يخالجها شعور بالخوف تكاد معه تقفز إلى سترة النجاة.

انتصب الرجل مبتسماً وهو يسألها: «لا بأس؟». لكن الابتسامة غاضت عن وجهه، إذ يبدو أن المرأة الشابة ليست على ما يرام، فهي تكاد تسقط مغشيّاً عليها، وهالة الشعر الأسود تزيد من شحوب وجهها.

أجابت بصوت ضعيف: نعم، إنني في حالة حسنة جداً، اعذرني مرة أخرى، فقد كنت أفكِّر بشيء آخر.

قال الرجل في نفسه: «برجل بالتأكيد» فامرأة مثلها لا يمكن أن تبقى طويلاً وحيدة

ــ ما من ضررٍ. ما رأيك في تناول فنجان من الشاي.

يبدو أنه ليس مستعجلاً لتركها.

ــ كلا .. الواقع أنني كنت في طريقي إلى العودة إلى غرفتي.

بوصولها إلى قمرتها، وقع نظرها على المشرف الذي شجّعها باهتمام أبوي، دفعها إلى الابتسام وهو يقول: «سيدتي محقّة في خروجها»

ــ نعم، قمت بنزهة طيبة، كنتَ على حق.

ــ هل تأخذين فنجانا من الشاي.

واجابت بالموافقة، وعاد بعد قليل وهو يحمل إبريقاً يتصاعد البخار منه مع فنجان وصحن بسكويت بالقرفة وهو يقول:

لا يجب أن تبقي حبيسة غرفتك، أتعلمين؟. أنا لا أعرف إلا دواء واحداً لمعالجة الأحزان: الهواء المنعش، والشمس، واللقاءات المسلّيّة، والموسيقى

نعم؟ هل يبدو عليّ الحزن؟

لن تشرح له بالطبع جزعها من ركوب البواخر. وهزَّ المشرف رأسه.

ــ بدرجة أقل الآن، فملامحك أحسن.

إنّه يفكر بجدّ. فالأفضل لامرأة بمثل جاذبيتها أن تلهو هناك في الصالات العليا بدلاً من أن تعاني الملل بين أربعة جدران... والآن وقد تمَّت الخطوة الاولى...

ها هو يسمعها تذكر له ما ترغب من أجل وجبة المساء.

ــ أجابها وقد بدا عليه التكدُّر: لا يجب على سيدتي أن تتناول عشاءها هنا، فلدينا قاعة طعام رائعة من الدرجة الممتازة.

ـ ليس لدي الثياب المناسبة، وأخشى الظهور هكذا.

ـ إن المرأة الجميلة لا تحتاج أبداً لما يزيِّنها، وفستان أسود بسيط يكفيها كذلك الفستان الانيق من الصوف الذي كانت ترتديه بعد ظهر اليوم نفسه.

ـ كلا ليس هذا المساء، ربما غداً.

وافق بتنهدة قبل أن يسجّل طلبها: هليون بصلصة هولندية، شريحة من لحم العجل مع البطاطا المهيّأة على البخار، وزجاجة صغيرة من نبيذ سانسير الأبيض المعتَّق.

لكن إدفينا لم تستطع ابتلاع شيء.

تمتم المشرف وهو يحمل صينية الطعام: لا شهيَّة لدى سيدتي.

لكنه عندما عاد بعد فترة ليسوّي السرير، لاحظ بسرور أن هذا المسافرة المفضَّلة قد خرجت... وظهرت إدفينا على سطح النزهة تستنشق بعمق الهواء الرطب محاولة المحافظة على هدوئها، وسارت بحذر على طول الدرابزين، مشيحة برأسها بعيداً عن البحر خشية أن تلاحظ عبر لونه العاتم... شبحاً. أو كتلة جليد... وكان قلبها يضرب بشدة في صدرها، وانتابها شعور بخطر مداهم.

خطوة بعد أخرى، جهدت في تكرارها، ورِجْل قبل الأخرى، وركّزت نظرها على حذائها وفجأة اصطدمت قدماها بزوج من أحذية الموكاسان الخفيفة. ورفعت رأسها مندهشة، والتقت عيناها بعينين بلون العقيق تبسمان لها.

هتَفَت بطيف ضحكة متوتِّرة، وقد عرفت الرجل الطويل الأشقر الذي اصطدمت به من قبل: إنّني بكل تأكيد غير قابلة للإصلاح.

ـ أعتقد أنّنا نعاني من ذات المشكلة. هل تشردين دائماً هكذا؟

ـ كلا.. نعم.. كنت غافلة قليلاً.

ـ أنا أيضاً... فمشهد الماء تحت ضوء القمر يُسحر، ألا تجدينه كذلك؟

إنها لم تنظر نحو البحر، وهذا المجهول بمظهره الارستقراطي

يذكِّرها بشارل، رغم أنه أشقر وأكبر عمراً من خطيب إدفينا.

سألها بتهذيب: هل يمكن أن أدعوك إلى تناول كأس.

نظرت إلى الذراع المقدمة لها، وراحت تبحث باضطراب عن سبب معقول للاعتذار عن قبول عرضه فلم تجد إلا أن تقول.

ـ إنني تعبة قليلاً، وكنت عازمة على العودة.

ـ كنت أفكر بالشيء ذاته، لكن ليس الآن، فالنزهة الطيِّبة تجلو الأفكار...

استندت إلى ذراعه دون تفكير، وصحبته علىطول السطح دون أن تنبس بكلمة، فليس من عادتها أن تتحدث مع غرباء. وكان هو أول من كسر جدار الصمت.

ـ من أين أنت؟ من نيويورك؟

ـ كلا ... من سان فرنسيسكو.

ـ أه! وأنت ذاهبة إلى لندن لزيارة أصدقاء، أو ربما إلى باريس،

ـ إلى لندن.

وفكرت بحزن «لأنقذ أختي ابنة السبعة عشر عاماً من مخالب كازانوفا خمسيني» لكنها أضافت:

ـ من أجل عدة أيام فقط.

ـ إنها سفرة طويلة من أجل إقامة بهذا القِصَر. يجب أن تكوني من محبي الأسفار. ألا تجلسين للحظة؟

وجلست على كرسي طويل دون أن تعرف السبب، ربما لأنه أكثر سهولة من الإنتقال، وجلس على كرسي مماثل مجاور لها، وقدّم لها بلطف غطاءً تستر به رجليها وقال فجأة:

ـ يا إلهي، لقد أضعت صوابي؟ فأنا لم أُعرّفك على نفسي: أنني باتريك سباركس ـ كلي وأنا أسكن لندن.

ـ وأنا إدفينا وينفيلد، وصافحت اليد الممدودة إليها.

ـ سيدة؟ آنسة؟..

هزّت برأسها عند الكلمة الأخيرة. ورفع حاجبيه مندهشاً، وقال مداعباً:

ـ آها! إن اللغز يتعقّد، فالتساؤلات كثيرة على المركب بشأنك.

قالت ضاحكة: حقا؟ لا أصدقك.

ـ ومع ذلك هي الحقيقة. فحتى بعد ظهر هذا اليوم أكدت لي سيدتان متقدمتان في العمر أن على ظهر الباخرة شابة تتنزّه لوحدها، ولا تكلم أحداً، وتتناول طعامها في غرفتها.

ـ إنّهن بالتأكيد يلمّحن إلى واحدة غيري.

ـ اسمحي لي بأن أشكّ في هذا، كنت على سطح النزهة بعد ظهر اليوم، ولم أركِ أبداً في قاعة الطعام وأنت فاتنة حقاً.

ـ وبعد، صحيح إنني أفضل تناول العشاء منفردة، ولكن...

أجاب مزهواً وابتسامة تشرق على قسماته المُنشرحة: إنني على حقّ إذاً، أنت الفاتنة والعصيَّة. لقد أثرتِ خيال جميع المسافرين دون قصد منك، يا عزيزتي! فبعضهم يرون فيك أرملة ثريَّة، لا عزاء لها، وهي في طريقها إلى أوروبة.

وآخرون يرون فيك مطلّقة ذات ماض مشوَّش، بينما ادَّعت فئة عن قناعة انك نجمة سينمائية تسافر متنكِّرة... ولم يتوصّل أحد حتى الآن للكشف عن حقيقة هويتك، اؤكّد لك، إنَّما وفقاً للشائعات، أنت بمثل شهرة... وأطبق اجفانه ليُعدَّ اسماً مناسباً

ـ تيدا بارا.

أغرقت في ضحكة صريحة قائلة:

ـ يبدو أن لك خيالاً جامحاً يا سيد سباركس ـ كلي.

ـ الرحمة! إنني منحت اسماً معقداً لأظهر مثيراً للسخرية على فم أمرأة جميلة، نادني باتريك.. أمَّا أنت فسترين نفسك مضطرة لتقولي لنا من أنت، وفي أيّ الأفلام مثّلت لتنتهي مباراة الأحجيات الغامضة التي انصرف إليها رفاق رحلتنا.

ــ مع مجازفة تخييب أمل جميع الناس، فَما أنا إلا امرأة بسيطة متوجهة إلى انكلترة لملاقاة أختها.

ونطقت بالجملة الأخيرة بلهجة رتيبة شبه لا مبالية. ورغم ذلك بدا مهتماً

ــ ولن تبقي إلا بضعة أيام؟ يا لخسارتنا!

وابتسم من جديد، ولأول مرة وجدته جذّاباً. إنَّه تقرير بسيط خال من أي تأثُّر.

ــ وكيف تصرّفت لتهربي من شَرَك الزواج. يبدو لي قطعاً أن الأمريكيات أكثر تحرُّراً من انكليزياتنا المسكينات اللواتي ينطلقن لصيد الزوج منذ سن الثانية عشرة.

إنه يتميَّز بروح دعابة لا تقاوم.

عقَّبت ضاحكة: لا أعتقد أن العزوبية ميزة لدى الأمريكية. وعلى كل حال، فالانكليزيَّات لا يختلفن أبداً مع أزواجهن ــ وعاد إلى ذاكرتها وجه خالتها ليز الذي شاخ قبل الأوان ــ إن خالتي قد تزوَّجت بريطانياً.

ــ نعم؟ من هو؟

ــ لورد هيكام.. رُبر هيكام، لقد توفي منذ عدة سنوات، ولحقت به إلى القبر بعد وقت قصير، ولم يرزقا أولاداً.

منح نفسه فرصة للتفكير.

ــ كان أبي يعد لورد هيكام من معارفه، إنني أدرك الآن لماذا لم ترفع خالتك المسكينة الصوت أبداً أمام زوجها. لا شك أنه كان قاسياً معها.

إنّه يعرف إذاً السير رُبر.

ــ ليس قاسياً فحسب، كان لا يطاق، شديد التسلط.. وكانت التعسة تخشى من ظله. لقد زرناهم في هافرمورمانور منذ ... ــ ثم عضت على شفتها حتى لا تذكر التاريخ ــ منذ مدة طويلة، ولم اعد إلى

انكلترة بعدها...

عند الكلمات الأخيرة، بدت لهجة غريبة في صوتها، فنظر إليـــها وسألها

ــ منذ متى؟

ــ أحد عشر عاماً.

قال بلا مبالاة، متظاهراً بأنه لم يلاحظ الظل القاتم الذي غشَّى وجه محدثته.

انتصبت هذه فجأة، كأن ضرورة قصوى تدفعها إلى الهرب.

ــ يجب أن أذهب. سُررتُ برفقتك يا سيد سباركس ــ كلي.

صحّح لها قائلاً هو ينهض بدوره: باتريك، هل يمكنني أن أقدم لـك كأساً من الشمبانيا، إن زخرفة الصالون الكبير تستحق الانعطاف إليه.

هزّت رأسها نفياً، فليست لديها أية رغبة في أن تشاهد الصالون الكبـير، فما من صالون كبير في أية باخرة في العالم يمكنه أن يمحو ذكرياتها.

ــ كلا شكراً.

ــ أتسمحين لي في هذه الحالة أن أرافقك حتى باب غرفتك؟

ــ لكنها كانت قد مشت.

أسرعت إدفينا نحو غرفتها، وأمام الباب المغلق، وقفــت ســاكنة، مبهورة الأنفاس، خُيِّل إليها ويدها على المقبض أنها ستجد ملجأ فيــها. لكنها كانت مخدوعة، نسيت للحظة، لكن الخوف ضيّق عليها الخنـــاق من جديد. كلا لا يمكنها أن تبقى وحدها في الداخل دون أن تختنـــق. فالكابوس كامن خلف هذا الباب المغلق، وعـــادت المـــرأة أدراجـــها، وخرجت مجدداً إلى السطح واستندت بتثاقلٍ على الدرابزيـــن، وهـــي تلهث كحيوان وقع في شرَك.

وانتزعها من خدرها وهي في الظلمة صوت غدا مألوفا لها:

ــ أيا كانت مشكلتك يا آنسة وينفيلد، فقولي إن حلاً سيوجد بالتأكيد لها.

لم تتحرك، وأحست بيد على كتفها.

تمتم: اعذريني ليس من عادتي أن أتدخَّل في أمور لا علاقة لي بها، لكن كنت على درجة من الاضطراب منذ لحظة بحيث أثرت قلقي.

التفتت إدفينا أخيراً نحوه فرأت الدموع تترقرق في عينيه.

ـ جربت أن ترد بمزاح دون أن تُوفَّق: إنني أقضي الوقت في طمأنة الناس عن وضعي.

أجاب بلطف:

ـ أفترض أنك لم تتمكني من إقناع أحد.

كان ودوداً بل ولطيفاً، لكنها كادت تأسف لحديثها معه، فليس لكل هذا معنى، لقد اضطرّت لركوب هذه الباخرة اللعينة بهدف التوجُّه للعثور على ألكسيا وليس لعقد صداقة مع أول وافد.

اعترفت بابتسامة باهتة: «في الواقع إنني لست كثيرة الإقناع».

ـ يجب أن تبذلي جهداً.

وصمت للحظة قبل أن يسألها بلطف: ما الذي يعذِّبك إلى هذا الحد؟ ماذا حدث لك؟

كانت أمارات أَلَمٍ يتعذّر وصفها، وهي ذات تلك التي لاحظها منذ انطلاقهما من نيويورك تشنّج قسمات المرأة الشابة الناعمة، وهمست وهي تمسح دموعها بيد رشيقة:

ـ لا شيء، أخيراً... لا شيء في الوقت الحاضر. إنني لا أحب البواخر، هوذا كل شيء.

ـ لأي سبب؟ هل تصابين بدوار البحر.

اجابت بلهجة غامضة: ليس تماماً، أحسُّ بالإنزعاج، لا أجد شيئاً أكثر إرهاقاً من هذه العابرات المحيط الضخمة، لاشيء أكثر...

وتوقفت عند كلمة «قَتْل» الكثيرة الالتباس في رأيها.

استمر ينظر إليها بودّ. كأنه صديق قديم، وأحست فجأة أن بإمكانها أن توليه ثقتها، وأن تقول له كل شيء.

قالت بصوت باهت بشكل غريب: كنت على متن **التيتانيك**، وفقدت

في الكارثة أهلي والرجل الذي كنت سأتزوجه.

اخترق بريق من الذهول أنظار باتريك، وتمتم.

ـ أه ! يا إلهي! إنني آسف.. لا أعلم ماذا أقول لك، إلا أنك تعبِّرين عن شجاعة كبيرة بوجودك هنا. إنها أوَّل رحلة بحرية لك بعد الحادث؟

ـ نعم. ليس هذا سهلاً. كنت قد أقسمت ألا أضع قدمي على باخرة. لكنني اضطررت من أجل البحث عن أختي..

ـ وهل كانت هي أيضاً على **التيتانيك**؟

كان يخشى أن يُعَدَّ متطفلاً في أسئلته، لكنها بدت راغبة حالياً في الكلام:

ـ نعم، كانت في السادسة من عمرها آنذاك، وغرقت الباخرة يوم عيد ميلادها، وقد فقدناها خلال عملية الإنقاذ... والواقع انها عادت إلى حجرتها بحثاً عن دميتها. ثم وجَدْتُها على ظهر الباخرة التي انتشلتنا. وكانت الصغيرة المسكينة في حالة من صدمة نفسية مريعة... ومنذ ذلك الوقت... إنّها فتاة صعبة. حسّاسّة جداً.

لزم الصمت دون أن تفارقها عيناه. إنّها كما تصوّر تماماً. امرأة جميلة غامضة.

ـ ألم يكن لك أقارب آخرون على الباخرة؟

ـ ثلاثة أخوة، وأختان. نجونا جميعاً، ومات أبي وأمي وخطيبي ـ وارتعشت ابتسامة مبهمة على شفتيها المكتنزتين ـ كان إنكليزياً مثلك واسمه شارل فيتزجرالد.

وتهدّج صوتها وهي تلفظ اسمه، وخلال ثانية تلمست بعصبية إصبعها كأنها تبحث عن خاتم الخطوبة الذي كانت قد نزعته من يدها منذ مدة طويلة. والتقت نظرات باتريك سباركس ـ كلي بنظراتها، وبدا له كأنّه رأى شبحاً.

همس: يا للغرابة، سمعت عنك منذ أحد عشر عاماً.. فتاة من سان فرنسيسكو... في تلك الفترة كنت أتهيأ للزواج، أنا أيضاً.

ولما كانت تتفحصه دون أن تدرك مناسبة حديثه قال:
ـ شارل فيتزجرالد نسيبي بالمصاهرة. يا إلهي، ما أصغر العالم!
ووافقت بصمت، وتابع.
ـ أغرق موته كل العائلة في حزن عميق، وبكاه أبواه المسكينان سنوات.
ـ وأنا أيضاً
ـ وعزفتِ عن الزواج.. بسببه؟
ـ بسببه، وبسبب اخوتي. خمسة إخوة: ثلاثة صبيان، وفتاتان يجب تربيتهم. كان فيليب في السادسة عشرة، وجورج في الثانية عشرة، والباقون صغار جداً. فألكسيا كما ذكرت لك في السادسة، وفاني في الرابعة، وتيدي طفلاً في الثانية.
تأمّلها بإعجاب صادق؛ وقال:«ربيتِهم لوحدك؟
فعلت ما وسعني.. في يسر وعسر؛ أخيراً وبفضل الله عشنا، ماعدا فيليب الذي مات في الحرب الكبرى منذ ست سنوات.
وانتعشت عند ذكر إخوتها وأخواتها، وتابعت بابتسامة ملأى بالحنان:
جورج بطل العائلة، وقد تزوج منذ فترة قريبة فتاة رائعة الحسن.. وقد ترك هذا الشقي دراسته العليا في هارفارد، ليجرِّب حظه في هيوليوود، والواقع انه نجح نجاحاً كبيراً.
ـ أهو ممثل؟
كلا، إنه منتج في ستوديو كبير.
واستمرَّت في سردها؛ وفاني في الخامسة عشرة الآن، طاهية ممتازة بينما يَعِدُ تيدي، وهو في الثالثة عشرة بان يغدو رجل أعمال كبير.. إنّها كثيرة الاعتزاز بهم بشكل شجي.
ـ الواقع أنك نجحت في تحمُّل مسؤولية كبرى؛ إنك إنسانة فريدة يا إدفينا.
أجابت بتواضع: فعلت ما باستطاعتي القيام به؛ ويوماً بعد يوم، لم

يكن لي في ذلك خيار. أحببتهم كثيراً... عدا أنني وعدت أمي بالاهتمام بهم.. بقيت أمي على ظهر السفينة لتفتش عن ألكسيا، ولما عرفت بعدم وجود زوارق إنقاذ لجميع الناس فضَّلت الموت إلى جانب أبي.

توقَّفت لفترة، وتحوّلت بوجهها نحو البحر القاتم لتتذكَّر ذلك الليل الرهيب الذي سيتسلّط عليها حتى نهاية أيامها. وسكت باتريك أيضاً محترماً صمتها.

ثم تابعت بعناء: في البدء، لم يشعر أحد بخطورة الوضع. جُمِعْنا على سطح الزوارق دون أن يحدّد لنا شيء، وكانت الاوركسترا تعزف موسيقى زنجية صاخبة كأننا في احتفال كبير.. وانتظرت أمي على أمل أن تستقلَّ مع أبي مركب إنقاذ واحد.. وللأسف، كان انتظارها طويلاً جداً.

نظرت فجأة إلى هذا الغريب، الذي كان من الممكن أن يغدو نسيباً لها، لو لم يُحطِّم القدر حياتها. وعبرت الكلمات التي كانت مدفونة في أعماق روحها أخيراً إلى شفتيها:

ـ كرهتها لفعلتها، وخلال سنوات كنت حاقدة عليها. أوه! ليس لأنها تركت لي الأولاد، كلا. بل لأنها فضَّلت أن تموت مع أبي بدلاً من أن تعيش معنا....

ربّما أحبّته أكثر من أي شيء في العالم... لا أدري. هذه الفكرة عذَّبتني طويلاً. شعرت بأنني مذنبة لأنني عشت بعد أهلي وبعد شارل. ولو أنني أصغيت إلى نداء روحي لبقيت أنا أيضاً. تماماً كما فعلت هي. لكنها منعتني. ودون شك لأنني لم املك الشجاعة الكافية. أخذت أوّل قارب نجاة مع الصغار، وتركت أمي وأبي وشارل لمصيرهم.

تلألأت الدموع على أطراف أهدابها الطويلة، وفجأة شعرت بأنها تخلَّصت من حمل ثقيل. تمتمت وهي تخنِقُ آهة: قلت لهم إلى اللقاء، دون أن أدري أنها ساعة الوداع الأخيرة، لم يتسنَ لي الوقت حتى

لتقبيل شارل... لم يكن بإمكاني أن أعلم أن الباخرة ستغرق. ولم يكن بإمكان أحد معرفة ذلك.

وترنّحت على ساقيها وأحاطها باتريك بذراعيه.

ـ تصرفتِ أحسن تصرف يا إدفينا، وليس خطأك أن نجوت من الغرق وقضى الآخرون.

ـ أوه! يا باتريك، لماذا بقيت هي مع أبي.

إنّه لا يعلم، ولكنه يحاول أن يخمِّن.

ـ لا شك أن أمّك كانت كثيرة التعلق بأبيك بحيث لم تتصوَّر إمكان عيشها دونه. كما أنّها كانت تعلم جيّداً أن بإمكانك أن تحلّي محلها.

هتفت وقد توهّج وجهها غضباً: لكن هذا ليس عدلاً! إنها لم تفكّر لحظة بي، وبعواطفي. إنني أكرهها لأنني أنا التي عشت وليست هي. لماذا وجب أن استمر في العيش مع الأحزان؟ لي الحق أنا أيضاً أن أموت قرب الرجل الذي أحببته..

وبقيت العبارة غير مكتملة. ما الفائدة من الاستمرار في سكب مرارتها؟

ـ إن الحياة غالباً غير عادلة يا إدفينا.

وبدت الدموع في عينيه هو أيضاً.

ـ إنني آسفة، كان من الواجب ألا أكرّر هذه القصص القديمة.

ناولها منديلاً من الباتيستا الناعمة طُرّزت عليه الأحرف الأولى من اسمه فقبلَته شاكرة

تمتمت: في العادة أنا لا أتكلّم عن هذا الموضوع.

ـ توقعَّت ذلك ـ وابتسم ـ لو عرفتك منذ أَحَد عشر عاماً لسرقتك من شارل، ولجنبّني هذا عقد قران مدّمر. تزوجت ابنة خال شارل. أوه! إنّها مخلوقة جميلة! ووجب أن يمرّ بعض الوقت لأتحقَّق من أنّها لا تحبّني، وإنها لم تحببني يوماً.

سألت وابتسامة شاحبة تبدو على قسماتها لفكرة ما افترضه من

احتمال وقوعها في حبه بدلاً من حب شارل: وهل لا تزال متزوجاً منها؟

تنهد بمظهر المستسلم: للأسف نعم، لدينا ثلاثة أولاد، ونحن نتبادل بعض العبارات كل خمسة عشر يوماً على مائدة الإفطار، بين رحلتين. فزوجتي تفضّل قطعاً أوقات غيابي، وهي تُؤثِر عليّ صديقاتها، وجيادها.

ألقت عليه إدفينا نظرة متحيِّرة، إذ لا يمكنها أن تتصوّر زواجاً دون حبّ.

ــ ألم تفكّرا أبداً بالطلاق؟

ــ كلا... لأسباب عديدة، أولاً: الأولاد، ومن بعدهم أهلي. فما من أحد طلّق في عائلتنا. وهم لا يحتملون الفكرة، ولتتويج كل هذه الأسباب، فأنا بفضل جدّة فرنسية أُعَدُّ أحد هذه العينات النادرة في بريطانية العظمى... إنغليكانياً وكاثوليكياً في آن معاً! أخشى أن أكون وفيليبا متحدين للسرّاء والضرّاء ــ للضرّاء خاصَّة! ــ حتى نهاية الأزمان...

كشفت تحت نبرة صوته الخامدة أسى عميقاً، فقالت

ــ اتركها إذاً. من السخف الاستمرار في العيش هكذا.

أمر لا يُصدَّق، إنّهما ما كادا يتعارفان ومع ذلك أفضى كل منهما للآخر بأسراره الأكثر حميمية. لا شكَّ أن المرء يكشف عن قلبه بكل طيبة خاطر على متن مركب، وهو وسط السماء والماء، لشخص يتوقع ألا يراه بعد انتهاء رحلته.

أجاب بلا مبالاة: «ليس لي خيار، إنني مثلك يا عزيزتي، أضع الواجب قبل كل شيء؛ هكذا «يقتضي النبل» كما تقول جدتي الفرنسية. وكم تغلَّب الواجب على العواطف الأخرى. هذا هو وضعي. فقد كبر أولادي، وهم جميعاً في المدرسة الداخلية، فوجودي في البيت ليس ضرورياً، والواقع أنني لا أجد ضيراً في البعد عنه. وأنا محامي قضايا، وأمثِّل أبي، وأسافر بكثرة، وأنا أقضي في نيويورك وباريس أوقاتاً تفوق ما أقضيه في لندن. ولي أصدقاء كُثُر في روما وفي

برلين... باه! ليس الأمر على درجة كبيرة من السوء.

ردّت بصراحتها المعهودة: أهكذا تجده؟ أما أنا فاعتقد العكس، إنك تعيش في فراغ كلي.

ــ إنك على حق يا إدفينا. ليست هذه حياة، إن صحّ القول، ولكن ليس أمامي غيرها، وبعد كل حساب، فنحن الاثنان في وضع متماثل. فأنت قد قضيت أجمل سنيّ حياتك تلبسين الحداد على رجل أحببته وأنتِ لم تتجاوزي العشرين عاماً، فكري في هذا! هل عرفتِه كفاية؟ هل كان بإمكانك التأكُّد من أنه سيحقّق لك السعادة؟هذا ما لا يمكن معرفته... ومن ثمّ توشحت بنبلك وانصرفت إلى تربية إخوتك وأخواتك. وقد فعلتُ الأمر نفسه مع أولادي. والواقع يوجد فرق أساسي بيننا يا إدفينا. أنا متزوّج، وأنت عزباء! إنك حرّة في أن تحبي من جديد وتعيدي تكوين حياتك وتؤسسي بيتاً وعائلة.

ــ لا تكن مدعاة للسخرية! إنني في الثانية والثلاثين، وحياتي غدت خاوية دون أمل.

ــ وحياتي أيضاً. فأنا في التاسعة والثلاثين، ومع ذلك إن سنحت لي فرصة جديدة، فلن أتردّد ثانية واحدة، سأتزوَّج من جديد، وأُرزَق بأطفال آخرين.. وتوقّف فجأة عن الكلام، وأطبق بشفتيه على شفتي إدفينا. وقبّلها طويلاً قبلة لم تعرف مثلها منذ موت شارل. واهتزت روح الفتاة الشابة، وكأنَّ هذه القبلة الملتهبة التي استجابت لها دون تفكير قد مسحت ظلال الماضي. لم يكن السبب حبّها لشارل، لقد عبدته دون أدنى شك. ولكن فاتها السبب الذي دفعها إلى مثل هذا التعلُّق بذكراه. ما هو؟ أهو حلم؟ أهو وهم؟

أهو ذكرى بعيدة مبهمة؟ هل تغيّرت إذاً على مرّ السنين؟ هل حملت هذا العبء الثقيل مدة طويلة؟ لا يمكن لها أن تحكم، وخاصة الآن، وبينما كانت القبلة تتطاول عبر الزمن فقدت مفهوم العالم المحيط بها.

أخيراً توقَّف باتريك عن عناقها، ثم قبّلها من جديد برقة أكثر، وقال هامساً:

إدفينا، مهما حدث بيننا، لا يمكنني الزواج منك. وأياً كانت عاطفتي نحوك سأبقى مرتبطاً بأخرى حتى يوم القيامة. لا أريد أن أدمّر حياتك، ولذلك أفضّل أن أكون واضحاً. لن أتعلق بك، وأنا أمنعك عن التعلُّق بي، هل تدركين ذلك؟

ـ نعم، أجابت بصوت أبح.

لو أنّها فقط لم توجّه إليه الكلام... لو أنّها فقط لا تشعر بحبه الآن.. أوه!

إن كلّ هذا غير معقول!

إنني أمنعك من أن تكرري معي ما فعلته مع شارل. أي العيش مع الذكريات. أشتهي أن احبك بعنف يا حبيبتي، أُحقق لك السعادة، أمنحك الحرية، لتتمكني من أن تتزوجي رجلاً آخر.

قالت مبتسمة: توقف عن تضجّرك، إننا لا نعلم ما يخبئه لنا المستقبل. يجب عدم الإحساس بالارتباط نهائياً بشخص بينما يمكن للموت أن يفرّقك عنه في كلّ لحظة... ولكن ربما قرّرت فيليبا نفسها أن تتركك

ـ لا أريد أن أبني المستقبل على «إذا» و«ربما» فهي أَشرَاك رهيبة، يا إدفينا؛ وتذكري أنني في حبي سأعيد لك حريتك، سأفتح باب القفص وتطيرين كعصفور صغير غدَاً حرّاً في النهاية.

أحاطت عنقه بذراعيها وقالت متضرِّعة: ليس الآن.

همس ويداه تداعبان خصلات شعرها: أوه! كلا، ليس الآن، فأنا أُحبّكِ، يا حبيبتي....

- XXXVI-

هو وضع من النوع الـذي لا يحـدث إلا فـي الأفـلام، أو فـي الروايات.

«رجل يصادف امرأة على ظهر باخرة، ويُغرم أحدهمـا بـالآخر بجنون؛ هي تعيش في حداد على خطيبها، وهو متزوج، فعشقهما لـن يعمِّر إلا مدّة الرحلة، ومن ثم ستعود الحياة إلى مجراها الطبيعي...»

نعم، إنه سيناريو جميل، لكن إدفينا لا تشغل بالها كثيراً، فهي التـي ضحت بكلّ شيء من اجل الماضي، تكتشف مجدّداً اللحظة الحـاضرة. كانا يقومان بنزهات طويلة على سطح الباخرة، واليد بـاليد، وهمـا يثرثران، ويضحكان ويتخاطفان القبـل تحـت نظـرات المسـافرين الآخرين المحرِّضة. وشيئاً فشيئاً انقشع ذعرها من المراكب؛ ورافقـها باتريك خلال تجربة الإنقاذ، وكانت ممتنّة له.

التغى الزمن بالنسبة لهما، فكل منهما ينعم باللحظات التي يقضيـها إلى جانب الآخر. وقد زعم باتريك أنه منذ زواجه لم يقـع أبـداً فـي الغرام، و إدفينا تصدِّقه رغم أنها تشتبه ببعض خيانات لـه بالنسـبة لزوجته. سألها ذات مساء: كيف قضيت أيام صباك.

إنه يرغب أن يعرف كلّ شيء عنها حتى أدق التفاصيل.

أجابت بابتسامة مشرقة: لا اتذكر الشيء الكثير، لكننـي أفـترض أنني كنت فتاة عاقلة. وحتى موت والديّ كنا نمـارس حيـاة عائليـة طبيعية، وكنا سعداء، أمـي تحـب أعمـال البسـتنة وأنـا مغرمـة بمساعدتها... وبعدها اختلف الأمر. أتردّد على الحديقة، واطرح علـى نفسي ألف سؤال، وهي دائماً ذات الأسئلة. لماذا لم تنزل إلى قـارب الإنقاذ معنا؟ ولم تكن لأسئلتي نهاية...

ـ وكما فهمت منك، فإنك لم تصلي أبداً إلى الجواب.

ـ كلا ولكن كنت أشعر بتحسُّن بعدها.

أجاب: أحبّ كثيراً أعمال البستنة.

كانا يثرثران لساعات، يستعرضان مختلف المواضيع بـدءاً من أصدقاء الطفولة حتى رياضتهما المفضلة مروراً بالكتب التي يُؤثرانها. وباتريك مولع بالأدب الكلاسيكي، بينما إدفينا اكثر ميلاً للمؤلفين الحديثين كسكوت فيتزجرالد أو جون دوس باسوس. وكلاهما يهويان الشعر، ومطلع الشمس وغروبها، وضوء القمر، والرقص... واكتشفا نقاط مشتركة كثيرة بينهما، ولم يُخفِ أحدهما أي سرّ عن الآخر. وأخبرته إدفينا أنها أهدت الطرحة التي أُعدت لعرسها لهيلين وترقرقت عيناه بالدموع قائلاً: كم أتمنى لو أمكنك وضعها من أجلي.

وتمتمت: وأنا أيضاً.

في هذا المساء بعد لقائهما بيومين، سيذهبان للرقص.

وشكت إدفينا متأسفة: ليس لدي الثياب المناسبة.

لكن إحدى المضيفات أعارتها فستاناً يحمل شارة «شانيل » وهو من طراز ناسب تماماً جسمها الرشيق. ورقصا طوال الليل، متحاضنين على حلبة الصالون الكبير، وكأن لا أحد غيرهما في الدنيا، بينما الباخرة «**باريس**» تشق عباب أمواج المحيط بسرعة كبيرة.

لم يغرق المركب، بل وصل بسرعة كبيرة إلى المرفأ الإنكليزي المحدّد، وأمام مباني سوثمبتون القاتمه سألت إدفينا صاحبها للمرة الألف: «ماذا سنفعل الآن؟»كانا قد بحثا هذا الأمر مطولاً.

ـ تماماً كما اتفقنا، ستستعيدين أختك، وسأدعوكما للعشاء، وبعد ذلك تتوجّهين إلى سان فرنسيسكو وتبحثين عن زوج جديد بك.

قالت بنفور ساخرة: حقّاً؟ وماذا يجب عليّ أن افعل لأجده في رأيك؟ هل أضع إعلاناً صغيراً في إحدى الصحف؟.

ـ لن يكون هذا ضرورياً. كُفِّي عن تصرفك كأرملة حزينة؛

وجميع العزّاب اليقظين على الشاطئ الغربي سيلقون بأنفسهم أمام قدميك.

ـ يا للهذر!

إنها لا تريد أي أعزب من الشاطئ الغربي؛ إنها تريد باتريك.

كانت قد أخبرته بالطبع عن مغامرة ألكسيا الحمقاء، وعبَّرت له صراحة عن اشمئزازها من مالكولم ستون. واستمع إليها باتريك وقد استبدَّ به الغضب لورطة أختها، وعرض عليها مساعدته الكلية؛ فيمكنهما معاً تمشيط جميع الفنادق الصغيرة المشبوهة في لندن حيث يرجح أن يكون هذا الماكر الخسيس قد قاد ضحيته إليها.

ـ سأمرّ أولاً على مكتبي، وألتقي بك مساءً حيث سنبدأ تحرياتنا، واعتقد أننا سنُخرِج الذئب من وكره سريعاً.

وافقت إدفينا وهي غارقة في التفكير، فبعد أن قضت ثلاثة أيام رائعة بصحبة باتريك، بدا لها فجأة أن فراقه لعدة ساعات في عداد المستحيل. لم يكونا يفترقان لحظة إلا عند ساعة متأخرة من الليل، عندما يصحبها حتى باب قمرتها، فيحتضنها بين ذراعيه، ويقبِّلها قبلة أخيرة، وباتفاق ضمني يفترقان عند ذلك. فباتريك لم يُرد أن يستغل الوضع؛ تاركاً لإدفينا المبادرة إلى المرحلة التالية. لكن هذه المرحلة لم يتم التوصل إليها أبداً. والآن وبينما هي تستند على درابزين الباخرة تتأمّل إلى قربه مرفأ سوثمبتون، انتابتها موجة مسلية من الضحك، ضاعفت غرابة الوضع من مرحها الصاخب، فأختها ابنة السبعة عشر ربيعاً ألقت بنفسها بكل اندفاع في هوى جموح، وهي ابنة الثانية والثلاثين تستعد للعودة إلى سان فرنسيسكو وهي ما تزال عذراء تعاني عذاب الشهداء.

سألها باتريك: «ما سرّ هذا المرح المفاجئ؟»

وعبرّت له إدفينا صراحة عما دار في خلدها، وشاركها ضحكها. وكانت هي أوّل من صَمت فقد تمنت لو كانت الأمور مختلفة، لكن

ضاق عن ذلك الوقت؛ فلو إنها عرفت باتريك لمدة أطول لما تـرددّت ثانية في أن تمنحه نفسها.

واستمرت تتأمّل سماء سوثمبتون السديمية دون أن تتفوّه بكلمة.

استقلا القطار معاً إلى لندن. ولم تكن فيليبا تعرف شيئاً عن عودة زوجها، عدا عن أنها تَعِدُّ الأمر لا يعنيها مطلقاً. ووفقاً لقول باتريك، فان السيدة سباركس ـ كلي في اسكوتلندة من اجل البيع السنوي للخيول.

ترك إدفينا في فندق كلاريدج، وهو يعد بالعودة في الساعة الخامسة مساءً.

ولم يكن الوقت قد تجاوز الظهر.. فأرسلت مباشرة برقية لأخويها في سان فرنسيسكو تطلب منهما الاتصال بها في الحال إن وصلتهما أخبار من ألكسيا. إستحمّت وخرجت، واشترت من متجر هارولد مجموعة ملبوسات تليق بأميرة، وعرّجت بعدها على صالون حلاقة، ثم عادت إلى الفندق بسيارة أجرة، وعندما وصل باتريك كانت تنتظره في الصالون بكامل أناقتها فهتف مبتسماً:

ـ يا إلهي يبدو لي أنك سطوت على كل المخازن الكبرى.

هو أيضاً قام ببعض المشتريات لها، أهداها نسخة نادرة من كتاب **لإليزابيت باريت براوننغ**، ورزمة مغلّفة في ورقة صقيلة وعليها شعار متجر جواهر وارتسكي. وفكّت إدفينا ببطء شريط التافتا لينكشف عن علبة من المخمل فتحتها مندهشة لتجد سواراً مرصعاً بالألماس يسطع بريقه فوق البطانة الحريرية البيضاء. ووفقاً للشرح المسّجل على شهادة صغيرة من ورق البريستول فإن هذه الحلية قُدِّمت سابقاً للملكة فيكتوريا من قبل الأمير ألبرت.. ووضعت إدفينا السوار في معصمها موقنة أنها ستتزيَّن به لمدة طويلة ليلاً ونهاراً.

حمل باتريك معه أيضاً زجاجة شمبانيا، وبعد أن تذوّق كل منهما كأساً.

قال الرجل: «حان الوقت لنقوم بتحرياتنا.»

استأجر لهذا الغرض سيارة ليموزين مع سائقها، وأجريا دورة على مجموعة فنادق من الدرجة الثانية في قلب سوهو دون نتيجة. وحوالي الساعة الثامنة مساءً، قررا إجراء دورة أخيرة قبل الانتهاء من تفتيشهما ذلك اليوم وتأجيل البحث للغد. ودخلت إدفينا في رواق صغير حقير، وهي تحمل بيدها صورة لألكسيا، وباتريك يتبعها عن قرب وتوجّها بصمت إلى مكتب الاستقبال لتبرز إدفينا الصورة للموظف القابع هناك، بينما دسّ باتريك في يده ورقة نقدية بخمسة جنيهات.

سألته: «هل رأيت هذه الفتاة، إنها بصحبة شخص في الخمسين من العمر طويل القامة واسمه مالكولم ستون؟

تنقَّل نظر مستخدم الاستقبال بين إدفينا وباتريك ثم دعك الورقة النقدية على الصورة بين يديه، وهز رأسه أخيراً وهو يقول:

ــ نعم، لقد أستأجرا غرفة هنا. ماذا فَعَلا؟

ثم أضاف وكأنه يريد القول إن الشكَّ قد راوده لمرآهما من النظرة الأولى

«إنهما أمريكيان، كما تعلمان.»

لم يلاحظ لهجة إدفينا، وعلى كل حال فباتريك هو مقدِّم البخشيش.

ــ أما يزالان هنا؟

ــ سافرا البارحة... قضيا ليلتين أو ثلاث ليال. يمكنني أن أجد لكما في السجل تاريخ وصولهما بالضبط. إنها محظّية صغيرة فاتنة بشعرها الجميل الأشقر. مثال الروعة في الجمال.

شعرت إدفينا بقلبها يخفق بشدة في صدرها وهي تقترب من الهدف، وتأسَّفت لعثورها على آثار ألكسيا بسرعة. فهذا يعني قرب عودتها، وتَرْك باتريك..

تابع المستخدم وهو يضع الورقة النقدية في جيبه:

ــ ذهبا إلى باريس، هذا ما قاله الرجل على كل حال، وقد أخليا الغرفة لمدة أسبوعين، وسيعودان إليها بعد ذلك فالرجل قد ترك حقيبته هنا

سأل باتريك: هل يمكننا رؤيتها؟ وقضت ورقة نقدية أخرى على تردّد المستخدم، فاختفى للحظة ليعود وهو يحمل حقيبة فتحتها إدفينا لتجد فيها مجموعة ألبسة رجالية، ثم لامست يدها نسيجاً حريرياً ناعماً بلون سكري، فصاحت وعيناها تترقرقان بالدمع: هوذا، إنه التايور الذي كانت ألكسيا ترتديه يوم اختفائها. إنني أعرفه جيداً.

هو يوم ما يزال قريب العهد، لكنه بعيد بشكل رهيب، ها قد مضت خمسة عشر يوماً على هرب أختها.

عاد المستخدم إلى مكتبه ليردَّ على الهاتف، وسأل باتريك إدفينا:

ـ ماذا تنوين فعله في الوقت الحاضر؟

ـ لا أعلم، لقد قال إنهما سيتغيبان لمدة أسبوعين

ـ تعالي سنذهب للعشاء قبل اتخاذ أي قرار.

هتف المستخدم: ماذا سأقول لهما عند عودتهما؟

ـ قالت إدفينا: لاشيء بتاتاً.

وضمنت ورقة نقدية ثالثة صمته.

سأل باتريك فيما بعد وهما على مائدة العشاء في **كلاريدج**.

هل ترغبين في اللحاق بهما إلى باريس؟

هزَّت كتفيها فمطاردة الرجل عبر أوروبة بدت لها مستحيلة.

أجابت: يبدو لي أن انتظارهما هنا هو الحلّ الأفضل.

إن أمامهما أسبوعين، فلِمَ لا يقترح عليها رحلة؟

ـ إن لم يكن لديك ما يربطك هنا فيمكننا الذهاب إلى إيرلندة.

كان يحلم بهذه الرحلة منذ سنوات ويتمنّى أن يزور مجدّداً الاماكن الرومانسية التي سبق له زيارتها يافعاً.

وتحوَّلت الفتاة الشابة بنظرها إلى السوار الذي يبرق في معصمها.

ـ إدفينا، تعالي معي... ستأتين أليس كذلك؟

هزّت رأسها ببساطة، وبدت على محياه ابتسامة فتى مُستهام، ومال عليها ليطبع على صدغها بلطف قبلة رقيقة وهو يتضرَّع.

ـ إدفينا، قولي لي نعم.

في اليوم التالي اتصلت بتيدي وفاني هاتفياً لطمأنتهما. وجاء باتريك ليصحبها. واستقلا القطار من جديد، ونقلتهما معدّية بعد ذلك إلى سواحل إيرلندة المخضوضرة، واستأجرا سيّارة أوصلتهما إلى كاشّل. ومع هبوط المساء كانا يتأمّلان صخرة كاشل الشهيرة. والصمت المهيب يسود الرَعَن الصخري المهيمن على حقول الجولق والخلنج. وهناك على ألوان الشَفَق النحاسية المتوهّجة ضمّها إليه وتلاصقت الشفاه.

ـ قَطَعتِ طريقاً طويلاً يا إدفينا لتلتقي بي.

وموّجت نسمة هواء ندي سطح مياه البحيرة وارتعشت الشابة وتمتمت:

ـ نعم شاء القدرُ لنا أنٍ نلتقي.

عقّب وهو يضحك ويقلّد اللهجة الإيرلندية الخشنة: حتماً.

ثم عاد إلى رصانته وقال: «سأتذكّر هذه اللحظة حتى نهاية أيامي، يا حبّي.

وعادا بهدوء إلى فندقهما، وكان باتريك قد حجز غرفة لشخصين، وكلاهما يعرف السبب، فالوقت قصير أمامهما، ولديهما كثير مما يجب تقاسمه.

عندما زَلَق باتريك فستان إدفينا عن كتفيها عرفت أن اللحظة قد حانت، وفيما بعد وهو يحتضنها بهوى ورِقّة قالت في نفسها: «ها هي ليلة عرسي.» أوه! لم تكن تلك التي توقّعتها مع شارل... فهذه الليلة كانت مخصّصة لباتريك، وله وحده.

-XXXVII-

تتابعت الأيام بشكل سريع في نزهات طويلة عبر الحقول وعلى ضفاف البحيرة، وقام باتريك و إدفينا بزيارة آثار كاشل العائدة للقرون الوسطى، وصوّرا الدير القديم الساحر والكاتدرائية القوطيّة.

كانا يقضيان الليل متعانقين على السرير العريض، إنّما للأسف مرت فترة إقامتهما الممتعة كلمح البصر، واتخذا طريق العودة بصمت، والقلب مثقل بالغمّ، واختلسا يومين إضافيين، ولكن كل شيء انتهى الآن، وعلى إدفينا متابعة الهدف الذي حضرت من أجله: وهو العثور على ألكسيا.

في بعض اللحظات، كان نوع من غيرة غامضة يشوب ما تكنّه من مودّة لأختها المراهقة.

إن هذه على الأقل تزوّجت الرجل الذي تحبّه - وإن كانا فعلاً متزوّجين فهل سترضى بالتخلّي عنه واللحاق بإدفينا؟ إنّها بعد هذه الرحلة الطويلة بدأت تشكّ. لكن يصعب عليها أن تتصوّر إمكان التعلّق بشخص مثل مالكولم ستون، ولكن من يعلم؟ وماذا ستقول لجورج؟ وكيف ستعترف له بالحقيقة؟

وضاق صدرها بتنهُّدة عميقة، والواقع أنّها لا تفكر بألكسيا ولا بجورج، وإنما بباتريك، وانزلقت يدها في يد صاحبها. وللمرّة الألف كانت التحسّرات تنتابها. وغالباً ما فاجأت نفسها في قلب الليل تتصوّر طراز حياتها لو أن باتريك كان حرّاً. لكنه متزوج وسيبقى. هذا ما قاله لها منذ البداية... لا يمكن إجراء أي شيء، ولا رجاء أي شيء. فالحلم غدا حقيقة للحظة فقط. أما الآن فالواقع يبرز جلياً على السطح يحطّم صراحة سعادة عابرة لم تمتد أكثر من أسبوعين.

عندما وصلت إدفينا برفقة باتريك إلى فندق سوهو القميء، داعبت بنظرها السوار المتألّق في معصمها. وفي البهو الضيّق سأل باتريك عن السّيد ستون

ردّ المستخدم الجديد: «إنّهما هنا. بماذا يجب أن أعلمهما؟

- بلا شيء، إنّها مفاجأة.

والتفت نحو إدفينا وقال: الأفضل أن أراه بمفردي.

- كلا، قد يسبّب هذا ذعر ألكسيا، سأصعد معك.

وتبعته عبر الطوابق وقد أحسّت بضيق يشدّ على خناقها. مضى أكثر من شهر وأختها المراهقة غائبة، وسيعود جورج من رحلة شهر العسل خلال اسبوعين أو ثلاثة أسابيع، ولا يمكن إضاعة أيَّة دقيقة. والآن وقد اقتربت مجابهة النهاية، فإنّ تخوفاً جديداً ينتابها. ففي أيَّة حالة ستجد ألكسيا؟

توقّف باتريك أمام الرقم الذي أشار إليه المستخدم، ووقفت إدفينا على العتبة، ويداها ترتعشان، بينما كان يقرع الباب الذي انشق مصراعه عن رجل طويل القامة وسيم الوجه رغم تغضُّنه. كان حافي القدمين، وسيكار على زاوية شفتيه، وزجاجة من الويسكي تحت إبطه، وخلفه فتاة جميلة في تنورة داخلية. ومرّت دقيقة على إدفينا قبل أن تتعرّف على أختها، فخصلات الشعر الكثيف الأشقر قد ضُحِّيَ بها في قصّة مجعّدة، والقسمات الناعمة قد تموّهت بالمساحيق والأحمر الفاقع والكحل الأسود الكثيف، وما أن تواجهت الأختان حتى فاضت الدموع.

بدرت عن مالكولم انحناءة احترام ساخرة، ولعله قال في نفسه:«هيّا، فالمرأة المسترجلة قد لقيت فارساً يسير في ركابها»

هتف بصوت يقطر بالتهكُّم: عجباً! هوذا من يمثّل العائلة؟ ما سبب تشريفي بزيارتك يا آنسة وينفيلد؟

كبح باتريك رغبته الجامحة في أن يحطّم بقبضته فكّ الكوميدي، وتحوّل ببصره إلى إدفينا، وكانت هذه تحدّق في أختها وقد غاب كلّ

أثر من الرقّة عن وجهها.

- ألكسيا، أرجو أن تتكرّمي حالاً بجمع أغراضك.

وألقت بعدها على مالكولم نظرة ازدراء.

ردّ هذا بعجرفة: هل تنوين، عرَضا، أن تأخذي زوجتي إلى مكان ما؟

كانت تفوح منه رائحة الكحول والسيكار الرخيص وكبتت إدفينا قشعريرة تقزُّز وردَّت ببرود: إن زوجتك المزعومة في السابعة عشرة من عمرها يا سيّد ستون وإذا كنت تريد أن تتجنَّب المثول أمام القضاء بتهمة الخطف، فإني انصحك بأن تدعها تذهب معي.

- لسنا في كاليفورنية يا آنسة وينفيلد، ونحن في بريطانية العظمى، وأنا زوج ألكسيا. وليس لكِ أي حقّ عليها.

تجاهلته إدفينا وتحوّلت إلى أختها

- وبعد يا ألكسيا، إنني انتظرك

- أوه! ويني... إنني أحبه

كان لهذه الكلمات على إدفينا وقع طعنة خنجر. وقد غدا بِاتريك يعرفها جيداً بحيث يقدِّر ما يدور في خوالج نفسها أكثر من أيٍ مشاهد آخر، رغم حرصها على أن تكبت مشاعرها بحيث لا يطفو منها شيء على السطح. ورفعت رأسها بأنفة، وشعّ من حدقتيها بريق شرس،وألقت نظرة دائريّة على الغرفة، ولم يفتها شيء، لا الزجاجات الفارغة العديدة، ولا الثياب المدعوكة والمرميّة بإهمال على السرير، ولا صحون السكائر الملأى بالأعقاب.

والتفتت إلى أختها وقالت لها بلهجة تُخجل ملكة: «أهذا الذي ترغبين به حقاً يا ألكسيا؟ أين غدت أحلامك؟ وطموحاتك؟ أين نجمة هوليوود الكبيرة؟ والفيلاَّت الفخمة؟ والسيّارات الفارهة؟ هل يمكن تصوّر انحطاط أكثر مما أنت فيه الآن؟

شحبت ألكسيا وتمتمت بعبارة غير مفهومة، وأسفت إدفينا، في صميم قلبها، من الضربة الجارحة التي وجَّهتها إليها، إذ ليس من قبيل

الصدفة أن تختفي الفتاة غداة عرس أخيها، فقد تصرّفت مثل هذا التصرّف بعد رحيل فيليب إلى هارفارد... فألكسيا تفتش عن أب، يلزمها من هو بمنزلة الأب، أيّا كان،فالمهم أن يوليها اهتمامه.

- يا الهي، يا إدفينا... لم أعد أعرف أين أنا...

وتفجرت الدموع الحارّة غزيرة من عيني ألكسيا، فقد تَفّجرت آمالها بشكل يثير الرثاء، اعتقدت أنّها حَظِيت بالحبّ الكبير، ولكنها بعد أسابيع فقط أدركت الحقيقة. فمالكولم قد حاول استغلالها بكل الوسائل، والمغناة العاطفية تحوّلت إلى مقلب، ففي باريس كان شنيعاً لم يفارقه السُكرُ والتحرّش بالنساء الأخريات، وقد تيسّرت له خيانتها مع بعضهن، والغريب أنها بدت لا مبالية، ففي مثل تلك الأحوال يدعها وشأنها، والعلاقات الحسيّة معه لا تثير فيها أي شعور، فهي لا تريد إلا حنانه وبعض كلماته الرقيقة، وهي تسعى بأية وسيلة ليناديها: «يا طفلتي».

قالت لها إدفينا بهدوء، وباتريك ينظر إليها بإعجاب: «ارتدي ثيابك، يا ألكسيا».

تقدم مالكولم بخطوة مهدّدة نحو إدفينا وهو يقول: «إنّك على خطأ في انتزاع زوجتي مني يا آنسة وينفيلد» ولاحظت هذه بطرف عينها حركة من باتريك للإنقضاض عليه، لكنها أوقفته بإشارة من يدها. فهي لا ترغب في أن تترك هذه الغرفة قبل أن تعرف الغاية الخفيَّة من هذا الإختلاق، وهذا المخلوق الذي يحاول إخافتها ليس من الصنف الذي يسعى إلى الزواج وتحمّل مسؤولية عائلة.

سألته بتهذيب ملؤه البرودة: هل لديك برهان على زواجك من أختي يا سيد ستون؟ وبالمناسبة، كيف نجحت في السفر يا ألكسيا دون أوراق إثبات هوية؟ هل حصلت على جواز سفر من نيويورك؟

كانت الفتاة المراهقة قد ارتدت ثوباً من حرير قرمزي اللون، جعل

إدفينا تصرُّ على أسنانها، وردّت على أختها:

- ذكر مالكولم للقبطان بأنني أضعت جواز سفري. وكنت مريضة أثناء حركة الباخرة بحيث ما من أحد أراد إزعاجي

- مريضة؟

تصوّرت إدفينا تماماً مدى الذعر الذي حلّ بأختها، وردّت هذه بسذاجة وهي تنتعل حذاءها

- خدّرني الطبيب، ووجب أن أبقى نائمة طوال مدّة السفر.

- خدّرك؟ ها هي التبعات تتراكم يا سيد ستون: التغرير بقاصر، والإغتصاب، واستعمال المخدّرات... لن تتأخر أيّة محكمة في إيداعك مباشرة في السجن، إن خطر لك يوماً أن تعود إلى الولايات المتحدة.

كشّر الممثِّل عن ابتسامة صفراء:

نعم؟ هيّا آنسة وينفيلد، لا تكوني حمقاء، فأخوك سيكون سعيداً في طمس القضية، ألا تعلمين كيف يتصرَّف الرجل الكبير يا آنسة وينفيلد؟ إنّه يصمت. وكذلك أنتِ، إذ أنك أكثر حرصاً على شرف العائلة من جرجرتي أمام المحاكم، وليس على جورج إلا أن يسعى إلى عقود خارقة لصهره، وفي حال العكس يمكنني ان أكتفي منه براتب شهري ثابت.

نظرت إليه وقد هالتها نذالته بينما راح يقهقه ضاحكاً بسخرية

ثبّتت إدفينا عينيها على أختها وصاحت بها: ألكسيا، هل تزوّجت هذا الرجل؟ أجيبي، حان الوقت لتدركي واجبك، هل تملكين الجرأة على الاستمرار في الكذب بعدما سمعتِه منه؟

ساد صمت كاد ألا ينتهي، وأخيراً هزّت ألكسيا رأسها نفياً، ووجنتاها تتوهَّجان كاللهب، وأطلق مالكولم شتيمة بصوت منخفض، لكنها تمتمت

- ظننت ذلك في البدء، فقد أوهمني. إنني كنت في حالة سكر شديد يحول دون تذكّري. وعرفت فيما بعد الحقيقة فهذا الزواج لم يحدث

أبداً، وعندها وعدني بأن يتزوجني في باريس، لكن وعده كان خدعة أخرى إضافية و... خنقت الدموع صوتها، وكبتت إدفينا صيحة انتصار وهي تقول:

- باتريك، آتني بها.

صرّستون على أسنانه وهو يبحث بضراوة عن مناورة أخرى: «لن أسمح لكم بذلك، سيتنكّد عيشكم جميعاً إن كانت حاملاً.

ردّت ألكسيا سريعاً وهي تهرع للوقوف إلى جانب أختها البكر: لست كذلك، إنّك لم تحببني أبداً يا مالكولم.

- بلى، أقسم لك، لا تذهبي يا طفلتي، سنتزوج منذ الغد إن أردت.

وتدخّلت إدفينا: «كفى أيها السيّد» لن أذهب دون ألكسيا، حتى لو اضطررت لاستخدام القوة

- حاولي إذاً !... وتقدّم خطوة إلى الأمام، لكنه حرَف نظره باتجاه باتريك وسأل: ولكن من يكون هذا؟

حاولت إدفينا الإجابة، لكن باتريك سبقها وصرّح بنبرة قاطعة:

- إنني قاض، تفوّه بكلمة أخرى، أو حاول مرة ثانية أن تتمسّك بهذه الفتاة لأرميك في السجن قبل أن أمنعك نهائياً من الإقامة في هذه البلاد.

لأوّل مرة أحسّ مالكولم ستون بعاقبة تصرّفه. قاض... لقد انقلب السحر على الساحر. وغدا وجهه بمثل الرماد، وبمظهر من شُلَّت قواه رآهم يخرجون، وعلى عتبة الباب التفتت ألكسيا، والتقت أنظارهما للحظة فقط، وفي اللحظة التالية، كانت قد غابت بعيداً.

في السيارة التي أوصلتهم إلى كلاريدج، شكرت إدفينا السماء بصمت، إذ لم يبقَ عليها إلا أن تعود بألكسيا إلى سان فرنسيسكو لتؤاسيها هناك.

في الفندق انفجرت ألكسيا في نحيب هستيري وهي تطلب من إدفينا مسامحتها، وضمَّتها هذه إلى حضنها كطفلة، إلى أن هدأ بكاؤها،

فتركتها في غرفتها حيث استسلمت للنوم ونزلت إدفينا إلى الصالون حيث كان باتريك ينتظرها.

- كيف حالها؟

بدا قلقاً عليها فعلاً، ولم يستغرق أكثر من خمس دقائق ليتفهَّم الوضع: فتاة صغيرة بريئة عطوب، ونذل استغلّ سذاجتها وتعطّشها إلى الحنان.

ردّت إدفينا وهي تتهالك على إحدى الكنبات، وتتناول كأس الشمبانيا الذي قدّمه اليها: إنّها تستريح الآن.

- أي حيوان مشؤوم! آمل ألا يزعجكم بعد الآن

- وأنا آمل أيضاً. الشكر لله، كان أكثر جبناً من أن يتزوّجها. كنت سألغي هذا الزواج بالطبع. ولم يكن يتنابني إلاّ هاجس واحد، وهو أن تصل هذه القصة المؤسفة إلى الصحف

- والآن يا إدفينا؟

- سنعود إلى منزلنا. وبحظٍّ معقول، لن يدري أحد بهذه القضية، ولكن يجب أن نحصل على جواز سفر لألكسيا.

- إن السفير الأمريكي صديقي، وبإمكاني أن أطلب منه هذه الخدمة.

وابتسم وهو يفكِّر بأنه سيعمد إلى ذات الذريعة التي استخدمها هذا الحقير ستون، إذ سيذكر للدبلوماسي أن الفتاة فقدت اوراقها وهي تسافر مع أختها

- هل ستقوم بإجراء خدمة أخرى لي يباتريك؟ أريد أن تتصل بالسيدة فيتزجرالد من طرفي . هي لم تعد في ربيع العمر، ولا أريد أن أزعجها. لكن إن رغبت فإنني أحبّ أن أقوم بزيارتها.

قال بعد صمت: نعم.

تابعت برقة إنني أرغب في وداعها.

لم تسنح الفرصة لها في الماضي. إنّما الواقع أنّها تودِّع شارل الآن. وهي تعرف هذا من صميم قلبها. وربّما ساعدها باتريك على اتخاذ هذا القرار دون شعور منه

وعد وهو ينهض ليطبع قبلة لطيفة على وجنتها: سأتلفن لها صباح غد.

تمتمت: أحبك.

ورأته يبتسم وشعرت بيديه فوق كتفيها وهو يقول: وأنا أيضاً أحبك.

قارب لقاؤهما على الانتهاء، وكلاهما يعرف ذلك. وفارقها واتجه نحو باب الخروجٍ على مضض. وتابعته إدفينا بنظرة آسفة. ففكرة انفصالهما المحتّم تبدو لها غير محتملة.

-XXXVIII-

قُرِعَ الباب، وذهبت ألكسيا تفتحه، وتأمّلت الزائر للحظة وهي مُسمَّرة، قبل أن تنطلق عبر الجناح نحو غرفة إدفينا، وتهمس لها مذعورة

- لقد عاد القاضي.

وخرجت الفتاة الشابة إلى الصالة، وقالت ضاحكة:

- إنه ليس قاضياً، إنه باتريك سباركس- كلي، صديق- ولما لاحظت نظرة أختها اعتقدت أنّ عليها أن تضيف إنّه نسيبُ شارل.

- غير أنه... قال... البارحة.

ابتسم لها باتريك، فدون التزويق المفرط الذي كانت فيه، استعادت ألكسيا كلّ نضارة سنيِّها السبعة عشرة.

- أردت أن أدبّ الرعب في نفس هذا الروميو الرخيص، وقد نجحت الخدعة معه.

والتفت إلى إدفينا قائلا: «إن عليهم المرور على السفارة في رقم ٤ غروفسنور غاردن لاستلام جواز سفر ألكسيا، كما أن الليدي فيتزجرالد تنتظرهم في الساعة الحادية عشرة.

- هل فُوجِئت لسماع أخباري؟

- سألت ببساطة كيف تسنّى لنا اللقاء

بدا ظلّ من القلق في نظرة المرأة الشابة وسألته: وبماذا أجبت؟

- شرحت لها أننا تعارفنا، بصدفة سعيدة، على الباخرة.

- آمل ألا تتشوّش من زيارتي

كانت أم شارل في السبعين من عمرها الآن وأرادت إدفينا أن تجنّبها كل انفعال لا جدوى منه.

- بالعكس، بدا عليها الإنشراح، وأنا أعتقد أنها عرفت منذ مدة طمأنينة النفس برضوخها لحكم القدر

عبَّر فعلاً عن الواقع، فهذا مالاحظته إدفينا بعد ذلك بنحو ساعة. فقد استقبلتها السيدة فيتزجرالد بحرارة، وعندما انسحب باتريك وألكسيا بذريعة رؤية المنتزه المعدّ على الطريقة الفرنسية، تاركين السيّدتين وجهاً لوجه. صرحت المرأة العجوز برقة:

أملتُ دائماً أن تجدّدي حياتك: وافترض أن واجباتك تجاه إخوتك وأخواتك قد شغلتك كليّاً... أيّة خسارة كانت في وفاة أمك مع أبيك خلال تلك الحادثة.... يا إلهي، أيَّة ورطة! كل هؤلاء الأحياء الذين فُقِدُوا للاشيء، لإهمال الشركة التي لم تلحظ عدداً كافياً من زوارق النجاة... أوه، لو لم يكن قبطان الباخرة قصير النظر إلى حد لم يستطع فيه تجنُّب اصطدام باخرته بجبل الجليد... ولو أن لا سلكي المركب الأقرب كان يعمل.... ولو... - وتوقفت للحظة قصيرة - لم أتوقف عن التفكير بذلك طوال سنوات.

واستنتجت أن ولدي شارل لم يستطع النجاة لأن هذا هو حكم القدر. ويجب أن تكوني ممتنة يا ابنتي العزيزة لأنه جنَّبك ذات المصير، وعليك أن تستفيدي من كل لحظة من لحظات حياتك.

ابتسمت إدفينا وهي تحبس دموعها. وبمثل سطوع البرق استعادت ذكرى أوّل لقاء لها مع شارل، ثُم فكّرت بطرحة عرسها، وشكرت السّيدة فيتزجرالد لأنها أرسلتها لها.

- إنّها لك، يا إدفينا، وليس من حقي أن أحتفظ بها.

- لقد وضَعَتْها عروس أخي منذ شهر...

ووعدت مضيفتها ان ترسل لها صور العرس. وهزت الليدي العجوز رأسها.

فزوجها قد توفي منذ عام مضى. وصحتّها هي بالذات قد انحطّت، لكن رؤية خطيبة ابنها مجدّداً أنعشت قلبها.

- إن ألكسيا الصغيرة بمثل جمالك عندما كنتِ في عمرها، على أن شعرها أكثر شقرة.

ابتسمت إدفينا وهي معتزة لمقارنتها بألكسيا وقالت: آمل ألا أكون بمثل طيشها.

– أوه! أنت أبعد ما يكون عن الطيش، ومن ثم فقد برهَنتِ عن شجاعة استثنائية. أتمنى أن تلتقي برجل جدير بك... إنّك خلال كل هذه السنوات بقيت وفيّة لذكرى شارل أليس كذلك؟

تلألأت الدموع على أهداب إدفينا، ونظرتِ إلى مرغريت فيتزجرالد، وللحظة بدت ذكرى شارل من القوة بحيث غُصّ حلقُها بالنحيب، ومالت المرأة العجوز وطبعت قبلة عل وجنتها وهي تتمتم:

– إنّه سعيد حيث هو، تماماً كأهلك. يجب ترك الموتى يرقدون بسلام، يا عزيزتي، وقد حان الوقت لتفكري بسعادتك... وقد تمنّاها لك شارل.

– احتجّت الفتاة الشابة وهي تمسح أنفها بالمنديل الذي أعطاه لها باتريك: – إنني سعيدة مع إخوتي وأخواتي.

– ليست هذه هي السعادة يا إدفينا، وأنت تعرفين ذلك...

ثم قالت وهما متوجّهتان للحاق بالآخرين في الحديقة:

– عودي بين وقت وآخر إلى انكلترة.

أجابت الفتاة بهزّة مبهمة من رأسها. شعرت أنّها منهكة، والسيدة فيتزجرالد على حقّ... فالسعادة شيء آخر.

ومنذ أن تعرفت على باتريك لا يمكنها أبداً أن تحتجب من دونها... باتريك الذي ستفترق عنه قريباً.

قامت بتوديع والدة شارل عند الظهر. وقد دعا باتريك الأختين إلى الغداء في فندق **ريتز**. وبعد الظهر حجزتا قمرتين في الدرجة الأولى على متن الباخرة **أولمبيك**. وذهبتا لاستلام جواز سفر ألكسيا. وذكر لهما مستخدم وكالة السفريّات أن حظّهما طيّب، فالباخرة الكبيرة ستقلع غداً صباحاً– واخترقت موجة من الذعر فؤاد إدفينا، وتحوّلت بنظرها إلى باتريك فلاحظت الأسى في حدقتيه.

في المساء انسحبت ألكسيا، التي يبدو أنّها اكتسبت بعض الخبرة في الحياة، في وقت مبكّر بحجّة أن النعاس قد غلب عليها، وبقيت إدفينا

مع باتريك يرتشفان كأس الوداع في بار **كلاريدج**.

قالت بصوت منخفض: لا أعلم ماذا سأفعل لأودّعـــك غــداً، أوه، باتريك، لم نكد نلتقي، فلماذا يجب علينا أن نفترق؟

بقي سؤالها دون جواب، هي التي استغرقت إحدى عشــــرة ســنة لتقول وداعاً لشارل.

سألته بعد قليل: هل سترافقنا إلى سوثمبتون؟

- كلا يا عزيزتي. سيكون الوضع قاسياً جداً... ويمكن لدموعنا أن تثير انتباه ألكسيا

- أعتقد أنها أدركت كلّ شيء.

- اذاً سيكون لكل منكما سرّها

ومالت تقبّله، لقد تقاسما وقتاً فريداً، وأحست إدفينـــا بغمــوض أن باتريك قد حرّرها من القسر الذي فرضته على نفسها. ونهض ليستأذن في الإنصراف فسألته هل سنلتقي مجدداً؟

- دون شكّ... إذا جئتِ إلى هنا، أو ذهبتُ إلى هناك، لم يسبق لــي ان قمت بزيارة كاليفورنية.

ونظرت إليه، وهي تعلم تماماً أنهما لن يجتمعا بعد ذلك. فهذا ما تمّ الإتفاق عليه منذ البدء.

حطّم باتريك بحبه السلاسل الثقيلة التي كانت تقيّدها منذ زمن طويل.

ورافقته حتى سيارته

همس في أذنها أحبُّك، أحبُّك دون أمل، وسأبقى أحبّك على الــدوام. لن أنسى أبداً إقامتنا في إيرلندة.

وتلاقت شفاهمها للمرة الأخيرة. ثم انزلق خلف مقود ســيارته دون أن ينظر إلى الوراء.

وبقيت إدفينا واقفة على الرصيف فترة طويلــــة وقــد أطلقــت العنــان لدموعها.

-IXL-

انطلقتا صباح اليوم التالي إلى سوثمبتون. وهما تعرفان هذه المسافة لأنهما قطعتاها قبل ذلك بسنوات، مع فارق أنهما هذه المرة وحيدتان، اثنتان باقيتان على قيد الحياة، أختان وصديقتان... وكانت السيّارة تدرج على الطريق، ونظر إدفينا مثبت على الزجاج، وألكسيا صامتة، محترمة حزن أختها.

ما أن صعدتا على متن **الأولمبيك** حتى توجّهتا مباشرة إلى قمرتيهما. وبعد قليل، وأمام دهشة ألكسيا الكبرى، أرادت إدفينا أن تصعد إلى السطح العلوي لتشهد الإقلاع. وذهبت لوحدها - فقد فضلت ألكسيا أن تستريح.

بدأت عابرة المحيط العملاقة تشقّ بهدوء مياه المرفأ الرمادية الباهتة على صوت الصفارات الأجش، واستندت إدفينا إلى الحاجز تتأمّل للمرة الأخيرة الساحل البريطاني. وفجأة رأته، وعيناه مثبتتان عليها ويده مرفوعة بحركة وداع معلّقة، وعَبْر دموعها أرسلت إليه عبر الأثير قبلة. وبقي باتريك هناك جامداً إلى أن غدت الباخرة نقطة بيضاء في الأفق.

عندما عادت إدفينا إلى قمرتها كانت ألكسيا نائمة. وفيما بعد، وفي ذات النهار، أُجريَت تجربة إنقاذ، ولكن الغريب أن باتريك، وليس شارل، وهو الذي تراءى في مخيلتها وأبرقت على شفتيها ابتسامة مشوبة بالشوق، وتتابعت أمام عينيها مشاهد لقائهما القصير بدقّة مذهلة، وحلّق نورس يخفق بجناحيه فوق الباخرة، فذكرّها بكلمات باتريك: «سأفتح القفص وتغدين حرّة في الطيران» واتسعت ابتسامتها... ففي الثانية والثلاثين من العمر أحبّها رجلان بجنون، ليس هذا سيئاً بالنسبة «لعانس»

سألتها ألكسيا فيما بعد: «وقعتِ في حبّه أليس كذلك؟» وحوّلت

إدفينا بصرها قائلة: «كان نسيباً لشارل»
ليس هذا جواباً، لكن أختها لم تلحّ عليها.
عادت ألكسيا بعد صمت إلى موضوع اهتمامها الرئيس:
- أتعتقدين أن جورج سيعلم بما حدث مع مالكولم؟
- لن يعلم شيئاً إن حافظتِ على الكتمان.
- وإذا تكلمت فاني؟ أو أَحَدٌ غيرها؟...
قالت إدفينا وهي تحدّثها لأوّل مرّة كراشدة:
- عندها سّيانٍ. ستتحمّلين مسؤوليتك، وستنتهي إلى استيعاب الأمر. هذا ما تعلمنا إياه تجارب الحياة. تكوين الشخصية، وعندما تتصالحين مع نفسك تربحين المعركة.
- شكراً لأنّك أنقذتني من هذه الورطة، وأعتقد أنني تلقيت منها درساً للحياة.
فكرت إدفينا في نفسها «وأنا أيضاً». لكنها عقّبت بقولها:
- سأكون دائماً إلى جانبك، في كل مرّة تحتاجين إليَّ بها... إنّما ليس بعد فوات الوقت على ما آمل وأرجو- أضافت مع ضحكة صريحة.
عقَّبت ألكسيا وهي تضحك بدورها: أوه، بالتأكيد.
بقيت الفتاتان خلال عبور المحيط، في قمرتيهما معظم الوقت، قرأتا كثيراً، ولعبتا بالورق، وتحدّثتا في مختلف المواضيع، وبقيت السينما، بالنسبة لألكسيا، هَوَساً.
واقترحت عليها إدفينا أن تنتظر لتبلغ الثامنة عشرة قبل أن تتخذ قراراً، ورضيت، فمغامرتها مع مالكولم ستون أنضجتها. وهي في الوقت الحاضر تحترس من الرجال، ولحسن الحظ فإن إدفينا تعرف كيف تحميها.
- في المرة القادمة، ستكونين قادرة على حماية نفسك بنفسك، يا ألكسيا.

كانت هذه في شك من أمرها. ولفاني في نظرها الحظُّ الطيّب. فكل ما تطلبه لتكون سعيدة زوجٌ وبيت، وما من شيء أحبّ إلى نفسها مثل النجاح في تحضير عشاء شهي.

أجابت إدفينا: – ليس كل الناس مهيّئين لقبول التحدّيات في الحياة إنه مجال موقوف على عدد قليل. ومن هم خارج هذه الحلقة السحرية لا يعون تماماً أهميّة هذا الموقف. تعرّفتا على بعض المسافرين، وشعرتا بارتياح واسع عندما تراءت ناطحات سحاب نيويورك في الأفق. ولم تستطع إدفينا أن تمتنع عن التفكير بباتريك الذي التحق على الأرجح بمنزله اللندني . كان قد ارسل إليها طاقة من الورود وهي على ظهر الباخرة يوم السفر، مع كلمة: «أحبك.ب» ثم طاقة جديدة انتظرتها في جناحها في فندق ريتز- كارلتون مع «أحبك، وداعاً...» وتأمّلت للحظة التويجات الحمراء البرّاقة قبل أن تضع بطاقة البريستول الصغيرة في حقيبة سفرها. في ذات المساء اتصلا هاتفياً بالمنزل من الفندق. كان جورج قد اتصل بأخويه مرتين كما ذكرت فاني.

– قلت له إن ألكسيا خارج البيت، وإن إدفينا تشكو من التهاب في الحلق- وبدت معتزة بادعائها... كذلك اتصل السيد هورويتز، وأبديت له ذات العذر، تعالي سريعاً! فأنا مشتاقة إليك، وكذلك تيدي.

في اليوم التالي استقلّت إدفينا وألكسيا قطار لوس أنجلس السريع، وبعد أربعة أيام، كانتا في المنزل، وكان اللقاء مؤثّراً، وتهلّل تيدي وفاني لعناق ألكسيا لهما، وهي تؤكّد

– أبداً لن أغادر هذا المنزل.

وداعبتها إدفينا بالقول: «حتى ولو إلى هوليوود؟»

قطع رنين الهاتف بوح عواطفها. كان جورج وقد عاد لتوّه من رحلة شهر العسل، وتناولت هيلين بدورها السمّاعة وتمتمت:

- اعتقد انني حامل يا إدفينا، لكنني لست متأكّدة تماماً.

- أوه! هذا رائع!

غير أن لذعة غيرة وخزت فؤادها، فهيلين أصغر منها بعشر سنوات، ولها زوج يعيدها.

وعاد جورج يتحدَّث من جديد: «كيف حال حلقك؟»

- ماذا؟ - ثم تذكَّرت قصة فاني - آه، نعم، أحسن بكثير، لعلَّني أُصبت ببرد. إنّما أنا الآن أفضل.

- إنني مسرور من أجلك. لو تعلمين أنني حلمت بك. إنّه حلم غريب...

تصوّرها على ظهر مركب، واستيقظ وَجلاً، وهو فريسة قلق ممضّ وواسته هيلين وفق استطاعتها ويرجِّحان أنّ بويضة الجنين قد لُقِّحت تلك الليلة.

سألها جورج: متى ستأتين لزيارتنا؟

صمتت إدفينا متردّدة. ففكرة الانتقال ذاتها تملؤها الآن بالتوجُّس. لكنها راوغت بالقول: «وأنتما؟ ألن تأتيا بمناسبة عيد الشكر؟

- هذا بالضبط ما أريد التطرّق إليه، فسام يريد دعوتكم لقضاء العيد هذه السنة لديه.

وعد هيلين بأن يضع إدفينا أمام الأمر الواقع، مع التأكيد بأنهما سيذهبان إلى سان فرنسيسكو إن رفضت.

- لِمَ لا... أجابت بعد فترة من التفكير. إنّما أرادت فاني أن تحضّر لنا الديك الرومي المحمَّر. وستشعر الصغيرة المسكينة بخيبة الأمل

- لن يقف هذا حائلاً، يمكنها أن تحمّره في منزل سام

قهقه جورج ضاحكاً وهو يربت على بطن هيلين. ستساعدينها يا حبيبتي، أليس كذلك؟

وتنهّدت هيلين قانطة، فهي عاجزة عن قلي بيضة.

قالت إدفينا بعد تأمُّل: إذاً من أجل هذا اتصل سام على الأرجح.

- دون شكٍّ، إذاً موعدنا بعد شهر يا ويني.

وأغلق الخط. وبإعلان الرحلة القادمة إلى لوس أنجلس، أطلق تيدي وفاني صيحات التهلّل، وحتى ألكسيا بدت مغتبطة

قالت: لم أكن أفكر انني سأخرج من هذا البيت بمثل هذه السرعة.

وبدرت من إدفينا ضحكة.

ولّدت مغامرتهما الكبرى تواطؤا جديداً بينهما. كما أن تيدي وفاني من جهتهما يبدوان في تفاهم رائع، ولا يمكن لأحدهما أن يفترق عن الآخر.

قالت إدفينا في نفسها، فجأة، وهي تلجأ إلى سريرها في تلك الليلة: «لم يعودوا أولاداً، لقد غدوا أشخاصاً كباراً».

وأثقل النعاس أجفانها، وكما في كلّ ليلة منذ أن تركت انكلترة، راحت المرأة الشابة تفكر بباتريك. وكما في الحلم تراءت لها مراحل حبّهما العابر، المركب والقطار، والإقامة في ايرلندة، وعناقهما المتقد، ومشهد تحرير ألكسيا من مالكولم ستون، وسوار الألماس، وزيارتها للسيّدة فيتزجرالد... تتابع صور ساطعة لن تخمد أبداً.

أزفت عطلة عيد الشكر بأسرع مما توقعوا، وانطلقت العائلة بكاملها إلى لوس أنجلس. وكان جورج وهيلين في انتظارهم على رصيف المحطة، وكانا متألّقين، فقد تأكّدت هيلين من حملها، وتهلّل جورج وهو يقرّر: بأن المولودَ سيكون صبيّاً.

كان العشاء شهيّاً، برهنت من خلاله فاني عن مواهبها كطاهية بتحضير ديك رومي «خاص» استحقّت من أجله فيضاً من عبارات المديح والثناء. بعد ذلك بقليل توجّهت الفتاة اليافعة إلى هيلين ترجوها بأن تسمح لها بالحضور للعناية بالوليد وفوجئت الأم المقبلة بالطلب فالولادة منتظرة في شهر حزيران، ولذلك فقد رحبت بالقبول فالعطلة المدرسيَّة ستكون في بدئها، وهذا ما ملأ نفس فاني فرحاً.

شَكَا تيدي من هذا الترتيب معترضاً: «وأنا من سيرافقني خلال هذا الصيف؟

قال جورج مبتسماً «ستكون مشغولاً في الاستديو فسنجد لك عملاً صغيراً يليهك».

التهم تيدي بسرور فطيرة محشوَّة بالقرع – وهي من إحدى تحضيرات فاني الشهيرة أيضاً وانتهت وجبة العشاء في مرح عام، وتوزّع الفريق في الصالون. واقترحت هيلين على تيدي وفاني جولة في لعب الورق، وبدا جورج يناقش ألكسيا حول عقد الفيلم القادم، ودعا سام إدفينا للقيام بجولة.

قالت بينما كانا يتنزّهان في الحديقة: شكراً لضيافتك فالأولاد مسرورون جدّاً.

– يمكنك الاعتزاز بهم يا إدفينا. فتضحياتك لم تذهب عبثاً.... ولكن ماذا ستفعلين عندما سيغدون كباراً!

– ما ستفعله أنت تماماً ياسام، فأنت تنتظر أحفاداً، وأنا سأنتظر أولاد وبنات أخ

كانت تتصوّر أنها وسام من جيل واحد، وهذا خطأ، فهي في الثانية والثلاثين وسام في الخامسة والخمسين، وهزّ رأسه وهما يتابعان نزهتهما في نداوة المساء.

– ليس الأمر واحداً يا إدفينا، فأنا قد تركت خلفي ماضياً، وكان لي امرأة أعبدها، وقد جَرَحَتني بقسوة، لكنني عشت على الأقل حياتي. أما أنت فقد انصرفت كليّاً وبتضحية فريدة إلى هؤلاء الأولاد فمنحتهم كل مرحلة شبابك، وهذا ما يشرّفك. والواقع حان الوقت لتفكري بنفسك، فأنت بحاجة إلى شيء آخر غير أبناء وبنات الأخ، يلزمك زوج، وأولاد من رحِمكِ.

– ماذا حدث لكلّ هؤلاء الناس؟ لماذا تستبسل الأرض كلّها لتزويجها؟

باتريك، والليدي فيتزجرالد، والآن سام... وابتسمت متمتمة:

– ربَّيت خمسة أولاد، وأحبَبتْهم وكأنّهم أولادي....

وترددت فترة قبل أن تنهي عبارتها: نعم، أعتقد أنني أحببتهم أكثر من أمهم الحقيقية

أضافت في ذهنها: «فضّلت كات عليهم زوجها»

ولأوّل مرّة لم تثر هذه الفكرة غضبها. ونظرت إلى سام مندهشة أيضاً لشعورها بالانشراح في وجوده، وتجرأت على أن تصوغ سؤالاً دون أن تخشى اتهامها بالفضول.

- لماذا ذكرت أن زوجتك قد جرحتك؟ كنت أظن أنها قد ماتت في حادثة قطار.

ردّ على نظرتها بابتسامة صغيرة مُرّة.

- في الواقع، تركتني وأخذت القطار مع رجل آخر. وكانت هيلين ابنة تسعة أشهر في حينه، ولم أكشف لها أبداً الحقيقة.

تأمّلته إدفينا منذهلة

- أوه! كم هو رهيب هذا الأمر.

هزّ برأسه إيجاباً، وغمرت إدفينا موجة انفعال مقترنة بالإعجاب.

قال أخيراً: حقدت عليها مدّة طويلة، ونهشتني ضغينتي سنيناً، لكنني مع الزمن غفرت لها.... فهي بعد كل حساب، تركت لي هيلين.

لزمت المرأة الشابة الصمت. هذا الاعتراف يلقي ضوءاً جديداً على شخصية سام هورويتز، وعلى نبل عواطفه.

وفكرّت بشرود: «خسارة ألا يكون متزوجاً، إحدى وعشرون سنة من الوحدة طويلة جداً بالنسبة لرجل» بالطبع كانت له بعض مغامرات، وعلاقات عابرة مع بعض الممثلات، وهي تعرف هذا من جورج. إنما دون أي التزام، فسام قد كرّس نفسه لابنته، ولمهنته...

وبدوره طرح عليها سؤالاً سمّرها في مكانها:

- بالمناسبة، كيف كانت رحلتك إلى أوروبة؟

- إيه؟!... ما الذي يجعلك تفكّر أنني كنت في أوروبة؟

- بالاستنتاج. اتصلت مرة أو مرتين بك في منزلكم، وقصّت عليّ صغيرتك فاني حكاية عن التهاب حلق تدفع إلى النوم وقوفاً، وراح يقلّدها:

«د لا يمكنها الكلام، فصوتها مبحوح كلّياً» وأغرقت المرأة الشابة بالضحك رغما عنها

وتبادلا النظر لحظة. وكان المساء قد سكب العتمة على الكون، لكن ضوء القمر كان يشعّ على قسمات سام الملأى بمظهر الرجولة.

تابع حديثه: قمت بتحرّياتي الصغيرة وانتهيت إلى اكتشاف سرّ القضية.

إن السيد ستون قد اختفى فعلاً بصحبة ألكسيا، وبالمقارنة استنبطت أن التهاب حلقك الشهير هو ذريعة خالصة.

كان عليك أن تطلبي مساعدتي يا إدفينا. خاب أملي لأنّك لم تفعلي ذلك....

هل قمت بالرحلة لوحدك؟

أحنت رأسها ايجاباً.

أعتقدُ أنها لم تكن جولة سارّة، وقد وجدتِها أليس كذلك؟ أين كانت؟

ابتسمت لذكرى باتريك ولإدّعائه أنّه قاض

- في لندن.

- مع ستون؟

أجابت بعد لحظة تردد: نعم، لكن جورج غير مطّلع على هذا الموضوع.

قال بلهجة ماكرة: سرّك في قبر دفين، فلا تخشي.

إنها تعرف أن بإمكانها أن تثق به كلّياً فهو رجل ذكي، كتوم، يحترم الآخرين.

سأل: وستون؟

- بقي في انكلترة، إنّه في خوف أزرق من جورج.

- إنه لا يخلو من الحذق، فأخوك كان سيقتله لو عرف بالأمر، وهو على حق.

إن زوجتي غير الأمينة ولّدت في نفسي ريبة كنت أتمنّى لو أتخلّى عنها، إنما بفضلها اشتبهت بهرب ألكسيا. لكن الشكر لله يبدو أنّها مُتَعِظة

– تماماً، انّها لا تفكر إلا في تحقيق النجاح مستقبلا، والعودة إلى التمثيل عندما تبلغ الثامنة عشرة إن وافق جورج، وأعتقد أنه سيوافق.

– وأنت يا إدفينا؟ ما الذي ستفعلينه الآن؟

وأغرق نظره في نظر إدفينا بتساؤل صامت

تنهدت في شبه لامبالاة: لا أعلم سأستمرّ في الاهتمام بهم ماداموا بحاجة لي.

بقي صامتاً لحظة طويلة، وهو يكبح عبارة تحرق شفتيه، وما زال لا يجرؤ على صياغتها وكانا قد توقَّفا عن السير متقابلين وأشعة القمر تغمرهما، ووجه إدفينا المحاط بشعرها الكثيف الأسود يبدو كأنه قُدَّ من مرمر وعيناها الزرقاوان تُشعّان ببريق ألماسي.

تمتم: خذي حذرك. ستجدين نفسك في يوم من الأيام وحيدة مثلي.

سيذهبون جميعاً دون أن تنتبهي. إننا لم نخلق لنعيش في عزلة، يا إدفينا.

أدركتُ ذلك في اليوم الذي تزوّجت فيه هيلين جورج. بنيتُ من أجلها امبراطوريّة وفجأة لم تعد هنا. ثم اكتشفتُ أنني بنيتُ هذه الامبراطوريّة لنفسي أيضاً، ولكن ليست هناك الامبراطورة التي تشاركني عرشها... وشعرت عندئذ بشكل رهيب أنني وحيد، وكأنَّ كل هذا الحب الذي منحته لابنتي ومن قبلها لزوجتي لم يُفد شيئاً. بالطبع سأرزق قريباً بأحفاد... لكن هذا لا يكفي. تأمّلتك جيداً ذلك اليوم يا إدفينا.

وتوقَّف عن الكلام، وضمَّت يده الكبيرة يد الفتاة الشابة، وقرّب وجهه إلى وجهها، ونظرت إليه وهي مندهشة لانجذابها نحوه. إنّه مثال الرجل الذي يُرغب في معزَّته، وفي السير معه على درب الحياة، وكان هذا الانطباع من القوة لديها بحيث فكّرت فجأة أنّها تحبّه، وبينما كانت تجهد في تحليل هذه العاطفة غير المتوقّعة أبداً، ارتسمت على شفتيه ابتسامة

- أريد أن أسعدك يا إدفينا، هذه هي الرغبة الأعزّ إلى نفسي. أن أضع يدك في يدي، أواسيك إنِ شعرتِ بغمّ، أضحك معك إن بدوتِ في مرح. أكون إلى جانبك في كلّ مرة تحتاجين فيه إليَّ.

إن من حقنا نحن أيضاً أن يكون لنا نصيب من السعادة.

صمتت للحظة، لا تعرف بماذا تجيب. لقد أحبّت شارل بشغَف.

وأُولِعت بباتريك بجنون... ويبدو لها الآن بشكل غريب، أن سام، على الأرجح، هو الرجل الذي تبحث عنه منذ سنوات دون أن تدري، أدركت ذلك الآن فجأة كأنّه بديهة جليّة. إنّه «هذا الحب الكبير» كما قالت كات.

أدركت إدفينا فجأة معنى هذه الكلمات، وقالت في نفسها. حقّاً إنّه هو، هذا الحبّ الكبير الذي نحسّ فيه فجأة بأننا مستعدون لكل شيء. حتى للموت... قرب سام ستعرف سعادة بمثل سعادة والديها. لقد تولّدت لديها فجأة هذه القناعة المطلقة.

قالت بابتسامة خجول: لا أعلم بماذا أجيب.

حتى الآن كانت تعتبره بكل بساطة والدَ هيلين... أو حما جورج، الصديق الأمين الذي شدّد عزيمتها عندما هربت ألكسيا، الرجل الذي يمكن الإعتماد عليه، والذي يمكن حبّه بالطبع.

تابعت بقلق: «ماذا ستقول هيلين، وجورج، والآخرون

- سيقولون إنَّ حظّي كبير يا إدفينا. لا تقولي أنت الآن شيئاً.... خذي وقتاً للتفكير... أو بالأحرى، إن عَدَدْتِيِ مجنونا، فقولي لي هذا حالاً.

وتأمّلها بنظرة متضرٍّعة، ساحرة. نظرة فتى مراهق أثارت ضحكها.

- فكرّتُ جيّدا يا سام، يمكن أن نكون كلانا مجنونين، لكنني أعتقد أنّه جنون يستحق أن نمارسه

رأت إشراق ابتسامة في غبش الظلمة، ثم أخذها بين ذراعيه وضمّتهما قبلة ملتهبة.

انتهت

صدر عن دار الفاضل

١- **المحاكمات الكبرى في التاريخ:** تأليف فريدريك بوتشر- ترجمة: د.نور الدين حاطوم.
٢- **مذاهب السعادة:** تأليف: د.عادل العوا.
٣- **قراءة خطوط اليدين:** تأليف: غريغوار شكريان - ترجمة: لجنة الترجمة في دار الفاضل.
٤- **الألعاب والناس** (سيكولوجيا العلاقات الانسانية): تأليف: إيريك بـرن - ترجمة وجيه الأسعد.
٥- **إرادة الحضارة:** تأليف: تيسير شيخ الأرض.
٦- **المغناطيسية:** تأليف: جاك مندور - ترجمة: لجنة الترجمة في دار الفاضل.
٧- **أنابخير - أنت بخير:** تأليف: أمي وتوماس هاريس - ترجمة: لجنة الترجمة في دار الفاضل.
٨- **تحديث الأسرة والزواج:** تأليف: د. عادل العوا.
٩- **الذهب:** تأليف: أ.س.مارفونين - ترجمة: ميشيل خوري.
١٠- **الدليل الجديد للصحة باستخدام النباتات:** تأليف: كلود غارده - ترجمة: لجنة الترجمة في دار الفاضل.
١١- **بلقنة العالم** (النظام الجديد وتقسيم الكون): تأليف: إيف ماري لـولان - ترجمة: لجنة الترجمة في دار الفاضل.
١٢- **العدالة للجميع:** تأليف: كازا مايور - ترجمة: د. عادل العوا.
١٣- **نصوص في العشق (حب شديد اللهجة)**- الجزء الأول: تأليف ياسين رفاعية.
١٤- **نصوص في العشق (كل لقاء بك وداع)** - الجزء الثاني: تأليف: ياسين رفاعية.
١٥- **نصوص في العشق (أحبك وبالعكس أحبك)** - الجزء الثالث: تأليف: ياسين رفاعية.
١٦- **محبة ووفاء:** ذكرى مرور عام على وفاة الأديب عبد الرحيم آل شلبي.
١٧- **علم الدلالة** : تأليف : كلود جرمان وريمون لوبلان - ترجمة: د. نور الهدى لوشن.

١٨- **من أعلام الأدب العربي الحديث**: تأليف : عيسى فتوح.
١٩- **المحاكمات الكبرى في التاريخ** (طبعة ثانية مُنقّحة): تأليف: فريدريك بوتشر- ترجمة: د. نور الدين حاطوم.
٢٠- **حقوق الانسان** (**الجزء الأول**): تأليف: عبد الهادي عباس.
٢١- **حقوق الانسان** (**الجزء الثاني**): تأليف: عبد الهادي عباس.
٢٢- **حقوق الانسان** (**الجزء الثالث**): تأليف: عبد الهادي عباس.
٢٣- **الإمام جعفر الصادق في نظر علماء الغرب**: نقله إلى العربية نور الدين آل علي.
٢٤- **مواكب التهكم** : تأليف: د. عادل العوا.
٢٥-**كيف تقرأ أفكار الآخرين** (من خلال حركات الجسم): تأليف: هنري كالرو - ترجمة :لجنة الترجمة في دار الفاضل.
٢٦- **قاموس تفسير الأحلام من الألف إلى الياء** (بالترتيب الهجائي): تأليف: هانس كورت - ترجمة: د. أنطون الحمصي.
٢٧- **خفقات قلب**: تأليف: دانييل ستيل - ترجمة: ميشيل خوري.
٢٨- **النظريات الاقتصادية في التنمية** : تأليف :إلسا اسيدون - ترجمة: د. مطانيوس حبيب.
٢٩- **السياسيون والتنجيم** (قصة الرئيس فرانسوا ميتران مع العرّافة): تأليف: إليزابيت تيسييه - ترجمة: ميشيل خوري
٣٠ - **عين واشنطن** - خفايا أكبر عملية تجسس في نهاية هذا القرن - تأليف: فابريزيو كالفي و تييري بفيستر - ترجمة ميشيل خوري.
٣١ - **حبّ كبير - «تيتانيك» -** تأليف: دانييل ستيل - ترجمة: ميشيل خوري.

* * *

يصدر قريبا

١ - النعمة المشتركة (ولادات) تأليف: دانييل ستيل - ترجمة: ميشيل خوري.
٢ - **أسرار المفاوضات الإسرائيلية العربية ١٩١٧ - ١٩٩٧**: في جزأين - تأليف شارل أندرلين- ترجمة :صباح الجهيّم.
٣ - **تاريخ الجاسوسية العالمية** - منذ رمسيس الثاني حتى وقتنا الحاضر - تأليف: جينوفيفا إيتيين وكلود مونيكييه - ترجمة مروان بطش.

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Zeth_Griffin

April 2009

Zeth_Griffin@yahoo.com

Zeth_Griffin



